

السُّلطة السَّوداء

الدَّولة الإسلاميّة واستراتيجيّة الإرهاب

كريستوف رُويتر

ترجمة

محمد سامي الحبال

السلطة السوداء

الدولة الإسلامية واستراتيجيو الإرهاب

" لقد أنجز كريستوف رويتر، الصحافي الألماني الذي فاز بجائزة أفضل صحافي لعام 2015 في ألمانيا، عملاً يمكن وصفه بكتاب تأريخ لحقبة حسّاسة في تاريخ المنطقة؛ فقد اعتمد على الحقائق والوقائع التي جمعها طيلة سنوات، بالإضافة إلى المقابلات التي أجراها، والبحث المتعمّق في بحر الكتب وعالم الإنترنت... و إيضاح الأمور التي لا يراها [المهتم] الموجود في خضم الحدث."

مقدمة المترجم

" يبقى الكتاب وثيقة تاريخية مهمّة تؤرّخ لمرحلة غامضة من تاريخ المنطقة، كما تجعل منه مرجعاً لا غنى عنه لكل باحث في هذا الموضوع."

موقع الجزيرة نت

" يستند هذا الكتاب إلى كمية هائلة من الوثائق.. لقد نجح رويتر بذكاء ثاقب في تلخيص هذه الأدلّة [وتحويلها] إلى كتاب مثير."

صحيفة فرانكفورتر الجماين تسايتونغ الألمانية

السعر:
44 ريالاً قطرياً - 12 دولاراً
ISBN: 978-9927-103-60-5
9 789927 103605

منتدى العلاقات العربية والدولية

هاتف: 44080451 974+ فاكس: 44080470 974+ صندوق بريد: 12231
الموقع الإلكتروني: fairforum.org البريد الإلكتروني: info@fairforum.org
العنوان: مبنى رقم 28، المؤسسة العامة للحي الثقافي (كتارا)، الدوحة، قطر

السلطة السوداء

«الدولة الإسلامية»

واستراتيجيو الإرهاب

بسم الله الرحمن الرحيم

كريستوف رويتر

السلطة السوداء

«الدولة الإسلامية» واستراتيجيو الإرهاب

ترجمة

محمد سامي الحبال

منتدى العلاقات العربية والدولية

Original title: Die schwarze Macht. Der "Islamische Staat" und die Strategen des Terrors
By Christoph Reuter

عنوان الكتاب: السلطة السوداء
«الدولة الإسلامية» واستراتيجيو الإرهاب
المــؤلـــــف: كريستوف رويتر
ترجـــمـــــة: محمد سامي الحبال
352 صفحة - 16.5 × 24 سم.
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: 334/ 2016
الرقم الدولي (ردمك): ISBN: 978-9927-103-60-5

الطبعة الأولى 2016.

المحتـــويـــات

كلمة المترجم

لقد أنجز كريستوف رويتر، الصحافي الألماني الذي فاز بجائزة أفضل صحافي لعام 2015 في ألمانيا، عملاً يمكن وصفه بكتاب تأريخ لحقبة حساسة في منطقة الشرق الأوسط، وفق أسس صحافية؛ فقد اعتمد على الحقائق والوقائع التي جمعها طيلة سنوات، بالإضافة إلى المقابلات التي أجراها، والبحث المتعمق في بحر الكتب وعالم الإنترنت. كما يجد القارئ مقارنات من تاريخ المنطقة قام بها الكاتب بهدف إيضاح ملابسات بعض الأمور، التي لا يراها الشخص الموجود في خضم الحدث.

قد يتفق القارئ أو لا مع إسقاطات أو استنتاجات الكاتب فيما يتعلق بربط نشأة «الدولة الإسلامية» بمرحلة الإسلام المبكر. لكن من المهم الاستماع لجميع وجهات النظر في هذا الخصوص، ربما للحصول على صورة أشمل، أو لإعادة النظر في بعض الأمور أو – ببساطة – لمعرفة كيف ينظر الغرب إلى المنطقة ودينها. ولكن، سواء اتفقنا مع الكاتب أم عارضناه، تبقى الأفكار المعروضة في الكتاب مثار اهتمام لإعادة تقييم الذات. وأنا شخصياً (المترجم) لا أتفق مع كل مع أورده الكاتب في أن نهج «دولة الخلافة» يشبه نهج النبي محمد أو النهج الإسلامي عموماً، فلو كان الدين الإسلامي شبيهاً «بدولة الخلافة» لما وصلتنا أمهات الكتب الإغريقية والغربية، ولما عرف الغرب فلسفة أرسطو وسقراط وغيرهما، فالعلم هو آخر هم «الدولة الإسلامية»، كما سيظهر لاحقاً في الكتاب.

في نهاية المطاف، ورغم أهمية الكتاب من حيث الوقائع والأدلة والمقارنات، إلا أن أهميته تكمن أيضاً في أنها تستعرض وجهة نظر الغرب عموماً للمنطقة والدين الإسلامي. ربما كانت النقطة الثانية هي الأهم، فينبغي للقارئ العربي أن يدرك

كيـف ينظر الغـرب إليـه وإلى منطقته وعقيدته، هـذا من ناحية، ومـن ناحية أخرى يتعـين على القارئ العـربي أن يعتاد على تقبل النقد، بخاصـة في الأمور التي يعتبرها مـن المسـلمات. ومن هذا المنطلق، فمـن المفيد أن ينظر المرء إلى الأمـور من منظور لم يألفه سـابقاً، ويسـمع قصته يرويها طرف غير معني بها، فللحقيقـة أوجه أخرى إذا اختلفت زاوية الرؤية. لذا يعد كتاب السلطة السوداء إثراءً مهماً للمكتبة العربية، إذ يسرد الوقائع بعيون غربية.

ومـع أن المؤلـف ذكـر أن هـذا الكتاب الذي بـين يديكم هو كتـاب لحظي، وقد تكتشف في السنوات القادمة أمور تؤكده أو تدحضه؛ إلا أنه يبقى كتاباً توثيقياً يؤرخ مرحلـة مهمة من تاريخ المنطقة بشـكل موضوعي، بعيداً عن كتـب التاريخ المألوفة التي يكتبها المنتصرون.

محمد سامي الحبال

مقدمة

الحسابات الاستخفافية لطالبي السلطة

نحن نرى ما نعرف. ولقد خدمت توقعاتنا «الدولة الإسلامية». لكن خلف ظاهر التعصب المتحجر هناك كائن متحول ومرن لأقصى الدرجات، وأذكى من جميع سلفه السابقين.

من 42 زعيماً في «الدولة الإسلامية» قُتل أو أُسر 34 «في الأيام التسعين الماضية»، حسب تصريح لا يخلو من الفخر للجنرال راي أوديرنو، مستعرضاً ما تم إنجازه في الحرب ضد الإرهاب في بغداد. ثم أكمل رئيس هيئة الأركان الأمريكية المشتركة مايك مولن من قاعدة أندروز الجوية بولاية ميريلاند: أرضية التنظيم «مدمرة».[1] بدا وكأن الأمريكيين مبهورون بمشروع الجهاديين المتغطرس: «الذين يسعون إلى إفشال الحكومة العراقية بشكل كامل»، حسب أوديرنو، «إنهم يريدون إقامة دولة الخلافة في العراق.» بدا وكأن هذا المشروع آيل إلى الزوال، فأصحابه الآن مخترقون وبلا قيادة ومكشوفون، ومقاتلوهم مطاردون حتى آخر نقطة في البادية الغربية في العراق. هكذا كانت الصورة في يونيو/ حزيران 2010.

بالفعل، فحتى ذاك التاريخ كان المتطرفون الذين كانوا يسيطرون على مساحات شاسعة من أراضي غربي العراق، مكروهين من قِبل الناس الذين يخضعون لسلطتهم. وكانوا مطاردين، ليس فقط من قِبل القوات الأمريكية والجيش العراقي، بل أيضاً من قِبل مجالس الصحوات المكونة من العشائر السنية، التي ضاقت ذرعاً بإرهاب المتطرفين المتعطشين لسفك الدماء وترويعهم. لقد كان الاسم الطنان لـ

"الدولة الإسلامية" متناقضاً بشكل سوريالي مع المساحة التي تسيطر عليها، بل مع كيان "الدولة" المتضائل عموماً.

لكن أوديرنو، قائد القوات الأمريكية المحنك في العراق، كان حذراً من الإفراط في السعادة: "القاعدة في العراق"، وهو الاسم القديم للتنظيم، "أثبت صلابته. سيحاولون إعادة هيكلة أنفسهم من جديد. لقد أعلنوا عن بعض الأسماء، لكننا لا نعلم إذا كانت لأشخاص حقيقيين أم وهميين." كان أحد تلك الأسماء حينها: أبو بكر البغدادي.

في عام 2010 تم تقويض "الدولة الإسلامية" وأصبحت خلية إرهابية تعمل في الخفاء، لكن هذه الدولة عادت بعد أربع سنوات كتجسيد عالمي للرعب، وبالفعل: كدولة. وحتى وإن كان ذلك مطعوناً في صحته، كانت "الدولة الإسلامية" في مطلع عام 2015 تسيطر على أكثر من خمسة ملايين شخص، وعلى مساحة تعادل مساحة بريطانيا. يتزعم هذه الدولة أبو بكر البغدادي، "أمير المؤمنين"، الذي أطلق على نفسه لقب "خليفة" في أواخر يونيو/ حزيران 2014.

ولكن، كيف يمكن لتنظيم متطرف فاشل ومضيق الخناق عليه، لا يمتلك سلطة ولا موارد تذكر ولا دعماً ولا متعاطفين، أن يحقق كل هذه الانتصارات؟

تختلف محاولات التفسير تبعاً للمفسرين: فالخبراء في شؤون تنظيم القاعدة يرون أن داعش انشق عن القاعدة، ويتوقعون أن يشن في أية لحظة هجوماً هائلاً يضاهي هجمات 11 سبتمبر/ أيلول 2001. أما المحققون الجنائيون فيعتبرون داعش عبارة عن عصابة مافيا هدفها جني أكبر قدر ممكن من الأرباح الدنيوية.(2) في حين يرى باحثو العلوم الإنسانية العكس تماماً، مشيرين إلى الأحكام الدينية التي يصدرها القسم الإعلامي في داعش، وإلى تمجيد الموت والعقيدة، بهدف نشر رسالة إلهية.(3)

لكن بالرؤى الدينية وحدها لا يسيطر المرء على مدن وأنصاف دول. كما أن الإرهابيين اللاعقلانيين، الذين يركزون على ضخامة تفجيراتهم فقط، لا يؤسسون دولة. بالمقابل، ليس بمقدور تنظيم ما كسب أنصار من شذاذ الآفاق في جميع أنحاء

العالم، والطلب من آلاف منهم أن يتخلوا عن ممتلكاتهم ليأتوا إلى «دولة الخلافة» وإلى الموت.

لكن عندما يتعلق الأمر بجوهر الانتماء الديني تكشف هذه المنظمة الإرهابية عن أبرز وجوهها المتعددة. في صيف 2010 ما إن تنبأ الجنرال راي أوديرنو، بتفاؤل مشوب بالحذر، بأن دائرة القيادة المتهالكة في "الدولة الإسلامية" ستواجه أوقاتاً عصيبة، حتى تولت القيادة مجموعة صغيرة من ضباط سابقين في جهاز المخابرات والجيش. لقد كانوا من الكادر السابق لنظام صدام حسين، الذين سنراهم في السنوات القادمة يحققون انتصارات داعش. وخلف ستار شعار إقامة دولة إسلامية وهيئة الأمير الصوري أبي بكر البغدادي وضع هؤلاء القادة الجدد آلية لتوسيع نفوذهم، لكي يكسبوا رويداً رويداً المزيد من الأنصار والعتاد والأرض، بشكل لم تسبقهم إليه أية منظمة إرهابية أخرى. للوهلة الأولى يبدو هناك تناقض بين هذا المزيج المكون من بعثيين (سابقين) وجهاديين: فحزب البعث، الذي كان يحكم رسمياً في العراق، كان علمانياً، على عكس الإسلاميين. لكن المبدأين التقيا في نهاية المطاف بعدما توصلا إلى قناعة أن حكم الناس ينبغي أن يكون في أيدي نخبة محددة، لا تخضع للمحاسبة العامة مطلقاً، فهي تحكم بهدف تحقيق مخطط كبير، يستمد شرعيته بشكل انتقائي إما من الله أو من أمجاد التاريخ العربي.

لفترة من الزمن بقيت "الدولة الإسلامية" شبكة إجرامية، تجمع إتاوات في العراق، وتقتل من يرفض الدفع أو تفجر متجره، وكان المال يذهب لتمويل الاعتداءات الإرهابية، بخاصة في بغداد. كانت هذه الشبكة كبيرة بشكل يسمح لها ببث الرعب في النفوس، لكنها أصغر من أن تتجرأ على خوض صراع مفتوح. إلى أن سنحت الفرصة للتخلص من الصبغة القديمة: إذ بدأت الانتصارات الحالية لـ"الدولة الإسلامية" بشكل سري، عندما توجهت في عام 2012 فرقة استطلاعية صغيرة من قياداتها إلى سوريا، لتنمو هناك وتصبح قوة غير متوقعة في غضون سنة واحدة. لقد كانت الفرصة مواتية في هذا البلد، فقد مزقته الحرب الأهلية، وهناك عدد كبير من فصائل متمردة مختلفة تحارب نظام الطاغية بشار الأسد. هذه الظروف شكّلت أساساً

لصعود "الدولة الإسلامية"، لتصبح أقوى منظمة إرهابية في العالم. علماً أنه في البداية لم تعول "الدولة الإسلامية" في بسط سطوتها على الإرهاب، ولا على تقبل الشعب السوري لها. ثمة أمر حاسم لتنامي قوة لا مثيل لها كهذه، لم يتبادر إلى أذهان منظري الجهاد المشهورين، الذين تعد كتبهم "إدارة التوحش" أو "جهاد بلا قيادة" مراجع جهادية: لقد كانت خطة "الدولة الإسلامية" شاقة جداً وتستغرق شهوراً، يتم خلالها اختراق المشهد الفوضوي للمتمردين في الشمال السوري والتجسس عليهم، بحيث يتم التودد إليهم في البداية، بهدف ضربهم بلا هوادة لاحقاً.

عدم لجوء مفكري تنظيم القاعدة الاستراتيجيين إلى هذه الخطة في السابق، لم يكن بسبب عجزهم عن ذلك. بل لأن حالة الفوضى العارمة لم تجتح أية دولة عربية قبل عام 2011. لقد كان رواد مفكري الإرهاب ينطلقون دائماً من مبدأ أنه يجب أولاً دفع الدولة أو النظام القائم إلى الانهيار، لكي يتمكنوا من بناء إمبراطوريتهم على أنقاضها. ولكن اعتباراً من عام 2012 لم يعد هناك وجود للدولة في أجزاء واسعة من شمال سوريا، بل أصبح الوضع عبارة عن تجاور بدائي لعشرات الفصائل المتمردة والمجالس المحلية، التي تقاتل نظام بشار الأسد – وأحياناً تتقاتل فيما بينها أيضاً. صحيح أن نظام المؤسسات في الحرب الأهلية السورية كان يعمل بشكل أفضل، كما كُتب لاحقاً، لكنه بقي لا مركزياً، وبالتالي عرضة للخطر.

تكمن المفارقة في أن صعود "الدولة الإسلامية" لم يكن ممكناً لولا ثورة الناس في سوريا – وقبلها في تونس ومصر وليبيا – على الديكتاتورية والاضطهاد. لقد وضع الناس أرواحهم على أكفهم، وانتفضوا دون قيادة مركزية، وحتى دون برنامج واضح عما ينبغي أن يحدث بعد الإطاحة بالأسد. لقد استخف السوريون بالثمن الذي قد يدفعونه جراء انتفاضتهم. من خلال هذا الواقع بدأت تنحسر الديكتاتورية، فنشأت مساحات استوطنتها "الدولة الإسلامية"، كما تستوطن الطفيليات الحيوانات المضيفة تماماً. وكما سيظهر في الفصل الأول لاحقاً، انتهزت العقول المدبرة في "الدولة الإسلامية" الفرصة التي أتيحت أمامهم في سوريا للتغلغل خلسة في البلاد، وبدأوا خطوة بخطوة بتوسيع نفوذهم. وقد ساعد "الدولة

الإسلامية" في ذلك نفس ضباط المخابرات السورية، الذين أسهموا قبل سنوات في تسهيل مرور متطرفين من جميع أنحاء العالم عبر سوريا إلى تنظيم القاعدة في العراق.

من المبالغ القول إن "الدولة الإسلامية" هي صنيعة أجهزة استخباراتية، كما تزعم المعارضة السورية. لكن بالمقابل، فإن الادعاء أن الجماعة الإرهابية كانت، قبل زمن طويل من اندلاع الانتفاضة في سوريا، تحظى بدعم جهاز المخابرات في نظام الأسد، فهناك كثير من الأدلة القاطعة من تحقيقات جهات حكومية أمريكية، وكذلك من شهادات سوريين منشقين وجهاديين تائبين، ومن الوثائق، وكذلك سير المعارك. هذا التعاون الضمني بين "الدولة الإسلامية" والنظام السوري، والذي سيُسلط الضوء عليه في الفصل الثاني بشكل أوفى، كان يعود بالفائدة على الطرفين، لدرجة أنه يمكن القول، إن صعود "الدولة الإسلامية" في سوريا كان طوق النجاة للرئيس بشار الأسد بعد عام 2011: إذ انصب كل الاهتمام الدولي على محاربة جيش "الدولة الإسلامية" الإرهابي، بينما واصل النظام السوري قصفه للمدنيين واستخدام الغازات السامة والإبادة الجماعية للمعتقلين، ولم تعد تلك الممارسات تسترعي الاهتمام، فقد أصبح الأسد أهون الشرين.

وبنفس الأسلوب الرزين والمحسوب، الذي أنشأت به "الدولة الإسلامية" شبكتها المخابراتية، سارت على نهج سياسي. ومرة أخرى كانت الحقيقة منافية تماماً لمضمون رسالة "الدولة الإسلامية". فحسب الصورة التي رسمتها لنفسها تقاتل "الدولة الإسلامية" أعداءً حدد الأئمة المتشددون هويتهم قبل نحو 1400 عام: إنهم الكفار، ومن ضمنهم أيضاً جميع الطوائف الإسلامية "المرتدة" في نظر "الدولة الإسلامية"، مثل الشيعة. لكن على أرض الواقع، كانت قيادات "الدولة الإسلامية" تتصرف بكثير من المرونة والانتهازية، عندما يتعلق الأمر بمن ستهاجم ومع من ستتحالف. في الفصل الثالث والرابع والخامس سيرى القارئ كيف ذهبت قيادات "الدولة الإسلامية" إلى عقد تحالفات تكتيكية ومتغيرة بسرعة، وعندما تأتي اللحظة المناسبة كانوا ينقلبون على حلفائهم: ففي البداية قاتل الجهاديون إلى جانب المتمردين السوريين بين الحين والآخر، بحيث بذلوا الجزء الأكبر من

طاقاتهم لتوسيع سلطتهم في مناطق المتمردين، بما في ذلك أيضاً ضم عدد كبير من الجهاديين الأجانب في صفوفهم (الفصل الثالث). بعدها، وعندما لم تتوصل الجماعات السورية المعارضة إلى اتفاق مع "الدولة الإسلامية" وبدأت بمحاربتها اعتباراً من شهر كانون ثاني/ يناير 2014 (الفصل الرابع)، صب الجهاديون جام غضبهم على تلك الجماعات، ففي غضون أسابيع قليلة شن انتحاريوهم هجمات على المتمردين، فاقت تلك التي شنوها قبل عام مضى على جيش نظام الأسد. الآن بدأت "الدولة الإسلامية" مرحلة التعاون غير المبرر مع نظام بشار الأسد (الفصل الخامس). واعتباراً من مطلع عام 2014 حاربت كتائب "الدولة الإسلامية" في سوريا إلى جانب الجيش السوري ضد العدو ذاته – المتمردين السوريين. لقد غض سلاح الطيران السوري الطرف عن قصف مواقع سيطرة داعش، بالمقابل طلب أمراء داعش من مقاتليهم عدم توجيه أسلحتهم إلى جنود الجيش السوري.

في شهر حزيران/ يونيو 2014 عادت "الدولة الإسلامية" إلى العراق، منبتها الأول، وقد أصبحت ذا جبروت. وكما سيرد في الفصل السادس، اجتاحت طلائع داعش مدينة الموصل العراقية وكل الجزء الشمالي الغربي من البلاد تقريباً، وغنمت كميات هائلة من أسلحة الجيش العراقي، ثم هاجمت لاحقاً المناطق الإيزيدية والمسيحية في شمالي العراق.

بعد هذا الغزو بدا جيش "الدولة الإسلامية" فجأة مجهزاً بشكل جيد وقوي هناك، لدرجة أن التنظيم لم يعد بحاجة إلى أن يقيم اعتباراً لشركاء الأمس في سوريا وفي العراق. بعد ذلك ومن خلال سلسلة من الهجمات المباغتة انقلبت كتائب داعش على جيش الأسد، ودون سابق إنذار أنهت في مطلع شهر آب/ أغسطس 2014 اتفاقية التهدئة الضمنية مع الأكراد في شمالي العراق – بعد أسابيع من التحضيرات السرية وبمساعدة منشقين من المناطق التي تعرضت للهجوم.

من خلال متابعة هذه الانتصارات السريعة لـ "الدولة الإسلامية"، يظهر أنها تتعامل وفق مبدأ: أن "الدولة الإسلامية" قامت دوماً باستغلال الظرف بما يخدم

مصالحها. وحتى أواخر صيف 2014 كانت "الدولة الإسلامية" تتصرف بروية وعقلانية، ولم تترك للصدفة ولا للأمل أو القيم الدينية أن تتحكم في مجرى الأحداث. قد يستغرب المرء فيما يتعلق بقضية الدين بالذات؛ نظراً لانتشار استخدام الإسلام في ترويج لـ "الدولة الإسلامية" لنفسها. لكن الدين المتمثل بالقصص الدقيقة الواردة في القرآن ومرحلة الإسلام المبكر، وقصص إخضاع الكفار والمنافقين، والرايات السوداء المنتشرة حالياً، وتصريحات القسم الإعلامي في "دولة الخلافة" المقتبسة من القرآن - كان بالنسبة لـ "الدولة الإسلامية" أثناء فترة صعودها السريع مجرد واحدة من الوسائل الكثيرة للوصول إلى غايتها. إلى أي مدى تعتبر "الدولة الإسلامية" مشروعاً عقائدياً، وإلى أي مدى تتماهى أفعال داعش وأقواله مع القرآن؟ سيتم تسليط الضوء على ذلك في الفصل السابع.

وإذا كان سقوط الموصل يمثل ذروة انتصارات "الدولة الإسلامية" المذهلة، فإن الاستيلاء على مدينة سنجار ومحاصرة الجبل الذي يحمل الاسم نفسه، كما سيبين الفصل الثامن، تحول إلى رمز على فظاعة الجهاديين. فبعد أن استطاعت "الدولة الإسلامية" طيلة سنوات من التحضير للصعود دون أن يلحظ الرأي العام العالمي شيئاً، وتمكنت من تطبيق ذلك، استفاق العالم فجأة بسبب طرد الإيزيديين من سنجار وسبيهم وقتلهم، وأدان تلك الأفعال. الأمر الذي ولد ضغوطات أجبرت الولايات المتحدة وقوى أخرى على التدخل - حتى وإن أظهرت حالة الإيزيديين أن مقاتلي حزب العمال الكردستاني هم المنقذون الحقيقيون عند الضرورة.

حتى إن فشلت "الدولة الإسلامية" في سنجار: فإنها نجحت في إبراز اسمها كرقم صعب بفضل غزواتها حتى صيف عام 2014. فقد أعلنت الدولة عن حقها في فرض "شرع الله" على كل متر مربع تسيطر عليه. وبناءً عليه لم تعد "دولة الخلافة" مجرد وهم أو حلم لواضعي قنابل يائسين. لقد بات بمقدور المرء السفر لساعات عبر أراضي "الدولة الإسلامية". أما طبيعة التأثير الهائل لذلك على الأنصار وذوي الميول العدوانية في جميع أنحاء العالم، فقد انعكست في جميع الهجمات والاعتداءات التي لا علاقة مباشرة لها بداعش - ولكنها نجمت بسبب تغير المناخ،

وبسبب تنامي الشعور بوجود تفويض لذلك من المشهد الإسلامي العالمي. ستتم في الفصل التاسع دراسة الدعاية المدوية والبارعة لـ "الدولة الإسلامية". وفي المقابل، سيصف الفصل العاشر الحياة في "الدولة الإسلامية" باستفاضة. غير أن معرفة ما يجري خلف الواجهة التي يقدمها داعش أمر مستحيل تقريباً بالنسبة للصحافيين. فقط عن طريق شبكة وثيقة من المصادر والمخبرين، الذين يعيشون منذ فترة طويلة تحت حكم داعش، يمكن الحصول على نظرة صادقة، تساعد على تعريف ما يعنيه حكم هذه الدولة للمواطنين فعلاً، وكيف يتم تسيير أمورها وكيف يتم تمويلها.

إن النجاح الأكبر لـ "الدولة الإسلامية" المتمثل في السيطرة على مساحات شاسعة وإقامة "دولة الخلافة"، هو سلاح ذو حدين؛ لأنه يجعل من الجهاديين عرضة للخطر في الوقت ذاته. إذ أصبح للإرهاب عنوان الآن، وباتت مهاجمته ممكنة. ومنذ أن استُهلت الضربات الجوية ضد داعش، توقف تمدده. ولكن، كيف ستتعامل الولايات المتحدة والدول الغربية مع التحدي الذي يشكله داعش، وكيف سيكون رد فعل دول الجوار العربية تجاه التهديدات؟ هذا ما سيتناوله الفصلان الحادي عشر والثاني عشر. إذ سيُثار التساؤل حول المستقبل وقدرة "الدولة الإسلامية" على البقاء.

ما يثير الدهشة هو استمرار الاستخفاف بانتصارات داعش، التي لم يسبق لها مثيل. إذ يكتب المعلقون متأملين أن ينصرف رعايا "الدولة الإسلامية" عن التنظيم الإرهابي نظراً للوضع المعيشي المتردي. ولكن، إلى أين سيتوجهون في ظل اتساع رقعة التجسس عليهم، والرقابة الصارمة، ونزع السلاح الواسع النطاق من قِبل داعش؟ يكرر السياسيون الأمريكيون باستمرار ضرورة إعادة تشكيل الميليشيات السنية التي كانت موجودة في السابق، والتي حدت من انتشار القاعدة في العراق قبل نحو عقد من الزمن. وفي أثناء ذلك لم يتوصل البرلمان العراقي حتى شهر شباط/ فبراير 2015 إلى اتفاق حول إمكانية حدوث ذلك – وفي الوقت ذاته تقتل فرق الإعدام التابعة لداعش بشكل ممنهج القادة المحتملين لتلك الميليشيات أو تفرض سطوتها على عشائرهم.

إن الحقيقة المتمثلة في أننا نقيّم تشكيلات مثل "الدولة الإسلامية" عن بُعد في الغالب، يؤدي إلى التضليل وسوء التقدير. فعلى مدى سنوات تشكلت في الغرب صورة ثابتة عن الإرهاب المتأسلم، لدرجة أن هذه الصورة النمطية منافية للواقع، بحيث لا تمت إليه بأية صلة. علماً أن التقارير الإخبارية عن "الدولة الإسلامية" تنوه إلى أن قياداتها اعتباراً من عام 2010 تتألف حصرياً تقريباً من ضباط سابقين في المخابرات العراقية، وكوادر سابقة في حزب البعث إبان حقبة صدام حسين. لكن التحول الهائل الذي طرأ جراء هذا الاستيلاء الفعلي لمهندسي السلطة العلمانيين على جماعة متطرفة، يتم إهماله تماماً في الأخبار المتعلقة بداعش. وإذا ما قمنا بتجزئة صعود داعش السريع اعتباراً من عام 2012 إلى خطوات منفصلة، كما سنرى في الفصول المقبلة، فسنكتشف استراتيجية دقيقة وشديدة المرونة لمنظمة اعتمدت التطرف كوسيلة للتعبئة، وسنكتشف كذلك كيفية تبدل التحالفات النفعية حتى مع الأعداء المعلنين، والتعامل مع ذلك كله بعقلانية شديدة. الظاهر أن داعش نجح بسهولة في الجمع بين العناصر المتناقضة، وكانت "الدولة الإسلامية" تتأقلم على الدوام مع المتغيرات الجديدة في محيطها، فكانت تظهر وكأنها فايروس مُتحول.

ذات الكيان كان قد ظهر في السنوات الماضية بأشكال مغايرة تماماً: كجماعة إرهابية منعزلة، كشبكة تجسس واسعة النطاق ذات صبغة باهتة، كجيش مجهز جيداً، يسحق مناوئيه بهجمات مجلجلة وانتحاريين. وأخيراً منذ منتصف عام 2014، واستناداً إلى النصوص المقدسة، قدم هذا الكيان نفسه على أنه مرجعية سلطة نهائية، تحكم بما أنزل الله. وإن معارضة هذه الإرادة الإلهية هي جريمة يُعاقب مرتكبها بالموت – حسبما تعلن "الدولة الإسلامية"، فهي تعتبر نفسها سلطة الله التنفيذية.

يستعرض هذا الكتاب "الدولة الإسلامية" بمجملها، بجميع أوجهها وأشكال طفراتها. وهو يرسم نشأتها والمنظمات التي انبثقت "الدولة الإسلامية" عنها ومراحل التحول التي مرت بها، كما سيكشف الكتاب اللثام عن الأشخاص الذين يقفون وراءها، وخططوا بدقة لصعود "الدولة الإسلامية" وانتظروا اللحظة المناسبة لتنفيذ خطتهم. تكتيك التحول الدائم، والتكيف السريع مع الظروف المتغيرة،

وتبدل التحالفات بشكل انتهازي، كل ذلك يمثل السمة المميزة التي تجعلنا نفهم صعود "الدولة الإسلامية" كسلطة مهيمنة على أجزاء واسعة من سوريا والعراق.

لذا سيحاول هذا الكتاب إلقاء نظرة قريبة قدر الإمكان على "الدولة الإسلامية" وجعل ظروف صعودها مفهومة - في العراق، في سوريا، في لبنان، وفي مناطق الحكم الذاتي في إقليم كردستان. ومن المفهوم أن تنتشر "الدولة الإسلامية" كقوة عسكرية في العراق في عام 2014. ولكن الأمر المذهل والذي يكشف مسوغات ذلك هو صعودها قبل ذلك في شمالي سوريا: إذ كيف نجحت فرقة استطلاعية عراقية صغيرة مؤلفة من جهاديين زائرين في تشكيل كوادر لها من العدم. كما أنه لم يسبق لأية حركة جهادية قبل ذلك أن نجحت، أو حتى حاولت، اتباع منهج القمع الاستعماري في بلد غريب بالاستعانة بأجانب من تونس والشيشان وبلجيكا ودول عديدة أخرى.

من الممكن تتبع سيرورة هذا الصعود بدقة بالغة في مناطق عديدة في شمال سوريا. ومن خلال مئات المقابلات، التي أجراها الكاتب على مدى عامين ونصف، سيتبين أن هذا الصعود كان مخططاً له تماماً. وعلاوة على ذلك، يمكن إثبات ذلك من خلال العديد من الملفات الحصرية التي عُثر عليها، والتي جرى تقييمها للمرة الأولى من أجل هذا الكتاب، ومن بينها عشرات الرسومات البنيوية بخط اليد عن إقامة الدولة والتي وضعها أحد أهم مهندسي "الدولة الإسلامية".

في الوقت الحاضر يمكن أن يكون هذا الكتاب مجرد لقطة لحظية، فالمستقبل لا يزال مجهولاً. حتى وإن تمكن الكتاب من التنبؤ بالخطوات الاستراتيجية لـ "الدولة الإسلامية" على وجه التقريب، إلا أن التطور الفعلي يكتنفه كثير من الغموض. لكن التعمق في نشأة "الدولة الإسلامية"، ذات الصعود المتسلل تارةً، والخاطف تارةً أخرى، هو أمر لا غنى عنه، لكي يفهم المرء الطبيعة المعقدة ونقاط القوة والضعف لهذا التنظيم الجديد، والذي يعيد تجديد ذاته مراراً.

لأن "الدولة الإسلامية" تجاوزت كونها أخطر تنظيم إرهابي في العالم. لقد أصبحت سلطة، أظهرت قدراتها في مجالات متعددة بشكل غير مسبوق، على الصعيد

العسكري والاستخباراتي والإعلامي. إنها "مشروع شمولي وتوسعي ومهيمن"، كما يلخصها فولكر بيرتيس، مدير المعهد الألماني للشؤون الدولية والأمنية في برلين. ولم تعد هناك قواسم مشتركة كثيرة تجمع "الدولة" مع أسلافها، مثل القاعدة، سوى التسمية الجهادية. فقد تلاشت الصبغة الدينية لدى داعش من حيث الجوهر، سواء في أسلوب التعامل أو التخطيط الاستراتيجي أو تبدل التحالفات اللاأخلاقي أو الأشرطة الدعائية المدروسة بدقة. والدين، في أقصى أشكال تطرفه، هو مجرد واحدة من الوسائل الكثيرة التي تلجأ إليها "الدولة" لتحقيق مآربها. لكن المبدأ الثابت الوحيد لـ "الدولة الإسلامية" هو: تمدد السلطة مهما كلف الثمن.

فيما يتعلق بالمصطلحات

نادراً ما لجأت منظمة تُولي أهمية كبيرة للدعاية وصورتها العامة، مثل «الدولة الإسلامية»، إلى تغيير اسمها بشكل متكرر. ففي عام 1999 ظهرت المجموعة الأصل تحت مسمى «جماعة التوحيد والجهاد». وهي التسمية التي أطلقها الأردني أبو مصعب الزرقاوي على مجموعته المقاتلة التي كانت في معسكر في غربي ولاية هرات الأفغانية. وبعد الإطاحة بحركة طالبان وجد الزرقاوي وأتباعه موطئ قدم لهم في العراق. مع بداية تحالف مصالح مع تنظيم القاعدة أصبح اسم جماعة الزرقاوي «تنظيم قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين»، والتي تغير اسمها بعد عدة أشهر من مقتل الزرقاوي في عام 2006 إلى «دولة العراق الإسلامية». عندها تحول هذا الاسم إلى مشروع: فمن الآن فصاعداً سيحاول التنظيم إقامة دولته داخل حدود وطنه، الذي كاد حتى عام 2010 أن يغرق في أتون التشكيلات الإرهابية. إن انتقال القيادة إلى ضباط استخبارات سابقين وعصابات مافياوية سرية، حققت ثراءً بسبب الابتزاز وفرض الإتاوات، انتقال القيادة إلى هؤلاء الضباط ساعد «دولة العراق الإسلامية» على العودة الدراماتيكية: فبعد أن أصبح للتنظيم تواجد في الشمال السوري كما خططت قياداته العسكرية، تمت في شهر نيسان/ أبريل 2013 توسعة التسمية لتصبح «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وقد عُرف التنظيم اختصاراً

بـ«داعش»، وهي كلمة تبعث على الاشمئزاز، فـ«داعش، الاسم الذي يبدو مناسباً جداً لغول في إحدى الخرافات التي كنا نسمعها صغاراً»، كما يرى المثقف السوري ياسين الحاج صالح المطارد من قبل أتباع هذا الغول. حتى إن كل من يلفظ هذا الاختصار كان يُجلد بقسوة إذا سمعه الدواعش، كما يُطلق على أتباع هذا التنظيم. وكانت كلمة «الدولة» هي الاختصار الوحيد المسموح به من قبل تنظيم الملثمين المرعبين الموشحين بالسواد. لكن الناس لم يلتزموا بتلك القواعد، بل على العكس: أصبح يُطلق على الجنود الأطفال اسم «دعدشي»، وعلى الكوادر النسائية اسم «داعشية»، بل إن الناس ابتكروا فعلاً بصيغة ا المطاوَعة «اندعش»، يطلقونها على من يتعرض للضرب من الدواعش!

وحتى بعد أن أعلنت «الدولة الإسلامية» في 29 يونيو/ حزيران 2014 عن قيام «دولة الخلافة» العالمية، وحذفت اسمي البلدين، بقي الاسم الشائع لها «داعش».

لكن، ماذا ينبغي أن يُسمى التنظيم خارج العالم العربي؟ قرر وزير الخارجية الفرنسية لوران فابيوس اعتماد اسم «داعش» رسمياً: «لا أنصح باستخدام مصطلح «الدولة الإسلامية»؛ لأن ذلك سيمحو الخط الفاصل بين الإسلام والمسلمين من جهة، والإسلاميين من جهة أخرى.» أما وزارة الخارجية الألمانية فتستخدم اختصار «IS»، في حين يستخدم البنتاغون أحد الاسمين «ISIS» و«داعش». وطلبت مجموعة من الأئمة في بريطانيا من رئيس الوزراء ديفيد كاميرون اعتماد اسم «الدولة غير الإسلامية». كما أطلق مسلمون حملة على تويتر بإطلاق هاشتاغ NotInMyName# (ليس باسمي) كاحتجاج منهم على اختطاف داعش لمصطلح «إسلام».

إن هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ ليس بياناً، بل محاولة لتقديم استقراء دقيق قدر الإمكان عن نشأة هذا التنظيم المرعب واستراتيجياته وتناقضاته.

1

دولة الخلافة المخابراتية

الصعود المخطط بدقة لـ "الدولة الإسلامية"

لا أحد يعلم بالضبط الهوية الحقيقية للرجل الذي خطط لانتصارات الجهاديين في مدينة صغيرة في شمالي سوريا. بقلم حبر جاف رسم مهندس الإرهاب على الورق عشرات القوائم ومخططات الهياكل التنظيمية - واضعاً الخطة الرئيسة الشاملة لـ "الدولة الإسلامية".

كان منعزلاً، مهذباً، مجاملاً، شديد الانتباه، منضبطاً، مخادعاً، غامضاً، خبيثاً. وعندما يستذكر الرجال في مناطق شمال سوريا المختلفة لقاءه بعد أشهر لاحقة، يصفون أوجهاً مختلفة تماماً للرجل. لكنهم متفقون على أمر واحد: «لم نكن ندري إطلاقاً مَن الذي كان يجلس أمامنا.» وذلك على مختلف الأصعدة. فهوية الرجل الفارع صاحب الوجه المربع الذي كان في أواخر عقده الخامس، لم يعرفها حتى أولئك الذين أطلقوا النار عليه أثناء اشتباكات في أحد أيام شهر كانون ثاني/ يناير 2014 في منطقة تل رفعت. لم يكونوا يدرون أنهم قتلوا العقل المدبر لـ "الدولة الإسلامية" - وقد حدث أمر كهذا أساساً، بسبب حسابات خاطئة لهذا المخطط البارع نادراً ما تحدث، ولكنها كانت قاتلة. في بادئ الأمر وضع المتمردون المحليون جثته في ثلاجة الأموات المعطلة تمهيداً لدفنه، قبل أن يُخرجوا الجثة من الثلاجة مجدداً بعد أن أدركوا مدى أهمية هذا الرجل.

سمير عبد محمد الخليفاوي كان الاسم الحقيقي لذاك الرجل، الذي خففت لحيته البيضاء شيئاً من هول منظر معالم وجهه ذي العظام البارزة. لكن، لم يكن أحد يعرفه بهذا الاسم. حتى اسم حجي بكر، اسمه المستعار الأكثر شهرة، لم يكن يعرفه إلا قلائل. في أواخر 2012 ظهر العراقي في محيط مدينة حلب، عاصمة سوريا الاقتصادية في الشمال، والتي كانت تدور على مشارفها معارك طاحنة اعتباراً من صيف ذلك العام. وما إن سيطرت كتائب المتمردين المختلفة على المعابر الحدودية القريبة، حتى بدأ جهاديون أجانب يتدفقون بشكل مستمر عبر الحدود التركية. وقبل فترة من ذلك كان حجي بكر متواجداً هناك، وهو واحد من كثيرين تربصوا بانتظار هذا الفراغ السوري، بحيث كانت سلطة بشار الأسد تنحسر وتتبدد حتى في أصغر المناطق. وعوضاً عن ذلك، لم تتشكل هناك سلطة جديدة، بل سلطات كثيرة. وبالنسبة للعراقيين الذين جاؤوا إلى سوريا فقد كانوا قلة، ولم يظهر على حجي بكر أنه مقاتل، أو أنه يطمح لزعامة إحدى كتائب المتمردين، التي ظهرت العشرات منها في تلك الأيام. الرجل المسن، الذي كان كثير التنقل، كانت لديه نوايا مبيتة مختلفة تماماً: لقد كان يريد إقامة دولة – هدفها حكم العالم.

أمر كهذا ليس سهلاً أبداً

لقد قضى حجي بكر، أحد كوادر حزب البعث السابق، عقداً من الزمن تقريباً وهو يحاول خلق سلطة تجابه الظروف الجديدة التي سادت العراق، بحيث لم يعد للنخبة السابقة دور يذكر في البلاد. كان حجي بكر عقيداً سابقاً في مخابرات القوات الجوية في جيش صدام حسين، وكانت من بين المهام الغريبة الموكلة إليه وضع خطط لإنقاذ الطيارين في حال سقوط طائراتهم المقاتلة، قبل الإطاحة بصدام حسين وإصدار مرسوم بحل الجيش. بعدها توارى حجي بكر عن الأنظار. ومن أجل محاربة الأمريكان شارك في تأسيس "جيش البعث"، الذي لم يدم طويلاً، ليحط بعدها الرحال في تنظيم القاعدة، كما يتذكر الباحث المختص بالجماعات المسلحة هشام الهاشمي، والذي كان يعرفه قبل الإطاحة بصدام: "في الأنبار"، وهي محافظة

في غـربي العـراق، "تعرف عـلى أبي مصعب الزرقـاوي"، المؤسـس الأردني لتنظيم "قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين". كان حجي بكر يخدم في قاعدة الحبانية الجوية مع ابن عم الهاشـمي، ولم يكن متشـدداً أو منظراً إيديولوجياً. بل كان يشعر بمرارة لأنه سُرح من الخدمة وأصبح بالشـارع بجرة قلم بسيطة من قِبل الحاكم الأمريكي باول بريمـر. علاوةً عـلى ذلك، كان حجي بكر قومياً حتى النخـاع، وكان يرى أنه ينبغي طرد المحتل الأمريكي من البلاد.

عندما شهدت الحرب الأهلية العراقية تصعيداً، انضم حجي بكر إلى الزرقاوي. وراح يقاتل الغالبية الشيعية التي تسلمت مقاليد الحكم الآن، فقد كان يبغضها أكثر مـن الأمريـكان. وابتداءً من عام 2006 انضمت حركتـه إلى المخطط الطموح – أو الواهـم – بإقامة "الدولة الإسـلامية"، التي اتخذت من "دولة العراق الإسـلامية" اسماً لها. كان هدف الخطة إعادة صياغة الأمة على الأسس التي وضعها النبي محمد، والتـي حققـت فتوحات سريعة لا مثيل لها وتوسـعت لتصبـح إمبراطورية عظيمة. دولة من هذا القبيل، كما كان حجي بكر يتخيلها، يمكن أن تنشأ من قصص التاريخ والأسـاطير. دولة تلبي تطلعات جميع المسـلمين المحبطين والمظلومين والساخطين، ويمكن أن تمثل الخلاص الإلهي لهم.

وقـد سـبق لآخريـن أن أقدموا على محاولات مشـابهة: مثل أسـامة بـن لادن أو الإخوان المسلمين أو عشرات الجماعات الجهادية الصغيرة أو الحركات الوطنية مثل حركة طالبان – جميع هؤلاء كانوا في نهاية المطاف يسـعون بدرجات متفاوتة لإقامة تلك الدولة. وجميعهم أخفقوا لسبب أو لآخر: فحركة طالبان فشلت بسبب إرهاب ضيوفها من تنظيم القاعدة، والآخرون فشلوا بسبب قصورهم، ولم يستطيعوا بسط نفوذهم سـوى على مناطق محدودة ولفترة قصـيرة من الزمن، قبل أن يتم دحرهـم – مثل جماعة أنصار الإسـلام في شـمال العراق في عام 2003، ومجموعة فتح الإسلام في مخيم نهر البارد في شـمال لبنان في عام 2006، وطلبة المدارس القرآنية المتشـددين في المسجد الأحمر في إسلام آباد في عام 2007.

إخفاق بعد آخر. أحد تلك الإخفاقات كان حجي بكر طرفاً فيه. ففي عام 2010 تعرضت القاعدة في العراق إلى ضربة قاصمة، كادت تنهي جميع زعاماتها. لكن حجي بكر نجا. يقول سجين سابق في سجن صيدنايا السوري، الذي فيه كان يتم اعتقال السجناء الإسلاميين وبخاصة العائدين من العراق: "ظهر حجي بكر في تنظيم القاعدة، لكن معظم الإسلاميين الحقيقيين لم يكونوا يثقون به -فهو في النهاية كان قيادياً في حزب البعث، كان ضابطاً ذا رتبة عالية، حليق الذقن، وأحد رجالات صدام، باختصار: لقد كان واحداً من الذين كانوا يعتقلون الإسلاميين. إضافة إلى ذلك، لم يصدق أحد أنه أصبح متديناً فجأة." لكنه كان بارعاً في أمور أخرى، كما يقول الهاشمي: "لقد كان مخططاً ولوجيستياً موهوباً بالفطرة، ومنظَماً جداً، ومتقد الذكاء." في ذات الوقت لا تفتقر القاعدة إلى المنظرين الإيديولوجيين. إن كان المتشددون الدينيون يفتقرون إلى شيء على الدوام، فقد كان ينقصهم مهندسو الإرهاب، إن جاز التعبير. مهندسون لا يعتمدون أثناء تنفيذ عملية ما - كالهجمات التفجيرية أو تحرير سجناء - على الإيمان النابع من الدين، بل على إعداد دقيق وحكيم. رجال من هذا النوع تحتاجهم أيضاً الكيانات الإرهابية الدينية المتطرفة.

نادراً ما كان زعماء التنظيم الإرهابي يجتمعون في مكان واحد، وغالباً ما يتواصلون مع بعضهم عبر طرق معقدة وآمنة، ولا يعرفون عن بعضهم إلا الشيء اليسير. لقد كان حجي بكر مسؤولاً عن الاتصالات مع الدائرة المحيطة بعزة الدوري، الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس، تلك الشخصية التي لم يكن لها دور قيادي قبل الغزو الأمريكي في عام 2003. لقد كان الدوري صديق شباب صدام حسين، وكان مطيعاً وخانعاً له، وقبل انشغاله بالسياسة عمل ببيع ألواح الثلج. لكن الدوري كانت له صلات مع أصحاب الطريقة النقشبندية في عهد النظام السابق، والتي خرج منها فصيل عسكري صوفي قاتل القوات الأمريكية. كما أن عزة الدوري كان بعد الإطاحة بصدام حسين الشخصية القيادية الوحيدة التي لم يتم اعتقالها.

ما بين عامي 2006 و 2008 كان حجي بكر معتقلاً في سجن أبو غريب سيئ الصيت، وفي معسكر الاعتقال الأمريكي سجن بوكا في الجنوب العراقي. بعد ذلك راح يتردد على سوريا بين الحين والآخر، وسكن في منزل بالقرب من دمشق، ويقال إنه التقى بين عامي 2008 و 2010 مرة واحدة على الأقل آصف شوكت، الذي كان رئيس الاستخبارات العسكرية وصهر بشار الأسد -ومنسق عمليات النقل السرية للجهاديين من جميع أنحاء العالم عبر الأراضي السورية إلى العراق. ترقى حجي بكر ليصبح أحد القادة العسكريين في "دولة العراق الإسلامية"، المسؤول عن محافظة الأنبار. ثم أصبح القائد العسكري بعد أن عينه زعيم "دولة العراق الإسلامية" أبو أيوب المصري. ولكن، عندما طوق الأمريكان أبا أيوب وأبا عمر البغدادي (خليفة الزرقاوي اسمياً) في مطلع عام 2010، وفضل الاثنان أن يفجرا نفسيهما على أن يستسلما، كان حجي بكر هو الذي عين خلفاً لزعيم التنظيم الراحل: لقد وقع اختياره على أبي بكر البغدادي، كما يسمّى، وهو أحد المقربين الموثوق بهم بالنسبة لحجي بكر، ويعرفه من الفترة التي قضاها في الأنبار. كما رشح حجي بكر (كما ذكر أحد أتباع "دولة العراق الإسلامية" في تلك الفترة) بقية أعضاء المجلس الأعلى، وضمن لهم حصولهم على موافقة الآخرين. وفي وقت لاحق اختفى ثلاثة رجال دون أن يظهر لهم أثر، وذلك بسبب معارضتهم له.

بدا أن المجموعة المتبقية من القادة القلائل (بعد أن قُتل معظم القادة تدريجياً على أيدي القوات الأمريكية والعراقية)؛ قررت الإقدام على خطوة لم تكن مألوفة سابقاً بالنسبة للمتشددين الإسلاميين: ألا وهي التعلم من أخطاء الماضي. وقد تمثلت باستخلاص العبر من النكسات والمحاولات الفاشلة التي مرت في العقود الأخيرة، وكانت الخطة هي بسط سلطتهم على أي بقعة في العالم باسم الجهاد، ومن ثم التشبث بتلك البقعة كنقطة ارتكاز.

لهذا الغرض توجه حجي بكر إلى سوريا من جديد، لكن هذه المرة كجزء من فرقة استطلاعية صغيرة لتطبيق خطة جنونية: وهي تشكيل جيش تحت إمرة قيادات عراقية، من المقاتلين الأجانب الذين راحوا الآن يتدفقون إلى سوريا. وقد راعى

المخططون في هذا التصميم الالتفافي الطموح أمراً كان بالنسبة لهم في غاية الأهمية: عدم لفت الانتباه. فكانت أوامر حجي بكر واضحة بهذا الشأن، والمتمثلة بأن يبقى المقاتلون العراقيون في "دولة العراق الإسلامية" في مواقعهم، في الموصل وتكريت والحويجة، حيث معاقل السنة الناقمين على حكومة بغداد، بسبب اعتمادها سياسة فصل عنصري صارمة، فمناصب الوزراء والضباط والمسؤولين كانت من نصيب الشيعة، وهو ما أثار سخط السنة، الذين يشكلون حوالي ثلث السكان، وكانوا حكام البلاد على مدى عقود طويلة عهد صدام. ولكن من الصعب فعل شيء بالعراق، فالدولة العراقية لا تزال قائمة، والجماعات المسلحة المختلفة غير موحدة لكي تجابه هذه الدولة.

طوال العقود الماضية كان الفشل ملازماً للجهاديين في وصولهم إلى سدة الحكم في بلدانهم. ففي العراق، صحيح أنه منذ عام 2003 قام المحتل الأمريكي بحل الجيش والحكومة والمؤسسات بجرة قلم، لكنه في ذات الوقت أحبط كل محاولة لاحقة لاستيلاء تنظيم القاعدة على السلطة. كما أن كل حركات الأصوليين في مصر وليبيا وسوريا باءت بالفشل في السنوات الثلاثين الأخيرة. لكن في سوريا الآن، على الأقل في الشمال، تم القضاء على سلطة الدولة المسيطرة حتى آخر فلولها، ولم يعد لها وجود. وحلت بدلاً منها مئات المجالس المحلية وكتائب المتمردين، في تجاور فوضوي، ولم يعد أحد يدري ما الذي يجري. هذه الحالة من الانفلات شكلت أرضية مناسبة لمشروع يتطلب رؤية دينية مفرطة، أو رؤية كلبية، أو كليهما.

في سوريا، توجه حجي بكر وبقية الكوادر القيادية المبعوثة في بادئ الأمر، كما يتضح من إحداثيات جهازه الملاحي، إلى السهوب الشرقية في محافظة الحسكة، التي لا تخضع للرقابة، وتفتقر إلى الكثافة السكانية. ولكن، لإخضاع سكان تلك المنطقة عسكرياً كان ينقص كل ما يلزم لذلك: الرجال والسلاح، وقبل كل شيء الدراية بالمكان. وبدأ التحري عن خصوصيات المنطقة: مَن يمكن أن ينضم إلى "الدولة الإسلامية"؟ ومَن سيبقى عدواً لها مهما حدث؟ مَن يمتلك شخصية كاريزمية، مالاً، مناصب قيادية غير رسمية؟ وأين كان يسكن أولئك الأشخاص؟

يجب على الجهاديين أن يلمّوا بكل ذلك قبل الخوض في أمور أخرى. فهم لديهم المال الذي جمعوه منذ سنوات مع شبكة وثيقة للابتزاز في الحاضرة التجارية الموصل، المدينة التي تعد معقلاً لهم. كما لديهم الخطة، التي بدأ حجي بكر برسمها ورقة بورقة، وتحديد الخطوات الصغيرة المبدئية للاستيلاء على السلطة. فالآن لم تعد هناك عوائق، بل باتت الطريق ممهدة أمامهم.

شمال سوريا في مطلع 2013، كان عالماً مدمراً يصعب فهمه على الدوام. في أحد أيام شهر كانون ثاني/ يناير كانت السماء ملبدة بالغيوم الماطرة، وكان الطقس متقلباً جداً. إلى الشمال من حلب تقع مدرسة المشاة العسكرية، والتي بسط المتمردون سيطرتهم عليها قبل عدة أيام فقط. على زاوية الجدار، حيث صورة بلاطية كبيرة لبشار الأسد أزيلت بالمطارق، جلست عائلة عند تقاطع الطريق: رجل وامرأة وثلاثة أطفال، وبضع مراتب للنوم، وحقائب، ووعاء بلاستيكي فيه زيتون. أكثر شيء يلفت الأنظار كان قفص عصفور وفي داخله عصفور كناري رمادي داكن اللون. لقد بدا منهكاً تماماً. يمكن القول إن السنة بدأت بعصفور كناري أسخم.

"كنا نتدفأ في الأسابيع الماضية على المازوت السيئ والبلاستيك فقط." يعتذر الرجل عن حالة العصفور المزرية، "إنه الدخان ...". لقد جاؤوا من حي صلاح الدين في حلب، الذي تحول في أواخر صيف العام الماضي إلى خط جبهة أمامي، فهربوا إلى قرية قريبة من مدرسة المشاة. والآن تُقصف القرية من قِبل المدفعية بعيدة المدى من شرقي المدينة. فواصلوا نزوحهم، حتى مفترق الطريق هذا، حيث تركتهم السيارة التي أقلتهم، والآن يأملون أن تمر سيارة أخرى قبل أن تنهمر الأمطار ثانية. وعدهم أحد الأشخاص أن يرسل لهم سيارة تقلهم بعيداً. بدأ رذاذ المطر بالهطول، وفجأة لاحت شاحنة نقل صغيرة من بعيد، ثم حملت أمتعتهم وانطلقت، لم يكونوا يدرون إلى أين هم ذاهبون.

شمال سوريا بأكمله، محافظة حلب والمدينة التي تحمل نفس الاسم، طبيعة الهضاب الأخاذة في إدلب وسهوب الرقة والحسكة، وصولاً إلى دير الزور في الشرق،

كلها أصبحت وكأنها تعيش في حقبة العصور الوسطى: لا يزال الجيش يسيطر على بعض المدن، حوّل القصف أجزاء منها إلى أنقاض، أما بقية الأجزاء فقد أصبحت خليطاً يجمع كتائب المتمردين المحليين والمجالس المحلية، ومع أنها لا تتناحر فيما بينها، إلا أنها نادراً ما اتحدت مع غيرها من خارج مناطقها أو محافظتها. ووسط الاضطرابات العاصفة بسبب كثرة المعارك وقصف المدن والقرى، هام مئات آلاف النازحين على وجوههم، كحطام سفينة تتلاطمه الأمواج. كانوا يمكثون حيث تهدأ الأوضاع قليلاً، ثم يواصلون فرارهم عندما يداهمهم الخطر، مطاردين دائماً من القصف غير المبرر لطائرات سلاح الجو السوري، التي ما كانت تترك منطقة تنعم بالسلام لعدة أشهر، إلا ريثما تعاود قصفها بشكل مفاجئ.

لقد كان الوضع من المفارقات الغريبة المروعة، ففي خضم الفوضى تشكلت مجالس محلية في كل منطقة يسيطر عليها المتمردون في الشمال، وهي عبارة عن لجان لملء فراغ السلطة – بينما، بالمقابل، كان سلاح الطيران يدمر البنية التحتية يوماً بعد يوم. لقد قُصفت أنابيب مياه الشرب، وكذلك صوامع الحبوب والمشافي والدوائر الحكومية والمدارس. وفي مدينة منبج ذات الـ 150 ألف نسمة، والتي بدأت بالإدارة الذاتية قبل عام كأول مدينة كبيرة في الشمال، جُمعت سجلات المحكمة كافة وعقود الزواج ووثائق السجل العقاري، ونُقلت إلى الريف. "إنقاذ الدولة من الدمار على يد الحكومة"، كما أسماه أحد محامي لجنة القضاء. وفي حلب، هذه المدينة التي كان يعيش فيها الملايين والتي شهدت معارك عنيفة، أصبح مئات الآلاف يعيشون بلا كهرباء، وعلى بُعد بضعة أمتار يجلس أناس على الرصيف أمام نار خافتة. استغرقت الإجابة عن السؤال البسيط "من يسيطر على حلب؟" مدّة من الزمن. "لواء التوحيد"، أكبر مجموعة من الكتائب المسلحة للمتمردين، "مجلس المدينة، وتجمع المحامين السوريين الأحرار، ولجان الأحياء، المحاكم، واتحادا الأطباء وجبهة النصرة"، الجماعة المتشددة، كما عدّد رأفت الرفاعي، أحد منظمي مجلس المدينة الانتقالي، "وفي الوقت ذاته يمكن القول: لا أحد يحكم. ما يضمن تماسك حلب هو العقد الاجتماعي بين سكانها. إنه الاحترام المتبادل والقدرة على عقد التسويات.

أقلـه خلال المرحلـة الراهنة"، ثم يحكي عن الخوف من المتطرفين الإسـلاميين، ذاك الخوف الذي كان ينتاب كثيرين حينها. فعدد المتطرفين في ازدياد، لا سـيّما أن لديهم المال الذي لم يكن يعلم أحد مصدره.

لا أحـد يحكم المدينة، على الأقـل ليس بالطريقة التي كان يفهمها حجي بكر عن الحكم. لقد سادت حالة فوضى متقلبة، يمكن وصفها أنها كانت أكثر تمدناً مما كانت عليه ديكتاتورية الأسد أو مشروع حجي بكر، لكنها كانت رائعة أيضاً.

المـال المريب، الـذي كانت تُمول منه جبهـة النصرة، أو على الأقل القسـم الأكبر منـه، كان مصـدره حجي بكر. واعتباراً من شـهر تشريـن ثاني/ نوفمبر 2012 كان مسـؤولاً لمدة نصف عام عن تأمين السـلاح والمال لجبهة النـصرة في حلب. لقد قام بتزكيتـه أحـد العراقيـين، كما قال أحد عنـاصر جبهة النصرة لاحقـاً: "لديه خبرة في الإشراف والإدارة. يمكنكـم الوثـوق به!" لا شـك أن الرجـل كان محقاً في الأولى، لكنـه غـير محق في الثانية. في بادئ الأمر أمد جبهـة النصرة بأهم عنصرين ضروريين بسهولة، المال والسـلاح. علماً أن المال كان هو الأمر الحاسم، فالذخيرة والأسلحة، وحتـى المعـدات الثقيلـة، كان شراؤها ممكناً: مـن المتمردين الآخريـن ومن العراق ومن لبنان – وبشـكل مباشر من الضباط المرتشين في الجيش السوري.[1] كان الجزء الأكبر من التمويل يأتي من العراق ومن أموال تنظيم دولة العراق الإسلامية، الذي يجنـي الملايين عن طريق ابتزاز الناس بالإتاوات وفرض الرسـوم، بخاصة في مدينة الموصل، الحاضرة الاقتصادية.

وابتـداءً من خريف عام 2012 أصبح للمتطرفـين الأجانب موطئ قدم في عدة مناطق في سـوريا: في أعـزاز وتل رفعت في محافظة حلب، وفي مدينة حلب نفسـها، وفي الميادين على نهـر الفرات في أقصى الشرق بالقرب من الحدود العراقية. لقد بقوا منعزلين على أنفسـهم، ونادراً ما كانوا يختلطـون بمقاتلين آخرين، بل كانوا ينتقلون إلى أحد المنازل، أو مزرعة دجاج مهجورة، ويقيمون هناك ببساطة. «كما أننا لا نعلم مـاذا يفعلون»، كما قال رجل في الميادين في شـهر كانون أول/ ديسـمبر 2012 وهو

يهز كتفيه: «إنهم غريبو الأطوار. لكنهم لا يفعلون شيئاً.» كانوا يريدون نشر الدعوة الإسلامية فقط. هكذا كانوا يقولون على الأقل. وكانوا أحياناً يزعمون أنهم ينتمون إلى جبهة النصرة، كما هو الحال في حلب، وفي مناطق أخرى حيث كانوا لا يطلقون على أنفسهم أية تسمية، بل كانوا يقولون عن أنفسهم إنهم «إخوة»: جاؤوا للقتال في سبيل العقيدة الحقة. كما حدث في الميادين. وآخرون أطلقوا على أنفسهم اسم «المهاجرون»، أسوة بهجرة النبي محمد مع أصحابه من مكة: والذي دخل مكة بعد أعوام منتصراً، ونشر الدعوة الجديدة فيها أولاً، ومن ثم في مناطق شاسعة. لكن هذا الحافز الرومانسي في جوهره، أن يترك المرء كل شيء خلفه من أجل أمر اختاره الله والذهاب إلى بلد غريب، لم يكن المهاجرون يراعونه حقاً في غالب الأحيان، ولم يكن يعنيهم كثيراً. وعندما يُسألون عن سبب مجيئهم، فكان أول جواب دوماً: «من أجل الجهاد». وبعد ذلك بفترة قصيرة ظهرت فكرة غامضة عن إقامة دولة إسلامية. لكن عندما يتابع المرء التساؤل عن كيفية الانتقال من مرحلة القتال إلى مرحلة الدولة، كانت الإجابات واحدة: هذا الأمر لا يعنيكم، هكذا كان يقول القادمون الجدد. أو: ستتدخل مشيئة الله، ومهمتهم هي تمهيد الطريق فقط.

لقد كان هؤلاء المهاجرون المتشددون يمتلكون بُعد نظر استراتيجي مثل الخلد. أحياناً يقابل المرء في مقاهٍ ومطارات في جنوب تركيا عائدين محبطين، يشتكون بمرارة من جحد السوريين لما قدموه لهم. بذات الكلمات تقريباً يروي تونسي ومغربي وداغستاني: "لقد هجرنا كل شيء في أوطاننا، وتركنا بيوتنا وعملنا لنقاتل في سوريا من أجل إعلاء الإسلام الحق وهداية الناس هناك إلى الطريق القويم. ولكن ماذا يفعل السوريون؟ إنهم لا يقدرون تضحياتنا البتّة!" لقد نسي أولئك الغرباء أن السوريين مسلمون أصلاً. أو ربما لم يخبرهم أحد بهذه الحقيقة.

يتطلب الأمر دافعاً قوياً لكي يترك المرء كل ما يملك وراءه دون أن تكون هناك ضرورة إلى ذلك، وأن يذهب إلى القتال في بلد آخر، لا يربطه به شيء أبداً حتى ذلك الحين. لكن أحداً من جنود الجهاد هؤلاء لم يفصح عن سبب واحد لتوجهه الآن للقتال في سوريا دون سواها، وعن الدور الذي يريد أن يسهم به في إقامة

الدولة الإسلامية – سوى مطامع حكم هذه الدولة. لقد كانت طريقة تفكير منغلقة لطائفة، لا يتقيد أتباعها بأقرانهم وشعائرهم – بل يحاولون باستمرار إخضاع مزيد من المناطق لسيطرتهم.

الأمر الغريب في هؤلاء الرجال كان التناقض: عندما يكونون فرادى كان معظم المهاجرين يبدون مضطربين وعدوانيين ووجدانيين – لكن أكثر ما يميزهم أنهم كانوا بلا هدف. ولكن كانت هناك مساكن إيواء مركزية، حيث أُنشئت معسكرات تدريب عسكرية بالقرب من قرية أطمة الحدودية ومدينة دارة عزة. لم تكن تلك المعسكرات تابعة لأية جماعة متمردة، ولا حتى لجبهة النصرة – لكنها كانت معسكرات شديدة التنظيم ولم يكن رجالها يتحدثون إلى الصحافيين. لقد جاء المهاجرون من السعودية وتونس وتركيا والقوقاز والجزائر وأوروبا. لكن بالكاد كان هناك مهاجرون من العراق، ولا حتى في معسكر الميادين، الذي يبعد مسافة ثلاثة أرباع الساعة بالسيارة عن الحدود السورية العراقية. ومع ذلك فإن العراقيين القلائل الذين يلتقي بهم المرء لم يكونوا جهاديين، بل أرادوا القتال «ضد الطاغية، من أجل الحرية»، كما أعلن واحد منهم باختصار. من هذه الناحية كان الأمر غريباً، عندما كانت أجهزة الاستخبارات الغربية تزعم دوماً أن جبهة النصرة فرع من تنظيم «دولة العراق الإسلامية». لكن أين كان العراقيون؟

فيما بعد اتضحت الصورة. إذ حظر حجي بكر بشكل صريح مجيء مقاتلين من بلاده إلى سوريا. فمن ناحية لم يكن يريد أن يقلل من شأنهم، ومن ناحية أخرى، كان يريد أن يتجنب خروج كادره عن السيطرة. فالسيطرة كانت أهم شيء بالنسبة لـ "الدولة الإسلامية".

وفي خضم صخب الحرب جلس «حاكم الظل»، كما سماه أحد رجال النصرة، في بلدة تل رفعت الوديعة، وراح يكتب. لقد رسم الجهاز الإداري للدولة وصولاً إلى المستوى المحلي، وأعد قوائم للتغلغل غير الملحوظ في القرى، وحدد المسؤوليات، من يجب أن يراقب من. وبقلم حبر ناشف رسم على ورقة رسائل تُسلسِل إصدارَ

الأوامر في جهاز استخباراتي. كانت الورقة التي خطها حجي بكر، من دفتر وزارة الدفاع السورية، ربما كانت صدفة على الأرجح، وفي رأس ورقة الرسالة طُبع: مؤسسة الإسكان العسكرية. مخطط حجي بكر وما تبعه من تنفيذ متقن بشكل ملحوظ في الأشهر التالية، لم يكن وثيقة دينية، بل خطة موضوعة بدقة من الناحية الفنية "لدولة استخبارات إسلامية". دولة خلافة مخابراتية.

بدأت خطة إخضاع شمال سوريا بذات التفاصيل المتبعة لباقي المناطق: فتحت ذريعة "فتح مكتب للدعوة"، يتعين ضم أتباع مطيعين وأذكياء من كل قرية. وينبغي اختيار شخص أو اثنين من الدعاة والخطباء الدينيين، لكي يتوليا مهمة التجسس على قريتهما حتى في أدق التفاصيل. ولأجل ذلك أعد حجي بكر قائمة بهذا الخصوص:

- قم بإحصاء العائلات المتنفذة.
- قم بتسمية الأشخاص النافذين في هذه العائلات.
- حدد موارد دخلهم.
- اذكر أسماء وقوام الكتائب (المتمردة) في القرية.
- اجمع أسماء قادتها ومن يسيطر عليها وتوجهها السياسي.
- قم بتحديد نشاطاتهم غير الشرعية (حسب الشريعة)، بحيث يمكننا من خلالها ابتزازهم إذا اقتضت الحاجة.

إذا كان أحدهم مجرماً أو كانت له علاقة مثلية جنسية أو سرية، فيجب أن تُجمع عنه كل تلك التفاصيل لتُستخدم كوسيلة ضغط محرجة. "سنعين الأكثر ذكاءً شيوخاً شرعيين"، كما سجل حجي بكر، "ثم سندربهم لفترة من الزمن، وبعدها نقوم بإرسالهم." وأضاف كملحوظة، أن على العديد من هؤلاء "الإخوة" المختارين أن يحاولوا الزواج من بنات العائلات المهمة، "لضمان اختراق تلك العائلات من دون أن تعلم بذلك الأمر البتّة".

كان على فرق الاستطلاع أن تجلب أكبر قدر من المعلومات عن القرية المستهدفة: من يسكنها، من هو صاحب الكلمة العليا فيها، من هي العائلات المتدينة، ما هو مذهبها الديني، ما هو عدد المساجد، من هو الإمام، ما هو عدد زوجاته وأولاده وما هي أعمارهم؛ ما هو طابع خطبه، هل يميل إلى التصوف، أم يقف في صف المعارضة أو النظام وما هو موقفه من الجهاد؟ بعد ذلك: هل يتقاضى الإمام راتباً؟ إذا كان كذلك، فممّن؟ ولأي عائلات ينتمي هؤلاء الداعمون؟ هل يختارون الإمام أم يعينونه كوظيفة؟ وأخيراً: ما هو عدد الديمقراطيين في القرية؟ ينبغي أن يكون الخطباء العملاء كالموجات الزلزالية، يبحثون عن أصغر الشقوق وأقدم التصدعات في أعمق طبقات المجتمع، ويستغلون كل ما قد يمكن أن يخدم انقسامها وإذعانها.

في بعض القرى والبلدات مثل تل رفعت كان من الواضح أن عملية جمع المعلومات قد بلغت مراحل متقدمة. إذ تحتوي أوراق حجي بكر على قوائم لمخبرين محليين، معظمهم في مطلع العشرينات، ولكن هناك من هم في سن 16 أو 17 عاماً أيضاً.

كانت المخططات التي رسم فيها هيكل الإدارة في الدولة المستقبلية تحتوي على مجالات أخرى أيضاً، كالشؤون المالية والمدارس ورياض الأطفال والإعلام وقطاع النقل. لكن الأمر كان يتمحور دائماً حول موضوع جوهري، كان يتم تناوله بدقة في الهياكل التنظيمية والقوائم المتعلقة بالمسؤوليات والتقارير الإلزامية المقدمة: المراقبة، التجسس، الاغتيالات، عمليات الخطف. ففي كل مجلس شورى، وهو هيئة رقابية أو استشارية عامة وتعد بمثابة مرجعية إدارية مركزية، خطط حجي بكر أن يضم مجلس الشورى أميراً "للاغتيالات"، وأميراً للاختطافات، وأميراً للقنص، وأميراً للتواصل والتشفير، بالإضافة إلى أمير مهمته مراقبة الأمراء الآخرين – "في حال تقاعسوا عن أداء واجبهم". وبذا ستكون نواة هذه الدولة الدينية عبارة عن محرك شيطاني لبنية خلايا وقيادة، تنشر الرعب الشديد.

كانت الخطة منذ البداية أن تعمل الأجهزة الاستخباراتية بشكل موازٍ، حتى على مستوى المحافظة: فقسم الاستخبارات العامة يخضع للأمير "الأمني" في المنطقة، الذي يأتمر به معاونو أمراء في كل محافظة على حدة. كل واحد من أولئك الأمراء ينضوي تحت إمرته زعيم خلايا تجسس وكذلك "مسؤول استخبارات ومعلومات" في المنطقة. وقد كانت خلايا التجسس المحلية تخضع بشكل منفصل لمعاون أمير المحافظة. باختصار: الكل يراقب الكل.

أما المسؤولون عن السجون والاستجواب وكذلك عن تدريب القضاة الشرعيين في جمع المعلومات الاستخباراتية فقد كانوا منفصلين مجدداً ويخضعون لأمير المحافظة أيضاً، بينما كان هناك قسم مستقل "لضباط الأمن"، وهو قسم خاضع لأمير المحافظة مباشرة. وكان الدين مجرد وسيلة لتحقيق الغاية المتمثلة بهدف واحد: الرقابة والتجسس. حتى كلمة "تكوين"، التي استخدمها حجي بكر لإنشاء مسلمين حقيقيين، لم تكن كلمة دينية، بل مصطلحاً تقنياً يشير إلى تنفيذ شيء ما.(2)

لقد كان الأمر أكثر بساطة مما يبدو عليه: إذ عدّل سمير عبد محمد الخليفاوي، الملقب بحجي بكر، ما سبق ونشأ عليه: جهاز المخابرات الشامل لصدام حسين، الذي لم يكن أحد يأمن، ولا حتى ضابط مخابرات، من أنه يخضع للتجسس. «جمهورية الخوف»، هكذا وصفها الكاتب العراقي المنفي كنعان مكية في عام 1989 تحت اسم مستعار: إنها دولة يمكن أن يختفي فيها أي أحد ببساطة، تولى صدام حسين منصبه الرسمي فيها في عام 1979 باكتشاف مؤامرة وهمية. وانتهى المطاف "بالمتآمرين" المزعومين من قيادة الحزب بالإعدام رمياً بالرصاص – من قِبل بقية الكوادر القيادية. حتى الباقون على قيد الحياة آنذاك لم ينجوا من هذا المصير.

غير أن مصمم الدولة حجي بكر أولى أهمية كبيرة أيضاً لما يلي: لم يكن الأفراد مهمين، بل الوظائف. يجب أن يبقى استبدال أي شخص ممكناً. فكانت الخطة تقتضي أن يتم تعيين معاونين لمعظم المناصب. لم يكن الهيكل التنظيمي الذي وضعه

حجي بكر معنياً في الوقت الحالي بممارسات السلطة الدموية لطاغية متجذر، كما أنه لم يكـن معنياً أيضاً بالحفاظ على دائـرة القيادة الضيقة لجماعة إرهابية عالمية محمية من تسـلل العملاء الأجانب إليها – بل كان معنياً ببسـط السـلطة تدريجياً على البلدات السورية.

أثنـاء تغيير مـكان إقامته باسـتمرار كان حجي بكر يأخذ معـه أوراقه، التي كان مرسوماً على كل منها بعناية مربعات تشرح كل مهمة على حدة. كانت كلها منسوخة بعضها من بعض بواسـطة ورق الكربون الأزرق، وفيها خطة لإخضاع كل المناطق التـي لا تبـدي معارضـة فورية لهـذا الاختراق الهـادئ. مخططات حجـي بكر، التي تـم الاحتفاظ بهـا بعد موته وتُنـشر للمرة الأولى هنـا، يبدو أنها كانت تشـمل أيضاً المراحل المبكرة لأفكاره. وكانت هناك مسـودات مختلفة لبعض الرسومات: فأحياناً يتعين على "الأمير الأمني" لمنطقة معينة الإشراف على قسـم اسـتخبارات خاص به، بالتوازي مع "الأمير الأمني" للولاية، وأحياناً يتعين جمع الخلايا الاستخباراتية معاً على مسـتوى الولاية. وتارةً يتم تعيين "قاضٍ شرعي" للاسـتخبارات على مسـتوى المنطقة، وتارة بدونه.

لكـن الهـدف كان في البدايـة إيجـاد موطئ قـدم. وبنـاءً عليه، وكما تنـص الخطة بحذافيرهـا، تـم افتتاح مكاتـب للدعوة في كثير من القرى والمدن في شـمال سـوريا اعتبـاراً مـن مطلع عـام 2013. كانت تلـك المكاتب، توحـي بالـبراءة، مثلها مثل عشرات الجمعيات الخيرية الإسلامية التي افتُتحت في العقود الماضية في جميع أنحاء العـالم. إذ لـن يعترض أحد على نشر الدعوة، فالغطاء الديني هو الوسـيلة الأنسـب للتغلغـل. وهكـذا كانـت الخطـة بالضبـط. كان الهدف هـو إيجاد أرضية مشـتركة: التعرف على تركيبة المجتمع، دون أن يكسبوا كراهية الناس منذ البداية وخلق أعداء لهم، لا يمكن هزيمتهم بعد.

وهكـذا تـم افتتاح مكتب للدعوة في الرقة، "لكن لم يقولوا سـوى إنهم «إخوة»، ولم يأتوا على ذكر تنظيم دولة العراق الإسـلامية أو تنظيم القاعدة إطلاقاً"، حسـبما

يتذكر طبيب فرّ من المدينة. وكما حدث أيضاً في منبج، تلك المدينة الليبرالية الكبيرة في شمالي شرق محافظة حلب، حيث تأسس مكتب للدعوة في مطلع عام 2013. "لم ألحظه في البداية إطلاقاً"، تتذكر شابة ناشطة في الحقوق المدنية بعد هروبها في عام 2014، فضلت عدم نشر اسمها؛ لأنها لا تزال تمشي متخفية ومنقبة في المدينة: "كان بمقدور أي شخص أن يفتح ما يريد، لكن لم يخطر في بالنا أبداً أن هناك أحداً يهددنا غير النظام، وأن بإمكانه الاستيلاء على السلطة. لكن فقط لاحقاً، عندما اندلع القتال في كانون ثاني/ يناير علمنا أن داعش كان قد استأجر مسبقاً عدة منازل واستخدمها كأوكار لتخزين الأسلحة ولإبقاء الرجال بعيدين عن الأنظار."

في مناطق الباب وأعزاز والأتارب في المحافظة ذاتها سارت الأمور على نسق مشابه: في البداية إيجاد موطئ قدم لا يثير الشبهات، ومن ثم التوسع. يتذكر حايد حايد، باحث مهاجر في علم الاجتماع وهو من الأتارب: "عندما استأجروا المكتب في عام 2013، قالوا إنه لغرض الدعوة فقط، لكن منذ البداية كان يتواجد مسلحون فيه. لم يكن الأمر غريباً حينها. لكن في وقت لاحق حدثت عمليات قتل وخطف غامضة، وفي أغلب الأحيان كانت الجثة تظهر بعد عدة أيام على أطراف البلدة، وكان الجميع يخمنون من يقف وراء عمليات القتل. لكن عندما يسأل المرء داعش بشكل مباشر، كانوا يقولون دائماً إنهم لا يعلمون شيئاً، ولا علاقة لهم بالأمر."

تصدعات صغيرة في النسيج الاجتماعي كانت كافية لإخضاع بلدة كاملة للسيطرة التامة للدولة الإسلامية في العراق، بينما بقيت بلدة مجاورة مشابهة محصنة. هذا ما حدث في المدينتين الصغيرتين مارع وتل رفعت: تكاد إحداهما تبعد عن الأخرى عشرة كيلومترات في منطقة سهلية خصبة شمالي حلب، ومساحتهما متقاربة، وكلاهما محافِظتان، وغير معروفتين قبل اندلاع الثورة. لكن بعد أشهر قليلة من وصول طلائع الجهاديين الأوائل وافتتاح مكتب للدعوة، لم يكن عدد الجهاديين في مارع يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة فقط، وقد قيل لهم إنهم غير مرغوب فيهم هنا وعليهم الرحيل - بينما تحولت تل رفعت إلى عاصمتهم السرية في المحافظة،

تحـوي العديد من مقراتهم والمئات مـن المقاتلين، وفيها بيت سري، جعل منه حجي بكر مقراً رئيساً له.

كيف حدث ذلك؟ في الثمانينيات سافر كثير من سكان تل رفعت للعمل في دول الخليج، وقصد معظمهم السـعودية. وعندما عادوا إلى وطنهم، لم يجلبوا معهم المال فحسـب، لشراء منـزل خاص أو متجر، بل في بعض الأحيـان جلبوا معهم قناعات سلفية جديدة أيضاً، بالإضافة إلى صلات بالمتشددين. علاوة على ذلك كانت هناك بالقرب من المدينة 300 إلى 400 فيلا فارغة للاصطياف يمتلكها حلبيون ميسورون، والتـي أصبحت بدورها مقراً مثالياً للجهاديين الباحثين عن مسـكن لهم. وبمحض الصدفـة جاء إلى هنا في عام 2005 ضابط سـابق في الجيـش العراقي، في الفترة التي فرّ فيها عشرات آلاف القياديين السـابقين إبان حقبة حكم صدام. لم يقصد الضابط هـذه المدينة الصغيرة لسـبب معين، لكنه ما إن وصل إلى هنـا الآن، حتى راح ابتداءً مـن عام 2012 يعيد اتصالاته مـن جديد بوطنه الأم. وعندما بـدأ أوائل المتمردين المحليين بتنظيم أنفسـهم، نشـأت هنا العديد من الجماعات مرة واحدة. كانت البلدة غير خاضعة لسـيطرة أحد. "كانت تل رفعت مفتوحة لكل شيء ولأي شـخص"، يسـترجع أحد الناشـطين المحليين أحداث الماضي ممتعضاً، والذين فهموا فيما بعد ما الذي كان يجري في مدينتهم.

أمـا مدينة مارع المجاورة فقد كانت أقل رفاهية دائماً. فقلما توجه سـكانها للعمل في السـعودية. ولم تكـن فيهـا فيـلات للاصطيـاف، وبمحض الصدفـة كانت مارع مسـقط رأس عبد القـادر صالح، تاجر الحبوب الذي أصبح أبرع قائد عسـكري في صفوف المتمردين الذين حاربوا الأسـد في الشمال. كان صالح قائد "لواء التوحيد" الـذي قاد الهجوم على مدينة حلب في شـهر تموز/ يوليو 2012، وكان قوام لوائه في أفضـل أوقاتـه يصل إلى 20000 مقاتل. كان لواء التوحيد من مارع، وكان يسـيطر عـلى المدينـة. صحيـح أن تنظيم دولـة العراق الإسـلامية افتتـح مكتبـاً للدعوة هنا أيضـاً، وازداد عـدد أفـراده بسرعة فائقة مـن 8 أفراد إلى 30. ولكـن عندما حاولوا تجنيد مخبرين، وعندما تبين أنهم ضالعون في عملية اختطاف الصحافيين الفرنسـيين

ديديه فرانسوا وإدوار إلياس، "ذهبنا إليهم، وطردناهم"، كما وصف رجل الأعمال والمتحدث غير الرسمي باسم المنطقة، ياسر الحجي. "في بادئ الأمر لم يسمحوا لي بالدخول، لكنهم لا يستطيعون فعل أي شيء إزاء لواء التوحيد، فراحوا ينسحبون تدريجياً."

كما نشأت مكاتب للدعوة في محافظة إدلب المجاورة في مطلع عام 2013: في سرمدا وأطمة وكفر تخاريم والدانا وسلقين. في حال سارت الأمور على ما يرام وتوفر عدد كافٍ من "الطلاب"، الذين يمكن تجنيدهم كجواسيس محليين، كانت تتم عملية التمدد. كما حدث في الدانا، حيث تم استئجار عدة منازل أخرى ورُفعت راية تنظيم دولة العراق الإسلامية، إلى أن جاء وقت وُضعت فيه حواجز أمام المقر الرئيسي. وفي حال لم تسر الأمور كما ينبغي، كما هو الحال في سلقين، التي تُلقب منذ عقود بـ"موسكو الصغيرة"، حاول المتشددون أن يختبروا إلى أي مدى يمكنهم النيل منها. لأسباب صعبة الفهم كانت سلقين تعد معقلاً للشيوعية في البلاد، وكان عدد المحجبات فيها قليلاً جداً، وكانت بضعة أحزاب تترشح دوماً للمشاركة بانتخابات المجلس المحلي الثوري. استأجر تنظيم دولة العراق الإسلامية منزلاً كبيراً على أطراف مدينة سلقين. وكان يأوي في صيف 2013 قرابة 100 أجنبي، معظمهم تونسيون، لكن كان هناك أيضاً "الهولندي" وزوجته، وهو رجل هولندي أشقر اعتنق الإسلام. وفي أحد أيام الصيف كان الغرباء يتجولون في المدينة: "لتكسير كل النراجيل. فالتدخين من الموبقات"، كما روى في اليوم التالي شاهد عيان وفوقه سحابة من دخان النرجيلة. لكنهم لم يتمكنوا من فعل أكثر من ذلك: فعندما كسروا بضع نراجيل، اعترضتهم مجموعة من المتمردين المحليين، وصرخ قائد المجموعة في وجوههم: "عودوا إلى دياركم وإلا سنضع نراجيل عند كل نقطة تفتيش، ونسمح بالتدخين لكل من يريد، بما في ذلك النساء!"؛ فعاد الجهاديون أدراجهم.

كانت قيادة "الدولة الإسلامية" لا تزال تبدي مرونة آنذاك: ففي حال كانت المقاومة في منطقة ما كبيرة أو لم يستطع التنظيم تجنيد أنصار له، كان أفراده يغادرون من جديد. أثناء جولة بالسيارة في محافظة إدلب في بداية صيف 2013 كانت هناك

مقـرات كثيرة خاويـة. وكانت الرايات السـوداء لتنظيم دولة العراق الإسـلامية لا تـزال معلقـة على أبوابهـا، لكن الرجـال كانوا قد انسـحبوا فجـأة. وفي الدانا عندما اغتصب ثلاثة شبان طفلاً في التاسعة من عمره وحدثت اضطرابات في البلدة، أُلقي القبض على الفور على أحد الجناة من قِبل جماعته وزُعم أنه أُعدم.

لقد كان التنظيم يتبع أسـلوب المناورة باسـتمرار، خطوتـان إلى الأمام، وخطوة إلى الخلف. كان التنظيم يتمدد، ولكن دون المخاطرة بمواجهة مفتوحة، وكان يقوم بأعـمال الخطف والقتل "للأفـراد العدائيين"، ولكنه كان ينكـر كل جريمة يقترفها. تحـرك مـرن وعدواني، يتكيف بشـكل مثالي مع البيئـة المحيطة: لا يقـوم باعتداءات مدوية فوراً، تلفت الأنظار إليه، بل يتمدد في تسلل.

سـار كل شيء في هـذه المرحلة كـما كان مخططاً له. لكن عندمـا أراد تنظيم "دولة العراق الإسـلامية" دخول سـاحة الحرب بإثارة جلبة حوله، سـاءت الأمور أولاً. ففي التاسع من شهر نيسان/ أبريل 2013 ظهرت رسالة صوتية لأبي بكر البغدادي، زعيم تنظيم دولة العراق الإسـلامية: جبهة النصرة التي أنشـأها تنظيم دولة العراق الإسـلامية ودعمها بالرجال والمال، تخضع من الآن فصاعـداً لإمرة التنظيم. وجاء في كلمـة زعيـم التنظيـم: "آن الأوان لنعلن أمام أهل الشـام والعـالم بأسره أن جبهة النـصرة مـا هي إلا امتـداد لدولة العراق الإسـلامية وجزء منها"، وسـمى أبا محمد الجـولاني زعيـاً لجبهة النصرة.[3] إضافة إلى ذلك، واعتبـاراً من الآن أصبح للتنظيم اسـمه الخاص، وهو «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، وهو المصطلح التاريخي لسـوريا الكبرى، بما فيها لبنان. وعُرف التنظيـم اختصاراً بـــ داعش. لكن الرد جاء سريعاً على لسان الزعيم الغامض لجبهة النصرة الجولاني، الذي اكتفى هو الآخر بنشر رسـالة صوتية بُثت عبر مواقع الإنترنت قال فيها بصوت ممتعض: «إننا لم نُسـتشر»، و«إن قيـادات الجبهة ومجلس شـوراها والعبد الفقير المسـؤول العام لجبهة النصرة لم يكونوا على علم بهذا الإعلان سـوى ما سـمعوه من وسـائل الإعلام. وستبقى راية الجبهة كما هي لا يُغير فيها شيء. وستبقى الجبهة كما عهدتموها!»[4] باختصار: رفض بطريقـة فظة. ولضمان دعم من هيئة أعلى، اسـتغل زعيم النصرة هذه الفرصة لمبايعة

أيمن الظواهري، زعيم تنظيم القاعدة، الذي يقيم بين أفغانستان وباكستان. حتى ذلك الحين لم تكن جبهة النصرة قد حسمت أمرها فيما يتعلق بموقفها. ومرة واحدة أصبحت الآن محسوبة على تنظيم القاعدة.

خبر الخلاف الصريح بين التنظيمين وتقديم الولاء المفاجئ للقاعدة أصبحا يتصدران وسائل الإعلام في جميع أنحاء العالم. لكن في سوريا نفسها كانت إجابات أتباع جبهة النصرة في إدلب وحلب ودير الزور بعد الإعلان متطابقة تقريباً: لم يُعلمهم أحد من الجانبين، ولم يُستشاروا، وليست لديهم أدنى فكرة عما يجري تواً. «وهل أصبحنا القاعدة الآن؟»، يتساءل أحد أتباع النصرة مندهشاً. لم يكن أحد يعلم ما كان يحدث، ففي الأشهر التي سبقت المبايعة كانت جبهة النصرة ذات شعبية وعظم شأنها. لكن عامة الناس لم تكن تعرف سوى أميرها المحلي، ولم يكن لأحد اتصال مباشر بالقيادة، أو حتى من الذين ينتمون إلى هذه القيادة أساساً. لكن الوضع كان مختلفاً بالنسبة لبقية الجماعات المتمردة السورية. إذ كانت شخصية المؤسس أو الزعيم هي علامة مميزة لتلك الكتائب دوماً – بغض النظر عما إذا كانت جيدة أم سيئة. لقد تميزت هذه الفترة بغموض معالمها، وكان الخوف من الاختراقات كبيراً، كما تميزت هذه المرحلة بوجود شخصيات قيادية أصيلة لهذه المجموعات، معروفة السمعة والنسب والتوجهات. لكن الأمر لم يكن كذلك في جبهة النصرة.

فشلت المحاولة الأولى لأبي بكر البغدادي في الاستيلاء على السلطة بشكل مباشر. لكن حتى ذلك الأمر كان في الحسبان، فما حدث الآن بدا وكأن أحداً سحب البساط من تحت جبهة النصرة بغتة: ففي معظم المناطق بدل المقاتلون الأجانب الجبهات على حين غرة، في تل رفعت كانت نسبتهم تسعة من أصل عشرة مقاتلين، وبايعت كتائب بأكملها داعش. وفي حالات كثيرة كانت هناك اتفاقات سرية مسبقة، حسبما أقر عائدون لاحقاً، «لكن داعش كان يمتلك المشروع الأكبر!» كما عبّر عنه مجاهد سابق بكلمات بسيطة: «كانت النصرة تمتلك عقيدة، بينما كان داعش يمتلك الدولة! ما كان يحلم به الجميع دائماً، وهو دولة إسلامية حقيقية – كان متوفراً لدى داعش»، وفي الواقع لم تكن تلك الدولة موجودة في ذلك الوقت إلا عبر إعلان قياداتها فقط.

كما أن كثيراً من «الإخوة» والمهاجرين، الذين كانوا في البداية منكفئين في مقراتهم، تحولوا فجأة إلى كوادر لـ "الدولة الإسلامية" التي وسعت نفوذها الآن في سوريا. ففي لقاء في مدينة الرقة بين التنظيمين اجتمع 80 مقاتلاً من داعش و500 مقاتل من جبهة النصرة، بايع منهم 400، معظمهم مصريون وسعوديون ويمنيون، تنظيم داعش على الفور.

وفي الوقت ذاته قطع داعش التمويل على منافسه، واستولى على المصانع في المنطقة الصناعية في حلب، والتي كانت تحت سيطرة جبهة النصرة، كما قطع داعش جميع إمدادات السلاح، وبدأ بإخضاع المناطق الحدودية لسيطرته، مثل أطمة وأعزاز والباب وجرابلس؛ لأن من يسيطر عليها، يسيطر على تدفق الوافدين الجدد.

وأخيراً في 9 حزيران/ يونيو 2013، بعد نحو شهرين على بدء الجدال الجهادي الداخلي، ظهرت رسالة من زعيم تنظيم القاعدة أيمن الظواهري، موجهة إلى كل من الجولاني والبغدادي، بثتها قناة الجزيرة في قطر. وفيها أعلن الظواهري أنه استفتى ربه وتوصل إلى القرار التالي: تصرف الزعيمان بشكل خاطئ، وعلى كل منهما البقاء في بلده. احتاج البغدادي إلى أسبوع واحد فقط فردّ بلهجة لا تزال مؤدبة على «الشيخ أيمن الظواهري حفظه الله»، وبيّن أن له عليه «مؤاخذات شرعية ومنهجية عديدة»، وأنه وبعد مشاورات دقيقة قرر أن «يختار أمر ربه على الأمر المخالف له في الرسالة».(5)

ليس هناك لبس أنهم يعتقدون بأنّ الله معهم، هذا ما كان مبعوثو البغدادي يصرون عليه في الأشهر اللاحقة مراراً وتكراراً، على الرغم من أنهم كانوا ما زالوا يبررون: «لا بد أن الله معنا، فنحن من يمتلك الدولة في نهاية المطاف!» لقد كانت حجة دامغة تكشف عن الثقة المفرطة بالنفس، التي كانت «الدولة الإسلامية» تتعامل من خلالها، لدرجة أن القاعدة وطالبان أخذا يبدوان معتدلين مقارنة بداعش.

النفور المتبادل بين الجهاديين حملهم على تكفير بعضهم بعضاً واستحلال بعضهم دماء بعض. لطالما كان التكفير مصطلحاً متداولاً في عرف المتشددين؛ لكن لجوء

داعش إلى هذه الوسيلة بهذا الشكل الراديكالي والواسع لم يكن معهوداً، ولا حتى من قِبل تنظيم القاعدة.

وفي غضون ذلك، في بلدة تل رفعت الصغيرة وحتى بعد القطيعة بين النصرة وداعش، لم يكن أحد يعلم بعد هوية الرجل الذي كان أتباعه يلقبونه «المقدم بكر». ولم يلفت انتباه أحد، أو يثر الفضول والشبهات حوله، إذ طالما كان محترفاً للتمويه والتخفّي.

2

بدايات متقلبة

من القاعدة في العراق إلى مسيرة انتصارات الدولة الإسلامية في سوريا

لا يمكن فهم نشـأة «الدولة الإسـلامية» وصعودها هي وسـلفها إلا من خلال العـودة إلى عـام 2003، مـع بدء الاحـتـلال الأمريكي للعـراق: عندما نشـأ تعاون سري بين نظام الأسـد والجهاديين وأصبحت المخابرات السـورية شريكاً لوجيستياً للقاعدة.

جـذور «الدولة الإسـلامية» متنوعـة وعميقـة. التنظيمات السـالفة التي انبثقت عنهـا «الدولة الإسـلامية»، ومن بينها تنظيم القاعدة في العـراق في البداية، وكذلك لاحقاً جبهة النصرة في سوريا، حظيت بدعم الدولة. إذ إن أشهر شخصيات المرحلة المبكرة لداعش، سـواء أبي مصعـب الزرقاوي، زعيم تنظيم القاعـدة في العراق، أو حجي بكر، رجل المخابرات السـابق ومهندس داعـش، أو نديم بالوش، الذي ربما كان العميل المحرض الأكثر مرونة في المشهد الجهادي، استفادوا جميعهم من عنصر مشترك واحد: كانوا يتلقون دعماً مباشراً أو غير مباشر من سوريا.

لأنـه ما إن يهتز عرش نظام الأسـد، سـواء عـبر تهديد خارجي، كـما حدث عند الغـزو الأمريكـي للعراق في عـام 2003، أو عـبر تهديد داخلي، عندمـا تصاعدت موجة الاحتجاجات داخل سـوريا في عام 2011، حتى تلجأ أجهزة المخابرات إلى

تكتيك خطير: تقوم بخلق إرهابيين، وبذا تستحضر عدواً، بحيث تبدو ديكتاتورية الأسد أمامه وكأنها أهون الشرين. ولكن في حالة "الدولة الإسلامية" لم يعد بإمكان النظام طرد الأرواح الشريرة التي استحضرها.

صعود نجم مجرم صغير

كان أبو مصعب الزرقاوي، لص المتاجر في الماضي الذي يحمل وشماً على ذراعه، مكروهاً من قِبل ابن لادن، وموضوعاً على قائمة أخطر الإرهابيين في العراق في عام 2003 من قِبل وزير الخارجية الأمريكي. أما خليفة الزرقاوي فقد بدأ كشخصية وهمية، بعد أن كان جميع القياديين تقريباً قد قتلوا في عام 2010، وشاءت الأقدار أن يكون إنقاذ «الدولة الإسلامية» على يد ضباط مخابرات سابقين في عهد صدام حسين تحديداً.

طُرد من المدرسة وهو في سن 17، وكان يعاني من مشكلة معاقرة المشروبات الكحولية، لذا كان سرعان ما يفقد أي عمل يزاوله. حتى عمله في محل تأجير أشرطة الفيديو دام لفترة قصيرة. وقد تكرر ارتياده السجن بسبب قيامه بسرقة المحلات وعراكات بالسكاكين وتهمة بالاغتصاب. كان يطلق عليه «الرجل الأخضر» بسبب وشوماته الخضراء الزمردية اللون، والتي حاول جاهداً فيما بعد التخلص منها. وفي السجن تعرف على إسلاميين متشددين، ليسافر بعدها في عام 1989، وهو في عمر 23، إلى أفغانستان، للجهاد ضد السوفييت. لكنه عندما وصل إلى هناك، كان الجيش الأحمر ينسحب من أفغانستان بالفعل. فعاد إلى وطنه، واعتُقل وسُجن هذه المرة ست سنوات بعد العثور على قنابل في قبو منزله.

مرت سنوات المسيرة الجهادية لأحمد فاضل نزال الخلايلة ببطء شديد. وبالرغم من اتخاذه من مسقط رأسه مدينة الزرقاء لقباً له، وإطلاقه على نفسه اسم أبي مصعب الزرقاوي، ومع أنه كان مطلوباً للشرطة الأردنية والأمريكية؛ إلا أنه كان لا يزال حينها بعيداً كل البعد عن الشهرة التي نالته لاحقاً.

لقد بزغ نجم هذا الجهادي المغمور عندما وضعه وزير الخارجية الأمريكي الأسبق كولن باول على قائمة أخطر الإرهابيين في العالم، وذلك بدافع نوايا مختلفة تماماً. ففي خطابه الشهير أمام الأمم المتحدة في 5 شباط/ فبراير 2003 ركز باول على إبراز الزرقاوي على أنه من الكادر القيادي للقاعدة، وأشار إلى أن الزرقاوي كان همزة وصل بين ابن لادن وصدام حسين، وأنه (= الزرقاوي) يجمع الإرهابيين حوله في بغداد. كل ما ذكره باول كان افتراءً جملة وتفصيلاً. فقد كان جزءٌ من استراتيجية حكومة جورج دبليو بوش يعتمد على الكذب لتبرير الحملة على العراق أمام الأمريكيين والعالم إن أمكن. غير أن هذا التكريم من العدو اللدود جعل الزرقاوي مشهوراً فجأة، وبالكاد مرت سنة حتى أصبح بالفعل أشهر زعيم في حركة التمرد السني المنتشر بسرعة في العراق. ومع اللجوء إلى التوحش سلاحاً للترهيب من خلال الاعتداءات المدوية المتعددة، وتصوير قطع رؤوس الرهائن الأمريكيين بوحشية، وطد الزرقاوي سمعته كنجم إرهابي. وفي شهر تشرين أول/ أكتوبر 2004، وبعد مفاوضات معقدة مع أسامة بن لادن، بُويع الزرقاوي رسمياً أميراً لتنظيم «قاعدة الجهاد في بلاد الرافدين». ومن الآن فصاعداً انضوى التنظيم الإرهابي القديم للزرقاوي «جماعة التوحيد والجهاد» تحت راية تنظيم «القاعدة في العراق»، وراح يقوم بعمليات التفجير والقتل.

كان هذا أول تغيير، تلاه عدة تغييرات في اسم الجماعة، التي غيّرت نهجها في القتال بشكل مغاير تماماً عن عقيدة قيادة تنظيم القاعدة: لم تقاتل القاعدة في العراق باسم جميع المسلمين ضد «العدو البعيد» أمريكا والغرب، بل كانت تقاتل باسم السنة فقط وضد أقرب الأعداء: الشيعة، الذين علا شأنهم بسرعة في العراق الجديد وراحوا بمساعدة إيرانية يطاردون النخبة السنية السابقة في جميع مفاصل الحكم. وكان البديل الإيديولوجي للجهاد، الذي تعرف عليه الزرقاوي أثناء فترة اعتقاله، يقول إن المسلمين الشيعة هم أعداء الإسلام أيضاً. ولكن في وطنه الأردن لم يكن للشيعة أي دور، أما الآن، هنا، في العراق، فإن الصراع بين أتباع المذهبين في أوجه ويمكنه أن يستغله. ولم يكن يأبه بأن يؤدي ما يفعله إلى تصادم مع ابن لادن أو غيره.

في العـراق ظهر أقدم شرخ في تاريخ العالم الإسـلامي والمتمثل بالصراع السـني الشيعي. في ذاك البلد لم يكن الزرقاوي يريد الاكتفاء بتفجيرات متفرقة فحسب، بل أراد إشعال حرب شاملة أيضاً. وقد وجد ضالته في العراق، البلد الأنسب للتخلص مـن أعدائه. ولكن، لماذا العراق؟ للصراع المذهبـي تاريخ طويل، ولكن هناك ثلاثة تواريخ شهدت محطات مهمّة: 632، 1916، 2006.

بـدأ النـزاع في عـام 632، عندما تـوفي النبي محمد وتـرك وراءه مشـكلة لم تُحل: مـن يتـولى الخلافة من بعده؟ على عكس المسـيح، لم يكن محمد مجـرد نبي، يجب على طائفته أن تقتدي به وحده. بل كان محمد نبياً وزعيماً في آن معاً، لقد كان زعيماً روحياً وسياسـياً، وأنشـأ أثناء حياتـه إمبراطورية ما لبثت أن توسـعت بسرعة. ولكن، من كان بإمكانه القيام بهذا الدور المزدوج بعد وفاته؟ وبسرعة نشب خلاف حول ما إذا كان اختيـار الخليفـة الشرعي يجب أن يتم من آل بيت محمد أو من دائرة صحابته. في بـادئ الأمر لجأ المسـلمون إلى الخيار الثاني، إلى أن جاء الخليفـة الرابع من آل البيت، عـلي بـن أبي طالب، ابن عم النبـي وصهره. بعد مقتله ذهب الحكم إلى فرقة السـنة، الذين لم تكن رابطة الدم تعني لهم شـيئاً. وامتد هذا الصراع على السـلطة في الإسلام لأكثر من عقدين من الزمن، إلى أن حُسـم الأمر: في معركة كربلاء في جنوبي العراق قُتل الحسـين بن علي مع آخر أتباعه. وبذا تم حسـم النزاع بهزيمة شيعة علي من قِبل السـنة. ولكن بدلاً من النسيان، كما حدث في انشقاقات عديدة، أدى ذلك الأمر إلى تقوية الشـيعة: لقد كان موت الحسـين «الانفجـار الكبير، الذي خلق فلك التشـيع ومحركه»، كما وصف الألماني هاينتس هالم، الخبير في شؤون الشيعة. «كربلاء بالنسبة للشيعة هي نقطة التحول ومحور عقيدتهم.»[1] عقيدة نمت في ظل الهزيمة، وحددت هويتها من خلال المقاومة، وأصبحت تقريباً رمزاً للانقسام الأزلي في فلك المسلمين، بحيـث تتزاحم السـلطة والعقيدة مع بعضهما دوماً. وكـما صفائح القشرة الأرضية، التي تتحرك بعنف بعد فترة طويلة من الهدوء، حدثت تصادمات متكررة بين السـنة والشـيعة، وخلقـت علاقات متوترة دائماً في المناطق التـي يعيش فيها أتباع المذهبين:

في السعودية وفي سوريا وفي اليمن وفي لبنان وفي العراق، وحيث حكمت النخبة السنية الأغلبية الشيعية، حتى قبل عهد صدام حسين.

كما أن الدولة العثمانية التي حكمت ثلاث محافظات في العراق لقرون وكان سلاطينها آخر من حمل لقب «الخليفة»، كانت من الغالبية السنية. ولكن في الوقت ذاته، كانت الدولة مترامية الأطراف، وأظهرت رصانة في التعامل مع جميع الطوائف الصغيرة والمذاهب التي كانت تحت حكمها. ولكن عندما انهارت الإمبراطورية العثمانية وأراد الأوروبيون المنتصرون في الحرب العالمية الأولى تقسيم التركة التي كانت واقعة تحت نفوذ الإمبراطورية، أوجدوا دولاً جديدة وفقاً لتصوراتهم. إحدى تلك الدول كانت العراق، والذي كانت حدوده الغربية «خطاً في الرمال» رسمه في عام 1916 السياسي البريطاني الشاب سير مارك سايكس والدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو. «ما الذي تريد أن تعطيهم بالضبط؟»، سؤال وجهه وزير الخارجية البريطاني اللورد بلفور لسايكس في لقاء في شهر كانون أول/ ديسمبر 1915 في مقر رئيس الوزراء: «سأرسم خطاً»، قال سايكس وراح يتجول بإصبعه على الخارطة، «من آخر حرف في عكا لآخر حرف في كركوك»، التي أصبحت عاصمة النفط في العراق.[2] بعد ذلك حدث تغير بسيط، ولكن منذ ذلك الحين اعتُبرت غطرسة ترسيم الحدود والغدر في تنفيذها، رغم كل الوعود التي أعطيت للمنتفضين العرب، رمزاً للقمع الاستعماري. ومما يزيد الدهشة أن هذا الخط القطري بين العراق وسوريا، والذي قسم مناطق نفس العشائر السنية على جانبي الحدود، لم يغيره البلدان إطلاقاً خلال عقود الاستقلال. لقد كانت العداوة اللدودة بين طاغيتي حزب البعث الحاكمين في ظل حافظ الأسد في سوريا وصدام حسين في العراق هي الضمانة الأكيدة لبقاء «خط في الرمال».

لعدة قرون حكم السنة العراق، في البداية باسم الدولة العثمانية، ثم بتنصيب ملوك من قِبل بريطانيا، وبعد الإطاحة بهم في عام 1958 حكم الانقلابيون المتبدلون بسرعة، إلى أن أحكم صدام حسين قبضته الحديدية على البلاد. بعدها جاء الغزو الأمريكي في عام 2003، وسقطت بغداد، لكن معرفة الحكام الجدد بالتيارات

العميقة وخبايا هذا البلد لم تكن أفضل من معرفة القوى الاستعمارية قبل 90 عاماً. كان أول قرارين أصدرهما الحاكم المدني للعراق باول بريمر، الذي كان يمتلك صلاحيات تشبه صلاحيات نائب ملك بريطانيا في الهند إبان فترة الاستعمار، هما: حل الجيش العراقي وسائر الأجهزة الأمنية، وحظر حزب البعث وتسريح كوادره من المناصب الإدارية الحكومية. بهذين القرارين دمر الدولة العراقية بشكل أعمق بكثير مما فعلته الحرب التي استمرت ثلاثة أسابيع. بإجراء إداري صغير خلق بريمر أكبر وأكفأ تجمع تجنيد، لم يكن ليحلم به الزرقاوي والقاعدة و«جيش المجاهدين» وجميع الجماعات المتشددة الأخرى. وبين ليلة وضحاها أصبح مئات الآلاف من السنة، الساخطين والعاطلين عن العمل وحملة الشهادات والمدرَبين عسكرياً، أعداءً للدولة. وفي السنوات الثلاث اللاحقة لم يتضح بشكل صريح تماماً عدد الهجمات الكثيرة، التي ارتكبتها جماعة الزرقاوي، ولا عدد الجماعات التابعة لقيادات عراقية. على الأرجح قامت الولايات المتحدة بتضخيم دور الأردني أكثر مما كان عليه في الواقع. وعلى أية حال، كان الزرقاوي مع نهاية عام 2004 الزعيم الرسمي لتنظيم القاعدة في العراق، حتى وإن كانت حملة القتل التي شنها موجهة ضد الشيعة، والهجمات الانتحارية الفظيعة على المساجد ومواكب الحجاج، تلقى مراراً وتكراراً نقداً لاذعاً من قيادة تنظيم القاعدة. لكن الزرقاوي كان يريد الحرب الأهلية، كما كتب هو بنفسه: «لا يمكن أن يكون للمسلمين نصر ولا غلبة على المحاربين الكفار من اليهود والنصارى إلا بعد القضاء على من دونهم من العملاء المرتدين، وعلى رأسهم الرافضة.»[3]

واعتباراً من عام 2004 ترنح العراق لسنوات على حافة نشوب حرب أهلية شاملة. المتشددون السنة والشيعة حاربوا الأمريكان، كما حاربوا بعضهم بشكل متزايد. في البيانات الرسمية الصادرة عن الجماعات الإرهابية المختلفة في ذلك الوقت كان الحديث عن «الدولة الإسلامية» و«الخلافة»، ولكن ليس كمشروع بحد ذاته، بل كمرجعية وهدف بعيد يريد الجهاديون الاقتراب من تحقيقه عن طريق الجهاد. وحتى قبل سيطرة الجهاديين المؤقتة في مالي أو الصومال، كان فرض السيطرة

على الأرض هاجساً، يجمع بين المشاريع الإيديولوجية والأمنيات الشخصية المباشرة للجهاديين العاديين. في المقابل، كانت العقيدة الرسمية لتنظيم القاعدة، والمتمثلة بشن هجمات على «العدو البعيد»، معقدة وليست جذابة جداً كالسيطرة على رقعة من الأرض، حتى وإن كانت صغيرة.

تقريباً كما فعلت جماعة «أنصار الإسلام» عندما استولت على قرية خورمال الصغيرة في أقصى شمال إقليم كردستان العراق بالقرب من الحدود الإيرانية مباشرة، وأنشأت «إمارة» فيها. مع بداية الألفية استقطبت القرية الجهاديين من جميع أنحاء العالم، الذين جاؤوا إلى هنا ليتدربوا، وليعيشوا الأجواء أيضاً. هنا، كما في لبنان وباكستان لاحقاً، قاتل المدافعون عن جيبهم بشراسة ضد وحدات البيشمركة الكردية، المدعومة بسلاح الجو الأمريكي. وكانت جماعة أنصار الإسلام تؤوي الزرقاوي اعتباراً من عام 2002، بعيداً عن بغداد وبعيداً عن أعين أجهزة استخبارات صدام، التي كانت تريد أن تعرف أخبار الجماعة، وزرعت لها عميلاً من «الاستخبارات العسكرية» هناك.

كان حجم الطموحات آنذاك هو السيطرة على إمارات كجُزر صغيرة. في حين أن السيطرة على بلد كامل، وإقامة خلافة تمتد عبر القارات، بقيت ضرباً من الخيال من المستحيل تحقيقه. لكن، ولسخرية القدر؛ كان الظواهري بالذات، الرجل الثاني سابقاً في تنظيم القاعدة، قد اقترح في رسالة بعثها للزرقاوي في عام 2005 إقامة «دولة إسلامية».[4] ليس على الفور، وإنما بعد انسحاب القوات الأمريكية، وأيضاً فقط في حالة موافقة السكان السنة. وحول النقطة الثانية، كسب الحشود إلى طرفه، فشل تنظيم القاعدة عدة مرات. وعلى الرغم من التفجيرات الهائلة التي قام بها التنظيم الإرهابي، لم تتحرك الحشود من أجل إقامة دولة إسلامية. بل على النقيض: حتى في معاقل السنة في العراق بدأ إرهاب القاعدة يستثير المقاومة شيئاً فشيئاً. على الأقل لم يكن سبب ذلك لأن آلاف الشيعة سقطوا ضحايا السيارات المفخخة التي كانت تنفجر يومياً في بغداد، بل لأن رجال الزرقاوي كانوا يمارسون الإرهاب

على أبناء ملتهم أيضاً، لكي يفرضوا أولويتهم بالسلطة المحلية أو طرق تهريبهم أو قراراتهم الأخلاقية السخيفة.

ثم جاء عام 2006: العام الذي قُتل فيه أبو مصعب الزرقاوي بقنبلتين أمريكيتين وتولى نوري المالكي منصب رئيس الوزراء. غير أن موت الزرقاوي لم يغير استمرار القتل البتّة. بل مع الوقت تشكلت أولى المليشيات السنية، والتي مولتها الولايات المتحدة لاحقاً، وراحت تقاتل تنظيم القاعدة. وفي ذات الوقت أفرزت الانتخابات، التي اعتبرت أنموذجاً ديمقراطياً منذ الإطاحة بصدام، فوز أكبر كتلة شيعية كما كان متوقعاً، فاعتباراً من الآن أصبحت الأحزاب السياسية في العراق تُصنف حسب الانتماء، والشيعة يشكلون نسبة تقارب 60 في المائة من السكان. في عهد صدام كانت الأحزاب والنقاشات السياسية مغيبة لعقود. فكان القاسم المشترك الأصغر التوافقي بين جميع الكتل هو المالكي، بشخصيته اللا كاريزماتية وحضوره الباهت. لكنه سرعان ما تغير. من الآن فصاعداً بدأ المالكي رويداً رويداً يضع العراقيل ويتراجع عما حاول الأمريكيون بناءه: دولة، يشعر فيها الأكراد والسنة والشيعة بذات القدر من التمثيل. لكن المالكي لم يُرد ولم يستطع السماح بمثل هذه الدولة؛ لأن موقفه من معسكره كان مرتبطاً أيضاً بعدم تقديمه أية تنازلات للسنة، وإلا فإن ذلك قد يُفسر على أنه ضعف منه.

في أواخر عام 2006، بعد أشهر قليلة من مقتل الزرقاوي، طورت فكرة «الدولة الإسلامية» ديناميكية ذاتية، بها: ابتعد تنظيم القاعدة في العراق عن أهل السنة بشكل مطرد، لكن ذلك لم يمنع قيادته الجديدة من إعلان «دولة العراق الإسلامية» في 15 تشرين أول/ أكتوبر، التي انصهر فيها تنظيم القاعدة في العراق وجماعات إسلامية أخرى. الأمر الذي اعتُبر خطوة مهمّة في فلك الجهادية. خطوة مهمة لدرجة أن «أمير المؤمنين»، الذي بايعه الجميع، كان لا يزال شخصية وهمية: فأبو عمر البغدادي، وهو الاسم الحركي للزعيم الجديد، لم يكن وارداً في البداية على الإطلاق. بل كان دوراً تناوب عليه عدة أشخاص، حتى إنه كان من بينهم أحد أقرباء أبي بكر البغدادي، الذي أصبح لاحقاً زعيماً لـ "الدولة الإسلامية". من بين

جميع الأشخاص الذين تناوبوا على لعب شخصية «أبي بكر البغدادي» لأكثر من عام، لم يستطع أي منهم أن يفرض نفسه كزعيم فعلي. أو كما قال رجل استخبارات غربي، تابع طيلة سنوات العالم الداخلي لتنظيم القاعدة في العراق: «كانوا بحاجة إلى وجه إعلاني. ولكن كان لديهم في البداية الإعلان فقط.» في عالم الجماعات الجهادية التآمري، حيث يظهر الجميع بأسماء خيالية متبدلة، استطاعت قيادة «دولة العراق الإسلامية» الحفاظ على دمية كواجهة لفترة من الزمن، إلى أن بلغ الارتباك في النصف الأول من عام 2007 مستوى جديداً: في شهر آذار/ مارس 2007 أعلنت وزارة الداخلية العراقية أنها ألقت القبض على أبي عمر البغدادي، لتعود بعد فترة وجيزة وتشكك بصحة هذا الخبر مجدداً.[5]

في مطلع شهر أيار/ مايو أفادت وزارة الداخلية أن البغدادي قد قُتل أثناء هجوم أمريكي، وهو خبر شكك في صحته الجنرال الأمريكي وليام كالدويل: «ربما كانوا مخطئين.»[6] لكن التصريح المدهش لهذه الأخبار المتناقضة جاء في 18 تموز/ يوليو على لسان العميد الأمريكي كيفن بيرغنر عندما أعلن: أن أبا عمر البغدادي، الذي رصدت واشنطن مبلغ 25 مليون دولار أمريكي لمن يدلي بمعلومات عنه، هو شخصية وهمية، تماماً مثل "دولة العراق الإسلامية" التي تأسست بعد مقتل الزرقاوي، والتي اعتُبرت أنها مجرد "تنظيم افتراضي في الفضاء الإلكتروني".[7] لقد كان محقاً فيما يتعلق بالشق الأول على الأقل.

ما كشف بيرغنر النقاب عنه، كان مناورة وقحة وناجحة في ذات الوقت، فهذا المثال وضح بشكل صارخ مدى خداع قيادات الجماعات الجهادية وكذبها على أتباعها، الذين لا يعلمون ما تخطط له تلك القيادات. فبعد مقتل الزرقاوي بقصف جوي في شهر حزيران/ يونيو 2006، تولى مصري، وهو أبو أيوب المصري[8] قيادة الجناح العسكري لتنظيم القاعدة في العراق. ولضمان مركزه كخليفة للزرقاوي وكذلك لتقديم زعيم عراقي لأتباع التنظيم الذين غالبيتهم من العراقيين، اختلقت دائرة القيادة الضيقة شخصية أبي عمر البغدادي. وبقي طي الكتمان، فيما إذا كانت هذه الفكرة من تدبير خبير المتفجرات المصري أم رفيق دربه القديم أيمن

الظواهري، الذي عمل معه في مصر قبل أن يذهب إلى أفغانستان. لكن على الأقل، شارك زعيم القاعدة اللاحق الظواهري في هذه اللعبة وبعث رسائل إلى أبي عمر البغدادي الوهمي.

انكشفت التمثيلية عندما أُلقي القبض في مطلع شهر تموز/ يوليو 2007 في الموصل على رجل تنظيم القاعدة (الحقيقي) ويدعى خالد المشهداني، الذي كان ينقل الرسائل بين العراق وابن لادن، وفوق ذلك كان بمثابة ناطق إعلامي لدولة العراق الإسلامية التي انبثقت عن تنظيم القاعدة في شهر تشرين أول/ أكتوبر. والمثير للدهشة أن المشهداني بدأ الحديث بعد اعتقاله، كما يكرر الجنرال كيفن بيرغنر قوله: «في كلامه تعتبر «دولة العراق الإسلامية» تنظيم واجهة، يخفي وراءه التأثير الأجنبي والقيادة الأجنبية لتنظيم القاعدة، بحيث يصبح التنظيم ذا طابع عراقي. ولإتمام هذه الأسطورة ابتكر المصري زعيماً وهمياً يدعى أبا عمر البغدادي. ولإضفاء مصداقية على شخصية البغدادي، بايعه المصري، ولكنه في الواقع كان يبايع نفسه. بينما اعتقد الأتباع العراقيون أنهم يتبعون البغدادي، في حين كانوا ينفذون أوامر المصري أبي أيوب».(9)

لم يكن هذا الارتياب جديداً، تماماً كما أظهرت التصريحات المتشككة حول الأخبار السابقة وكما أوضح مسؤول سابق في الاستخبارات الأمريكية: «الأشخاص الحقيقيون يتركون وراءهم أثراً قبل فترة من إلقاء القبض عليهم، حتى وإن لم يكن اسمهم معروفاً فعلاً.» لأنه من خلال رصد المكالمات الهاتفية والتجسس على الرسائل الإلكترونية واستجواب السجناء يُظهر المرء نمطاً معيناً يمكن تمييزه بوضوح. بالإضافة إلى ذلك، لا يمكن لشخص حقيقي أن يتواجد في عدة أماكن مختلفة في ذات الوقت. بالنسبة للمصري، فقد كان وجوده جلياً، تماماً كما كان الزرقاوي من قبله. لكن في حالة أبي عمر البغدادي، لم يكن له أي أثر في السنتين الأولين.

بقي الوضع على ما هو عليه حتى أواخر عام 2007 وبداية 2008، حينئذ أُوجد منصب البغدادي، والذي شغله ذات الشخص سابقاً، وهو على الأرجح الضابط العراقي السابق حامد الزاوي، والذي فضل أن يفجر نفسه على أن يستسلم للقوات الأمريكية والعراقية التي داهمت مخبأه بالقرب من تكريت في 18 نيسان/ أبريل 2010. وقد قُتل معه أبو أيوب المصري، الذي وصفه المشهداني المعتقل قبل ثلاث سنوات بأنه كان ديكتاتوراً مستبداً، «وكان الآمر الناهي، ويفعل ما يحلو له، لأنه كان المتحكم بالأموال المتدفقة.»[10]

تُعتبر هذه الجماعة الجهادية أهم جماعة جهادية عراقية. وقد أسسها أردني واستولى عليها مصري، وقُضي في عام 2010 على قيادتها تماماً من قِبل وحدات مكافحة الإرهاب الأمريكية والجيش العراقي. والآن يبدو أن الوقت قد حان بالفعل لأن يقود عراقيون هذا التنظيم. الآن جاء دور الضباط ورجال الأمن وكادر حزب البعث القدامى من زمن صدام حسين، الذين لم يكن الالتزام الديني يعنيهم كثيراً. لكن هذا الأمر لم يشكل عائقاً كبيراً حينها؛ لأن «دولة العراق الإسلامية» كانت قد تقلصت كثيراً نتيجة لمطاردتها لسنوات. وقد أبلت قوات الصحوة السنية الممولة أمريكياً بلاءً حسناً ضد دولة العراق الإسلامية، التي فقدت الأراضي التي كانت تسيطر عليها. ومن أصل 42 زعيماً للتنظيم الإرهابي قُتل أو أُسر 34 منهم[11]، وفوق ذلك كله قضى الأمريكيون الآن على المصري، آخر صلة وصل على قيد الحياة من حقبة أمجاد القاعدة في أفغانستان. وبتفاؤل أعلن الجنرال الأمريكي راي أوديرنو أن القضاء على الزعيمين هو «على الأرجح أهم ضربة وُجهت لتنظيم القاعدة في العراق منذ بداية التمرد المسلح».[12] لكن بالنظر إلى الماضي، فقد كانت الضربة بالأحرى دفعة لتنظيم دولة العراق الإسلامية سبقت بداية التمرد التالي.

لأن انسحاب «الدولة الإسلامية» من الأرض لا يعني أنها اختفت تماماً. وبالفعل يبدو أن «الدولة الإسلامية» تغيرت من الداخل منذ فترة، وأصبحت أكثر تنظيماً على نحو متزايد؛ فقد أصبحت إدارتها الداخلية تقوم بأرشفة الفواتير واستمارات الانتساب وقوائم أرقام الهواتف، لكي تكتشف المخبرين في صفوفها

الذين يتواصلون مع الولايات المتحدة. وأثناء حملة مداهمة تم العثور على تسجيلات فيديـو لعمليات إعدام أوقف نشرها منـذ فترة طويلة، بالإضافة إلى قوائم اغتيالات لمناهضين للتنظيم، وكشوفات رواتب، وبيانات من داخل وزارة الداخلية العراقية، وأسـماء سجناء القاعدة الأجانب وأسـماء السجون التي كانوا معتقلين فيها، وهكذا دواليك. كل هذه الإجراءات المعقدة كانت من صنيعة أبي مصعب الزرقاوي، الذي بالكاد كان يسـتطيع القراءة والكتابة. «يبدو وكأن القاعدة تشبه إلى حد بعيد صرامة حزب بعث صدام حسين وبيروقراطيته»، كما يقول مراسل سي إن إن في عام 2008 مدهوشاً.[13]

لم تكـن «دولة العراق الإسـلامية» شـبيهة جـداً بحزب البعث – بـل إن التنظيم الإرهابي كان هو حزب البعث. وبعد مقتل الزعيمين في شـهر نيسان/ أبريل 2010 – بعـد أن وشـى بهما أحد المخبرين، هو ذاته الذي قـدّم أيضاً معلومات بخصوص موجة التطهير التي قام بها التنظيم داخل صفوفه لاحقاً – تولت كوادر حزب البعث القديمـة قيـادة «دولة العراق الإسـلامية»، بالرغم من أن حزب البعث لا يتناسـب مـن حيث التسـمية (البعث) مع الجهاديـين العتاة. فحزب البعث، الذي شـارك في تأسيسه في عام 1947 المسيحي السوري ميشيل عفلق، كان في الماضي المنقذ الشامل لأمراض الشرق الأوسـط، إذ كان ينادي: بالاشـتراكية والقوميـة العربية والعلمانية والجمهوريـة والحداثـة والعدالة. وباسـم هذا الحـزب قاد الديكتاتـوران في العراق وسـوريا انقلاباً للإمسـاك بمقاليد الحكم. وخلف واجهة الشعارات الرسمية تحول الحزب بسرعة إلى: جهاز للاسـتيلاء على السلطة والاحتفاظ بها بأساليب تآمرية، لا أخلاقيـة، ولا إيديولوجية. في دمشـق حكم علوي باسـمه، وفي بغداد سـني. هناك أصبـح حزب البعث قبل عقود سـبقت الإطاحة به في عـام 2003 مجرد أداة مفرغة مـن محتواهـا لإدارة الحكم، وتحـول المقر الرئيـس للحزب في بغداد في التسـعينيات إلى متحـف للحزب. وسـبق وأن وصف صدام حسـين حزب البعـث بوضوح تام وقـال: «البعث مثل حبـة الطماطم، يمكن أن يطهو المرء معهـا كل شيء».[14] كانت التسميات غير مهمة، فجهاز الحكم الداخلي والرقابة بقي على حاله.

والآن جـاء أتبـاع هذا الجهاز. حجي بكر، عقيد سـابق في اسـتخبارات القوات الجويـة، كان واحـداً مـن أعضـاء «دولة العـراق الإسـلامية» القلائـل الذين نجوا مـن القتل. وقـد قام بترتيب قمة هرم التنظيم الإرهابي، مسـتفيداً مـن حمى المطاردة الأمريكية والجيش العراقي للتنظيم. ولأن اجتماع كل أعضاء «مجلس الشـورى» في تنظيم «دولة العراق الإسلامية» في مكان واحد لمبايعة قيادة جديدة يعد مجازفة كبيرة، تواصـل بكـر مع كل عضو على حـدة، وأقنعهم الواحد تلو الآخـر، أن الآخرين قد أبدوا موافقتهم على مبايعة إمام سـابق مغمور من سـامراء ليكون هو الزعيم الجديد لتنظيم «دولة العراق الإسـلامية»: إبراهيم عواد إبراهيم البدري السـامرائي، الذي أصبـح لقبه من الآن فصاعـداً «أبا بكر البغدادي»، أمير المؤمنين، ويُزعم أنه حاصل على شهادة دكتوراه في القانون الإسلامي من جامعة صدام في بغداد.

في البداية لم يكن أحد يعرف شـيئاً عن الأمير الجديد، أو عن الهيئة التي انتخبته، إلا القليل. ولد في مدينة سامراء العراقية في عام 1971، ومثله مثل غيره من قيادات داعـش اللاحقة دخل سـجن بوكا سـيئ الصيت: وهـو عبارة عن معسـكر اعتقال فوضـوي ومكتـظ بالمعتقلـين تابـع للجيش الأمريكـي بالقرب من مدينـة أم قصر. لكـن ثمة روايات مختلفة عن مدة اعتقاله هناك. فوفق بعض المصادر، أُطلق سراحه بعد أشـهر قليلة في عـام 2004، في حين تورد مصادر أخـرى أن إطلاق سراحه تم لاحقاً. لكن ثمة رواية مختلفة يسردها رجل سابق من تنظيم القاعدة، كان قد فرّ من أفغانسـتان عبر إيران إلى العراق، وعاصر ملحمة الجماعات الجهادية كاملة: وفقاً لما قالـه الرجل فإن البغدادي ذهب إلى دمشـق بعد الحرب، وانضم إلى جماعة متشـددة تابعـة للشـيخ الحلبي أبي القعقـاع، والذي كان، هـو وجماعته، مراقبـاً ومدعوماً من المخابـرات السـورية، ولم يعد إلى العـراق ثانية إلا في عـام 2006. وفي وقت لاحق انضم إلى تنظيم الزرقاوي عن طريق جماعة ناشـئة ومنشـقة عن تنظيم «دولة العراق الإسلامية».

وفي وقـت لاحـق بدأ القسـم الإعلامـي في «الدولـة الإسـلامية» بتلميع صورة البغـدادي: شـغل عـدة مناصـب مرموقـة كإمـام، بالإضافة إلى أنـه كان أسـتاذاً في

جامعة تكريت، وكان اليد اليمنى لأمير «دولة العراق الإسلامية» السابق، وفوق ذلك كله فهو قائد عسكري فذ. كما أنه قرشي يعود نسبه إلى سلالة النبي من مكة. وبالطبع ليس هناك ما يثبت صحة كل تلك الادعاءات، بل إن بعضها خاطئ تماماً. فالبغدادي لم يتلقَ أي تدريب عسكري في حياته (على عكس معظم قياديي دولة العراق الإسلامية)، ولم يره أحد على الإطلاق على خطوط الجبهة الأمامية في المعارك. بل على العكس من ذلك، حتى ظهوره العلني مطلع شهر تموز/ يوليو 2014 في الموصل، ظل متوارياً عن الأنظار تماماً. ففي أجواء محاطة بالسرية والهستيريا في أوساط الجهاديين كان أي شكل من أشكال التخفي مبرراً بداعي المطاردة الحثيثة والدائمة، الأمر الذي ساعد على بقاء أية كذبة طي الكتمان لفترة طويلة.

إلى جانب البغدادي كان هناك في «دولة العراق الإسلامية» مجلس وزراء ومحافظ لكل محافظة، لقد كانت كل مقومات الدولة متوفرة – حتى وإن كانت «دولة العراق الإسلامية» تعمل لأكثر من ثلاث سنوات في الخفاء، بخاصة في الموصل، التي تعد آمنة أكثر من بغداد. غير أن الرجال المهمّين لاحقاً كانوا قلة، وجميعهم كانوا سابقاً ضباطاً عسكريين أو رجال استخبارات أو قياديين حزبيين. وإلى جانب حجي بكر كان من بين الرجال الذين تسلموا مناصب قيادية حساسة:

- أبو أيمن العراقي (علي أسود الجبوري)، مقدم سابق في استخبارات الدفاع الجوي.
- أبو مسلم التركماني (فاضل الحيالي)، مقدم سابق في الاستخبارات العسكرية.
- أبو علي الأنباري (علاء قرداش)، قيادي سابق في حزب البعث، وكان في الأصل مدرس فيزياء.
- أبو عبد الرحمن البيلاوي (عدنان إسماعيل نجم)، ضابط سابق في الجيش العراقي.

- أبـو محمد العدنـاني (طه صبحـي فلاحة)، أحـد الأجانـب القلائل: سـوري المولد، ذهب إلى العراق مبكراً بعد الغـزو الأمريكي للعراق وبقي هناك.

كان العديـد مـن الكوادر القيادية، مثل البغدادي، قد سـبق لهـم أن احتُجزوا في سجن بوكا، والذي تعرف من خلاله كثير من الإرهابيين بعضهم إلى بعض. وتحول معسـكر الاعتقـال إلى بـؤرة تجنيد مهمة للتنظيـمات الإرهابية. غير أنـه بين الكوادر القياديـة كان هنـاك المزيد من أوجه التشـابه: حجي بكر وأبو أيمـن العراقي، الذي عُين لاحقاً أميراً «لدولة العراق الإسـلامية في جبال اللاذقية» السورية، كانا يخدمان في عهد صدام في استخبارات الدفاع الجوي العراقي، وهي جهاز له وحدات محددة جداً. وكان هناك العديد من القادة الجدد من التركمان السـنة من مدينة تلعفر، ومن بينهم التركماني والأنباري، وهذا أيضاً تناسب غير مألوف في دائرة القيادة المحدودة هـذه. وكـما كان يبدو فـإن العلاقـات القديمة ورابطـة القرابة لعبـت دوراً أكبر من المرجعيـات الدينية – وقد عملت هـذه الدائرة الضيقة، ذات العلاقات الوطيدة بين أفرادهـا، والتي اسـتولت على السـلطة الآن، على الحفاظ على دائـرة القيادة محدودة ومغلقة قدر الإمكان.

كانـت «دولة العراق الإسـلامية» دولةً شـبحاً، لقد مثلت جزءاً مـن آلة الرعب والإدارة الداخليـة، وتمتلـك وزارات وموارد مالية (التي مصدرهـا في المقام الأول من عمليات الابتزاز) ومتفجرات. لكنها كانت تفتقد أمرين فقط: مسـاحة دولة – وقيادة واضحة. وقد ظل أبو بكر البغدادي متوارياً عن الأنظار. وحتى أول تسجيل صوتي ظهر له كان في عام 2011 بعد مقتل أسامة بن لادن.

اتسـع الـشرخ بين المطلب والواقـع كثيراً، بحيث احتدم جـدال من نوع غريب في الأوسـاط الإسـلامية المتشـددة: بعيداً عن التسـاؤل عما إذا كان الإعلان عن «الدولة الإسلامية» مستحباً أم لا، فإن هذا الإعلان عن «دولة العراق الإسلامية» باطل، فهي لا تستند إلى أصل شرعي حسب رأي الشيخ الكويتي حامد العلي، الذي رفض إعلان

«الدولة الإسـلامية»، إذ «لا يُعرف في الإسـلام بيعة إمام لسـلطان مجهول مختف بغير شـوكة وظهور وتمكين، تُحفظ بها السبل»[15]. بالمقابل ردت «دولة العراق الإسلامية» بـأن هـذا الأمر ليـس ضرورياً أبـداً، إذ ينبغي على الناس التسـليم بمعرفـة الإمام كما يسلمون بوجود الله ورسوله. وعلاوة على ذلك، يمكن للمرء أن يفترض مبدئياً دولة بحجم سـابقتها قبل نحو 1400 عام، والتي بـدأت بحكم محمد للمدينة المنورة فقط - وبذا تكون «دولة العراق الإسلامية» شرعية مثل الدولة الإسلامية الأولية.[16]

كانت فترة فريدة في العراق: فقبل انسـحابه من البلاد، كان الجيش الأمريكي قد حلّ مشـكلة الإرهاب بطريقة عسـكرية بحتة، كما يبدو. فمن خلال دعم مليشيات الصحوة السـنية تم اسـترجاع المناطق التي كانت «دولة العراق الإسـلامية» تسيطر عليها، وأُهلكت قياداتها، وبات التنظيم في الحضيض. لكن، على الصعيد السـياسي لم يُحلّ شيء في العراق؛ لأن رئيس الوزراء المالكي لم يكن يعتزم على الإطلاق إشراك السـنة في السـلطة، ودمج وحدات مجالس الصحوة في الجيش أو حتى أن يدفع لها - ضارباً بعرض الحائط جميع الاتفاقيات مع الولايات المتحدة.

في 19 كانون أول/ ديسـمبر 2011، بعد يوم واحد على انسـحاب آخر القوات الأمريكية العسكرية، أصدر المالكي (الذي عين نفسه أيضاً وزيراً للداخلية والدفاع بالوكالـة) مذكـرة اعتقال بحق طارق الهاشـمي، النائب السـني للرئيـس العراقي: بداعـي أنـه يقـف وراء 150 عملية قتـل وتفجيرات عبـوات ناسـفة، وعلاوة على ذلك كان يخطط لعملية انقلاب. اسـتطاع الهاشـمي الهـرب، واصفاً الاتهامات بأنها «ملفقـة»، وحُكـم عليـه غيابياً بالإعدام. وبعد ذهاب الهاشـمي اختفى جميع السـنة تقريبـاً مـن المناصـب الرفيعة: تم إعفـاء الجنـرالات، واختُطف وزير المالية السـني من قِبل مليشـيا مسـلحين ملثمين بالسـواد، تبـين أنها وحدة مكافحـة إرهاب تابعة لرئيـس الـوزراء. بالمقابل، انهارت مليشـيات الصحـوة، فقد اسـتمرت حملة القتل التـي شـنها تنظيم «دولة العراق الإسـلامية» عـلى كثير من قادة الصحـوة المحليين، الذين تم تهميشـهم بشكل تام تقريباً لسـنوات من قِبل الولايات المتحدة والحكومة العراقيـة.[17] وفي هذه الفـترة كان على «الدولة الإسـلامية» أن تفعل فقط ما كانت تجيده دوماً: الترقب.

مكتب سفريات الإرهاب

أصبحت سوريا راعيةً للإرهاب في العراق. فقد كان النظام السوري يتلقف آلاف الجهاديين من جميع أنحاء العالم ويسلحهم ويدربهم ويرافقهم عبر الحدود. أصبحت الحرب في العراق كابوساً، لن تكرره واشنطن في بقعة أخرى من العالم، بل باتت لم تعد ترغب بشيء سوى إنهائه.

سنجار.. في صيف عام 2014 ربما كانت هذه البلدة، على سفح الجبل الذي يحمل ذات الاسم، ستصبح مشهورة من خلال صرخات الرعب، وربما كانت ستصبح رمزاً عالمياً للصراع من أجل البقاء لعشرات آلاف الإيزيديين الذين يحاصرهم «داعش». غير أنه قبل سبع سنوات خلت كانت المدينة العراقية الصغيرة المتاخمة للحدود السورية قد اشتُهرت في دوائر خبراء الإرهاب. فالاكتشاف، الذي عثرت عليه فرقة مداهمة جنود أمريكيين بعد اشتباكات في 11 أيلول/ سبتمبر 2007 في مزرعة قريبة، دخل التاريخ تحت اسم «وثائق سنجار»: حزمة لأكثر من 600 ملف شخصي لمقاتلين أجانب، جاؤوا قبل 12 شهراً عبر سوريا إلى العراق، لكي ينضموا إلى تنظيم القاعدة في العراق تحت زعامة الأردني أبي مصعب الزرقاوي. لم يُعثر لا من قبل ولا من بعد على قائمة شاملة بهذا الشكل لمقاتلين إرهابيين أجانب، والتي لا تتضمن الأسماء الحقيقية والبيانات الشخصية فحسب، بل أيضاً معلومات تفصيلية عن طرق سفرهم وأشخاص التواصل والهدف المرجو من استخدامهم. في ثلاثة أرباع الحالات كان مكتوباً: «شهيد» - الهدف الوظيفي: انتحاري.[18]

كان الجهاديون قد قدموا من السعودية وليبيا والمغرب والجزائر وسوريا وتونس ومصر وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا ومن دول أخرى. وكان من بينهم طلاب وشرطيون وعاطلون عن العمل وجنود سابقون؛ فضلاً عن السباكين، بل وكان بينهم مدلِّك. وجميعهم جاؤوا عن طريق سوريا. مركز مكافحة الإرهاب في كلية ويست بوينت العسكرية الأمريكية، قيّم الوثائق، ووصل إلى استنتاج مفاده أن "الحكومة السورية تجاهلت، وربما ساعدت على سفر الإرهابيين الأجانب (عبر

سوريا) إلى العراق. (...) وخشية حدوث تدخل عسكري محتمل قرر النظام السوري دعم المتمردين والإرهابيين بهدف إثارة الفوضى والدمار في العراق."(١٩)

لم يكن خافياً على أحد أن الديكتاتور السوري حافظ الأسد، الذي حكم لأمد طويل، كان يدعم ويؤوي جماعات مسلحة في المنطقة على نطاق واسع منذ ثمانينيات القرن الماضي - فالمسألة لدى حافظ الأسد تتعلق بالتعريف، فهل كان حزب الانفصاليين الكردي حزب العمال الكردستاني أو حركة حماس الفلسطينية أو حزب الله الشيعي في لبنان جماعات إرهابية أم حركات مقاومة؟ كان الأسد يعتبرها حركات مقاومة، ودعمها يعزز صورة نظامه، للصمود في وجه العدوان الإسرائيلي. إن إدراج الولايات المتحدة سوريا منذ عام 1979 على قائمتها للدول الداعمة للإرهاب خدم كثيراً صورة النظام الذي اختارها لنفسه. فقد أشاد المتعاطفون مع حزب العمال الكردستاني بدعم الأسد لنضال الأكراد الأتراك، متجاهلين القمع الذي يتعرض له الأكراد السوريون. وكان اليسار العالمي والمناهضون للإمبريالية، من خلال منظورهم الضيق، يرون في حافظ الأسد حليفاً لهم، مغفلين أن الشيوعيين في سوريا لم يكونوا بأفضل حال من المعارضين الآخرين، بمجرد أن يوجهوا انتقاداً بسيطاً للأسرة الحاكمة. كما قدم النظام السوري دعماً سرياً «للإرهابيين الكبار» من أمثال كارلوس، الذي سكن في دمشق لسنوات. لكن تلك الجماعات كانت محدودة جداً.

غير أن ما حدث منذ عام 2003 على الحدود السورية العراقية لم يعد مشروعاً واضح المعالم، بل أصبح مساندة كبيرة لحركة عالمية سرية، تناهض الولايات المتحدة وغيرها بشدة. وعلى كل حال، كان من السهل على المتعاطفين السطحيين التعايش مع دعم الإرهاب، تماماً كما هو الحال بعد عقد من الزمن: بحجة أن سوريا والإرهابيين طرفان يتبادلان العداء فيما بينهما، أي إنهما يحارب أحدهما الآخر. لكن في الحقيقة، لم تكن سوريا تحارب الإرهاب، ولا حتى بعد مرور عشر سنوات.

في عام 2003 كانت هناك مبررات، فالنظام السوري كان يخشى من غزو عسكري أمريكي، على غرار ما حدث في العراق للتو. فبعد النصر السهل على

صدام في العراق، بدأ الحديث علناً، من قِبل وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسفيلد واستراتيجيين أمريكيين آخرين، عن تكرار هذا السيناريو ومواصلة الزحف نحو دمشق لتغيير النظام هناك. ولمنع حدوث ذلك وسد شهية الولايات المتحدة عن أي رغبة للقيام بمزيد من التدخلات العسكرية في المنطقة، اتبع وريث الحكم بشار الأسد وقادته العسكريون سياسة مزدوجة المسار: رسمياً، اتُبعت سياسة التهدئة ونفي كل ما كان مثبتاً بكافة تفاصيله (مثل الحصول على حصة الأسد من الصفقة غير الشرعية لاستيراد أسلحة صدام، والتي استمرت حتى شهر شباط/ فبراير 2003 وأُبرمت عن طريق أحد أقرباء عائلة الأسد). أما في السر، فقد تحولت دمشق إلى مركز يستقطب الجهاديين من جميع أنحاء العالم، الذين كانوا يريدون الذهاب إلى العراق. علماً أن الأمور لم تسر بسرية تامة في البداية: ففي أواخر عام 2003، عندما هزت أولى الهجمات الشرسة مقر الأمم المتحدة والصليب الأحمر في بغداد، اشتكى ثيودور قطوف، السفير الأمريكي الأسبق في دمشق، من الطوابير الطويلة لرجال ملتحين، يصطفون أمام السفارة الأمريكية في حي المهاجرين الأنيق مباشرة. إذ كانت نقطة تجمع المتطوعين المتجهين إلى العراق على الجانب المقابل من الشارع. وبعد فترة تم نقلها إلى وسط المدينة، على أرض معارض مهجورة، على الأقل قبل أن تصبح هناك طرق أكثر سرية لإرسال المتشددين السوريين.

لكن، كيف وصل الأجانب إلى سوريا، ليتابعوا طريقهم إلى الجهاد من هناك؟ عبر مطار دمشق الدولي، «أحد المرافق التي تخضع لرقابة صارمة شديدة في سوريا»، حسب ما ورد في جلسة استماع في محكمة في واشنطن عام 2008 حول الدور السوري في نقل مجندي القاعدة، وقد استخدم المطار «بعلم كامل ودعم الحكومة السورية»: «سوريا تسمح بقدوم المتمردين بأعداد كبيرة ودون قيود، قبل أن يواصلوا سفرهم عبر الحدود إلى العراق.»[20] الإرهابيون، الذين أُلقي القبض عليهم في العراق، ومقاتل كويتي عائد، اعتقلته شرطة الحدود في مطلع عام 2005 وتم تسليمه إلى دبلوماسيين في دمشق، جميعهم ذكروا أنهم تلقوا تدريبات عسكرية في معسكرات داخل الأراضي السورية.[21]

وفي عـام 2004، عندمـا اسـتولت القوات الأمريكيـة على مدينـة الفلوجة بعد قتـال عنيف، عُثر بحوزة المقاتلين الأسرى والقتلى على صور التُقطت لهم مع ضباط مخابرات سـوريين، كما عُثر معهم على أجهزة جـي بي إس (نظام التموضع العالمي)، والتي تظهر أن نقطة انطلاق آخر رحلاتهم كانت من غربي سـوريا.[22] كان القسـم الأكبر نسـبياً من السـعوديين، الذين جـاؤوا للجهاد في العراق، مـن منطقة القصيم المحافظـة ذات الكثافـة السـكانية القليلة في شـمالي المملكة. في مدينـة الزلفي، ذات السـبعين ألف نسـمة، لا يوجد هناك مقهى أو مطعم واحد، فهذا أمر منافٍ للدين. ولكن كان هناك أكثر من 100 مسجد. من الزلفي وحدها ذهب حتى شهر شباط/ فبرايـر 2005 أكثر من 20 شـاباً للجهاد. وعلى الرغم مـن أن الحدود العراقية تبعد بالـكاد 200 كيلومـتر ويمكـن عبورها مشـياً على الأقـدام بسـهولة، إلا أن أحداً لم يسـلك تلك الطريق: «الجميع يطيرون إلى دمشق»، روى قريب لأحد الانتحاريين: «لقـد كان كل شيء منظـماً، وأسـهل.» ومنذ أن بدأت السـلطات السـعودية تشـك بالأمر، أخذ معظم الشباب اليافعين يطيرون إلى بيروت أو عمان، ومن هناك يتابعون طريقهم براً إلى سوريا، بحيث لا يستغرق السفر سوى ساعات قليلة. «يذهب اثنان، ثلاثـة في كل شـهر. يتصلون هاتفياً مرة أو اثنتين من العـراق، ثم ينقطع اتصالهم إلى الأبد.»

كان تحالف مصالح بين النظام العلوي الشـيعي في سـوريا والمتشـددين السـنة، الذين يعتبر جناحهم في السـعودية أن الشـيعة خانوا العقيدة، وينبغي شـن هجمات عليهم وقتل عشرات الآلاف منهم في العراق لاحقاً. مشروع مشـترك لأعداء ألداء واضحـين. ولكـن عندمـا يصل الأمر إلى تسـخير الإرهاب، تتلاشـى جميـع القيود الإيديولوجيـة، بـل على العكس تمامـاً: فكلما قـلّ التعاضد بين الجماعات المتسـامحة والمدعومـة داخـل المعسـكر الواحد، يصبح من الأسـهل اسـتغلالها أو توجيهها أو اعتقالها. لقد كانت علاقة براغماتية تكتيكية بحتة آنذاك، ولم تتغير بعد عشر سنوات لاحقة. لقد حاول كل من الطرفين الاسـتعانة بالآخر، واعتقد كل منهما أنه يسـتغل الآخـر وأنـه الطرف الأقـوى، وبعدها سـيتمكن مـن القضاء على حليـف الأمس.

وعلى المدى البعيد كانا يعتبران نفسيهما غريمين لدودين – وهذا الأمر لم يثنِ دمشق عن اختراق الجماعات والحركات الراديكالية، ودعمها، وتأسيسها. في أواخر عام 1999 أُلقي القبض في الأردن على المخططين لما يسمى هجمات الألفية ضد مرافق إسرائيلية وأمريكية، والتي كان من المفترض أن تُنفذ مع دخول الألفية الجديدة. قرابة 20 فرداً من جماعة إرهابية كانوا في السنوات التي سبقت «في معسكرات تدريب القاعدة في أفغانستان»، ولكن كانوا أيضاً في ضيافة خصمهم الإيديولوجي «في معسكرات تدريب حزب الله في لبنان وفي معسكرات تدريب في سوريا، حيث تدربوا على استخدام الأسلحة والمتفجرات.»[23]

كان الإرهابيون بالنسبة للنظام السوري أداة، سلعة، وأيضاً ضماناً له من هجمات رفاقهم الأصوليين. وكلما زاد اعتماد الإرهابيين على هذا النظام، تصبح السيطرة عليهم أسهل. وبالمناسبة، لم تكن دمشق هي وحدها من اتبع هذا النهج. فـ«الحرس الثوري» الإيراني (أو حرس الباسداران)، والذي يعمل وكأنه دولة داخل دولة، استضاف هو الآخر اعتباراً من أواخر عام 2001 أعداءه الألدّاء، فيما يُعرف بـ«guestages»، وهو مصطلح كما يوضحه لاحقاً رجل استخبارات عسكرية أمريكي: هو لفظ منحوت مؤلف من كلمتي ضيوف (guests) ورهائن (hostages). وبناءً عليه كان أفراد رفيعو المستوى من تنظيم القاعدة (من بينهم القائد العسكري سيف العدل وابن أسامة بن لادن)[24] قد جلبهم الحرس الثوري[25] إلى مدينة زاهدان النائية، التي تبعد عن طهران مسافة 1600 كيلومتر وتقع في المثلث الحدودي بين إيران وأفغانستان وباكستان. هنا وصل أيضاً أبو مصعب الزرقاوي، وأبو غادية كبير مهربي القاعدة والذي قتله الأمريكان أيضاً في وقت لاحق، وكذلك الكويتي محسن الفضلي الذي قتله الأمريكان في خريف عام 2014 في سوريا.[26]

«جلبتهم السلطات الإيرانية إلى هناك»، حسب نايجل إنكستر، المدير السابق للمخابرات البريطانية الخارجية (إم آي 6)، «لكي تتمكن لاحقاً من استخدامهم كورقة مساومة في المفاوضات النووية».[27] أو غير ذلك أيضاً: ففي حالة الزرقاوي حرر المكتب الاتحادي الألماني للتحقيقات الجنائية «التقرير التقييمي» السري لعام

2004، وجاء فيه أن الزرقاوي و«بفضل دعم لوجيستي من جهة رسمية»[28] أقام في إيران، وسبق أن سافر في عام 2002 إلى شمال العراق وسوريا ولبنان، قبل أن يذاع صيته في العراق في نهاية عام 2003 أو مطلع عام 2004.

لكن تعين على القيادة الإيرانية أن تتجرع مرارة العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن هذا التسخير للإرهاب عندما يخرج عن نطاق السيطرة: فالزرقاوي نفسه، الذي لم تكتفِ السلطة في طهران التي نصبت نفسها حامية للشيعة بتركه حراً فحسب، بل وفرت له الحماية أيضاً، أصبح قائد تلك الخلايا الإرهابية، التي ستفتك في السنوات القادمة بأرواح عشرات آلاف الشيعة في العراق. حتى قبل موجة الهجمات الانتحارية التي شنتها القاعدة وهزت العراق، دبر الزرقاوي عدة اعتداءات في وطنه الأردن، حيث أصبح على قائمة المطلوبين للعدالة هناك: الجناة، الذين اعترفوا فيما بعد بأنهم حصلوا منه على القنابل اليدوية ومسدس ومال، قتلوا في شهر تشرين أول/ أكتوبر 2002 الدبلوماسي الأمريكي لورنس فولي في عمان. تدربوا في سوريا.[29] وقد تم تسليم المال عن طريق شاكر العبسي، رفيق درب الزرقاوي لسنوات، والذي فرّ بعد حادثة الاغتيال عائداً إلى سوريا. طالب الأردنيون بتسليمه، ولكن دمشق رفضت ذلك: بزعم أنه رهن الاعتقال. لكنه في الحقيقة كان يدرب في سوريا مسلحين تابعين لتنظيم القاعدة في العراق[30] - وظهر لاحقاً في لبنان من جديد، كقائد لمجموعة فتح الإسلام الإرهابية، التي دعمتها دمشق بشكل فعال.

استهدف الاعتداء التالي للزرقاوي مبنى المخابرات العامة الأردنية ورئاسة الوزراء في العاصمة عمان بأطنان من المتفجرات، لكن السلطات الأردنية استطاعت منع حدوث ذلك في شهر نيسان/ أبريل 2004. إذ كانت السلطات تتنصت منذ شهر شباط/ فبراير على مكالمات هاتفية لعدة مشتبه بهم، ومن بينها مكالمة إلى سوريا مع اليد اليمنى للزرقاوي أبي غادية. في 31 آذار/ مارس 2004 تم إيقاف شاحنة عند الحدود كانت محملة بمتفجرات وقادمة من سوريا، وبعد أيام تم ضبط شاحنة ثانية بالقرب من الحدود.[31] العديد من الجناة الذين أُلقي القبض عليهم لاحقاً

اعترفـوا أن المجموعـة تلقت «دعماً من سـوريا، بما في ذلك وثائـق وتعليمات وقرابة 250000 دولار أمريكي. ومن بين المعاونين في سوريا المطلوب أبو غادية.»[32]

في سـوريا كانت هناك فروع متعددة مسـؤولة عن رعاية الإرهابيين. المعلومات التي كانت في الماضي معروفة بشـكل سـطحي ومتجزئ، تأكد جزء منها واستُكمل جـزء آخـر اعتبـاراً من عـام 2012، من خـلال ضباط جيـش ومخابـرات فارين أو منشـقين: «منـذ عـام 2003 أصبح المسـؤول الأعلى عـن مشـاركتنا في العراق فرع فلسطين التابع للاستخبارات العسكرية»، كما قال الرئيس السابق لشعبة التحقيق في جهاز أمن الدولة السـوري، أنور رسلان. ولهذه التسمية الغامضة أسبابها التاريخية. فقد أسـس حافظ الأسـد مخابرات ديكتاتوريته كأجهزة دون مسـؤوليات واضحة، لكي يسـتطيع أن يتأكد من أنها جميعاً تتنافس فيما بينها بشـكل مسـتمر، وليس هناك احتمال في أن تشكل أي خطر عليه مستقبلاً. وهكذا أصبحت المخابرات الجوية تثير الرعـب حتـى في نفوس المعارضـين الذين لا علاقة لهم بالطائـرات؛ لأن هذا الفرع يعد أكثر فروع الاسـتخبارات ولاءً. ومن ناحية أخرى فإن فرع فلسـطين مسـؤول عـن العمليات الخارجيـة، والتي لا علاقة لهـا بإسرائيل على الإطـلاق. المدير العام للفـرع آصف شـوكت صعد إلى دائرة السـلطة الضيقة بفضـل زواجه من "بشرى" شقيقة بشار الأسد.

"إذا صادفنـا إرهابيـين أثنـاء التحقيقـات، فعلينـا إخبـار رجـال شـوكت على الفور"، يواصل رسـلان: "في بداية عام 2005 كنا نفتش شـقة في المزة"، وهو حي راقٍ في غربي دمشـق، "وعثرنا هنـاك على وكر إرهابي: مواد أوليـة لصناعة القنابل، وإرشـادات عـن صنع السـموم، وفلاشـات، وأجهـزة كمبيوتر، وجوازات سـفر، وشاب سعودي. عندما اعتقلناه، تذمر قائلاً: إنه من رجال الزرقاوي في السكرية"، وهـي قرية بالقرب من الحدود العراقية. "اسـتعلمنا الأمـر، فجاءنا الجواب سريعاً: 'نعـم، لقد تـم الاتفاق مع آصـف'. لقد جـاء الآلاف إلى العراق عبر سـوريا، عن طريقه، عن طريق مكتبه."

لكـن ذلك لا يعني أن هنـاك أجهزة أخرى ضالعة أيضـاً: فعندما أراد مدير فرع رسـلان، علي مملوك، لقاء أحد أتباع الزرقاوي، أحضره زملاء رسـلان من الحدود. "تجـب عليهم معاملة أبي سـفيان بلطـف، ونبهنا، 'نريد عقد صفقـة معه'." وصل أبو سـفيان، وتم اعتقاله ووُضع بين يديه الخيار: "تعاون معنا، وسـنطلق سراحك، ونعطيـك مـالاً فوق ذلـك." "لقد كان رخيصـاً، قبِل بمبلـغ 300 أو 500 دولار، كان سـمكة صغـيرة"، يتذكر رسـلان. لكن أبا سـفيان لم يكن بهذا الصغر بالنسـبة للمحققـين، الذين اعتقلوه في إسـبانيا قبـل أعياد ميلاد 2005 بقليـل بصفته زعيم إحدى خلايا القاعدة، وكان يعتزم تجنيد انتحاريين للعراق.

وفي سـوريا ذاتها سُـمح لسنوات لداعية سـوري متشـدد معروف بأنه يدعو إلى الجهاد في العلن، ويجند شباباً سوريين، وأجانب أيضاً، ليذهبوا إلى القتال في العراق. أبـو القعقـاع، خطيـب موهـوب متمكـن، طالب أمـام المئـات، "بذبـح الأمريكان كالأبقـار"، وكان يشـيد بالجهاد ويشرف على معسـكر تدريب خـاص به – في بلد، لمجرد أن من يبدي فيه تعاطفاً، ولو من بعيد، مع جماعة الإخوان المسلمين، يختفي في غياهب السجون، وفي بلد حتى أداء الصلاة فيه ممنوع في القوات المسلحة. سُمح لأبي القعقاع أن يخطب في واحد من أكبر مسـاجد حلب، وكان يسير في الشوارع مستقلاً سيارة مرسيدس فارهة، برفقة حراس شخصيين مسلحين.[33] لقد كان اللواء هشام بختيـار، الذي شـغل منصب مديـر إدارة المخابرات العامة حينهـا، هو الذي أعطى الأمـان لأبي القعقاع، على الأقل حتى تم اسـتنفاد فائدته، فقتلـه «إرهابيون» في عام 2007، كما أشيع.

كـما تدخـل وزير الداخلية السـابق غـازي كنعان أيضـاً: إذ كان يتبـع لـ «نادي الشرطة»، في حي مساكن برزة في دمشق، منزل ضيافة صغير وسري، والذي يتذكر مديره لاحقاً بأدق التفاصيل الضيف الوحيد الذي أقام فيه لعدة أشـهر: أبا مصعب السـوري، المُنظـر الكبـير لتنظيم القاعـدة. «كان طويلاً، نحيلاً، ذا لحيـة حمراء، حاد الـذكاء، متحفظـاً»، كما يقول العميـد إبراهيم الجباوي، الذي تـولى فيما بعد منصب نائـب قائـد شرطـة محافظة حمـص: «وصل السـوري في شـهر تشريـن ثاني/ نوفمبر

2004، وفي كل صباح كانت تُقله سيارة 'فرع الأمن السياسي'، الذي يتبع لوزارة الداخلية. ويعود عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، ملتزماً الصمت. لم يأت إلى مكتبي سوى مرتين، ليستعلم عن مصبغة لغسل قمصانه."

وأيضاً فيما يتعلق بتمويل الإرهاب على الجانب العراقي من الحدود، لم يترك النظام السوري شيئاً للصدفة. فقد كان التمويل بيد رجل، كان بشار الأسد قد عينه بنفسه رئيساً للجناح العراقي لحزب البعث السوري: فوزي الراوي، مسؤول سابق في حزب البعث، فرّ من بغداد في عام 2003 إلى الدولة الجارة. وفي عام 2007 وضعته وزارة الخزانة الأمريكية على قائمة ممولي إرهاب القاعدة. وحسب الحكومة الأمريكية، فإن الراوي "يتلقى دعماً مادياً من الحكومة السورية ولديه صلات وثيقة بأجهزة الاستخبارات السورية"، وبالتحديد بآصف شوكت، مدير الاستخبارات العسكرية. ومنذ عام 2005 كان يزود تنظيم القاعدة في العراق بالمال والسلاح والسيارات المفخخة: "حصل على دعم مالي مباشر من ذو الهمة شاليش، رئيس الأمن الرئاسي، وكان من عناصر الحماية الشخصية لحافظ الأسد."[34] وعن طريق شركة (إس. أي. إس) التي يملكها شاليش، حصل نظام صدام حسين طيلة سنوات وحتى مطلع عام 2003 على معدات عسكرية مستوردة من جميع أنحاء العالم، ملتفاً على الحصار على الأسلحة الذي فرضته عليه الأمم المتحدة. ومن هنا توطدت الاتصالات السورية بقيادات صدام منذ سنوات. ومن داخل هيكل السلطة السورية كان كثيرون على دراية بتلك الصلات، وحتى بالنسبة لطياري سلاح الجو، الذين كانوا يجب أن يحلقوا بشكل متعرج فوق البادية الشرقية: «لم يُسمح التحليق فوق منطقة التنف على الإطلاق، والتي تقع في جنوبي البادية على الحدود العراقية مباشرة. فهناك كان يوجد أحد معسكرات رجال الزرقاوي، وكل واحد منا كان يعرف ذلك»، كما يقول العقيد الطيار المنشق إسماعيل أيوب.

بعد فترة؛ توالت انتقادات الجنرالات الأمريكان المحبطين من لعبة سوريا المزدوجة: فهذا البلد «يوفر مأوى للقاعدة»، وهو «ملاذ لقتلة لهم اتصال بأجهزة الاستخبارات السورية»[35]، وقد «دعمت أجهزة استخباراته تحركات مقاتلي

القاعـدة من خلال نقلهـم من مطار دمشـق إلى الحدود السـورية الشرقية».[36] وفي 11 تموز/ يوليو 2008 أبرقت السـفارة الأمريكية في بغداد إلى واشنطن: «شبكة أبي غادية هي أهم صلة بالنسـبة للإرهابيـين الأجانب القادمين إلى العراق للانضمام إلى تنظيم القاعدة في العراق. وهو يعمل بعلم الحكومة السـورية ويرسـل جميع إرهابييه الأجانب تقريباً عبر الحدود السورية إلى العراق.»[37]

بالنسبة لـــ ديفيد بتريوس، قائد القوات الأمريكية في العراق من عام 2008 وحتى عام 2010، تحولت الحرب الخفية مع سوريا إلى كابوس مقيت على ما يبدو. وقد حذر مـراراً شركاءه في الحـوار، رئيس الـوزراء العراقي المالكي، والرئيس اللبناني سـليمان، وحتى رئيس الوزراء الإيطالي سـيلفيو برلسكوني[38]، من أن «السوريين يمارسون لعبة مزدوجة خطرة؛ فمن ناحية يؤكدون على التزامهم بالتعاون الأمني، ومن ناحية أخرى يغضون الطرف عن أنشطتهم الداعمة لإرهابيي تنظيم القاعدة في العراق. (...) يدرك بشار الأسد تماماً، أن صهره، مدير الاستخبارات العسكرية آصف شوكت، على معرفة مفصلة بأنشطة كبير مهربي تنظيم القاعدة في العراق أبي غادية، الذي يستخدم الأراضي السورية لجلب مقاتلين أجانب وانتحاريين إلى العراق.»[39]

في نهاية شـهر تشريـن أول/ أكتوبر 2008 هبطت عدة مروحيـات تابعة لقوات العمليات الخاصة الأمريكية «تاسك فورس 88» في قرية السكرية القريبة من مدينة البوكـمال الحدوديـة على الجانب السـوري، وأطلق الجنود النار عـلى أبي غادية، كبير المهربـين اللوجيسـتيين في القاعدة، وعدد من أتباعه. لقـد كان نفس الرجل المتورط قبـل سـنوات بتنفيذ هجـمات عـلى الأراضي الأردنيـة، وطالبت السـلطات المحلية دمشـق بتسـليمه ولكـن دون جـدوى.[40] ومنـذ شـهر شـباط/ فبراير 2008 كان الجيش الأمريكي يرصد من الجانب العراقي تحركات أبي غادية ومحيطه.[41] وحسب تصريحـات الجيش الأمريكي، كان أبو غادية منسـق عمليـات التهريب للقاعدة منذ عام 2004 في سوريا، وكان يتلقى أوامره من الزرقاوي مباشرة وبعده من خليفته، وكان يدير شـبكته اللوجيستية بالتنسيق مع أجهزة الاستخبارات السورية، حتى إن شـبكته كانـت تمتلك منـازل في اللاذقية، بعيدةً كل البعد عن الحـدود.[42] ويقال إن

شـقيقه والعديد من أقربائه كانوا منضمين لتنظيم القاعـدة في العراق أيضاً، ونفذوا هجمات في العراق، استهدفت كل من يعمل مع الجيش العراقي أو الأمريكي.[43]

احتجـت الحكومة السـورية على انتهـاك حدودها، واعتـبرت أن مقتل أبي غادية «عـدوان إرهابي» أقدمـت عليه الولايات المتحدة.[44] ولكن قبل ذلك الوقت لم يكن أبـو غادية يتعرض لمضايقات. فقد كان يصول ويجول في سـوريا، ويتنقل بين المنطقة الحدوديـة ومكان إقامته في مصيف الزبداني الراقي خارج دمشـق على سـفوح جبال لبنـان. ومن المنطقي أن تجري اعتباراً من عام 2007 عدة لقاءات رفيعة المسـتوى في ذاك المكان الوديع وحوله: ضباط أجهزة استخبارات سوريون مسؤولون عن اللعبة المزدوجة ذات الصلة بالإرهاب، ومسؤولون في حزب البعث السوري، ومسؤولون في حزب البعث العراقي (الذين ينسقون من سوريا) ويعملون في الخفاء، التقوا بقادة تنظيم القاعدة في العراق. ويُزعم أنه كان معهم: حجي بكر، العقيد السابق الغامض في مخابرات القوات الجوية العراقية، الذي سـيكون له في وقت لاحق دور حاسـم في التخطيط الاسـتراتيجي لتنظيم «الدولة الإسـلامية». وكان بعض الاجتماعات يُعقد أيضاً في خان الشـيح، إحدى ضواحي دمشـق، حيث امتلك حجي بكر منزلاً لفترة مـن الزمن، وكذلك في بلودان، وهو مصيف مسـيحي بالقرب مـن الزبداني. ويعود الفضـل في كشـف النقاب عن اجتماعـين عُقدا في الزبداني في مطلـع عام 2009، إلى الصدفـة البحتة، فقد كان مخـبر، تابع لرئيس المخابـرات في وزارة الداخلية العراقية، حاضراً في الاجتماع، ومعه آلة تصوير صغيرة. «كان ذلك أهم مصدر نحصل عليه»، يـروي اللواء حسـين علي كـمال، وهو كـردي علماني، لـ مارتين تشـولوف، مراسـل صحيفـة الغارديـان البريطانية اليوميـة، قبل وفاته بمرض السرطـان في عام 2014. كان الهدف من اللقاء التحضير لسلسـلة هجمات كبيرة في بغداد.[45] قد تصيب تلك الهجمات حكومة المالكي، ولكنها في نهاية المطاف موجهة ضد الأمريكان.

ووفقـاً لجندي أمريكـي في فرقة اسـتطلاع، فقد تم تعيين خليفـة لزعيم المهربين اللوجيستي المقتول أبي غادية، وراح يواصل عمله دون عوائق، في التجنيد والتمويل ونقل الرجال إلى الجانب العراقي.[46] وعلاوة على ذلك، لوحظ في شـهر حزيران/

يونيو 2009 وصول رجل رفيع المستوى في تنظيم القاعدة إلى دمشق: الشيخ عيسى المصري، الذي كان قد اعتُقل في شهر كانون ثاني/ يناير في باكستان، ومن ثم أُطلق سراحه مجدداً، وهو يعد واحداً من المخضرمين في الدوائر الجهادية، ومع أنه جاوز السبعين عاماً، إلا أنه يُعدُّ من المروجين المؤثرين للعمليات الانتحارية، كما أنه كان مستشاراً روحانياً لأيمن الظواهري.(47)

في صيف عام 2009 بدأت التحريات في كل مكان في بغداد وما حولها عن منفذي الهجمات المحتملين، وشلت المتاريس الخرسانية المنتشرة المدينة، ولكن دون جدوى. في 19 آب/ أغسطس 2009 هزت سلسلة انفجارات عنيفة متعاقبة المدينة على نهر دجلة، قُتل 101 شخص، وجُرح أكثر من 600. «لقد فشلت»، اعترف كمال. وثارت حفيظة رئيس الوزراء المالكي. «كان عليّ تقديم كل ما بين يدي إلى السوريين»، يتذكر كمال. حينها لعبت تركيا دور الوسيط. «طرت بالوثائق إلى أنقرة. لم يستطيعوا إنكار أي شيء إطلاقاً. كانت الأدلة واضحة كالشمس، وكان السوريون يعرفون ذلك. لكن علي مملوك، مدير أمن الدولة، نظر إلي مبتسماً وقال: 'لن أعترف بممثل دولة تحتلها الولايات المتحدة.' لقد كانت مضيعة للوقت.»(48)

وعلى هذا المنوال، كان الجنرالات والدبلوماسيون الأمريكان يحذرون دوماً، فكان يأتي الرد ذاته من ممثلي الحكومة السورية في كل مرة دون كلل أو ملل، أنهم يبذلون أقصى ما باستطاعتهم للحد من التدفق المستمر للمسافرين للجهاد: في شهر آب/ أغسطس 2008 أطلع وزير الداخلية بسام عبد المجيد والوفد المرافق له القائم بالأعمال الأمريكي على أنه تم اتخاذ جميع الخطوات الضرورية للحد من عبور الحدود بطريقة غير شرعية. أقيمت نقاط تفتيش جديدة، حتى إنه تم وضع سواتر رملية ومتاريس خرسانية، وقد بلغت تكلفة كل تلك التدابير ما يعادل عشرة مليارات دولار أمريكي.(49)

وكانت دمشق، وبخاصة بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، تتعاون مع السلطات الأمنية الأمريكية والألمانية أيضاً – ولكن بطريقة انتقائية جداً. كما حدث

مـع الألمـاني من أصل سـوري محمد حيـدر زمار ضمـن إطار عمليـات الاختطاف السرية التي كانت تقوم بها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (سي. آي. إيه)، فقد تم اختطاف زمار في نهاية عام 2001 في المغرب، وأبدت القيادة السورية استعدادها للتحقيق معه في دمشـق. على الأرجح كان يجب أن يصاغ الأمر كالتالي: الاسـتمرار في تعذيبه إلى أن يعترف. سـافر وفد من دائرة الاسـتخبارات الاتحادية الألمانية (بي. إن. دي) في عام 2006 إلى دمشق، لاستجواب زمار أيضاً، ودوّن الوفد ملاحظاته، حتـى وإن زعم السـجين أنـه تعرض للـضرب، فإن يدي السـجين كانتـا «نظيفتين ومعتنـى بهما». وكان هناك أيضاً متشـددون قادمون إلى سـوريا، فقامت السـلطات السـورية باعتقالهـم وترحيلهـم. كان التركيز منصبـاً على العائديـن؛ لأن رجوعهم أحياء من العراق من جديد لم يكن ضمن حسابات النظام السوري. كثير من هؤلاء العائدين اختفوا لسـنوات في السـجون السورية، وبخاصة في سـجن صيدنايا. لقد اتضـح مع مـرور الوقت أن السياسـة التي ينتهجهـا النظام السـوري كانت ناجعة: إظهـار التعاون، وعدم اتخاذ مواقـف متصلبة تجاه الولايات المتحدة، كما فعل صدام حسـين، بل الكذب بلطف وإلحاح – وما بـين الفينة والأخرى فعل نقيض ما يقوله المسؤولون في الرسائل التي ينقلونها أو في العلن.

وفقـاً لتقديـرات الجيـش الأمريكـي، في فـترة ذروة الإرهـاب حتـى عامـي 2006/ 2007 اجتـاز مـا بـين 80 إلى 150 انتحاريّـاً أجنبيـاً الحدود السـورية إلى العراق شهرياً، وفيما بعد انخفض العدد، لكن عملية النقل ظلت مستمرة. وعلى مرّ السنين فإن تسـعة أعشار الانتحاريين في العراق دخلوا البلاد عن طريق سوريا.[50] ومع حلول عام 2008 بدأ التيار الإرهابي يتراجع ببطء.[51]

لقد كانت المفارقة التاريخية من كل ذلك هي: أن واشـنطن كذبت بشأن الحرب، التـي شـنتها على صـدام حسـين في عـام 2003. بينـما اعتنى نظـام الجارة سـوريا، وبخاصـة الاسـتراتيجيين آصف شـوكت وعـلي مملوك، بعلاقـات وثيقـة بالقاعدة ودعم الإرهاب، لطالما صبّ في مصلحته وأبقى الولايات المتحدة منشغلة في العراق لسنوات، بحيث لا تفكر واشنطن بعد ذلك بالإطاحة بديكتاتورية أخرى.

وعندما صفت الأجواء بين دمشق والولايات المتحدة بعض الشيء وتوجه منسق مكافحة الإرهاب في وزارة الخارجية الأمريكية، دانييل بنجامين، على رأس وفد رفيع المستوى لزيارة دمشق في شهر شباط/ فبراير 2010، تفاجأ بضيف غير متوقع: علي مملوك، مدير أمن الدولة، الذي سخر قبل أشهر من جميع الإثباتات بضلوع سوريا في دعم الإرهاب في العراق. وفي لحظة تجلٍ نادرة روى للضيوف الأمريكان كيف يتعاملون في سوريا مع القاعدة: «نحن لا نقتلهم فوراً. أولاً نخترق منظماتهم ونجمع المعلومات. وبعد ذلك، عندما تسنح الفرصة، نتصرف معهم.»[52]

جبهة الشبح

جبهة النصرة هي رسمياً النواة التي انبثقت عنها «الدولة الإسلامية» في سوريا. وعندما هزت تفجيراتها دمشق وحلب، لم تكن هذه الجماعة موجودة على الأرض بعد. بعد أشهر لاحقة جذبت ماركة «النصرة» مولين ومقاتلين، فبدأت الحياة تدب في التنظيم.

لم يولِ أحد أية أهمية كبيرة لـ«تنبؤات» نزار نيوف، الذي أطلق على نفسه لقب «خبير أمني»، قبل فترة عيد ميلاد 2011 بفترة وجيزة. فمن جهة، بدا خيالياً بشكل مبالغ فيه، أن تقوم «في الساعات القادمة، وربما في الصباح الباكر» جماعة جهادية جديدة في دمشق بأول أكبر اعتداء لها على مقر المخابرات الرئيسي. ومن ناحية أخرى، فإن الكاتب وموقعه الإلكتروني «الحقيقة» كانا في السابق (كما هو الحال لاحقاً) يبدوان أقرب إلى أن يكونا بوقاً يردد المعلومات التي كانت دمشق تقولها لزوارها الرسميين: أن حركة التمرد في البلاد هي عمل متطرفين أجانب. وتقف خلفها، كالعادة، مؤامرة صهيونية.

نيوف، الذي كان معتقلاً لسنوات قبلها في السجون السورية وبعد خروجه من السجن ذهب ليعيش في منفى أوروبي، كان على علم حتى بالاسم الكامل للجماعة الجديدة، وكذلك اسم زعيمها: «جبهة النصرة لأهل الشام من مجاهدي الشام في ساحات الجهاد» تشكلت من إرهابيين مطلوبين للسلطات السورية منذ سنوات. زعيمها هو أبو

محمد الجولاني، أحد مقاتلي القاعدة، وأصله من مرتفعات الجولان المحتل. ادعى نيوف أنه حصل على هذه المعلومات عبر اتصالاته الخاصة مع أجهزة الاستخبارات الأوروبية، وبخاصة الفرنسية، وكذلك مع الاستخبارات الأردنية. بحيث إن هذا التطور الجديد هو الموضوع الشاغل لأجهزة الاستخبارات الغربية منذ فترة.[53]

وبعدها وقعت المصادمات بالفعل، للمرة الأولى منذ بدء الاحتجاجات ضد نظام الأسد في مطلع عام 2011: في 23 كانون أول/ ديسمبر عند الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، هزّ انفجار ضخم مجمع مديرية الأمن العام في منطقة كفر سوسة في دمشق. ووفق ما ذكر التلفزيون الرسمي، الذي حضر بسرعة البرق إلى موقع التفجير، فقد قُتل 44 شخصاً، وجُرح أكثر من 160. الاعتداء «يحمل توقيع القاعدة بوضوح»، كما ذكرت وكالة الأنباء السورية الرسمية سانا نقلاً عن متحدث باسم وزارة الداخلية.[54] وفي السادس من شهر كانون ثاني/ يناير 2012 وقع انفجار ثانٍ في حي الميدان الدمشقي، أودى بحياة 25 شخصاً وأُصيب أكثر من 60 آخرين بجروح. بدا وكأن تنبؤات نيوف محقة. ولكن المشكلة الوحيدة كانت: أن المصادر التي ذكرها لم تكن صحيحة. لقد فاجأت الانفجارات أجهزة الاستخبارات في فرنسا وألمانيا والأردن، تماماً كما فاجأت بقية دول العالم. باستثناء الجناة والمخططين المجهولين ونزار نيوف. لم يكن أحد يعرف شيئاً عن مدبر الهجومين، ولم يكن أحد قد سمع عن جبهة النصرة وزعيمها.

كان ذلك مجرد بداية الأمور الغريبة. أما فيما يتعلق بالانتحاريين المزعومين، فقد قيل لاحقاً إنهم دخلوا بسيارتهم عبر البوابة الرئيسية. لكن لماذا ساروا بالسيارة عدة هكتارات عبر المجمع الضخم ليصلوا إلى مخرجه من الطرف الآخر، والذي هو أصلاً لا تمر من خلاله السيارات؟ لأنه في ذاك الموقع، في الجانب الشمالي من المجمع، انفجرت سيارة من طراز جي إم سي رباعية الدفع، بعد ثوانٍ على وقوع انفجار صغير جنوب المجمع. كانت البوابة مخصصة للمشاة فقط. ولماذا تصاعد دخان من الطابق الخامس، ما دام الانفجاران حدثا على الأرض؟ على الأقل هذا ما أظهرته الصور التلفزيونية.

وبشكل عاجل بعد وقوع الانفجار الأول في كفر سوسة نشر موقع إلكتروني على شبكة الإنترنت بياناً وهمياً، يدعي مسؤولية جماعة الإخوان المسلمين عن التفجير، وهي حزب محظور وملاحق منذ 30 عاماً، تجرأ في عام 1982 على القيام بتمرد مفتوح في مدينة حماة. لكن سرعان ما نفت قيادة الحركة من منفاها: ليست للجماعة أية صلة بالتفجير، وليست لها صلة بالموقع الإلكتروني الذي تبنى مسؤولية التفجير، وأن المخابرات السورية هي التي تقف وراء التفجير. وفي دمشق راجت شائعات سيؤكدها رجال أمن منشقون بعد فترة طويلة من الزمن: قبل حدوث الانفجار بوقت قصير جاءت إلى المنطقة حافلة نقل مغلقة محملة بجثث، سيتم عرضهم لاحقاً على أنهم ضحايا. في بادئ الأمر بدا الأمر وكأنه خيال، لكن البلاغات الرسمية عززت الشكوك: في 24 كانون أول/ ديسمبر، بعد يوم واحد من التفجير، شُيع الضحايا في مراسم حداد في المسجد الأموي، أشهر مساجد سوريا في وسط دمشق القديمة. وكانت التوابيت ملفوفة بالعلم السوري، ووُضع على كل نعش ورقة كتب عليها اسم من بداخله. ورقتان فقط كُتب عليهما اسمي ميتين. أما الأوراق الباقية، فقد كُتب عليها فقط: «الشهيد مجهول». ولكن، في حال أن القنبلة انفجرت في باحة مبنى المديرية وأصابت الأفراد هناك، فكيف لم تُعرف أسماؤهم؟ وفي 27 كانون أول/ ديسمبر نشرت وكالة الأنباء السورية الرسمية سانا قائمة «شهداء الهجمات الإرهابية» من الجيش وأجهزة المخابرات. غير أن ستة أسماء وردت في القائمة كانت متطابقة مع ضحايا سبق وأن أعلنت سانا عن مقتلهم في أماكن أخرى. وعندما نشرت الوكالة في اليوم التالي أسماء ضحايا من حمص ودمشق، ظهر ثلاثة أشخاص آخرين كان يُفترض أنهم قُتلوا أيضاً في 23 كانون أول/ ديسمبر. «سوريا»، حسب تصريح للمعارضة، يبدو أنها «البلد الوحيد الذي يمكن أن يموت فيه الإنسان مرتين».[55]

العقيد المنشق أنور رسلان، الرئيس السابق لشعبة التحقيق في جهاز أمن الدولة، يتذكر أنه «كان يتحتم ترك آثار الهجوم في مكانها، إلى أن يراها وفد الجامعة العربية، الذي وصل لتوه. وبعدها أزالت الجرافات كل شيء، إذ لم تعد للآثار أية أهمية. نحن في شعبتنا اعتقدنا أن الحكومة تريد الضغط علينا في التحقيق لمعرفة: من هم

الجنـاة؟ أين تكمن نقـاط الضعف الداخلية التي أتاحت لمنفـذي الاعتداء الوصول إلى الباحـة؟ لكـن على العكـس: جاءنا أمر واضح بإيقاف سـير التحقيقـات.» أثناء وقـوع التفجير لم يكن رسـلان في المبنـى: «كان يُفترض أن أذهـب إلى هناك لحضور اجتـماع في العـاشرة صباحاً، لكنهم اتصلوا بي في التاسـعة وألغوا الاجتماع دون ذكر أيـة توضيحات.» أنور مالك، مراقب جزائري من بعثة الجامعة العربية، وواحد من أصـل 20 مراقباً، انسـحب من البعثـة، وأوضح في وقت لاحـق في أحد اللقاءات، «كانت البعثة برمتها مهزلة. معظم ما رأيناه كان بإشراف النظام وتدبيره.»[56]

في وسـائل الإعلام الرسمية السورية كان الحديث يدور عن «إرهابيين» دائماً، في حـين كانت المعارضة تعتقـد أن النظام هو من يقـف وراء التفجيرات، لكي يتمكن مـن دعم روايتـه بأنه يتعرض للمؤامرة الإرهابية من قِبـل القاعدة. في البداية كانت الأدلة على هذا التفسـير واهنة. ولكن، في الوقت الذي كانت فيه القنوات الرسـمية والصحف كالبعث والثورة تتشدق وتحذر من مؤامرة تنظيم القاعدة، قام النظام منذ مطلع عام 2011 بإطلاق سراح معظم الجهاديين المتشددين من سجونه على دفعات. بل وبشـكل قانوني تماماً، غير أن هذه الطرق غير مألوفة في سـوريا: قرابة 900 حالة تمـت إحالتها من محاكم ميدانية، والتي غالباً ما يتـم انتزاع الاعتراف فيها عن طريق التعذيـب، إلى محاكـم عادية. ويتم تبرئة المعتقلين على أسـاس أن محاكم الأمن لجأت إلى التعذيب، وبذا تعد التهم الموجهة إلى المعتقلين باطلة. أو كان يقال إن مدة الحكم المتوقعة قد قضيت أثناء فترة التوقيف. حتى الأحكام الصادرة مسبقاً أعيد النظر بها بأثـر رجعي من قِبل محاكم عاديـة، وكانت النتيجة ذاتها: إفـراج فوري. تم الإفراج عن مخضرمي الأوسـاط الجهاديـة المختلفة مثل «جيش الإسـلام» و«كتائب عزام»، بالإضافة إلى أفراد الإخوان المسـلمين والقاعدة مثل أبي خالد السـوري، الذي كان مع أسامة بن لادن في أفغانستان، كما أفرج النظام أيضاً عن بعض الأكراد والمعتقلين السياسـيين مثل الصحافي دياب سرية: «هكذا اسـتطاع الأسد أن يسجل نقاطاً على الغـرب، فقد كانت أوروبا وأمريكا تنددان دائماً بالاعتقالات التعسـفية. لقد كانت منـاورة ذكيـة.» إلا أن تلـك المناورة تسـببت بحالة من الاضطرابـات داخل أجهزة

الأمن السورية المتنافسة ذاتها. «لقد عارض ضباطنا هذه الخطوة»، يتذكر ضابط منشق عن فرع «الأمن السياسي»؛ لأن المفرَج عنهم هم إرهابيون خطرون فعلاً، ولا يمكن إطلاق سراحهم. «لكن الأوامر كانت صادرة من آصف شوكت»، مدير الاستخبارات العسكرية، «ومن علي مملوك»، مدير أمن الدولة، «ولم يكن بمقدورنا فعل أي شيء حيال ذلك.»

بلغ مجمل عدد الذين تم الإفراج عنهم بهذه الطريقة نحو ألف متشدد، ظهروا في فترة لاحقة في صفوف جبهة النصرة، أو كتائب المتمردين المتزمتة جداً مثل أحرار الشام، أو داعش. يتذكر جار أحد العائدين من العراق، تم الإفراج عنه، علامات الدهشة على وجهه: قال له القاضي، إن اعترافاته سُحبت منه بالقوة بالتأكيد. «لكني قلت لا، أنا أعترف أنني حاربت ضد الأمريكان»، رد الجار. اكتفى القاضي بالابتسام نافياً، وأطلق سراحه، علاوة على ذلك حصل على أجرة نقل الحافلة من أحد الموظفين.

وعندما هزّ انفجار ثانٍ العاصمة دمشق في 6 كانون ثاني/ يناير 2012، بثّ التلفزيون الرسمي بعد وقوع الانفجار في حي الميدان بفترة قصيرة لقطات درامية لرجال يصرخون وعليهم أشلاء الجثث التي تطايرت في الهواء. رافقت المشاهد موسيقى مثيرة للشفقة، والرجال يصيحون باستمرار: «الحرية؟ هذه هي الحرية؟» بينما راحت الكاميرا تصور لقطات تدعو للدهشة: شرطي ملقى على الأرض يبدو وكأنه ميت، بدأ يهم بالوقوف، لكنه عاد واستلقى ثانية عندما رأى الكاميرا. شرطي آخر زُعم أنه مصاب، كان يتكئ على مؤخرة سيارة، وعندما رأى الكاميرا تبتعد عن الأنظار، قفز وقد بدا عليه بوضوح أنه سليم - رفع يديه إلى الأعلى بانزعاج، ليشير إلى الكاميرا بأن تتوقف عن التصوير.[57] في حافلة الشرطة، التي كان من المفترض أن تكون هدف الاعتداء، أُلقيت على المقاعد دروع ملطخة بالدماء من خلال النوافذ المحطمة. رأس مقطوع، لمحه شرطي وأطلق صرخة بذعر، كان موضوعاً بعناية على صرة قماش، لكي يبقى منتصباً نحو الأعلى. ولوهلة ظهرت في التلفزيون يد المراسل تحمل مايكرفوناً، وتضع بسرعة ثلاثة أكياس نايلون بيضاء سليمة تماماً

إلى جانب بركة دم.[58] أكياس نايلون أخرى، جميعها بيضاء ولم تتعرض للتلف، كانت موضوعة في مسرح الجريمة – على غرار مخلفات المدنيين القتلى في تفجيرات مشابهة في العراق. ولكن المشهد مشابه فقط.

كانت مراسلة قناة «آر تي إل» أنتونيا رادوس تصور بالصدفة في دمشق ووصلت إلى حي الميدان بعد حدوث الانفجار بوقت قصير: «كانت هناك بركتان من الدماء بمساحة مترين ونصف، وكأنها سُكبت على الأرض، وإلى جانب البركتين كان هناك قفاز جلدي سليم تماماً. كان زجاج بعض السيارات محطماً، لكن الصفيح لم يصب بأضرار أبداً، ولم تكن تبدو على الإطلاق عواقب انفجار كبير. من قسم شرطة خرج رجل وراح يئن وكأنه مصاب. لكنه لم يكن مصاباً بأي جرح، كان سليماً تماماً. كان كل شيء غير صحيح على الإطلاق.»

في نهاية شهر كانون ثاني/ يناير ظهر فيديو على المنتديات الإلكترونية ذات الصلة بالجهاديين يتبنى التفجير. كانت رسالة من «مجاهدي الشام في ساحات الجهاد»، مدتها تجاوزت ربع الساعة، ومليئة بالمؤثرات البصرية والسمعية، وقد أعلنت الرسالة عن تأسيس جبهة النصرة، وهي بالضبط ذاك التشكيل الذي تنبأ بكل تفاصيله العراف الوحيد نزار نيوف قبل أسابيع. ولكن، من يقف وراء هذا الصعود المفاجئ للجهاد المنظم في قلب دمشق؟ التشابه الوحيد القائم لاعتراف إرهابي سابق جعل من الأمر أكثر ريبة: في شهر شباط/ فبراير 2005 بعد تفجير موكب رئيس وزراء لبنان الأسبق رفيق الحريري، أوصل ساعٍ مجهول تسجيل فيديو إلى مكتب قناة الجزيرة في بيروت. وفيه تبنى الشاب السني أحمد أبو عدس ذو الثانية والعشرين عاماً باسم «جماعة النصرة والجهاد في بلاد الشام» مسؤوليته عن الانفجار الهائل الذي أودى بحياة الحريري و22 آخرين، وتسبب بحفرة عميقة قطرها عدة أمتار.[59] حتى جماعة النصرة هذه لم يسمع عنها أحد، لا من قبل ولا من بعد. غير أن التحقيقات استمرت لسنوات بعد اغتيال الحريري، وأصدرت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان في لاهاي لائحة اتهام بحق خمسة أعضاء في حزب الله، وقد بدأت محاكمتهم غيابياً منذ مطلع عام 2014. أبو عدس، الذي خُطف قبل الإدلاء

باعترافه ويُفترض أنه قُتل، لم تكن له أية علاقة بالتفجير. لم يتم العثور على حمضه النووي في مسرح الجريمة، وقد كان سائق السيارة المحملة بالمواد المتفجرة شخصاً آخر. حتى إن أبا عدس لا يستطيع قيادة سيارة أصلاً.

بعد تفجيري دمشق سترسم شهادات رجال الأمن وضباط الجيش الفارين، مثل رئيس طاقم التنظيف التابع للمدير العام في المخابرات السورية، على مدى العامين المقبلين صورة لم تكن جديدة في الواقع، بل تكمل صورة السياسة التي كان نظام الأسد يتبعها طيلة عقد من الزمن، وهي عدم ترك الإرهاب بيد الإرهابيين وحدهم. على الجانب السوري كانت السلطة لا تزال بيد الرجال ذاتهم، الذين أشرفوا اعتباراً من عام 2003 على تدريب ونقل ورفد تنظيم القاعدة في العراق بمقاتلين جدد: آصف شوكت، صهر الأسد ومدير الاستخبارات الجوية، وعلي مملوك، مدير أمن الدولة، وجميل حسن، رئيس إدارة المخابرات الجوية. وعلى جانب كوادر الإرهاب، فقد كان قد قُتل كثيرون منهم في العراق، ولكن ليس في سوريا: «قمنا في الماضي بتدريب 1200 من رجالنا الخاصين، على كيفية التصرف كسلفيين؛ وفي عام 2011 كان لدينا الآلاف في السجون، وكان لدينا كثير من الرجال، الذين كانت لا تزال لديهم اتصالاتهم في السعودية ومصر والمغرب وغيرها»، يعدد إبراهيم الجباوي، الذي كان يشغل منصب نائب قائد شرطة محافظة حمص. «عندما ازداد الضغط الأمريكي اعتباراً من عام 2007، خفت عمليات إرسال الجهاديين إلى العراق، بل تم التحفظ عليهم في سوريا أو تم إرسالهم إلى لبنان، حيث كانت مجموعة فتح الإسلام تثير اضطرابات، بعد أن تعين علينا سحب جيشنا من هناك. وعندما بدأت الانتفاضة، تمت إعادة تفعيلهم من جديد.» يبدو الأمر بسيطاً، كما يوضح العميد الفار، «لكن تلك الاتصالات تم بناؤها عبر سنوات، وبعضها عشرات السنوات.»

حتى ذلك التاريخ كان جهاز المخابرات السوري يصدّر الإرهاب دائماً، إلى لبنان، إلى العراق، إلى تركيا. لكن الجديد الآن هو أن عليه إخراج تمثيله في عقر داره، لذا كان لا بد من الارتجال في البداية: «تسجيلات الفيديو الأولى هذه من قِبل إرهابيين مزعومين، صورناها في المكتب في البداية»، يتذكر رئيس شعبة التحقيق

أنور رسلان. «وضع علي مملوك القنابل وبنادق الكلاشينكوف، وجميع أسلحتنا، كان متحمساً جداً لهذه الفكرة. إنها فكرته. تماماً مثل القصف على حمص، عندما كان وفد الجامعة العربية هناك. لكن، بعدها أصبح الأمر أكثر تنظيماً. ففي شهر آذار/ مارس 2011 وصل إلى دمشق عدة ضباط رفيعي المستوى في حزب الله، وأربعة إيرانيين، واجتمعوا يومياً مع مملوك لأكثر من أسبوع. بعد ذلك، تم تنظيم دورة لتفخيخ السيارات بإشراف مدربين إيرانيين في خربة الورد»، وهي بلدة على أطراف دمشق، بالقرب منها وادٍ مهجور. «يتم تجهيز السيارات بمادة سي4 المتفجرة، ليتمكنوا من تمثيل هجمات إرهابية مزعومة. ذات مرة حدث خطأ ما، فتمزق إيراني إلى 100 قطعة. ونُقل زميل لي إلى المستشفى، وفقد عينه. كانت الدورة الأولى لرجالنا فقط.» كان جميل حسن، رئيس إدارة المخابرات الجوية، «منزعجاً بعض الشيء، لأن دور رجاله جاء في جولة التدريب الثانية.» تم التحضير بإحكام لتفجير حي الميدان في 6 كانون ثاني/ يناير 2012: «أرسل الإيرانيون خبراء مختصين بالمواد المتفجرة، حتى إنهم أرسلوا خبيراً بالمؤثرات التصويرية، لكي يكون الإخراج مثالياً. توجهوا قبل ذلك ليلاً إلى حي الميدان، لكي يحددوا الموقع الأنسب، وليوضحوا أين سيتمدد الجرحى، لكي يبدو التفجير حقيقياً قدر الإمكان، دون الضرورة إلى إلحاق أضرار كثيرة حقيقية. وقبل ذلك بعدة أيام كان الحديث عن خبير السينما. إذ يجب أن يبدو كل شيء بشكل مثالي.»

ثم توالت الاعتداءات، وتوالت تسجيلات الفيديو التي تتبناها: في شهر شباط/ فبراير وآذار/ مارس من عام 2012 هزّت انفجارات مماثلة مقرات الأمن في حاضرة الشمال حلب. ومرة أخرى تبنتها جبهة النصرة. أسامة درويش، كان طبيباً في مشفى حلب العسكري، يتذكر لاحقاً الاعتداءات التي ضربت مقرات الأمن هناك: «كنا تابعين للاستخبارات العسكرية، ووصلتنا بعد الانفجار في 10 شباط/ فبراير اثنتا عشرة جثة ونحو 100 جريح. الغريب في الأمر هو: أن الانفجار وقع صبيحة يوم الجمعة حوالي الساعة الثامنة والنصف. وفي حلب يستيقظ الناس في وقت متأخر، وقبل الحادية عشرة لا يأتي أي ضابط إلى مكتبه، وبخاصة يوم الجمعة، إذ يكون الجميع في

عطلة عادةً. لقد أُصيب الحراس فقط.» وعندما وقع انفجار قرب مبنى الأمن السياسي في 18 آذار/ مارس، كان هو بالقرب من موقع الانفجار، في طريقه إلى موعد في نقابة الأطباء: «سمعت الانفجار، واعتقدت أن هناك كثيراً من القتلى، فجريت مسرعاً إلى مكان الانفجار. ولكن لم يكن هناك سوى رجل واحد مصاب بخدوش على ذراعه، وعدا ذلك لم يصب أحد. فقد كان المبنى خالياً.»[60] في شهر أيلول/ سبتمبر 2012 روى اثنان (كل رواية بشكل مستقل)، كانا قد أسرا في حلب، وهما من قادة مليشيات الشبيحة المحليين، الذين غالباً ما كانوا في الماضي من أصحاب السوابق والعاطلين عن العمل لكنهم يعملون لصالح النظام، كيف حصلا في مطلع العام على مبلغ 50000 ليرة سورية (ما يعادل 800 يورو) وعبوات ناسفة، لكي يقوما بتفجيرها في أماكن متفرقة في المدينة. وأشار الاثنان إلى أنهما حصلا على العبوات من العقيد زهير بيطار بأمر من اللواء أديب سلامة، رئيس فرع المخابرات الجوية في حلب.

في كل تلك الهجمات كان هناك فراغ غريب، لم يلحظه أحد عند متابعة نشرات الأخبار وتسجيلات الفيديو التي تبنت مسؤولية التفجيرات: ببساطة لم تكن جبهة النصرة قد تشكلت بعد في دمشق ومحيطها. ولا حتى في حماة، كما كانت توحي التسجيلات. على أي حال لم تكن هناك مجموعة لديها عدد يستحق الذكر من الأفراد، أو كان لديها تواصل مع أعوان وتجار سلاح، أو كانت تتنقل عبر طرقات التهريب النادرة والمعقدة في البلاد – وهكذا كان وضع التشكيلات المسلحة القليلة التي كانت قد بدأت بالظهور للتو. كان «مجاهدو الشام» فرقة أشباح، حتى وإن كانت تسجيلاتهم المصورة عن إعلان مسؤولية عملية ما توحي بالنقيض. في نهاية عام 2011 كانت ساحة المقاتلين لا تزال محدودة تماماً، وكان البلد على اتساع رقعته لا يزال تحت قبضة النظام، على الرغم من مظاهرات الجمعة التي كانت حتى ذلك التاريخ سلمية إلى حد بعيد. في شهر كانون أول/ ديسمبر 2011، بعد أيام قليلة على أول «تفجير للنصرة»، كان لا يزال بإمكان المرء الدخول عبر الأزقة إلى الحي أو الاثنين أو الثلاثة المتمردة في مدينة حمص والعودة منها مجدداً في غضون دقائق إلى أحياء حمص «العادية».

الناشـط المدني السـوري سـامي الشـامي من ضاحية عربين الدمشقية حاول هو وطلائـع المسـلحين في المعارضة المحليـة ابتداءً من شـهر كانـون ثاني/ يناير 2012 ولمدة أسـابيع التواصل مع قيادة جبهة النصرة، تحت ذريعة أنه يجب أن يتم مسـتقبلاً تنسـيق العمليات العسكرية (التي كانت لا تزال نادرة حتى ذلك الحين في ضواحي دمشـق). حاولـوا عـبر الفيسـبوك، واسـتفسروا على نطـاق واسـع، وصرحوا عن أماكنهم، وانتظروا. وعندما وصلهم جواب عبر الإنترنت في نهاية المطاف (أن جبهة النصرة غير راغبة في لقائهم)، تساءلوا كيف سينجز المتشددون هذه الهجمات الباهرة على مقرات المخابرات في قلب المدينة؟ وكيف سـينجحون في إيصال المتفجرات إلى المدينـة؟ بقيت الإجابات أحادية الجانب، على عكس البيانات المهللة في تسـجيلات الفيديو التي كان القسم الإعلامي لجبهة النصرة «المنارة البيضاء» يصدرها.[61] مقاتلو النصرة، حسـبما جاء في الرد، اسـتخدموا شـبكات مناهضي النظـام في عربين، لكي يُدخلوا شـاحنة صغيرة مليئـة بالمتفجرات إلى المدينة. «حينهـا عرفنا أنهم يكذبون»، يروي سـامي الشـامي، «كنا نعرف شبكتنا الخاصة تماماً، وكنا نعرف الطرق الفرعية المؤدية إلى المركز، ولم تمر أية شاحنة صغيرة مليئة بالمتفجرات.»

وبعـد بحث مضـنٍ تم العثور بالفعـل في بداية عام 2012 عـلى مجموعة صغيرة مكونـة من 30 شـاباً في دمشـق، تنتمي إلى النـصرة، ويتزعم المجموعـة رجل أُخلي سـبيله مـن السـجن. معـارض، كان صديقاً لأحـد أفراد تلـك المجموعـة منذ أيام المدرسـة، يصـف المجموعـة بأنهـا بلا هـدف، وليـس بمقدورهـا القيـام بعمليات صغـيرة، سـواء عـلى الصعيد العسـكري أو المـادي، فكيف لهـا أن تُقدم عـلى تنفيذ تفجـيرات كبـيرة؟ «أمـير المجموعـة أبـو ماهـر كان إسـكافياً، وكان تابعـاً صغيراً، انتهـى بـه المطاف في السـجن. وحتى شـهر آذار/ مارس 2012 نقـص من الثلاثين فـرداً شـخصٌ واحد، قُتل صدفة أثناء سـقوط قذيفة هاون. لـو أن المجموعة كانت قد نفذت هجمات انتحارية، لكان عدد قتلاها أكثر – ولكانت تفاخرت بشـهدائها. عوضـاً عن ذلك، لم تقم المجموعة بأية ردة فعل، إلا عندما نشر النظام مقاطع فيديو تُحمّـل النصرة المسـؤولية عن التفجـيرات. حينها ظهرت المجموعـة فجأة بتيه؛ لأن

ذلك يعزز وضعها بين الآخرين. لكن، من الذي نفذ الهجمات فعلاً؟ كان ذلك أمراً لا يعني المجموعة.»

ولكن بغض النظر عن هذه المجموعة الصغيرة، فإن البحث لمدة أسابيع طويلة عن حضور ملموس لجبهة النصرة في معاقل المعارضة، مثل حمص أو حماة أو إدلب، لم يأتِ بأية نتيجة. بقيت المجموعة مجرد شبح تنشر باستمرار تسجيلات فيديو مكلفة لتفجيرات درامية، حتى إنها قدمت نفسها على أنها تقوم بتوزيع مواد غذائية على سكان القرى: باستخدام سيارات دفع رباعي حديثة، أُلصقت على أبوابها حديثاً أوراق بحجم «أي 4» مثبتة بشريط لاصق، ومكتوب عليها «جبهة النصرة، لجنة الإغاثة».

وابتداءً من شهر نيسان/ أبريل 2012 ظهرت أولى مجموعات النصرة على الإطلاق، في حمص وبخاصة في ريف إدلب الشمالي، الذي كان مقصد كثير من المتشددين المفرَج عنهم. في قرى وبلدات إدلب كانت هناك، لسنوات طويلة، قبل المذبحة التي ارتكبها نظام الأسد في عام 1982 في حماة، مقاومة شديدة ضد النظام الديكتاتوري. كثيرون ممن انضموا إلى الثوار هنا كانوا أبناء المقتولين أو المعتقلين المغيبين الذين لم يعد لهم أثر بعد اعتقالهم. أنتج ريف إدلب أشكالاً مختلفة جداً للمقاومة ضد نظام الأسد: هنا تشكلت في وقت مبكر جماعات مسلحة، ولكن كانت هناك مناطق مثل قرية كفر نبل، اشتُهرت برسوماتها الكاريكاتورية اللاذعة في مظاهرات الجمعة. كما كان هناك أيضاً شيوعيون ومتزمتون، وكذلك مجموعات متمردين صغيرة علمانية، التي جندت في البداية مهربي المشروبات الروحية والسجائر، ولهذا السبب وغيره كانت ترى في إقامة دولة دينية فكرة سيئة جداً. في إدلب وريفها كان هناك متسع للجميع.

وحتى لجبهة النصرة أيضاً، التي كان الآخرون يسخرون من أولى مجموعاتها الصغيرة ويعتبرون أفرادها «شرذمة من الأطفال»، الذين تبرع لهم الجيش السوري الحر ببعض الأسلحة. لكن الأمر تغير عندما انضم من لبنان متشددون خبيرون بالقتال إلى جبهة النصرة، بخاصة من صفوف مجموعة فتح الإسلام الغامضة، التي

تتهمها الحكومة اللبنانية بأنها من صنع المخابرات العسكرية السورية. حاول أحد كوادر فتح الإسلام، ويدعى وليد البستاني، إنشاء «إمارة حمص الإسلامية»، لكنه فشل بعد أسابيع قليلة. وتماماً كما فعل تنظيم «الدولة الإسلامية» بعد عام، كانت مجموعة البستاني منهمكة في عمليات خطف متمردين آخرين وتصفيتهم، إلى أن قُتل البستاني من قِبل الجيش الحر. بعض الأفراد السوريين الجدد في جبهة النصرة تركوا المجموعة بسرعة: «لقد كان الغموض يكتنف قيادتها»، يتعجب جندي منشق لاحقاً: «تركت المجموعة عندما لاحظت أن كثيراً من قادتها ليسوا سوريين، بل لبنانيين أو فلسطينيين، كانوا يتعاونون في الماضي مع المخابرات السورية.»[62]

وابتداءً من شهر تموز/ يوليو 2012 عندما اندلعت معركة حلب، ظهرت وحدات مقاتلة كبيرة للنصرة في ثاني أكبر مدينة سورية وحولها. قرابة 200 رجل كانوا هناك، نصفهم أجانب، الأمر الذي كان مستهجناً حينها: شيشان وتونسيون وسعوديون. كانوا يُعدّون جسورين، ومنعزلين إلى حد كبير عن الآخرين، وطبقوا منع التدخين بصرامة، وهو أمر احتل حيزاً واسعاً من النقاش أكثر من موضوع ظهور مقاتلين أجانب للمرة الأولى في الخطوط الأمامية.

نمت جبهة النصرة بتردد. وفي مطلع شهر أيلول/ سبتمبر 2012 التقينا في قرية سبخة الجبول الصغيرة في جنوبي شرق حلب كتيبة محلية يتزعمها الأمير أبو طلحة. تتألف الكتيبة من اثني عشر رجلاً كانوا يعرفون بعضهم منذ فترة. وكانوا على استعداد للحديث معنا، وذلك لأنهم يعرفوننا قليلاً وكذلك نعرف نحن بعض الأمور عنهم. إذ كان أبو طلحة صديقاً من أيام المدرسة لرجل التواصل في المنطقة، والذي كان من ناحيته يعرف جيداً الرجل الذي يستقصي المعلومات لنا. في منتصف عام 2012 كانت سوريا مدمرة، وكان المسلحون منتشرون في كل مكان، وظهر عدد كبير من الغرباء، لدرجة أن الأحاديث كانت تُستهل بسؤال: «مِن بيت مَن؟»، من أين أنت؟ ومن أي أسرة، مدينة، عشيرة؟ كانت الثقة العمياء قاتلة، وكان الوضع حساساً بالنسبة للصحافيين: فقد كان الغرباء يروون ما يحلو لهم. ولأن النظام في دمشق استعان عمداً بشهود مزورين، ولأن الطرف الآخر كان يميل إلى المبالغة أو

أن يحكي ما يظن أن السائل يريد أن يسمعه؛ كنا نتبع دوماً سلوكاً مزدوجاً: كنا نريد نحن أيضاً أن نعرف مع من نتحدث.

أتباع النصرة، وخاصة الأجانب منهم، كانوا نادراً ما يتحدثون إلى الصحافيين. وإن تحدثوا، كانوا يقولون غالباً إن تفاصيل معينة تخضع للسرية. تحدث أبو طلحة ورجاله بحرية عن الحياة الداخلية لتنظيم جبهة النصرة. وعندما سُئل: كيف استطاعوا قبل تسعة أشهر استهداف المقرات الرئيسة لأفرع الأسد الأمنية المشددة الحراسة وتنفيذ عدة هجمات عليها، هزّ كتفيه باستغراب: «لا ندري. عندما حدث ذلك، في فصل الشتاء، كنا لا نزال جميعاً نتشارك بندقية كلاشينكوف واحدة. والآخرون لم يكن لديهم أيضاً أكثر من ذلك.»

ولكنكم من جبهة النصرة، سألنا للتأكيد. «أجل، أجل، طبعاً!» ولكن فقط ليس لديهم تواصل مع القادة رفيعي المستوى أو حتى أبي محمد الجولاني، على حد تعبيرهم. يتوقف أبو طلحة قليلاً ويحكُّ لحيته: «النصرة اسم كبير. من خلال هذا الاسم يمكن الحصول على تمويل. فقد كان هناك أناس يريدون تمويل الجهاد وآخرون رأوا مقاطع الفيديو وقرأوا الأخبار. قدموا المال وبحثوا عبر رجالهم الوسطاء عن جبهة النصرة. لذا اتخذنا هذا الاسم، وأخذنا المال أيضاً»، الذي بحث مانحوه بإلحاح عمن يأخذه.

كانت هذه المجموعة الصغيرة البائسة في سبخة الجبول قد أصبحت «النصرة»، دون أن تعلم ماهية الجهة التي انضمت إليها. وقد بدت قلة الدراية أيضاً واضحة من قِبل المانحين المحتملين، الذين لا يتفاهمون جيداً مع معارضين ديمقراطيين ومتمردين وطنيين، بل مع الجهاد أكثر. كان بمقدور أي شخص تأسيس مجموعته المحلية للنصرة، ما دام لم يكن هناك فرع آخر موجود في منطقته بعد. بعد يومين من التلعثم روى زعيم النصرة المحلي في بلدة مسكنة، في أقصى شرق المحافظة عند بحيرة الأسد، القصة ذاتها: اسم كبير، لكي نحصل على مساعدات مالية. أبو محمد الجولاني، الذي كانوا لا يزالون يدافعون عن وجوده بشدة، لم يره أو يتحدث إليه

أحـد منهـم قط. رجل واحد من جبهة النصرة من مدينة منبـج، كان قد عاد للتو إلى ديـاره مـن معركة في حلـب، ذكر أمراً مشـابهاً: «لم يعد المرء يعرف أحداً سـوى أمير جماعتـه. لا أدري مـاذا تفعل جبهة النصرة في دمشـق أو في دير الـزور، لكن الأمراء يخبرونـنا بأفعالهـم، وهذا ما ينبغـي أن يكون أيضاً.» وفي إدلـب، إلى الغرب، أعرب مقاتلان من الجيش السـوري الحر، الذي يميـل إلى العلمانية، عن إعجابهما بالنصرة، «لأنها ببساطة أفضل من يقدم مقاطع فيديو عن الانفجارات الكبيرة وغيرها»، حتى وإن كانا لا يعلمان ما الذي يتطاير في الهواء ومتى وأين.

في خضـم الرؤية الضبابية الناجمة عن المؤامرة المتعمدة والفوضى السـاذجة نشـأ في سـياق عـام 2012 كيـان، لم يعد بإمكان المـرء الجزم بكونه حقيقيـاً أو لا – ومن الـذي كان يتزعمـه. مـن رحم عمليـات التفجير المبكـرة ومقاطع الفيديـو المتعددة والشـاقة الإنتاج وُلدت صورة توحي بتنظيم جهادي، مقاتل شرس ومنظم مركزياً وراسـخ في الأرض. لكـن الواقـع كان مغايـراً. إذ لم يكـن لجبهة النـصرة أي وجود في الأشـهر الأولى بعد موجة صعودها اسـمياً في شـتاء 2011/ 2012، إلى أن حلّ النصف الثاني من عام 2012، بحيث كان وجودها مقتصراً على مجموعات فردية – ولكن باسـتثناء الاسم كانت ملامح التنظيم مبهمة. هذا الامتياز النفعي، بأن تحمل مجموعات متمردين صغيرة – حتى وإن كانت في أقاصي الأرياف – اسم مجموعات كبيرة ومعروفة؛ كان معمولاً به في الجيش السـوري الحر أيضاً: ففي كل بقاع سوريا توحدت تشـكيلات صغيرة، في البداية في حمص مشـكلة كتائـب الفاروق، ولاحقاً لـواء التوحيـد في ريـف حلـب. ولكن دائـماً كانت هنـاك نـواة طبيعية ناميـة، لقادة موجوديـن ومعروفين، وكانت هناك بنية، التي ربما بدت فوضوية، ولكن بالنظر إلى تلك التشكيلات عن قرب فستظهر أنها لم تكن وهمية.

كل ذلـك كان مختلفـاً في بدايـات جبهة النصرة: بقـي صعود الجبهـة المبهر مبهماً، تمامـاً مثل زعيمهـا أبي محمد الجولاني. وعندما كان يظهر في مكان ما، حسـب مقاتلي النصرة؛ كان ملثماً دوماً. لكن، ولأن وجوده لم يكن موضع تساؤل، لا من قِبل أتباعه ولا من قِبل النظام في دمشق، ولأن الصحافيين الأجانب كانوا يبحثون عن الجهاديين

بطريقة انتقائية جداً؛ فإن وجود الجولاني الافتراضي لم يؤثر على سمعته بشيء. وكانت دائماً أجهزة الاستخبارات الغربية والصحافيون، وكذلك قيادة داعش في مذكراتها الداخلية، تزعم جميعها دوماً أن زعيم داعش أبا بكر البغدادي كان قد أرسل في شهر آب/ أغسطس 2011 الجولاني وحفنة من المخلصين له إلى سوريا، لكي يقوموا هناك بتأسيس جبهة النصرة. غير أنه لا توجد أية أدلة حقيقية لهذه القصة: لم يكن داعش ولا النصرة يأبهان بظهورهما بطريقة مغايرة ولا بهذا العيب في النشأة. في 10 كانون أول/ ديسمبر 2012 أعلنت الحكومة الأمريكية أن جبهة النصرة جماعة إرهابية، وأن اسمها هو مجرد اسم مستعار لفرع آخر لتنظيم القاعدة.

لقد كانت تلك الصورة المبتدعة لفيديوهات تبني العمليات، التي ساعدت بعد عدة أشهر من التأخير جبهة النصرة الفعلية على النشوء والنمو، صورة افتراضية جذبت المقاتلين والمانحين، وراح الرجال يتدفقون على الجماعة المتشددة، وتزايدت أعداد المنضمين إليها والذين كان معظمهم من الأجانب الوافدين. كانت جبهة النصرة تشع قوة - وكان بمقدورها دفع أجور. وقد تلقت النصرة دعماً بالمال والسلاح من داعش أيضاً، على الأقل إلى حين حدوث قطيعة بين التنظيمين في شهر نيسان/ أبريل 2013. لقد بدأت الحياة تدب بالكائن الهلامي، ولم يعد أحد يسأل بعدها كيف نشأ هذا الكائن الهلامي. وكذلك هدأت الادعاءات العامة في مناطق المعارضة، والتي كانت تقول إن جبهة النصرة هي من صنع المخابرات. وعلى مدى العامين المقبلين ستصبح تنظيماً حقيقياً، حتى وإن كانت طريقة تعاملها كمنظمة قوية ستختلف من محافظة لأخرى، بحيث تتعاون مع جماعات المتمردين في جنوب البلاد، وتتنازع معها في الشمال. وسيبقى زعيمها الغامض موجوداً، في الوقت الذي يفعل أمراء المحافظات الأقوياء ما يحلو لهم.

مع انتهاء عام 2012 وبداية 2013 تقريباً تغير كذلك صدى شخصية أبي محمد الجولاني من خلال التقاط إشارات الضجيج الإلكتروني في المعلومات الاستخباراتية. فعلى غرار أبي عمر البغدادي قبل سنوات تدل آثار المحادثات والمكالمات الآن على شخص حقيقي وحيد، يتم تتبع تحركاته إلى حد ما على الأقل:

"اعتباراً من مطلع عام 2013 نفترض أن هناك شخصاً حقيقياً"، حسب رجل استخبارات غربي، "كان يتحرك كثيراً في شمالي سوريا، وكان يبحث عن دعم لدى قادة المتمردين وشيوخ العشائر، وكانت لديه اتصالات واضحة في دول الخليج وكان يجمع دعماً مالياً – حتى وإن كانت هوية هذا الشخص لا تزال مجهولة بعد."

كان أبو خالد السوري أحد أشهر المحاربين القدامى السوريين في تنظيم القاعدة، وقاتل في الماضي في أفغانستان مع أسامة بن لادن، وبقي معتقلاً في سوريا حتى نهاية عام 2011. وضمن إطار موجة إطلاق سراح السجناء خرج طليقاً وذهب إلى إدلب. يتذكر مساعده وحارسه الشخصي في وقت لاحق لقاءين جمعا السوري بالجولاني في مطلع عام 2013: "كانت مجموعة ضيقة جداً، تضم اثني عشر رجلاً على الأكثر، وكان كل شيء يجري في غاية السرية. كان الجولاني مهذباً ولم يتكلم كثيراً." غير أن ما أدهش السوري هو سريته المفرطة: "حتى عندما كانا يتحدثان لاحقاً على السكايب، كان أبو خالد يتكلم، بينما كان الجولاني يرد دائماً بإجابات مكتوبة مقتضبة. وكأنه كان يخشى أن يفشي صوته أمره."

سيد السيارات المفخخة

علي مملوك، أهم لواء في المخابرات السورية، نظم عملية إمداد تنظيم القاعدة في العراق بالانتحاريين. لكنّ للتحقيقات الجارية ضده سبباً آخر: فهو متهم باصطناع تفجيرات الجهاديين في دول الجوار.

اعتباراً من عام 2011 بدأت الهجمات بالسيارات المفخخة في سوريا، ولم تبدُ السمة المشتركة لها ذات مغزى كبير: إذ لم يتبنَ أحد المسؤولية. انفجرت القنابل بجانب البنك المركزي في دمشق في شهر نيسان/ أبريل 2013، وفي حالات أكثر ندرة في مناطق المتمردين، كما هو الحال في نهاية العام ذاته في مصيف دركوش على الحدود التركية. حدثت التفجيرات في معاقل الأقليات على وجه الخصوص: في مدن الدروز في الجنوب، والإسماعيليين في وسط سوريا، وحي العلويين في حمص،

جميع تلك المناطق تخضع لسيطرة الجيش أو الميليشيات الموالية للأسد. وفي كل مرة كان المدنيون هدف التفجير: بخاصة الأسواق والمدارس، والشوارع المزدحمة أيضاً.

اتهم التلفزيون السوري الرسمي «إرهابيين» و«جهاديين». وبقي المدبر لتلك التفجيرات غامضاً؛ لأن علامة «إرهابيين» و«جهاديين» يُلصقها النظام بجميع مناهضيه، ولأن كثيراً من الأخبار التي بثتها الحكومة كانت مختلقة، أو خضعت تقارير الاشتباكات إلى عملية مونتاج للمواد الأرشيفية، أو كان المعتقلون يروون اعترافات سوريالية أمام الكاميرا.

برغم - أو ربما بسبب - غموض الفاعل كان تأثير تفجيرات السيارات المفخخة تأثيراً هائلاً: إذ كانت التفجيرات تحدث في قلب المناطق التي كان من المفترض أنها تعد آمنة. وقد أججت هذه التفجيرات بشكل مستدام الخوف من قوة إرهابية غامضة، يمكنها أن تضرب في أي مكان، ويبدا أن اهتمامها الوحيد أن تسفك دماء المدنيين على أوسع نطاق - ولا سيما بين المدنيين الذين يتناسبون مع صورة عدو «الدولة الإسلامية»، أتباع الأقليات «الملحدة». ومما زاد من رهبة التفجيرات كون قوات «الدولة الإسلامية» بعيدة عن أماكن التفجيرات (أو أنها لم تكن موجودة في تلك المناطق أصلاً). لقد غذّت التفجيرات المخاوف لدى السكان، واستفاد الجهاديون من ذاك الخوف، بغض النظر تماماً عن صلتهم بالتفجيرات.

حتى «الدولة الإسلامية» نفسها لن تقر لاحقاً بانتحارييها دوماً، الذين راحوا اعتباراً من شهر كانون ثاني/ يناير 2014 يهاجمون مواقع المتمردين والمجالس المحلية في حلب وإدلب ومحافظات سورية أخرى. بل كانت تتباهى بالهجمات النادرة التي تناسب صورتها: هجمات ضد الجيش السوري أو سلاح الجو كما حدث أثناء اقتحام مطار منغ قرب حلب في عام 2013. لكن كانت هناك سمة لافتة ومرعبة تمكن ملاحظتها بوضوح في تفجيرات داعش: لا تُركن سيارة مليئة بالمتفجرات في مكان ما ومن ثم يتم تفجيرها. لقد كان هناك سائق دوماً يقود السيارة وينطلق بها ليفجرها في الهدف.

ولكـن، في خضم الحرب ضاع لغز السـيارات المفخخـة المجهولة بسرعة. وكان الموت يحصد أرواح عشرات بل مئات الناس في سوريا، وحتى في الأحياء الخاضعة لسـيطرة الحكومـة وتبعد عـن خطوط الجبهـة كيلومترات قليلة فقـط كانت قذائف هـاون المتمرديـن تقتل المدنيين أيضاً. ولم يجرِ أي تحقيق بعد الانفجارات. وما إن يتم نقل الموتى والمصابين، حتى تأتي الجرافات وتزيل الركام من المكان بسرعة.

وبينـما تراجعـت التفجيرات مع اشـتداد وتيرة الحرب، كانت التحقيقات تسـير بصعوبـة في دول الجـوار، حيث انفجرت سـيارات مفخخة. في 11 شـباط/ فبراير 2013 قتلـت قنبلـة من هذا النوع 14 شـخصاً عنـد معبر باب الهـوى على الحدود السـورية التركيـة؛ في 11 أيار/ مايـو من العام نفسـه انفجرت سـيارتان مفخختان تفصـل بينهما مدة 15 دقيقة في بلـدة الريحانية القريبة من الحدود، وقُتل أكثر من 50 شـخصاً؛ ومرة أخرى انفجرت سـيارتان مفخختان في 23 آب/ أغسطس في مدينة طرابلس في شـمالي لبنان أمام مسـجدين عند موعد صلاة الجمعـة. كان هذا الهجوم الأعنـف من نوعـه في البلاد منذ نهاية الحـرب الأهلية في عـام 1991، وخلف 47 قتيلاً وأكثر من 500 جريح.

في جميـع الحـالات الثـلاث كانت أصابـع الاتهام توجـه إلى معاونـين ومخططين مجهولين محليين تابعين للمخابرات السورية. تلك المهام، التي تمت بمساعدة الخبراء الإيرانيـين، الذين نظموا لأشـخاص مختارين اعتباراً من عـام 2011 تدريبات على تفخيخ السـيارات بالقرب من دمشـق. بعض المشـتبه بهم في لبنان وتركيا ظهروا في صـور كاميرات المراقبـة أو تم التنصت على مكالمات يتحدثـون فيها عن مخططاتهم. لكن الشرطة وأجهزة الاستخبارات فشلت في كلا البلدين في منع الهجمات.

تكشف الأمر بوضوح عندما تم اعتقال شخصية مشهورة بتهمة نقل متفجرات قبـل عـام من وقوع حـوادث التفجـير: في صبيحـة 9 آب/ أغسـطس 2012 أُلقي القبض على وزير الإعلام الأسـبق ميشـال سماحة في منزله الصيفي خارج العاصمة اللبنانيـة بـيروت. كان معروفاً بأنه الرجل الوفي لسـنوات طويلة لسـلطة الاحتلال

السوري في السابق، وباعتباره كذلك توقع كثيرون أن يتم الإفراج عنه على الفور، أو على الأقل أن قيادة حزب الله ستتدخل بقوة من أجله، لكن لم يحدث شيء من ذلك. مع أن حزب الله يحظى بنفوذ واسع داخل جهاز الأمن اللبناني، ويمكنه منع الاعتقال والاستجواب، لكنه في هذه الحالة لم يفعل أياً من هذين الأمرين. باستثناء تصريح فاتر من أحد النواب البرلمانيين، جاء فيه أن اعتقال سماحة يستند إلى «قصص كاذبة لأجهزة الاستخبارات، نعرفها منذ زمن طويل»، فيما عدا ذلك التزم حزب الله الصمت.

احتار الجميع في سبب اعتقال قوى الأمن الداخلي هذا الرجل، الذي لا يزال يحظى بنفوذ واسع، دون ذكر الأسباب. الخبر الذي كان مجرد شائعات في البداية، تم تأكيده رسمياً بعد يومين: حصل سماحة من المخابرات السورية على 24 عبوة ناسفة، لتفجيرها عن بُعد في مناطق مختلفة في شمالي لبنان، حيث يحظى المتمردون في سوريا بأكبر دعم هناك. كان الهدف نواباً برلمانيين لبنانيين يدعمون المعارضة السورية.

ما بدا وكأنه رواية بوليسية سمجة، تم إثباته بشكل تام عن طريق سلسلة من إفادات الشهود وتسجيلات صوتية ومقاطع فيديو، تمتد إلى موكلي المهمة المشتبه بهم. لجأ رجل أمن استخدمه سماحة إلى الشرطة، وكان مزوداً بتقنيات تسجيل خفية عندما وصلت العبوات الناسفة وقام سماحة بنقلها بنفسه فيما بعد. اعترف سماحة في أولى جلسات الاستجواب بأنه الرجل الذي ظهر في تسجيلات الفيديو. وعندما وجه الادعاء العام اللبناني في 11 آب/ أغسطس اتهاماً رسمياً، لم يوجهه إلى سماحة وحده: بل أيضاً إلى المنسق الاستخباراتي الأعلى علي مملوك والعقيد «عدنان»، الذي سلم مع مملوك شحنة المتفجرات إلى سماحة. مملوك، كان يظهر في كل مرة بصفته العقل المدبر، فهو الذي أجج في عام 2009 عمليات القاعدة التفجيرية في العراق، وهو الذي أعد لرجاله في سوريا اعتباراً من عام 2011 برنامجاً تدريبياً لتفخيخ السيارات مستعيناً بخبراء إيرانيين. إضافة إلى ذلك دلت العبوات الناسفة التي تم العثور عليها، على وجود برنامج إرهاب سري، بدأ منذ زمن طويل: طريقة صنعها، قرابة 200 غرام من المتفجرات العسكرية مزودة بمغناطيس قوي لكي تلتصق

العبوة بأسفل السيارات، تشبه تماماً تلك القنابل التي كانت، بعد اغتيال رئيس الوزراء الأسبق رفيق الحريري في أوائل عام 2005، تودي بحياة عدد من النواب والوزراء والصحافيين المنتقدين لسوريا.

لكن الوضع الحرج في إلقاء القبض على حلفاء النظام السوري في لبنان، حتى بعد سبع سنوات على انسحابه رسمياً كمحتل، ظهر واضحاً من خلال التنفيذ الشاق لعملية اعتقال سماحة، التي أُعلن عنها في التلفزيون: ظهر الرئيس آنذاك ميشال سليمان برفقة أشرف ريفي مدير عام الشرطة ووسام الحسن، رئيس شعبة المعلومات في الأمن اللبناني، وشاهد بنفسه المتفجرات («بتخوف»)[63] وأثنى على سير التحقيقات.

كان من المفترض أن يتم تفجير العبوات الناسفة أثناء زيارة البطريرك الماروني السابق بشارة الراعي لشمال لبنان لعدة أيام، إذ كان مخططاً للزيارة أن تبدأ من تاريخ 13 وحتى 16 من آب/ أغسطس – ربما بهدف الإيهام بأن الاعتداء له خلفية إسلامية متشددة. يا لها من خلفية مثالية: مسيحيون يُقتلون من قِبل إرهابيين إسلاميين. «هذا ما يريده بشار»، حسب ما ورد في مقطع فيديو لسماحة، في إشارة إلى الرئيس السوري. سماحة، مسيحي، وبصفته سياسياً معروفاً كان بمقدوره الوصول دون عناء إلى محطات الزيارة وإلى جميع الشخصيات المسيحية الاعتبارية. وفي مقاطع فيديو أخرى أشار سماحة إلى أن مملوك هو من أعطاه المتفجرات والمال ليدفع للمأجورين الذين سيفجرون العبوات الناسفة. 170000 دولار أمريكي عُثر عليها في منزل سماحة أثناء اعتقاله، أما العبوات الناسفة فقد ضُبطت في أماكن متفرقة في لبنان.[64] مراسلة واشنطن بوست في بيروت، ليز سلاي، غردت على تويتر، قائلة إن سماحة روى قبل ذلك بفترة أن القاعدة تخطط لشن هجمات بالمتفجرات في لبنان: «والآن سماحة نفسه متهم بالتخطيط لهجمات.»

بقي سماحة في السجن، برغم التهديدات السرية الواردة من دمشق، بضرورة إخلاء سبيله على الفور. قيل رسمياً إن اللواء الحسن أبلغ في شهر تشرين أول/

أكتوبر مجموعة من النواب المعارضين في البرلمان أن الوزير السابق سماحة قام بتسجيل مكالماته الخاصة وخزنها لاحقاً على جهاز كمبيوتر - ربما بمثابة ضمان تحسباً لغدر شركائه في الحديث الهاتفي. على أية حال كان قد تحدث عن الهجمات المخططة مع علي مملوك وبثينة شعبان مستشارة بشار الأسد المقربة، التي يعرفها منذ فترة طويلة.[65] فيما أورد التلفزيون الرسمي السوري أن كل ما يجري عبارة عن تلفيق، وأنه لم تكن هناك اتصالات مع ميشال سماحة في السنوات الماضية.

«لا اتصالات؟ سماحة؟» يضحك الرجل، حتى بعد أشهر على سماعه الخبر. في نهاية عام 2012 كان قد فرّ من دمشق، وبرغم أنه كان من حيث الرتبة مرؤوساً صغيراً لدى اللواء مملوك، ومع ذلك كان مقرباً أكثر من ضباط كثيرين. الرجل، سنسميه بتنظيف، لأن أقاربه لا يزالون في دمشق، كان رئيس طاقم التنظيف التابع لمملوك. هذا الطاقم مؤلف فقط من رجال مختارين بعناية فائقة، معظمهم جنود، سُمح لهم تنظيف أهم الأماكن، وكذلك إنجاز المراسلات وأعمال الخدمات الخاصة باللواء. رأى نظيف وزملاؤه معظم ضيوف مملوك وهم يأتون ويذهبون. «ليس جميعهم»، يحدد نظيف، «إما أن اللقاءات السرية جداً كانت تجري في أماكن أخرى، أو أن الضيوف كانوا يأتون مرتدين معاطف ونظرات شمسية. لكن سماحة لم يكن ضيفاً سرياً. كان يأتي كل أسبوع تقريباً، وكان الضيف الأكثر مجيئاً خلال السنتين الماضيتين. حتى إنه سُمح له أن يأتي دون دعوة، وكان يبقى لساعات في الغالب. وكانت أجواء اللقاء مرحة أكثر من الضيوف الآخرين، فقد كان سماحة يُقبل وجنتي مملوك عندما يحييه، وكان الطعام يُجلب من فندق فور سيزونز، وكانا يضحكان ويشربان. كان يأتي كل أسبوع تقريباً - لغاية شهر آب/ أغسطس 2012.» بثينة شعبان، أهم مستشاري الأسد، والتي بدأت مترجمة للإنجليزية لحافظ الأسد، كانت تأتي مرتين شهرياً، «لكن لوحدها، وبشكل أكثر سرية. وكانت تبقى لساعات.» كما أن نظيف أدرك زيارات الضيوف الإيرانيين المفاجئة، «ومرة أخرى يُجلب الطعام من فور سيزونز، والنسكافيه مع العسل والزهورات»، وهو شاي أعشاب طبيعية.

اللـواء عـلي مملوك، مـن مواليد عـام 1946، أصله من لواء إسـكندرون، الذي تنازلـت عنـه فرنسـا في أواخر الثلاثينيـات إلى تركيـا، وكانت الحكومات السـورية المتعاقبة تطالب لعقود بإعادته دون جدوى. مملوك شـخصية تحب الغموض وروّج في وقت سـابق أن أصله من دمشـق. الرجل الممتلئ الجسم ومدخن سجائر روثمان كينـغ سـايز صاحب الصوت المـدوي كان في ذات الوقت مهووسـاً بالسـيطرة، كما يـروي نظيـف. وذات مرة اتصل به اللواء شـخصياً، وهو أمر نـادر الحدوث عادةً: «كان يبـدو منزعجاً وقال إنه نسي جهاز تسـجيله الصغير في المكتب. وعليّ الذهاب فـوراً إلى هنـاك بمفردي فقـط، وأرى إن كان الجهاز ما زال هنـاك. وإذا كان الجهاز موجوداً، فعليّ أخذه وجلبه له.» كان يسجل جميع محادثاته، لأسباب لا يعلمها أحد. جميع الأبواب إلى طابقه، الذي يحتوي على غرفة لياقة بدنية خاصة به وحمام ومطبخ، كانـت موصدة دوماً، وكانت النوافذ مضادة للرصاص، والأبواب عازلة للصوت، وحتى الوصول إلى الطابق ذاته كان محالاً إلا عبر حيلة: «يجب ضغط زر المصعد على الطابق الرابع، لكنه يقف في مكان آخر تماماً.»

كان مجمع مقر المخابرات بأكمله يخضع لحراسة أمنية مشددة. فقط في تاريخ 23 كانـون أول/ ديسـمبر 2011، عندما قيل رسـمياً إن وحدة إرهابية أدخلت سـيارة مـن طـراز جـي إم سي رباعيـة الدفع مليئـة بالمتفجـرات إلى باحة المجمـع، ومن ثم قامت بتفجيرها ما أدى إلى مقتل 44 شـخصاً حسـب التصريحات الرسـمية، حينها بدا بوضوح أن مملوك لم يكن مهتماً في كشـف ملابسـات الحادث بسرعة: «كل شيء بقي مكانه إلى أن جاء وفد الجامعة العربية. بعدها أزيحت الأنقاض بالجرافات، وتم تنظيف الموقع، وانتهى كل شيء. اسـتفسرت وزارة الخارجية، واسـتفسرت الجامعة العربية، ولكننا كنا نسمع تعليمات مملوك الواضحة، بأنه لا يريد فتح تحقيقات.»

وبعدهـا، في 19 تشريـن أول/ أكتوبـر 2012 هـزّ انفجـار ضخـم حـي الأشرفية المسـيحي في بيروت، سُمع دويه على البحر على بعد كيلومترات. كان المستهدف وسام الحسـن، لواء الشرطة الذي أشرف على سـير التحقيقات ضد سـماحة ومملوك بشـكل دائـم. كان قـد عـاد قبل يوم واحد فقـط من باريس، حيـث تقيم أسرتـه، وكان يغادر

مكان إقامته السري للتو، عندما انفجرت السيارة المفخخة. قوة الانفجار، الذي أودى بحياة سبعة أشخاص آخرين وجرح العشرات، أدت إلى انهيار شرفات المباني المجاورة وتطاير شظايا معدنية ثقيلة لأبعد من بنايتين. وعلى الفور اتهم سياسيو المعارضة النظام السوري، فيما رجحت القيادة الإيرانية أن تكون إسرائيل – كالعادة – وراء الاعتداء، لكن حزب الله لم يرغب في الانضمام إلى الجوقة واكتفى باستنكار بسيط، بأن الاعتداء هو «محاولة لتقويض الوحدة الوطنية»، حسبما أعلنت قناة المنار الناطقة باسمه. وبشكل رزين وضح مدير الشرطة ريفي باقتضاب: «تم استهداف وسام الحسن بسبب قضية سماحة.»[66] فيما أشار وزير الداخلية مروان شربل إلى أنه كان قد طلب من الحسن البقاء في فرنسا وأن لا يعود إلى لبنان؛ لأن حياته هنا في خطر.[67]

لم يتم إلقاء القبض على أحد. وبقي سماحة في بداية عام 2015 رهن الاعتقال في السجن، بعد أن تم تأجيل القضية المرفوعة ضده وضد علي مملوك عدة مرات. وكان التبرير الرسمي: نظراً لصعوبة إيصال التبليغ بريدياً لم يتمكن مملوك من استلام لائحة الاتهام.

قاتل الأرانب

نديم بالوش هو ربما العميل المحرض الغامض للنظام السوري. قام بتخريب تمرد للسجناء، وكان لديه بوتيك للملابس الداخلية وجرب الغاز السام على الأرانب، قبل أن ينضم إلى "الدولة الإسلامية".

كان الرجل في فناء إقامته المؤقت، المضاء بأشعة الشمس، يريد الحديث عن شيء آخر تماماً، وليس عن نديم بالوش. العميد نبيل الدندل، رئيس فرع الأمن السياسي في اللاذقية سابقاً، اعتقل قبل عشر سنوات تقريباً أحد المساعدين المحليين لمجلة شبيغل الطالب الشاب عبد القادر الدون بسبب بعض المقالات المتعلقة بالفساد. والآن وجد الاثنان نفسيهما في صف المعارضة: كان دندل قد لجأ إلى المتمردين وذهب إلى تركيا، حيث هرب الدون أيضاً. ونحن أردنا أن نعرف، ما الذي سيقوله الدندل اليوم عن اعتقال الدون في الماضي.

كانت رحلة طويلة في شهر تموز/ يوليو 2013 عبر السهل الحار المغبر حتى مدينة أورفة، في جنوب شرق تركيا. تنحدر عائلة الدندل من مدينة البوكمال على نهر الفرات، وهي آخر مدينة حدودية قبل الوصول إلى العراق. وقد هربت العائلة إلى أقرب مدينة تركية كبيرة.

هناك جلسا الآن: عميد المخابرات السابق والمعتقل السابق. ابتسامة مضطربة بفضل عصير الليمون البارد، الذي جلبه ابن الدندل، فقد كان الاثنان لا يعرفان ما الذي يقولانه. لقد كانا متفقين أن نظام الأسد يدفع البلاد إلى الهاوية، في حال بقي في الحكم. كلاهما خاطر بحياته لكي يهرب. لكن بعد ذلك قال الدندل شيئاً غير عادي: "كان التصرف صحيحاً في الماضي. لقد خرقت القوانين، لذا توجب علينا اعتقالك."

ردّ الدون عليه: "ولكن بسبب ذلك ضاع عليّ الامتحان، فقد اعتُقلت في قلب قاعة الامتحان. كنتُ قد كتبت مقالاً عن الفساد داخل حزب البعث، وهذا أمر صحيح!" بعدها حاول الدندل التوضيح: "لكن القوانين كانت كذلك حينها! القوانين التي خرقتها! لقد كانت الدولة، وأنا استندت إليها." خدم نبيل الدندل الديكتاتورية، ولكنه كان يريد ديكتاتورية وفق ضوابط. لقد كان يعتقد أن تلك الضوابط تسري على الجميع. مفهوم خاطئ جلب إليه الشؤم في عام 2006، بعد عام على اعتقال الدون (الذي أُفرج عنه بعد بضعة أشهر). فقد اكتشف الدندل شبكة فساد داخل إدارة مدينة اللاذقية، اختلست الملايين من المصرف الزراعي التعاوني السوري. وكان رئيس فرع الأمن السياسي يأمل أن يفي بشار الأسد بوعوده التي قطعها بعد توليه منصبه في عام 2000، بأن يحارب الفساد. لذا قام بإيقاف المشتبه بهم: "بعد يوم واحد أُطلق سراحهم جميعاً. وتم عزلي." تم نقله إلى الصحراء حرفياً، إلى محافظة الرقة الهادئة، وأوكل إليه منصب مدير جوازات الرقة، ولكن دون أن يُسمح له أن يمتلك جوازاً خاصاً.

كانت التهمة الموجهة إليه "التحريض الطائفي". فقد كان المسؤولون في إدارة مدينة اللاذقية، الذين حاول تقديمهم للمحاكمة، علويين - من طائفة الأسد وجميع الضباط في سوريا تقريباً. أما الدندل فقد كان سنياً. "اتصلت بغازي كنعان، وكان وقتها وزير الداخلية وكنت أعرفه جيداً. لكنه اكتفى بالقول: 'لماذا، لماذا فعلت ذلك؟ لم يعد باستطاعة أحد أن يساعدك.'"

كان الدندل من أولئك الذين يعيشون في المناطق الرمادية بين القناعة الأخلاقية والاستعداد لتقديم تنازلات، أولئك الذين يجدون دوماً مبررات لاستمرارهم في ممارسة شيء، رغم أنهم غير مقتنعين به. إنه ذات العميد، الذي أمر سابقاً باعتقال طالب، لأنه لم يُسمح له بفضح الفساد علناً، وهو ذات الفساد الذي كان الضابط نفسه يريد محاربته. لقد كانت الدولة عبارة عن ديكتاتورية، وتعايش الدندل مع ذلك وكان يترفع طوال عقود في سلمه الوظيفي. ولكن أن يكون هناك ضباط آخرون لا يزالون يدمرون ما تبقى من شرعية، تتمتع بها هذه الديكتاتورية، وأن يكون "الذين جاؤوا من الساحل"، مثلما يُوصف العلويون في سوريا، لا يزالون يرون في حرمة الدولة أنها غنيمة؛ فهذا الأمر خارج عن الحدود الأخلاقية.

لبرهة من الوقت راح يعدد في يوم صيفي في أورفة، أسماء كبار الضباط، بخاصة من أفرع المخابرات المتسلطة، الذين أصبحوا من أصحاب الثراء الفاحش على مدى سنوات: مثل اللواء علي يونس رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية، الذي كان يوقع على عقود شراء أسلحة وهمية بقيمة عشرات ملايين الدولارات؛ اللواء محمد منصورة، رئيس شعبة الأمن السياسي والذي كان مسؤولاً عن التواصل مع حزب العمال الكردستاني، لكنه أصبح ثرياً بفضل التهريب، بدءاً من السجائر والنفط، ووصولاً إلى الأسلحة والمخدرات؛ فارس شاليش، ابن شقيق رئيس الحرس الشخصي للأسد، الذي قام بتهريب أسلحة إلى نظام صدام. "لقد حولوا الدولة إلى أضحوكة"، ويستدرك، "وهمية."

إلى أن وصل أخيراً إلى الموضوع الذي رافقه أثناء ترقيه في جهاز المخابرات السورية على مدى عقود، والمتعلق بحجم التهديد الفعلي للنظام من قِبل الإخوان المسلمين اعتباراً من أواخر السبعينيات، والذي استغله حافظ الأسد كذريعة لاعتقال كل من هو غير مرغوب فيه. في البداية تم التجسس على الإخوان المسلمين واختراقهم، وأخيراً شكّل النظام نفسه جماعات، لكي يتمكن من المحافظة على التهديدات كخلفية. كان الإسلاميون الحقيقيون بعد عام 1982 إما موتى أو في السجون أو فارين. في عام 1992 كان الدندل في دمشق، عندما صدر أمر بإلقاء القبض على رجل في حي كفرسوسة: "حاصرنا المنزل، وعلى السطح وقف الرجل يصيح بي، 'سيدي، لدي أمر من هشام بختيار (مدير أمن الدولة آنذاك)، بتشكيل هذه الخلية، أنا لست إرهابياً حقيقياً!'. لم نصدقه، وألقينا القبض عليه. ولكن عندما سألت بختيار، قال: 'أجل، لا غبار عليه.' لم يعلم أحد ما الذي يفعله الآخرون."

وهكذا كان الوضع تماماً في عام 2003: "وردتنا معلومات عن مجموعة إرهابية في اللاذقية، وأردنا إلقاء القبض على أفرادها. ولكن بمجرد أن اعتقلنا أولهم، طُلب منا التوقف: لقد تم إنشاء الجماعة من قِبل الاستخبارات العسكرية. كان الوسيط عقيداً مفصولاً رسمياً، علوياً من اللاذقية يدعى حافظ سليمان، وقد ادعى أنه رجل أعمال. كانت الجماعة تحصل عن طريقه على 100000 ليرة سورية شهرياً (حسب سعر الصرف حينها نحو 1700 يورو). تعين علينا جميعاً إطلاق سراحهم، وهم ذهبوا باتجاه الجبال. كان زعيمهم نديم بالوش، الذي كان يافعاً جداً آنذاك."

وبشكل غير متوقع زودنا الدندل بقطعة الفسيفساء الأولى الناقصة حول سيرة البنية الغامضة لمشهد التطرف في سوريا، وحول العميل المحرض الغامض التابع للاستخبارات العسكرية السورية، الذي أثبت فائدته العظيمة ثلاث مرات خلال عقد من الزمن: في عام 2003، كان في أوائل العشرينات، أنشأ خلية إسلاميين، لكي يساعد من خلالها على تهريب الأجانب الوافدين وكذلك السوريين كإرهابيين إلى العراق. "في عام 2004 سمعنا أن المجموعة تخطط لتفجير الميريديان"، الذي كان حينها أحد أكبر الفنادق على الساحل في شمالي اللاذقية. "كان يُفترض أن يتم اعتقال

بالوش رسمياً، لكنه هرب إلى تركيا"، يتابع الدندل. "حتى إن غازي كنعان، الذي أصبح حينها وزير الداخلية للتو، أصدر طلب تسليم رسمي، وتم اعتقال بالوش في تركيا، وجرى تسليمه وبعدها حُكم عليه بالسجن عشر سنوات."

سُجن أولاً في سجن عدرا، وفي شهر نيسان/ أبريل 2007 نُقل إلى سجن صيدنايا في شمال غرب دمشق، وهو واحد من أكبر السجون السورية، ونزلاؤه بشكل خاص من الإسلاميين من جميع التوجهات: مقاتلي القاعدة، إخوان مسلمين حقيقيين أو مفترضين، أعضاء جماعات إسلامية منشقة، ولكنّ هناك أيضاً شباباً ضبطوا وبحوزتهم أشرطة كاسيت للخطب الدينية. كما كان في السجن أيضاً محمد حيدر زمار، الألماني السوري، الذي كانت الشرطة الألمانية تراقب تحركاته بعد 11 أيلول/ سبتمبر 2001 بسبب صلاته بأسامة بن لادن، ومن ثم خطفته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أثناء سفره إلى المغرب وتم نقله إلى سوريا. لقد كان هذا السجن مدرسة للكراهية، ومن لم يكن في بداية فترة اعتقاله جهادياً عن قناعة بعد، يصبح كذلك هنا. "كان سجناً قاسياً، ولكن كانت هناك أيضاً أجواء فريدة من نوعها"، كما يتذكر في شهر أيار/ مايو 2013 في بلدة الزبداني المتنازع عليها أحد المتشددين المفرج عنهم في عام 2011، والذي أطلق على نفسه اسم "أبو علي"، وأصبح الآن شيخاً في كتيبة إسلامية محلية: "في صيدنايا كان بإمكاننا الحديث والنقاش بحرية، دون خوف، فنحن معتقلون على كل حال. كان هذا السجن بمثابة جامعة لنا!" وعلى خلاف الوضع في معسكر الاعتقال الأمريكي سيئ الصيت سجن بوكا، حيث كان زعيم داعش أبو بكر البغدادي وغيره نزلاء فيه، فقد كان الفارق الوحيد هو أن تأثير التطرف مرغوب هنا: كانت المعاملة قاسية، وكان معظم الحراس من الدروز أو العلويين، وكان أحد طقوس الاستجواب إهانة السجناء السنة، من خلال سب الله والنبي محمد.

عندما اندلع عصيان في سجن صيدنايا في نهاية شهر آذار/ مارس 2008، بسبب ظروف الاعتقال المسكوت عنها في البداية، لم تكن إدارة السجن على عجلة من أمرها لسحقه. بل على النقيض: "اختبار صيدنايا" كما أطلق لاحقاً السجين السابق

فـراس سـعد في إحدى مقالاته عـلى الفترة التي قضاها هناك: "تم تسـليم السـجن للمعتقلين الإسـلاميين بالتدريج ابتداءً من الاسـتعصاء الأول. كان سجن صيدنايا مكاناً لاختبار صراع أهلي مصغر بين التنظيمات الإسلامية نفسها."[68]

المتشـددون الذيـن جـاوز عددهـم الألف كانـوا يتحركـون بحرية، وسـيطروا بالتدريج على مسـاحات واسـعة من السجن. ونظموا أنفسـهم في جماعات، وثقبوا جدران المهاجع وكانوا يتنقلون من طابق لآخر عبر فتحات التهوية، وكان كل ذلك ضمن إطار تجربة أجريت في شـهر تموز/ يوليو 2008، بهدف وضع مجمع السـجن تحـت إشراف السـجناء. نظم السـجناء توزيع الطعـام، وأنشـأوا محاكمهم خاصة، وقتلوا عدة زملاء لهم، وكذلك عدة حراس. أرسـلت الأجهزة الأمنية نحو 1200 عنصر من الشرطة العسـكرية إلى صيدنايا، لكي يسـيطروا على الوضع هناك - لكن قيادة السـجن بدت لأشـهر وكأنها مهتمـة بمراقبة ما يحدث، عندمـا تهدأ الأوضاع مجدداً.

في البدايـة كان نديم بالوش منعزلاً بعض الشيء عن الآخرين في صيدنايا، وبعد ذلك تقرب إلى أحد أشـهر السـجناء: إبراهيم الظاهـر، أردني المولد، كان تحت إمرة أبي مصعـب الزرقاوي أمير الأنبار في غربي العـراق، وحُكم عليه غيابياً بالإعدام في الأردن بسـبب عمليـة تفجير. ما لبث أن تشـارك معـه زنزانة واحـدة، في البداية في الطابـق الثالث من السـجن الضخـم، وبعدها في الثاني. وعندمـا اندلع التمرد، كان بالوش في أفضل حالاته، كما يتذكر السجين السابق ماهر إسبر في أواخر عام 2013: «كان أتباعه مسـحورين به، وكأنهم طائفة: قنّـم حصصهم لكي يدربهم على البقاء أحيـاء بالنزر القليل، وكان يقللها باسـتمرار، بحيث كان أتباعـه يتضورون جوعاً، ولكنهم كانوا يطيعونه. كان يضربهم، يعذبهم لأقل مخالفة، لقد كان إلهاً بالنسبة لهم. بالرغم من أن كثيرين منهم كانوا أكبر منه سناً.»

في مطلع شـهر كانون أول/ ديسـمبر 2008 اسـتولى بالوش و350 متشدداً على الطابـق الأرضي وسـيطروا عـلى المدخل. "في ذلـك الحين"، يتذكر إسـبر، "ارتدى

كثيرون تلك الأقنعة السوداء كتلك التي ارتداها عناصر داعش لاحقاً." تصاعد الموقف، بالوش "وقف عند الدرج ذي الشكل السداسي، حيث الطريق المؤدية إلى جميع المهاجع، وجمع حوله أكثر المتشددين تطرفاً، الذين رفضوا جميع المفاوضات مع إدارة السجن. كان يخطب ضد كل من أراد التفاوض مع إدارة السجن. هذا كفر! كما وعدهم: 'من هنا سنفتح القدس، نعم، سوف نرفع راية الإسلام فوق البيت الأبيض!' كان في غاية السوريالية، وكنا جميعاً سجناء. لكنه كان يحرض الناس بشكل لا يوصف." لن يستسلم، كان بالوش يعلن ذلك مراراً وتكراراً، "الموت دون ذلك". السجين السابق أيضاً دياب سرية، أحد السجناء العلمانيين القلائل في صيدنايا، يتذكر لاحقاً خطب بالوش التحريضية في الردهة: "أعلن السجن إمارة ووعد الجميع: من هنا سنحرر سائر سوريا!"

بعد أسابيع من التصعيد جاءت الخاتمة المفاجئة: تقلصت المجموعة إلى ما يقارب 80 رجلاً، بقوا مع بالوش وكانت تهيجهم خطبه العصماء، وقتلوا زملاء سجناء لهم وحراساً ويبدو أنهم صدقوا أنه من داخل أشد السجون السورية حراسة سيمكنهم فتح العالم. وذات مرة سمعوا سيدهم يتحدث إليهم عبر مكبر الصوت: "جاءتني رؤيا! لقد هداني الله! سلموا أنفسكم، ولن يحدث لكم شيء!"

نصف دستة من الرجال تبعوا هذا التغير المفاجئ في الاتجاه – أما الآخرون فقد حصدت أرواحهم بنادق قوات الأمن التي اقتحمت السجن، يتذكر ماهر إسبر، الذي أُحيل لاحقاً إلى سجن عدرا برفقة مئات السجناء الآخرين ومن بينهم دياب سرية. ومعهم أيضاً خمسة نجوا من المذبحة بجروح بليغة: "روى أحدهم فيما بعد، ما حدث مع بالوش، عندما قُتل الآخرون"، حسب إسبر. "صافحه المدير، وأعطوه الشاي والسندويش." بالوش نُقل هو الآخر إلى سجن عدرا لاحقاً، ولكن ليس كالآخرين الذين وُضعوا كل 20، 30 شخصاً في زنزانة، بل وُضع في زنزانة انفرادية واسعة. كان بإمكانه إرسال الحراس ليجلبوا له الشراب ويستقبل زيارات من أسرته، التي كانت تُحضرها من اللاذقية سيارة مرسيدس تابعة للاستخبارات العسكرية. وكان يختفي لبعض الوقت، وأحياناً لمدة أسابيع. "عندما عاد ذات

مرة"، يتذكر دياب سرية، "روى لنا بفخر أن آصف شوكت أرسل في طلبه"، رئيس الاستخبارات العسكرية وصهر بشار الأسد. "كان شوكت يبحث عن متطوعين، للالتحاق بفتح الإسلام، الجماعة الجهادية في لبنان. ولكنه رفض. لم نكن نعلم، إن كان يبالغ أو لماذا كان يروي لنا ذلك. لكنه كان مغتراً جداً." على أية حال كان بالوش يتمتع بحماية شوكت، الذي تكفل بإطلاق سراحه في عام 2010.

بعد اعتقاله توارى بالوش عن الأنظار في البداية، وبعدها ظهر فجأة، في دور غير مألوف لمجاهد متشدد جداً: كصاحب متجر بيع الألبسة الداخلية "كريمات" في اللاذقية، تلك المدينة الساحلية في الشمال، حيث بدأ قبل سنوات مشواره الجهادي المفترض. كما كان يبيع في محله إلى جانب الملابس الداخلية ألعاباً جنسية مهربة، حسبما يزعم شهود من اللاذقية، لم يكونوا يريدون دخول المتجر إطلاقاً.

لفترة من الزمن لم تكن هناك أخبار عن بالوش. لكنه شوهد في بداية صيف عام 2011 في أولى المظاهرات المناوئة لنظام الأسد في اللاذقية. حتى وإن لم يبقَ دوره المزدوج في سجن صيدنايا سراً وانتشر بين الناس بسرعة، إلا أن ذلك بدا وكأنه لم يكن مصدر إزعاج له. البعض رآه في المظاهرات حاملاً مسدساً بيده، وآخرون عثروا في نهاية عام 2011 على صورة له على الفيسبوك، وهو يقف على شاحنة بيك آب مزودة بمدفع رشاش. لكنه لم يُعتقل البتة.

ثم بدأ التحول الثالث لنديم بالوش. صديق له من أيام الشباب، والذي كان متحمساً معه في أواخر التسعينيات للذهاب إلى أفغانستان "لأسامة بن لادن"، كان قد أصبح فقيهاً في الإسلام. "الشيخ خالد"، كما كان يسمي نفسه، حاول في الأشهر الأولى للثورة السورية في صيف عام 2011 التوسط بين المتظاهرين السلميين والنظام. وفي أحد لقاءات الوساطة تلك في اللاذقية مع رجل الأعمال صاحب النفوذ والموالي للأسد أيمن جابر التقى بنديم بالوش مجدداً. "جاء كأحد المتحدثين باسم المتظاهرين، على الرغم من أن أحداً لم يطلب منه ذلك"، كما روى في صيف عام 2013. "كان يستشيط غيظاً وكان جابر على وشك أن يعتقله. ثم وقف وطلب

من جابر أن يبتعدا بضعة أمتار عن الطاولة." أجرى اتصالاً هاتفياً، وفهم الشيخ خالد عبارة "دعه! إنه واحد منا"، وقد تعرف جابر على الصوت: لقد كان آصف شوكت شخصياً، رئيس الاستخبارات العسكرية. "لم نفهم مغزى هذه الحركة"، تعجب الشيخ خالد، "لكن بدا وكأن بالوش كان يعشق تلك اللحظات: صدم أشخاص نافذين مثل جابر وتخويفهم وجعل وجوههم تكفهرّ."

بعد ذلك اختفى بالوش من المدينة. لاحقاً شاهده لاجئون ومتمردون في مصيف سلمى، الذي يقع في الجبال على بُعد نحو 30 كيلومتراً شمال شرقي مدينة اللاذقية. ومن بين هؤلاء كان الطبيب السوري البريطاني رامي حبيب، الذي ترك عمله في مدينة لستر وعاد إلى وطنه لإنشاء مستشفى للطوارئ في سلمى: "ظهر نديم بالوش هنا في شتاء 2011/ 2012، وقال إنه خبير في المتفجرات، وتعاون مع رجل آخر، كان يريد تمويل جماعة من المتمردين. لكنه كان يبحث عن قائد." وقد تولى بالوش هذا المنصب عن طيب خاطر. أسس الاثنان كتيبة "المجد لله"، ولكن بعد وقت قصير أثار حفيظة كثيرين بسبب غلوه في التطرف. "كان يتحدث مراراً وتكراراً أنه ينبغي مهاجمة قرى العلويين، ويُستحسن بالسلاح الكيماوي"، كما قال حبيب، "ونحن لم نكن نريد أمراً كهذا إطلاقاً."

ولكن مع قدوم المقاتلين بأعداد كبيرة في عام 2012، قلما شوهدت فرقة بالوش الآخذة بالتقلص بالرغم من كلمات قائدها الصلدة. وحسب فيديوهاته الخاصة التي أظهرته على الحواجز وفي الميدان، كرّس بالوش نفسه لتأسيس كتيبته الكيماوية الافتراضية "الريح الصرصر". وفي الفيديوهات التي أصبحت مشهورة، نشر اسم جماعته المُضلل بعض الشيء على مُلصق ملون مكلِف. كما تكرر في مقاطع الفيديو ظهور الملثم، الذي كان يرتدي قناع غاز. وأثناء الأناشيد الجهادية وحركة الكاميرا المضطربة سكب مرتدي قناع الغاز مادة كيميائية على أرنبين يرتعدان، ففارقا الحياة بعد دقائق قليلة. "العلويون، أعداء الله! هذا ما سيحدث لكم إن شاء الله!"، قال المتحدث. "أنتم يا مؤيدي الأسد، أترون؟ هذا ما سيحدث لكم! الله أكبر!"[69] كانت هناك العديد من فيديوهات قاتل الأرانب لكتيبة بالوش «الريح الصرصر»،

تـم تصويرهـا دائماً أمام بطارية تحتوي على مواد كيماويـة تركية، وهي في الواقع مواد ليسـت خطرة مثـل برمنغنات البوتاسـيوم (مادة مؤكسـدة)، مزيل طـلاء الأظافر، نتريت الصوديوم ونترات البوتاسـيوم (كلاهما يُستخدم بشكل خاص كمادة حافظة للمواد الغذائية)، وجميع تلك المكونات متوفرة للجميع دون تحفظات.

مقاطـع الفيديو تلـك تلقفها بسرعـة التلفزيون السـوري والـروسي والإيراني، وكان الرئيس بشـار الأسـد يعرضها بـسرور على الضيوف والوفـود كدليل على أن حكومتـه لا تحـارب احتجاجات شرعية، بل تجابه إرهابيـين. غير أن الفيديوهات لم تحقق شعبية مفاجئة إلا في شهر آب/ أغسطس 2013. بعد فترة وجيزة على الهجوم الكبير بغاز السـارين السـام على عدة ضواحي من دمشق، ظهرت مجدداً فيديوهات بالوش المستهلكة كدليل مزعوم على أن المتمردين أنفسهم هم من استخدم الأسلحة الكيماوية.[75] غير أن الهجمات الآن نُسـبت إلى جماعة جديدة تُطلق على نفسـها اسـم «ريـاض عابديـن». ولهذا الغرض أثرى بالوش مشـاهد الأرانب بأمـور أكثر حدة: «سـوف نفعل ما قاله شيخنا أسـامة بن لادن: علينا معاقبة الذين عاقبونا، علينا قتل رجالهم ونسـائهم وأطفالهم. وأكرر مرة أخرى، علينا قتل نسـائهم وأطفالهم؛ إلى أن يكفوا عن قتل نسـائنا وأطفالنا. (...) سنهاجمهم في عقر دارهم، ونحول نهارهم إلى ليل وليلهم إلى نهار!»

وبسرعـة شـديدة انتشرت الصـور والكلمات عبر شـبكة الإنترنـت، وأصبحت «دليـلاً» عـلى هجوم المتمردين الكيماوي - كما قدمت مثـالاً صارخاً على جنون عالم الإنترنـت، الذي فاض بتفاصيـل جديدة دائماً عن جماعة بالوش الإرهابية المزعومة: وهـي أنها أحد أفرع تنظيم القاعدة، وممولة من قِبل الحكومة البريطانية، وفوق ذلك مدعومة من «البيت الأبيض لأوباما» وبشـكل أو بآخـر يديرها «النظام الصهيوني» في القدس.

ولم يأبه أحد إلى حقيقة أن بالوش لم يعد في الجبال المحيطة باللاذقية عندما وقعت الهجمات الكيماوية في شـهر آب/ أغسـطس 2013 - إذ كان المتمردون المحليون قد

ألقوا القبض عليه في شهر نيسان/ أبريل من العام ذاته. وكانت جماعته قد قامت في شهر كانون ثاني/ يناير باختطاف الضابط السابق المنشق رياض الأحمد الذي كان قد انضم إلى صفوف الجيش السوري الحر ومتواجداً في تركيا، ونقلته إلى سوريا، حيث مات تحت التعذيب. لم تتوقع المخابرات التركية أن تجري عمليات اختطاف أناس على أراضيها دون علمها، وهكذا شاركت الشرطة التركية أيضاً في التحقيقات حول السوري المختطف – وعثرت على مقطع التقطته كاميرا مراقبة في إحدى محطات الوقود، وفيه سيارة الخاطفين، ومن خلال لوحة أرقامها تبين أنها لجماعة بالوش. ولمدة ثلاثة أيام خضع نديم بالوش للاستجواب، وحتى من قِبل صديق شبابه الشيخ خالد: «ولكن في اليوم الرابع ألحت جبهة النصرة على استجوابه هي أيضاً. زاعمة أن لها الحق في استجوابه حول حالات القتل التي حدثت في سجن صيدنايا في الماضي. ويجب أن يتم الاستجواب عند النصرة.»

أُحيل بالوش إلى الجماعة المحلية لجبهة النصرة – واختفى أثره بعد أيام قليلة، إذ قيل إنه هرب. وفي الواقع تم إطلاق سراحه من قِبل أفراد من جبهة النصرة، ظهروا لاحقاً مع داعش: من أبرزهم أبو أيمن العراقي، أحد قياديي داعش، الذي كان مسؤولاً في السابق في ريف اللاذقية ومسؤولاً عن أولى حالات القتل التي طالت قياديي المتمردين. لقد كان من أفراد الطليعة الذين جاؤوا من العراق في عام 2012 مع أبي بكر البغدادي وحجي بكر، لكي يعدّوا استراتيجية للاستيلاء على السلطة في سوريا. كما أن طرق نديم بالوش الملتوية أوصلته في نهاية المطاف إلى «الدولة الإسلامية»: آخر إشارات حياة منه كانت في عام 2014 عندما بايع أبا بكر البغدادي، بالإضافة إلى بضع تغريدات تهليل من حسابه على تويتر. هنا أطلق على نفسه الاسم الحركي «عبد الغريب»، وهي كناية محببة من الفترة الإسلامية المبكرة، بحيث يقدم المرء نفسه على أنه سيحارب الجميع في سبيل الله وأن يبقى غريباً بالنسبة للجميع.

3

مهرجان الجهاديين

مقاتلون أجانب يتدفقون إلى سوريا

في صيف عام 2013 كان سائحو الجهاد، الذين جاؤوا من كل أصقاع الأرض إلى سوريا، لا يزالون يعتبرون أن الحرب إجازة مغامرة. في غضون ذلك كانت «الدولة الإسلامية» تتمدد بحذر. ولكن بعدها اختفى فجأة أثر أول الصحافيين الأجانب والمساعدين.

في الماضي كانت أطمة عشاً وديعاً للمهربين في الشمال السوري، وكانت إيراداتها تأتي بفضل قربها من الحدود التركية وبفضل واديها الحدودي المستنقعي غير الخاضع لرقابة قوية. وفي بداية صيف عام 2013 بدا وكأن أحداً يقوم بتصوير فيلم عن الجهاد في أطمة: وافدون جدد باهتو البشرة يجرّون حقائب ذات عجلات ويبحثون عن أميرهم. وفي شارع القرية يشاهد المرء وجوهاً إفريقية وآسيوية، رجالاً يصل شعرهم إلى أكتافهم بزي أفغاني ويتجولون حاملين بنادقهم الكلاشينكوف. أمام كشك للشاورما تختلط لهجة شمال إنجلترا الثقيلة بتطعيمات اللغة العربية، «سبحان الله، برو، آي أسكد فور كاتشاب، سبحان الله»، كما تُسمع اللغة الروسية، الأذرية، واللهجة السعودية ذات مخارج الحروف الحلقية القاسية.

وحتى قبل الاستيلاء على المعابر الحدودية الرسمية في شمال سوريا وصل إلى سوريا بشكل متقطع عن طريق أطمة سوريون منفيون وصحافيون وطلائع

المتشـددين الأجانب عن طريق شـبكات المهربين القديمة. وبدأ تقاطر الناس بأعداد مطردة عبر الحدود عن طريق هذا الدرب، وأصبحت أطمة قبلة المسافرين المتشددين من جميع أنحاء العالم. أكثر من ألف منهم استوطنوا في أطمة ومحيطها، وفي تلك الفترة لم يكن هناك مكان في سوريا يحوي أكثر من هذا العدد. ومن المفارقات أن واحدة من أهـدأ بقـاع البلاد حولها المتطرفـون الأجانب إلى مركز لهم. أو ربـما كان هدوؤها هو السبب، فلمجرد وصولهم إلى هنا، كان كثيرون لا يريدون الذهاب إلى مكان آخر.

كانـت تغطية شـبكة الهاتف المحمـول التركية ممتازة هنا (في حين كانت الشـبكة السـورية مقطوعـة إلى حد كبير في الشـمال منذ عـام 2012)، بـدأت المحلات ببيع قمصان الشـالوار، الفضفاضة المصنوعة من قماش خشـن، على نمط المناطق القبلية في غربي باكستان، إضافة إلى طاقيات البكول الأفغانية من اللباد وطاقيات القاعدة. لكن أزياء الوافدين الجدد لم تكن غريبة بالنسـبة لسـكان المنطقـة، التي كان ذكورها يرتـدون في الغالب سروال جينز وقميصـاً. كما افتُتحت مطاعم جديدة، من بينها في عام 2013 «فلافيتو»، الذي كان يقدم للضيوف العالميين وجباتهم المحلية: كشري، وجبة مـن العدس للمصريـين، دجاج تيكا للباكسـتانيين، هامبورغـر للأوروبيين، وهكـذا دواليـك. وكان مكتـب «الاتصالات الدوليـة» يقوم بحجز تذاكـر الطائرة ويقـوم بـصرف الريال السـعودي والجنيه الإسـترليني واليورو والـدولار. وكانت الصيدلية المحلية تبيع المسـواك، الذي يُستخدم لتنظيف الأسنان اقتداءً بالنبي محمد، ويضاعف استخدامه قيمة الصلاة سبعين ضعفاً. هذا ما بشرت به الكتابة الموجودة على عبوات الأعواد المستوردة، والممهورة بعبارة «صُنع في باكستان».

في منتصف شـهر حزيران/ يونيو تم افتتاح ثالث مقهـى إنترنت في القرية. وبناءً على ذلك وضع صاحب أول مقهى راية القاعدة وراية داعش على أجهزة الكمبيوتر كاعـتراف بالـولاء للزبائن المختلفين، وبعدها راح يفتح المقهى يومياً حتى سـاعات الفجـر. وبات الزبائن المحاربون يمدحون لأصدقائهم في الديار أطمة عبر محادثات سـكايب: هنا الجنة! الإيجارات رخيصـة، الطقس والطعام جيـدان، ويمكن للمرء التجـول مسـلحاً وبشيء من الحظ يمكنه العثور على زوجـة. وعندما يحل الليل كان

صوت المعارك النشاز يصل حتى الشارع، عندما يلعب عدة زبائن في مقهى الإنترنت معاً لعبة «كاونتر سترايك»، وهي لعبة كمبيوتر الأكثر شعبية لدى الجهاديين.

في أطمة كان الجميع يشعرون أنهم يشاركون في ساحات الجهاد من خلال تنوع اللباس، لكن دون أن يمس أحدهم ضرر. وانتعشت التجارة المحلية بفضل الزبائن المتطرفين. وفي متجر الهواتف الجوالة يستغرب البائع السوري: «كل بضعة أيام يأتي إلى هنا شخص من داغستان، اشترى في البداية هاتف سامسونغ جلاكسي، وبعد أسبوع جهاز آيباد، وبعدها أحدث جهاز سامسونغ جلاكسي. لا شك أنه أنفق أكثر من 1000 دولار هنا، ولكن لماذا يحتاج كل تلك الأشياء؟»

لماذا جاء الجميع إلى هنا أصلاً، يتساءل مصطفى وضاح، قائد الجيش السوري الحر في المنطقة، وقد بدا السخط واضحاً عليه: «إذا جاؤوا إلى هنا للقتال، فليتفضلوا، الجبهة من هناك»، يشير بإصبعه باتجاه الشرق، «ولكن إذا كانوا لا يبرحون أطمة طوال الوقت، فلماذا جاؤوا إلى سوريا؟»

في الواقع، كان الموقع بمثابة محطة عبور للجهاديين، الذين وصل أغلبهم عبر مطار هاتاي التركي القريب، ومن ثم دخلوا الأراضي السورية عبر الحدود بطرق شرعية أو غير شرعية. عبر هذا المحور المريح لسياحة القاعدة دخل وخرج منذ خريف عام 2012 تونسيون وشيشان ومصريون وسعوديون بلا مضايقات. كان المرء يراهم وهم يصلون إلى مطار هاتاي محملين بالأمتعة الثقيلة، فيتم استقبالهم وجلبهم، وغالباً من أمام صالة الوصول. وكان المرء يراهم وهم يريدون المغادرة. وحتى هنا لم يسألهم أحد شيئاً، ولم يتعرض إليهم أحد. لدرجة أن مجموعة من الجهاديين الشيشان، والتي كانت تتباهى في أطمة أنها مطلوبة من قِبل الإنتربول، طارت دون تعقيدات عبر هاتاي إلى ديارها مجدداً. في تلك الفترة لم تكن في نية الكثيرين الذين جاؤوا إلى هنا المكوث إلى الأبد. كانوا يريدون أن يعيشوا ولو لمرة واحدة المغامرة الكبرى، كانوا يريدون حمل سلاح، وتُلتقط لهم صورة به أو أن

يصوروا أنفسهم – ولكن بعد ذلك يطيرون عائدين إلى ديارهم مجدداً. مجرد تذَوق طعم الجهاد.

بقي كثير من الوافدين في أطمة. بينما توجه آخرون إلى حلب، أو إلى الجبال شمالي اللاذقية، أو إلى الرقة في الشرق، حيث كانت خطوط الجبهة غير الواضحة مشتعلة حينها للتو. بعض الذين كانوا قد انتقلوا للقتال اتصلوا بعد أسبوع بالديار وترجوا بإلحاح مساعدتهم ليخرجوا من هنا مجدداً. وآخرون انتهى بهم المطاف كانتحاريين. عاش كثيرون في أطمة ببساطة، في حين انضم آخرون إلى جماعات غامضة. حتى منتصف شهر حزيران/ يونيو 2013 كان يوجد في أطمة وحدها وحولها:

- داعش وقوامه أكثر من 200 شخص، ويعد المجموعة الأكبر، والتي كانت تنمو على الدوام.
- «جيش المهاجرين والأنصار»، وفيه قرابة 170 رجلاً، وقد انضم إلى داعش لاحقاً.
- «جبهة النصرة»، وتضم قرابة 100 مقاتل، والعدد في تراجع.
- كتيبة «أبو البنات»، مجموعة أطلقت على نفسها اسم أميرها أبي البنات، وكانت مؤلفة فقط من الشيشان والداغستان والأذريين تقريباً، وتحتوي على 70 رجلاً، والعدد في تراجع.
- كتيبة «أبو مصعب الجزائري»، قرابة 60 شخصاً، سموا جماعتهم نسبة إلى مؤسسهم وممولهم الجزائري.

حتى في ذلك الوقت كان هؤلاء الأجانب مخيفين؛ لأنه حتى وإن كانوا يقاتلون قوات النظام، كما هو الحال بالنسبة للقائد الشيشاني الجورجي غير المعروف حينها أبداً أبي عمر الشيشاني، فإن ذلك قد بدا وكأنه يحدث لدوافع خفية. تعجب قادة الجيش السوري الحر: لماذا نهب الشيشاني كل تلك الذخائر بما فيها صواريخ مضادة للطائرات، لطالما كان يخزنها ولا يستخدمها؟ «ولكن، لا يمكننا تحمل فتح جبهة

ثانية»، يقول العقيد طيار حسن حمادة. «نتمنى أن يرحلوا بعد الإطاحة بالأسد. حتى الآن لا يـزال هدفنا واحداً، حتـى الآن.» حتى الآن كان هناك تعايش غير حقيقي في أطمة، حيث إن زوجات المهاجرين القليلات كن يمشـين منقبات، في حين استمرت النسـاء المحليات بارتداء سراويل الجينز في الشـارع، وكانت تباع أقراص الموسـيقى المدمجة، وكان التدخين علنياً، كما هو الحال في سائر سوريا. وعندما قام شيشاني بضرب سيجارة من يد أحد سكان المنطقة السوريين، تحول الأمر إلى موضوع للحديث لعدة أيام. حتى الآن كان يتوجب على المتشـددين أن يتفقوا مع النسـيج المعقد المؤلف من المجالس المحلية وكتائب الجيش السوري الحر والجماعات الإسلامية المعتدلة.

وإذا سـأل المرء القادمين الجدد عن رأيهم، فإنهم يعتبرون أن سـوريا مجرد مرحلة فقـط. «الجهاد هنا أولاً، حتى النصر! بعد ذلك سـنفتح العراق ولبنان وفلسـطين»، يعدد بالترتيب شـاب عربي جاء من بريطانيا. كان الأمر يبدو أشـبه بجنون العظمة، ولكنـه كان بلا شـك نبـوءة بالنسـبة للبلدين الأولين عـلى الأقل. أمـا إسرائيل فقد جـاءت في المركز الأخير، فالشـيعة هم الأعداء الحقيقيون، صحيح أنهم مسـلمون، ولكنهم أسوأ من الكفار.

غير أن الوهم اضمحل في مدينة دارة عزة، التي تقع على بُعد 25 كيلومتراً خلف أطمـة. إذ تصدى الجيش السـوري الحر الذي كان عدد أفـراده هناك 1000 رجل، لمحاولة بسط جماعة من داعش، يبلغ عددها 150 مقاتلاً، سيطرتها على المدينة. كان أمراء داعش يتمتعون بالمرونة، فتوصلوا إلى حل وسط، وهو أن تتناوب المجموعتان على السـيطرة عـلى حواجز التفتيش في المدينة. ولكن عندمـا طلب مجلس المدينة من رجـال داعش المسـاعدة في إصلاح أنبـوب مياه، اكتفى المقاتلون بهـز أكتافهم فقط. «إنهـم يريدون غزو نصف العالم»، يقول المحامي وعضو مجلس المدينة أحمد رشـيد، «ولكنهم سيفشلون في غزو بلدة صغيرة.»

في غضـون ذلـك في أطمة اختبروا الحياة مثلما في زمن النبي باسـتخدام المسـواك والقماش الخشـن، ولكن ليس دون الفيسـبوك و«كاونتر سـترايك». ولكن بشـكل

لا إرادي كان المشـهد يشبه بدايات الإسـلام، عندما سقط ثلاثة من الخلفاء الأربعة بعـد محمد ضحايـا نزاعات داخلية. جميع المتشـددين في أطمة كانـوا يطالبون بدولة إسـلامية – لكن ذلك لم يمنع المجموعات أن تنقلب على بعضها باسـتمرار، وتنشق بعضهـا عن المجموعات المدخنة الأخـرى، وتتناحر معها أحيانـاً، من خلال تكفير الإسـلاميين الآخريـن. لقـد كان مهرجانـاً جهادياً، نشـأت فيه مجموعـات صغيرة وانحلت من جديد عندما تنتهي أموال ممولها الوحيد. وبدأت توازنات القوى تتغير رويداً رويداً. ومع أن «الاسـتحواذ الفظ» على جبهـة النصرة من قِبل داعش لم يكن قد حدث في مطلع شـهر أبريل/ نيسـان 2013، لكن المهاجريـن انتقلوا أفواجاً من النـصرة إلى منافسـها الصاعد فجأة. "لقد كان لديهم ببسـاطة 'المشروع' الأكبر من مشروعنا"، يوضح سوري محبط كان قد بقي في صفوف النصرة. "لدينا برنامج، أما هم فلديهم دولة، ولا يمكننا منافسـتهم في ذلك." وعلى المدى البعيد لم يكن بإمكان أحد الصمود أمام مطلب جسـور كهذا، بأن يقدم مشروع "دولة إسـلامية" يحكمها شرع الله. ومـع ذلـك انتقل كثير مـن الروحانيين الملتحين من تشـكيلة إلى أخرى أو عادوا إلى ديارهم، عندما انتهت إجازاتهم أو نفد مالهم.

وهكـذا اختفـت جماعـة أبي مصعـب الجزائـري في خضـم اضطرابات الأشـهر القادمة. أما جماعة أبي البنات المؤلفة من الشيشان والداغستان والأذريين فقد انتهت فجـأة في شـهر حزيران/ يونيـو. الضابط الروسي السـابق من الجمهوريـة القوقازية داغسـتان، الـذي كان قد اعتنق الإسـلام والتف حولـه أتباعه كالتلاميـذ، انتقل في مطلـع عام 2013 مـن أطمة إلى قرية مشـهد روحين التي تبعد تسـعة كيلومترات، فأغلق مداخلها بحواجز مسـلحة وحولها إلى "إمارة" شـخصية له. وقد قطع رجاله هناك في شـهر نيسـان/ أبريل رؤوس ثلاثة شـبيحة مزعومين للنظام وسـط سـاحة القريـة. فأُصيـب سـكان القرية بصدمـة، كما روى رجـل من قرية مجـاورة: "بغض النظر عما فعله الثلاثة، نحن لسنا أغناماً يذبحونها بتلك البساطة." بعد القتل بدأت عملية نزوح، ولم يبقَ سـوى 70 رجلاً عند الأمير الذي نصب نفسـه، وكفّر النصرة والجماعـات الجهاديـة الأخـرى تلقائياً – لأنهـا لم تنصع لأوامره. وعندمـا ظهر بعد

أشـهر لاحقة تسـجيل فيديو الإعدام، والذي يتحدث فيه أبو البنـات أمام الكاميرا بلغة عربية ركيكة، بينما كان تابعه يقطع ببطء رأس الرجل الأول ثم الثاني، بدا وكأن الكيل قد طفح بالنسبة للجماعات الأخرى. فتوجه حشـد من مسـلحين مدججين بالسـلاح إلى مشـهد روحين تحت زعامة قائد شيشاني من داعش، وأعلن نهاية إمارة أبي البنـات. فاستسـلم أتباعـه المتبقـون دون مقاومة، أما هـو فقد أُخـذ برفقة اثنين مـن أعوانـه. وفي أثناء ذلك كانـت جميع الطرق المؤدية إلى المعسـكر مطوقة بحواجز الجيـش السـوري الحـر، لكي تمنـع أي مؤازرة من الوصـول إليه. وهـذا لا يعني أن داعـش تعامل لاحقاً بوحشـية أقل من أبي البنات الذي نصّب نفسـه أميراً – ولكن في هـذا التوقيـت المبكـر كان الظاهر أن الوحشـية غـير نافعة بعد. ما أقـدم عليه أبو البنات من إثارة الفظائع علناً، منح داعش فرصة مناسبة لإزاحة منافس آخر لها من طريقـه. أظهر اسـتراتيجيو داعش في هـذه المرحلة، أنهم يتقنون جميـع فنون التعامل لكي يبسـطوا سيطرتهم على مناطق أوسع: بدءاً من مكتب الدعوة السلمي الطيب، مروراً بالعمليات المدروسـة، وصولاً إلى الوحشـية اللافتة، والتي سـيطبقها داعش ابتداءً من خريف عام 2013.

لم يكـن قد حان الوقت بعد، للقضاء على أولئك الذين يمكن أن يشـكلوا خطراً حقيقيـاً عـلى داعـش. غير أن أمـراً رهيبـاً كان قد بـدأ في بداية صيف عـام 2013: عمليـات خطـف الأجانـب دون أي أثر. ففي شـهر تشريـن ثاني/ نوفمـبر 2012 تـم إيقـاف الأمريكي جيمس فـولي والبريطاني جـون كانتلي على الطريـق بين بلدتي بنش وتفتنـاز، واختطافهما. كما خُطف بريطانيون وأمريكان وفرنسـيون وإيطاليون وإسـبانيون، معظمهـم صحافيـون، ولكـن كان هناك مسـاعدو إغاثة أيضـاً. حتى خريـف عام 2013 اختفى في شـمالي سـوريا قرابـة 30 صحافياً، جميعهـم اختُطِفوا مـن مناطق لم تعد خاضعة لسـيطرة جيش الأسـد. وبالرغم من ذلـك كان كثير من الصحافيين والباحثين الصحافيين السـوريين والمحققين يشـكون لفـترة طويلة، أن اختطـاف الضحايـا كان يتم بتكليف من مخابرات الأسـد، والسـبب يعود لسـلوك محتجـزي الرهائـن غير المألـوف: لم تكن هناك مطالـب بدفع فديـة، ولا فيديوهات

مأساوية، ولا إشارة إلى أن الرهائن لا يزالون على قيد الحياة، لا شيء على الإطلاق. وكأن الأرض انشقت وابتلعت المختطفين.

في 15 أيار/ مايو 2013 تعرض ثلاثة ألمان للاختطاف: في الليل قبل الثالثة صباحاً بقليل تم اختطاف موظفي منظمة الإغاثة القبعات الخضراء من قلب منزلهم في بلدة حارم. تسلل الجناة بهدوء. وهددوا الرجال بأن يلتزموا الصمت. لم يبحثوا عن مال، وتركوا أجهزة الكمبيوتر المحمولة وكاميرا ثمينة وحتى أحذية الرجال الثلاثة، ومن ثم اختفوا بعد دقائق معدودة. كانوا يعرفون كثيراً عن ضحاياهم، ولكن يبدو أنهم لم يكونوا على علم أن هناك موظفاً رابعاً كان قد انضم إليهم قبل ذلك أيام.

وهكذا اختطفوا بيرند بليشميدت وسيمون زاور وزياد نوري من الطابق الأرضي من الشقة – لكنهم لم يختطفوا عمر المراياتي، الذي كان يرتعد خوفاً في غرفته قبالة غرفة المعيشة وسمع كل ما كان يدور هناك. أدار أحد الخاطفين قبضة باب غرفته، لكنه كسر القبضة البلاستيكية. وقد ذكر المراياتي لاحقاً في المحضر أنه سمع الجناة يتحدثون مرة واحدة فقط: "عندما قال أحدهم: 'يجب أن أغادر الآن!' فرد عليه آخر: 'حسناً، اذهب إذن!'"

في خريف عام 2012 كان موظفو منظمة القبعات الخضراء قد جاؤوا إلى تلك المناطق المنكوبة في الشمال السوري، عندما طرد المتمردون قوات النظام منها. وفي بلدة أعزاز أعادوا مشفى طبياً إلى الخدمة. وفي منتصف شهر آذار/ مارس 2013 توجهوا إلى حارم، وهي بلدة متاخمة للحدود التركية، وأنشأوا هناك روضة أطفال، وكانوا يعتزمون إنشاء مشفى. "ظنّ الجميع أن حارم آمنة نسبياً، لأنها بعيدة عن المعارك"، يتذكر روبرت نويديك، مؤسس القبعات الخضراء. وكانت منظمة الإغاثة الإيرلندية "غول" قد افتتحت مكتباً لها هناك أيضاً. المنزل، الذي كان يقطن فيه الألمان في وسط البلدية، كان ملكاً لرئيس البلدية. "كان الناس هنا يحبون الألمان"، يتذكر جارهم رفيان شيخو، "كانوا يلعبون معنا كرة القدم، وكنا نطبخ لهم وكنا

سعداء بوصول مساعدات." وكان من الطبيعي أن لا يتم إقفال الأبواب – "ولكن تبين لاحقاً أنه خطأ". كان نوري، المهندس من ميونيخ ذو الأصول السورية، قد جاء للمكوث عدة أسابيع فقط، من أجل التخطيط لبناء المشفى. وقد وصل إلى البلدة منذ أربعة أيام فقط، عندما هاجمه الخاطفون.

كانوا يعرفون مكان إقامة الألمان، على الرغم من أنه لم يمضِ على انتقالهم إلى المنزل سوى شهر واحد فقط، ولم تكن هناك لافتة على الباب تدل على أن سكان المنزل هم موظفو القبعات الخضراء. الظاهر أن المجموعة التي هاجمت المنزل ليلاً، كانت متيقنة تماماً أن بإمكانها الهرب برفقة الرهائن بأمان. وبما أن حارم تقع في منطقة تغطيها شبكة الهواتف المحمولة التركية، فإن اتصالاً واحداً قد يكون كافياً لجعل الجميع يهرعون للبحث عن المختطفين.

وفي ليلة الاختطاف توجه رئيس البلدية، الذي علم بالحادث، إلى حاجزي الجيش السوري الحر، وسأل الجيران، واتصل بقادة القرى المجاورة. يقول أحد الشباب إنه رأى شاحنة بيك آب فضية عند الساعة الثالثة فجراً تسير باتجاه مركز البلدة، والذي تتفرع منه شوارع إلى باقي الاتجاهات. ولكن أحداً لم يسمع شيئاً.

ولعدة أسابيع بحث الزملاء السوريون للرهائن الثلاثة عن الخاطفين، وكذلك فعل قادة الجماعات المتمردة المحلية، وسافر نويديك إلى حارم، كما ناشد شيوخ المنطقة الخاطفين لإطلاق سراح المحتجزين لديهم. سرت شائعات واتهامات، ولكن لم يكن هناك طرف خيط حقيقي. كانت تتكرر مراراً وتكراراً إشاعة: أن أبا البنات يحتجز رهائن أجانب في قريته المحصنة مشهد روحين، التي تبعد قليلاً عن أطمة – ففي هذه الفترة كان أبو البنات الذي نصب نفسه أميراً لا يزال يقيم هناك وكأنه في إمارة من القرون الوسطى. وكانت زيارته تعد ضرباً من الجنون، كما قيل، لذا كان لا بد من وجود وسيط. وبعد فترة بدا وكأنه تم العثور على وسيط: أبو أسامة التونسي، أمير داعش في بلدة الدانا. كان رجلاً محنكاً، وقبل كل شيء كان الوحيد الذي يستمع إليه أبو البنات بصفته مصدر تشريع ديني.

كان صيف عـام 2013 مرحلة قصيرة تمكن المرء فيها مـن زيارة كوادر "الدولة الإسـلامية في العراق والشام"، كما أطلق التنظيم على نفسه اعتباراً من شهر نيسان/ أبريـل مـن ذاك العام. قبل شـهر نيسـان/ أبريل لم يكـن بالإمكان أن يصـادف المرء مقاتـلي داعـش؛ لأنهم ببسـاطة لم يكونوا قـد اتخذوا هذا الاسـم لهم بعـد، بل كانوا غامضـين ويدعون أنهم "إخوان" تارةً، أو أنهم هرعوا إلى القتال تضامناً مع الناس، أو أنهم مقاتلو جبهة النصرة تارةً أخرى. واعتباراً من شـهر أيلول/ سـبتمبر 2013 حدثـت معهم مواجهـات ذات عواقب وخيمة. إذ تعرض صحافيون سـوريون أو عرب للضرب من قِبل مقاتلي داعش، أو للقتل بالرصاص في بعض الحالات.

وتم اختطاف صحافيين غربيين، الذين كانوا بمثابة غنيمة ثمينة. وفي مطلع شهر حزيران/ يونيـو 2013 كان الأمـر لا يـزال مختلفاً، والظاهر أنه لم تكـن هناك أوامر مركزيـة باختطـاف كافة الصحافيين القلائل المتواجديـن في البلاد -كما أن داعش لم يكـن يشـعر أنه قوي بما يكفـي بعد، على الأقل ليـس تجاه أولئك الذيـن كانوا تحت حمايـة مجموعـات المتمردين الأكبر بكثير. وبالرغم من ذلـك كان معظم الصحافيين قد أصبحوا أكثر حذراً؛ لأن الظروف تغيرت في غضون أسابيع. ونحن أيضاً كنا لا نتحرك إلا برفقة مساعدين سوريين، كنا نعرفهم، ولم نكن نبقى لفترة طويلة في بقعة واحدة قط، ولم نكن نبوح بمكان مبيتنا القادم.

كان جهاديو "الدولة" يعتبرون متقلبين، أكثر منه خطرين. ومع ذلك توجه وفد صغـير جداً لزيارة الأمير التونسي لبلدة الدانا في منطقة إدلب، حيث كان داعش قد استأجر أو استولى على ثلاثة مبانٍ كبيرة هناك. كان أبو بشير من ضمن أعضاء الوفد، وهو من حارم وكان مهرب مازوت منذ زمن بعيد، ثم أسس لواء "الإسلام" وكان يسـير باللباس الأسـود لاعتبـارات تجارية مرتدياً طاقية كُتبت عليهـا عبارة "محمد رسول الله" بالخط الذي اشتُهر به تنظيم القاعدة: "إنها تُكسب الاحترام." شخصياً لا شيء يجمعـه بالمتشـددين، تماماً مثل غالبية سـكان بلدة المهربـين حارم. "مازوت حتى النصر"، هكذا كانت تسـخر لافتات في قلب البلدة من شعار الجهاديين "قتال

حتى النصر". ولكن أن يتم خطف ثلاثة أجانب في حارم، "لم يكونوا يريدون شيئاً سوى المساعدة"، فهذا أمر لا يجوز، كما قال أبو بشير.

كما ضمّ الوفد حسن حمادة: العقيد طيار في سلاح الجو السوري سابقاً، الذي اشتُهر لفترة قصيرة عندما هبط بطائرته في الأردن في عام 2012. بعد تلك الحادثة مُنع الطيارون السنة من الطيران في سوريا. ومنذئذ بقي حمادة في العاصمة الأردنية عمان ولم يكن يفعل أي شيء. فعاد إلى سوريا، لكي يضع خدماته تحت تصرف هيئة أركان الجيش السوري الحر. تنقصه فقط: الخبرة في القتال البري، كما أنه لم يكن رامي مدفعية، ومن ناحية أخرى لا يمتلك الجيش السوري الحر طائرات. وبناءً عليه أوكل إليه منصب نائب رئيس الاستخبارات الذي تم تشكيله حديثاً. وكذلك لم تكن لديه خبرة في هذا المجال أيضاً، ولكن على الأقل هنا لن يعرّض نفسه أو غيره للخطر.

وهكذا جلسنا خمسة أشخاص في السيارة وانطلقنا نحو الدانا، إلى أن لاح فجأة خطر آخر تماماً بعد مدخل البلدة بقليل. "جهاد"، هَمهَم العقيد حمادة، "التدخين" هَمْهَمَ أبو بشير، وبسرعة ضغطا على الولاعة. السيجارة الأخيرة قبل المثول أمام الأمير؛ لأن التدخين ممنوع منعاً باتاً لدى داعش. وعلى عجل سحبا مرة أخرى نفساً من سيجارة جيتان لايت، قبل أن تتوقف السيارة أمام المبنى الذي وُضعت على مدخله راية سوداء. وبعد تجاوز حارسين شكاكين وحاجز حديدي ملحوم حديثاً وصل الوفد إلى "المقر الرئيسي". بين الفرشات المرمية جانباً، وأكياس النوم وكيس رمل مُدلى نحو الأسفل أوصلنا شاب تونسي إلى أبي أسامة التونسي، وهو رجل قصير اللحية وحليق الرأس، وأمير في "الدولة"، كما يسمي التنظيم نفسه هنا.

تكرم التونسي بمنح المجموعة بعض الوقت. كانت الهيبة المهينة التي أبداها جميع الحاضرين تتعارض مع مظهرهم المعتاد. لقد كانت تبدو عليهم علامات الوقار وبنية أجسامهم رياضية ومعالم الغطرسة واضحة عليهم، ولكن ما إن وصلوا إلى الحجرة الصغيرة التي يستقبل فيها الأمير ضيوفه، حتى انحنوا عدة مرات، والسبب

لم يكن انخفاض عتبة الباب العلوية. فكل أمر مقتضب تفوه به أميرهم، قابله انحناءة تؤكد الانصياع لقراره، ثم ما لبث المقاتلون الخانعون أن اتجهوا عائدين بسرعة نحو الباب، تماماً كما جاؤوا. جلسنا على وسائد مسطحة وانتظرنا لنرى ماذا سيحدث الآن. بدأ حسن حمادة الحديث مشدداً على حرصه على التعاون المثمر. فيما تحدث أبو بشير عن حادثة اختطاف الرجال الثلاثة وعن مشاريعهم الإنسانية، وعن بناء مستشفى في حارم، وعن التحريات غير المجدية حتى تاريخه، وعن أني جئت خصيصاً للعثور على الرجال الثلاثة.

حافظ أبو أسامة التونسي على هدوئه المعتاد. كما أنه لم ينبس ببنت شفة. واكتفى بالمراقبة.

ثم تطرق أبو بشير إلى الموضوع الجوهري، وهو أنه تناهى إلى سمعه أن الرجال الثلاثة محتجزون في قرية صديقه الداغستاني أبي البنات. وبما أنه، أي التونسي، مرشده الديني، فلربما ذكر كلمة طيبة في حقهم...؟

"هذا ليس صحيحاً. هم ليسوا لدى أبي البنات"، ثم أردف التونسي: "سوف نوضح الأمر، لكنهم ليسوا عنده!" ربما ستصبح عملية البحث أسهل إذا حصل الأمير على أسماء المختطفين الثلاثة، استطرد أبو بشير. وراح يقلب صفحات مفكرته.
"لا أريد معرفة أسماء الثلاثة"، جاء الرد الفظ. "أريد معرفة أسماء مخبريكم!"

لم يكن ذلك بالحسبان. أشاح حسن حمادة بنظره، بينما اعتلى الهم أبا بشير والتزم الصمت. ثنائي الوساطة، الطيار ومهرب المازوت، لم يُقنعا الأمير بما فيه الكفاية. وبإيماءة من التونسي، نهض رجلان ملتحيان وأوصلانا بسرعة إلى الخارج. من المرجح أنه كان في جعبة أبي أسامة التونسي الكثير. لكن من حيث المبدأ، كان الجهل بالأمور جزءاً من الخطة الهيكلية لداعش، والتي طوّرها الاستراتيجيون العراقيون المخضرمون: فجميع المجالس المختلفة، والتي لها أحياناً مهام متطابقة، تعمل بشكل متوازٍ، وتكتفي برفع تقرير للجهة الأعلى. فإذا اعتقلت مفرزة "الخطف" أو "الاغتيالات" شخصاً في إحدى المناطق، فإن ذلك يتم دون علم المحكمة الشرعية،

وهي الجهة المختصة رسمياً بالنظر بالأمور المتعلقة بالقضاء والأمن. وفي حال سأل أقرباء المختفي داعش، فإن التنظيم كان يبدي جهله بالأمر – حتى إن تلك الحالات تكررت كثيراً.

لم يعثر أحد على أثر للألمان الثلاثة في أي مكان. وتوالت الشائعات، وتواصل السماسرة مع الأقارب، وزعموا أنهم يعرفون مكان إقامة الرهائن، وطلبوا مالاً من الأقارب، لكن أحداً منهم لم يجلب ولا علامة واحدة تدل على أن الرهائن لا يزالون على قيد الحياة. إلى أن ظهر في فجر الرابع من شهر تموز/ يوليو شخصان مرهقان ومتعبان في قرية همدة الحدودية التركية: سيمون زاور وبيرند بليشميدت. كانا قد نجحا في النهار السابق في الهرب، ومنذ ذلك الوقت وهما يسيران. ما رواه الاثنان عن اختطافهما رسم صورة غريبة: في تلك الليلة باغتهما ملثمون على حين غرة، ورموهما في سيارة. في البداية توجهت السيارة إلى مسكن قريب، وبعدها إلى الجبال، وفي نهاية المطاف بعد أسبوع إلى مزرعة دجاج مهجورة، التي تمكنا من الهرب منها الآن. بدا وكأن جماعة متشعبة الصلات وعلى قدر جيد من التنظيم كانت وراء عملية الاختطاف. ولكن ما الهدف وراء عملية الاختطاف أصلاً؟

كان الخاطفون الملثمون يصرخون في وجههما متهمين إياهما بالجاسوسين. أثناء جلسات الاستجواب، التي كان يقوم بها شخص يتحدث اللغة الألمانية بطلاقة، وُجهت إليهما كل ما يخطر بالبال من تهم، ومن بين التهم المشاركة في عملية تفجير في تركيا. ثلاث محاولات لتصوير الخاطفين لضحاياهم باءت بالفشل، بسبب عدم قدرة الخاطفين على إبقاء الكاميرا دون اهتزاز، أو لقيامهم بتصوير الزنزانة المظلمة من مكان مضيء. واستمر التناقض طوال فترة الاختطاف: فقد بدت بعض الأمور على مستوى عالٍ من الاحترافية، في حين كانت هناك أمور أخرى تبدو وكأنها عثرات أشخاص حمقى. لكن لم يكن من الواضح، ماذا كان يريد الخاطفون، لذا قرروا احتجاز رهائنهم الثلاثة لفترة طويلة. ولم يكن الثلاثة وحدهم رهن الاحتجاز: فقد وصل إلى مزرعة الدواجن تباعاً ثمانية مختطفين سوريين آخرين. وفي القسم الخلفي من الصالة بنى محتجزو الرهائن زنازين، طول الواحدة منها 200 سنتيمتر وعرضها

80، وأمـام الزنزانة باب من الحديـد الصلب عليه رقم. وكان الطعام يُقدم للرهائن مرة واحدة يومياً، لكن الشراب كان قليلاً في ذاك الحر الشديد.

أراد الرجال عدم الكشـف عن هويتهـم ولا بأي حال من الأحوال. وفي واحدة من اللحظات النادرة، يتذكر بيرند بليشميدت لاحقاً، عندما تحدث إليهم الخاطفون: «أنتم تعلمون من نحن؟!»

«لا.»

«بلى! اعترفوا أنكم تعلمون ذلك!»

«لا.»

وفي نهايـة المطـاف اقتنعوا أن الثلاثـة لا يعرفون من يحتجزهـم. لكن زياد نوري استطاع أن يتعرف من خلال اللهجة على أن أغلبية الخاطفين كانوا من شمال إفريقيا، إضافة إلى بعض الأتراك. وأحياناً كانت تُسمع صرخات، عندما يتم تعذيب السجناء السوريين في الجناح الآخر من الصالة الكبيرة.

زيـاد نوري، الذي اسـتطاع التحدث إلى الرجال الملثمين، اشـتكى مـن قلة الماء للوضـوء. وقد تفهم الحراس ذلك ونقلوه في أواخر شـهر حزيران/ يونيو إلى البيت الرئيسي أمام صالة الدواجن، حيث كانوا يقيمون، لحسـن حظه ولسوئه في آن؛ لأنه عندمـا كسر زاور وبليشـميدت شـبكة تهوية كانـت مثبتة في الإسـمنت ونجحا في الفرار، تركاه وراءهما.

كانت حراسـة الرهائـن الغبية المتهاونـة، والتي يبدو أنها كانـت وفق توجيهات جهـة أعـلى، تشـكل تناقضـاً صارخاً مـع عمليـة الاختطـاف المهنيـة والخاطفة قبل أسـابيع. كما كان هنـاك أمر غريب آخر: عندما تم العثور عـلى مزرعة الدواجن بعد أسـبوع، كان الخاطفون قد أخذوا زياد نوري معهم، وقاموا بتنظيف قسـم الزنازين برمته، بل إنهم رموا ركام الحجارة في الخارج - إلا أنهم تركوا خلفهم كل أغراضهم الجهاديـة: قمصان وسراويل ذات طابع باكسـتاني، قنـاع وكذلك أربع رايات لجبهة

النـصرة. كانت النصرة معروفة في بلدة كفر تخاريـم. لكن يبدو أن الآثار التي تركها الخاطفون وراءهم لم تكن سوى عملية تمويه، بحيث استخدم محتجزو الرهائن اسم النـصرة، كما كان يفعل آخـرون حينها. على أية حال نسي الخاطفون شـيئاً: في جيب أحـد السراويـل تـم العثور على ثـلاث قصاصات ورقيـة مكتوب عليهـا بخط اليد مواعيـد لقائهم بزعاماتهـم: أبي جندلي التونسي وأبي فخر التونسي، وقد كان معروفاً عـن التونسـيين في المنطقـة أنهما ينتميان إلى داعش. لعدة أشـهر كان أبـو فخر رئيس «القضـاة» في محكمـة داعـش الشرعية في بلدة سـلقين، ولكن باعتبار أنـه كان زعيماً مهماً، فقد كان كثير التنقل بين إدلب وحلب والرقة، التي كانت مرتعاً للجهاديين.

تابع الجيران ما كان يحدث في مزرعة الدواجن طيلة أشـهر: حتى إن أحمد ميتشي وشـقيقه شـاهدا، من فناء بيتهما الذي يبعد 200 متر، فرار الألمانيين، «كانا في عجلة من أمرهما»، إلى أن اختفيا خلف أشجار الزيتون الخضراء. وبعد ساعة تحرك خلفهم 30 مسـلحاً، وجاء إلى الشـقيقين ثلاثة تونسـيين: «هل رأيتما رجلـين فارين؟» بلى، ولكن ما المهم في الأمر؟ «إنهما أسيرا حرب! وهذا أمر سري!» ثم تابعوا جريهم.

«لقد كانوا مخيفين»، من وجهة نظر ميتشي. "ذات مرة اقتربنا من المزرعة، فهددونا بالسـلاح فوراً. كان أحد التونسـيين يصور الجبال. وعندما سألته عن السبب، قال: 'المنطقـة هنـا آمنة. وسـوف نقيم عليهـا دولة الإسـلام.'" وأحياناً كان يُسـمع في الليـل "صراخ، وكأن أحداً يتعـرض للتعذيب." لاحقاً يتذكر زياد نوري هو الآخر الصرخـات الصادرة من الصالـة، تتخللها أوامر الجلاد الهـادرة: "اعترف!" ولكنه لم يسـتطع، لا هو ولا الشـخص الذي يتعرض للتعذيب، أن يعرف ماذا ينبغي على السوريين الاعتراف به.

"عندما فرّ سـوريان مرة أخرى بعد خمسة أيام"، يتابع ميتشي، "لجآ إلينا وسألانا في أي مـكان همـا أصـلاً. كانـت علامـات التنكيل باديـة عليهـما." وفي صباح أحد الأيام اختفى جميع التونسيين. انسحبوا برفقة زياد نوري إلى الجبال المطلة على مدينة دركـوش، عـلى الأرجح إلى قرية علوية هجرها سـكانها قبل عـام، وقاموا باحتجاز رهائنهـم المتبقـين في مطبخ يحتـوي على مرحاض صغـير. لم يتكلم أحـد مع نوري.

كان يسأل حارسه عن نواياهم. وكان الحارس يجيب بأنه لا يعلم أيضاً. كتب نوري عدة التماسات إلى "الأمير"، الذي لم يكن يعرفه. وجاء الجواب الوحيد بأن صادر الملثمون قلم نوري. قيل له، إنهم سيطلقون سراحه قريباً، ولكن في الحقيقة طلب الخاطفون من روبرت نويديك فدية: دفع 25 مليون يورو في غضون 48 ساعة. هذا المبلغ الذي بدا حينها خيالياً، أصبح لاحقاً مطلباً رائجاً لإطلاق سراح رهائن آخرين. ومرة أخرى انقضت أسابيع من المفاوضات غير المثمرة – إلى أن نجح نوري أخيراً في الثالث من شهر أيلول/ سبتمبر 2013 في الفرار، بعد أن استطاع فتح باب سجنه باستخدام سيخ شواء وصنبور ماء مكسور وجدهما في مكان احتجازه.

حالف المختطفين الثلاثة حظٌ لا يوصف. فقد استفادوا من أن مجموعة الخاطفين العالية الحرفية لم تكن تشرف على حراستهم بنفسها. ومع أن أحد الصحافيين في حلب نجح أيضاً في الفرار من أسره، لكن معظم رهائن داعش اختفوا لأشهر ولسنوات في سجون داعش في الرقة ومحيطها. ولأن المنطقة بأسرها خضعت لسيطرة "الدولة الإسلامية" ابتداءً من صيف عام 2013، فإن أي محاولة فرار للرهائن أصبحت شبه مستحيلة.

عندما ظهرت مونيكا غارسيا بريتو، زوجة الصحافي الإسباني خافيير إسبينوزا الذي اختُطف في منتصف شهر أيلول/ سبتمبر في شمالي الرقة، على وسائل الإعلام في مطلع عام 2014، تحدثت عن تجارب تنطبق على جميع رهائن داعش. لم يصلها من زوجها أية "علامة تفيد أنه على قيد الحياة، ولا على مطالب بدفع فدية، ولا على جواب، ولا على أي شيء إطلاقاً." في تلك الآونة كان ذلك أمراً طبيعياً: إذ لم يكن الخاطفون يتواصلون مع أقرباء أو حكومات الرهائن، ولم يكونوا يتوجهون إلى الإعلام. ولم تكن هناك إعدامات مريعة للرهائن أمام عدسات الكاميرا، باختصار: لم يكن يتم استخدام الرهائن لا لجلب المال ولا لجلب الاهتمام، وهما السببان اللذان كان يتم الخطف لأجلهما في العراق وأفغانستان. عوضاً عن ذلك كان يتم احتجاز الرهائن كرأسمال متراكم يمكن اللجوء إليه في وقت لاحق، دون أن يعرف أحد حينها الأسباب الخفية وراء ذلك. "لم نشهد أمراً من هذا القبيل سابقاً"، يقول خبير

احتجـاز الرهائن في المكتب الاتحادي الألماني للتحقيقـات الجنائية، الذي تابع قضية رهائن القبعات الخضراء.

وفجأة تغيرت الاستراتيجية، إذ يبدو أن داعش أصبح بحاجة إلى المال، فتواصل التنظيـم مـع أقربـاء الرهائـن. بعدها توالـت الأحـداث بسرعة: تم إطـلاق سراح إسبينوزا وزميله وأربعة فرنسـيين في أواخر شـهر آذار/ مـارس 2014 مقابل فدية ماليـة على الأرجح، بلغت قيمتها عشرات الملايـين. وحتى مطلع عام 2015 لم ترد أيـة أخبـار عن رهائـن آخرين. وأغلـب الظن أنه يتم اسـتخدامهم كوسـيلة ضغط سياسـية صامتة، ولهذا فإن قيمتهم بالنسـبة لداعش لا تقدر بالملايين التي سـيجنيها التنظيم من خلال الإفراج عنهم مقابل فدية.

كل حكومة تم خطف رعاياها لديها أحد خيارين أحلاهما مر: إما الدفع، وبذلك تشـجيع الإرهابيين على خطف مزيد من الرهائن - أو عدم الدفع والتضحية بحياة الرهينـة. اختارت فرنسـا وإسـبانيا وألمانيا الدفع، عـلى نقيض بريطانيـا والولايات المتحدة الأمريكية. ولكن سـبق أن واجه الرهائـن البريطانيون والأمريكيون المصير الأكثـر رعباً على يـد الجهاديين. ففي مطلع عام 2014 لم يكـن من المعروف إن كان جـون كانتـلي وجيمـس فـولي وغيرهمـا لا يزالون عـلى قيد الحيـاة - وما هـي هوية الخاطفـين أصلاً. حتى عندمـا طلب داعش من والدي جيمس فولي أول فدية بقيمة 100 مليـون يـورو، وأيضاً عندمـا علمت السـلطات بمكان كانتـلي، كان "لأمراء الخطف" مطلب واضح جداً: أن لا يخرج للإعلام أنهم هم الذين احتجزوا الرجال. بعد تنفيذ حكم الإعدام المروع بفولي في منتصف شـهر آب/ أغسطس 2014 روى الفرنسي ديديه فرانسـوا، الذي كان قد أطلق سراحه قبل أشـهر، أنه كان محتجزاً مع فولي بذات السجن. وقبل إطلاق سراح الفرنسي حذره حراسه بوضوح، "أنه سيتم الانتقـام مـن فولي وسـوتلوف، في حال بحث بمكانهـا. لقد قالوا لي حرفياً: سـتتم معاقبتهـا!" لقـد أرادت "الدولة الإسـلامية" أن تكون هي من يحـدد الوقت الذي تظهر فيه معلومات عن الرهائن للعلن - وأن تتحكم بأدق التفاصيل.[1]

واعتبـاراً من شـهر آب/ أغسـطس 2014 لم يكتفِ داعش بإعـدام جيمس فولي وسـتيفن سـوتلوف وثلاثة أمريكيين وبريطانيين آخرين، بل قام أيضاً بتصوير تنفيذ

الإعدام، لكي يولد أكبر رعب ممكن وليظهر جبروت الجهاديين، وقد تكرر الأمر ذاته مع يابانيين اثنين اختُطفا لاحقاً. في مطلع عام 2015 لم يتبقَ من الرهائن البريطانيين على قيد الحياة سوى جون كانتلي، الذي كان حتى ذاك الوقت قد قضى سنتين ونصف العام تقريباً في قبضة خاطفيه. فيما بعد بدا ادعاء زعماء داعش، بأن مصير كانتلي لن يظهر على العلن بأي حال من الأحوال، ساخراً ظاهرياً؛ لأنه اعتباراً من عام 2014 لم يكتفوا بعرض كانتلي فقط، بل جعلوه يظهر بفترات غير منتظمة وهو يقدم عرضه المصور «الخاص» في أماكن مختلفة: رغم أنفه ظهر الرهينة كمقدم برامج لتنظيم «الدولة الإسلامية» في كوباني (عين العرب) والباب والموصل. وبالنسبة للمختطفين الآخرين الذين كانوا لدى داعش فقد كانوا إما يتلقون تحذيرات مماثلة، أو أن مصيرهم كان مجهولاً ببساطة. التناقضات التي شهدها صيف عام 2013، والتي تميزت بالاحترافية والتخبط في عمليات الخطف، كانت السمة المميزة للوضع العام في سوريا. وبقيت نسبة مجموعات داعش المتنقلة والغامضة مقارنة بمجموعات المتمردين متفاوتة ومتقلبة، تماماً مثلما كانت حركة الثورة السورية برمتها التي كانت في حالة تغير مستمر، وكانت تفرز دوماً تحالفات جديدة.

في ريف مدينة اللاذقية ذي الطبيعة الجبلية الخضراء تجمعت بعض خيوط الأحداث في شهر تموز/ يوليو: أبو أيمن العراقي، المقدم السابق في استخبارات الدفاع الجوي العراقي، بصفته والي داعش على «مناطق الساحل السوري»، كان قد وصل من الرقة إلى اللاذقية. وسبق أن رتب عملية تحرير عميل النظام نديم بالوش، الذي كان أسيراً لدى الجيش السوري الحر. والآن يتزعم أبو أيمن العراقي وحدة القتل التي اغتالت القيادي في الجيش السوري الحر كمال حمامي عند أحد الحواجز في شمال المحافظة. كان حمامي من أسرة معروفة في اللاذقية، وكان عضواً في المجلس العسكري الأعلى للجيش السوري الحر، والذي كان يعد التجربة الأكثر شمولاً لتأسيس بنية قيادية موحدة لجميع مجموعات المتمردين المحلية السورية. كان حمامي بعيداً كل البعد عن صورة الغول المخيف الذي رسمته قنوات التلفزيون السورية الرسمية للمتطرفين الأجانب، والتي زعمت تلك القنوات أنها تخوض حرباً ضد نظام الأسد، وهذا بالضبط ما جعل منه شخصاً خطراً. ولأكثر من عام حاولت قوات الأسد الإيقاع به،

ولكـن دون جدوى. والآن شـاءت الأقدار أن يقع ضحية المتشـددين الأجانب. فقد تـم إيقاف حمامي على أحد الحواجز، ودار حوار قصير بينه وبين أمير داعش العراقي: «هل جئتم إلى بلدنا لمساعدتنا - أم لإلحاق الأذى بنا.» «أنتم كفار!»، هكذا كان الجزء الأول المقتضب من الإجابة. أما الجزء الثاني فكان تسديدة قاتلة.

كانت حادثة قتل حمامي من قِبل داعش بمثابة إعلان حرب. لكن ردود فعل قادة الجيش السـوري الحر عكست مدى ضعف السـوريين الذين كانوا متفوقين عددياً: «لن ندعهم يفلتون من العقاب، بل سنمسح بهم الأرض»، هدد أحد قادة الجهاديين، ولكنه لم يرغب في الإفصاح عن اسـمه خوفاً من فرقة القتل التابعة لداعش.[2] «لقد أعلنـوا أنهـم سـيقتلون جميع أعضـاء المجلس العسـكري»، حسـبما أوضـح العقيد الطيار المنشـق قاسـم سـعد الدين.[3] وبانسـجام تام اتخذ الجيش السـوري الحر من حادثـة الاغتيـال فرصة، ليطلب المسـاعدة مـن الولايات المتحـدة والمجتمع الدولي مجدداً. فلدى المتشددين مالٌ أكثر، وبالتالي أسلحة وذخائر أكثر. وإذا لم يتلقَ الجيش السـوري الحر دعماً من أحد، فسـيصبح مقاتلوه في موقف المدافـع على نحو متزايد. توقعات مريرة ودقيقة في ذات الوقت؛ لأنه رغم كل تلك الدعوات لم يصل أي دعم ملموس. في تلك الأيام من شهر تموز/ يوليو وجّه الجيش السوري الحر إنذاراً أخيراً - بقي دون عواقب - إلى داعش، لتسليم جثتي حمامي وشقيقه الذي قُتل معه أيضاً على الأقل. ولكن بعد أسـبوع من حادثة إطلاق النار تولت محكمة شرعية القضية، ودفنت الجثتين كأمر واقع.

ولم يمـضِ 4 أسابيع حتى وقف الطرفان في أحد مقاطع الفيديو جنباً إلى جنب في وئام تام. وكان داعش قد أرسل للتو انتحاريين سعوديين بسيارتين ممتلئتين بالمتفجرات لاختراق خط دفاع مطار منغ العسكري المحاصر منذ قرابة عام. وكانت تلك الضربة الحاسمة للاستيلاء على المطار الواقع شمالي مدينة حلب. كانت تلك واحدة من المرات النادرة التي شارك فيها داعش في المعارك ضد جيش الأسد. وفي مقطع فيديو، اعتبره العقيد عبد الجبار العكيدي، قائد المجلس العسـكري الثوري بمحافظة حلب، محرجاً في وقت لاحق، ظهر العكيدي وهو يشـيد بالمهاجريـن والأنصار. وبعد أن انتهى من كلمات الشكر، أعطى المايكرفون إلى أبي جندل، أمير داعش المصري.[4]

اتبع داعش نهجاً تكتيكياً ذكياً، ومتناقضاً في ذات الوقت: بين حين وآخر كان يقاتل مع المتمردين جنباً إلى جنب، بالقدر الذي يجعلهم لا ينتقمون من التنظيم – وفي الوقت ذاته قتل الأشخاص الذين كان قد أعد سلفاً قوائم بأسمائهم. جميع الذين قد يشكلون خطراً على داعش، تمت تصفيتهم واحداً تلو الآخر، بخاصة قادة الجيش السوري الحر غير الإسلاميين. لقد كانوا ذات الشخصيات التي كانت أجهزة استخبارات الأسد تسعى إلى تصفيتهم. في اللاذقية وحدها ستطال تلك التصفيات عدداً منهم في الشهور القادمة، ولكن نادراً ما قُتل أحد بالطريقة التي قُتل بها حامي. في أغلب الأحيان كان مجهولون يطلقون النار على ضحيتهم، أو أن الضحايا كانت تختفي ببساطة إلى أن تظهر جثثهم بعد أيام. داعش هو «مجموعة من الأفاكين، الذين يتلقون أوامرهم من نظام بشار (الأسد) وإيران والعراق»، كما قال عمار الواوي بغضب، أمين سر المجلس العسكري في الجيش السوري الحر: «هدفهم الوحيد هو اختطاف الثورة السورية. وهم يرتكبون الفظائع على الأرض السورية، ويقتلون ويختطفون أعضاء كافة المجموعات والطوائف.» بعد أيام قليلة اختفى الواوي دون أي أثر، بعد عودته من تركيا إلى سوريا.[5]

لقد كان صيف الاغتيالات. وعندما كان المرء يلتقي بمجموعات داعش في الأماكن المزدحمة، وهم برفقة أشخاص ذي تأثير، كانوا يتبادلون التحية بنفاق ويتمنون له أن يعتنق الإسلام قريباً. كما حدث في اللاذقية، عند التلال الخضراء بالقرب من البحر، عندما كانت عشرات المطاعم الصيفية مغلقة باستثناء مطعم واحد فقط: قبل أيام على اغتيال قيادي الجيش السوري الحر حامي، التقينا هنا رامي حبيب، طبيب المنطقة الوحيد والمعروف جداً. كان يجلس في المطعم شخصان أوروبيان وبضعة شبان سعوديين. فوقف أحدهم، وكان طويل الشعر، ويرتدي حزاماً ناسفاً مربوطاً حول بطنه، ويتدلى منه سلك موصول بزر أحمر بلاستيكي، كان يلعب به: «إذا ضغطت على الزر، بوووم! ههههه. بوووم!» ضحك الدكتور حبيب على مضض: «ولكن ليس هنا.» وغادرنا المطعم دون أن يتعرض إلينا أحد. كان مقاتلو داعش يشكلون تهديداً – ولكنهم بدوا معتوهين، أكثر من كونهم منضبطين. غير أن ذلك كان خطأً.

4

خريف الرعب

استيلاء داعش على شمال سوريا

خطوة تلو الأخرى طبق تنظيم «الدولة الإسلامية» خطته للاستيلاء على السلطة. وشلّ خصومه بفضل زيادة جرعة الإرهاب تدريجياً وهيكلية قيادة مركزية. وأصبحت الرقة أول عاصمة لداعش، بالذات حاضرة المحافظة تلك، التي حتى ذاك الحين لم تكن تهتم لا بالإسلام ولا بالثورة.

قبل ذلك الوقت بالكاد كان قد سمع أحد خارج سوريا بمدينة الرقة. عاصمة المحافظة الوديعة على ضفة نهر الفرات، في أقصى شرق البلاد، كانت في أفضل حالاتها معروفة من قِبل السياح الراغبين بزيارة الأطلال، وحتى في سوريا ذاتها، كانت سمعة المدينة لا تعني للسوريين شيئاً. هنا أقام الخليفة العباسي لمدة 13 عاماً – ولكن ذلك كان قبل 12 قرناً. وفي الرقة لم يكن هناك أي مؤيدين بارزين لكل من بشار الأسد أو الإسلاميين.

ربما كانت إحدى النوادر التاريخية عن موقف المدينة هي التوصيف الأقرب لها: عندما أنهى المستعمر الفرنسي فترة انتدابه لسوريا عام 1946 بعد معارك قليلة وشرسة، احتفلت سائر سوريا بهذا الحدث. فقط في الرقة بقي العلم الفرنسي يرفرف فوق مقر إدارة المحافظة لمدة أسبوعين بعد رحيل المستعمر. لم يكن السبب حباً لفرنسا – بل تم نسيان إنزال العلم ببساطة، أو أن سكان الرقة لم يدروا بعد أن

بلدهم أصبح مستقلاً الآن. ومع أن نسبة المنتسبين إلى حزب البعث الحاكم كانت هي الأعلى في الرقة[1]، إلا أن المدينة لم تستفد شيئاً من ولائها للنظام على الإطلاق، ربما لأنه لم يكن الضباط أو مديرو أجهزة الاستخبارات المتنفذون فعلياً ينتمون لهذه المدينة على الفرات.

«لم نكن مدينة سياسية قط»، يروي لاحقاً طبيب ذهب إلى تركيا: «كما أننا لم نكن مدينة دينية قط، لم يكن كثيرون يُصلون هنا. قبل الثورة كنا معروفين لدى كثيرين من خلال منطقة السحل، حيث الملاهي على طول نهر الفرات. كان هناك 15 إلى 20 كازينو ومرقصاً ليلياً، أو كما يحلو لهم تسميتها، ولكنها كانت في الواقع بيوت دعارة. يرتادها البدو الأغنياء، وأصحاب الأراضي من قرى شرقي حمص، والفنيون العاملون في آبار النفط، وحتى الأتراك. كانت الرقة عجيبة، مدينة بلا جذور، بلا انتماء، بلا استراتيجية، بلا اهتمامات. وهكذا كانت المدينة موالية للنظام لفترة طويلة، ولكنها من ناحية أخرى سقطت بعد ذلك دون مقاومة كبيرة. بعدها كنا مختبراً في الهواء الطلق، بإمكان كل شخص فعل ما يحلو له. إلى أن أتى داعش وفعل ما يحلو له.»

حتى مطلع عام 2013 كان يُطلق على المدينة لقب «قرداحة الشرق»، تيمناً بقرية مسقط رأس الأسد؛ لأن الرقة لم تبقَ تحت سيطرة الجيش فحسب، بل وأيضاً بالكاد تشكلت هنا مجموعات مقاومة. وفي شهر آذار/ مارس 2013 عندما تقدم المتمردون من الشمال، سقطت المدينة بسهولة بالغة، لدرجة أنه سادت لفترة طويلة إشاعات مفادها أن الأسد تخلى عن المدينة عمداً. في حين استغرق القتال في مدن المحافظات الأخرى عدة سنوات، وفي النهاية كان الجيش يقصفها ويحولها إلى ركام بدلاً من التخلي عنها. كما أصبحت السلطة الأقوى في الرقة – إعلامياً على الأقل – جبهة النصرة فجأة، على الرغم من أنه بالكاد كان لها دور تلعبه في المدينة في السابق. ولكنها بعد ذلك هدأت الأمور من جديد لفترة من الزمن. «الائتلاف الوطني»، الذي كان يقيم في مدينة غازي عنتاب التركية ويعد ممثلاً لسوريا الثورية، لم يعر اهتماماً يُذكر لأول عاصمة محافظة محررة، بل كان منشغلاً بشكل تام بشؤونه

الداخلية وعاجزاً عن تنظيم إدارة مدينة كبيرة أو حتى مجرد ضمان التحويلات المالية فقط.

وبالرغم من ذلك نمت الرقة فجأة. فمن ممثلي العائلات العريقة تم تشكيل مجلس المدينة، ونظّم المحامون والأطباء والصحافيون أنفسهم، وظهرت جماعات نسائية. ومن الغوطة الشرقية، حيث ضواحي دمشق المحاصرة التي تتعرض للقصف، عاد المثقف المعروف ياسين الحاج صالح إلى مسقط رأسه. كما أسس تجمع «شباب الرقة الحر» حركة «حقنا»، إلى جانب عشرات المبادرات الأخرى، بعضها كان مدعوماً من الخارج. حتى إنه كانت هناك مجموعة لرقصة الكابويرا، التي كانت تعلم الأطفال الرقصة البرازيلية القتالية البهلوانية: «بدنا كابويرا» هو اسم المجموعة التي كان يديرها شاب دمشقي يطلق على نفسه لقب «بولو دي غاتو»، أي قفزة القطة. كان الكل يعرفه من خلال هذا اللقب فقط، وربما هذا الأمر أنقذ حياته لاحقاً عندما هرب من داعش إلى قرية مجاورة. في الواقع جاء الرياضي ومعلم الكابويرا إلى الرقة لأن الأوضاع فيها كانت أهدأ من دمشق. الكابويرا في الرقة – «ولم لا؟» يجيب ضاحكاً. يومياً كان عشرات الأطفال يأتون إلى التدريب، وأحياناً ترافقهم أمهاتهم اللواتي كن يرتدين غطاء الرأس التقليدي، وكن ينظرن بمتعة كيف يؤدي أطفالهن الفنون القتالية والحركات الدائرية والقفزات في دائرة الرقص الوهمية. كانت الكابويرا في الماضي مقتصرة على العبيد، وهي عبارة عن مزيج بين القتال والرقصات الإفريقية المتوارثة. «وهي تناسب جداً رقصة الدبكة» العربية، حيث التناغم بين ضربة القدم والطبل. كان غاتو يرقص مع الأطفال في الشارع أو بين غرف الصفوف في المدارس، التي تحولت منذ فترة إلى مخيمات لإيواء اللاجئين: «وهكذا لديهم على الأقل شيء يمدهم بالسعادة.»

بدا وكأن كل شيء ممكن في الرقة. وهذه هي بالضبط، حسبما رأى بعض الفارين لاحقاً، مقدمة زوال الحرية المكتسبة للتو. كانت الرقة أنموذجاً أولياً لغزو داعش، إذ بدأ هذا الغزو بشكل متسلل، وأصبح وحشياً بالتدريج، وكان ناجعاً ضد مناوئين أكبر حجماً من داعش، دون الحاجة إلى القتال فعلياً. لم يكن أحد يبسط سيطرته على

المدينة بشكل كامل، فكتائب الجيش السوري الحر المختلفة كانت تقاتل آخر معاقل الجيش خارج محيط المدينة، وكان هناك نوع من التوازن بين مقاتلي الجيش السوري الحر وأتباع جبهة النصرة، وأحرار الشام وداعش. إلى أن جاءت شرذمة صغيرة من داعش إلى الرقة في شهر آذار/ مارس، وافتتحت هنا أيضاً مكتباً للدعوة. غير أن الجهاديين ما لبثوا أن اتخذوا من مبنى معروف مقراً لهم: المبنى السابق للمحافظ المكسو بألواح الرخام. والأهم من ذلك، فرض التنظيم سيطرته على آبار النفط في المنطقة، والتي يتم نقل إنتاجها إلى مصفاة بانياس على الساحل، وأصبح داعش يبيع النفط إلى النظام. وبينما كان داعش يثبت أقدامه استراتيجياً، نأت جبهة النصرة وأحرار الشام بنفسيهما تماماً عما يتعلق بشؤون الإدارة والنظام العام، ولم يحاولا فرض تعاليم دينية صارمة. وفي الوقت ذاته، انقسم مجلس المدينة على نفسه، وبالتحديد: كان هناك مجلسان للمدينة يتنافسان فيما بينهما، وكان المجلسان مسؤولين عن الإدارة – أحدهما تابع للسكان، والآخر للائتلاف في المنفى، وكان يتخذ من مدينة أورفة مقراً له، ويتكون من سكان المدينة الفارين، وكان لا يقدم شيئاً يُذكر للمدينة، ولكنه كان يحتفظ بالمبالغ الزهيدة التي كان يحصل عليها من الائتلاف للرقة.

النشطاء الديمقراطيون الشباب، الذين أعلنوا الرقة «رمزاً للثورة» في شهر آذار/ مارس 2013 بعد سقوط المدينة بلا مقاومة، انشغلوا بالنواحي الثقافية والإعلامية والاجتماعية، ولم يهتموا بالشؤون الإدارية والمالية والتخلص من النفايات. وفي الصيف كانوا يجلسون في المقاهي التي افتُتحت حديثاً، وكل منهم منشغل بجهاز الآيباد أو الكمبيوتر المحمول، ومكروب بشكل عميق بسبب تمكين الراديكاليين تدريجياً. وبالرغم من ذلك كانوا لا يزالون يشعون ثقة بالنفس: «كل جماعة مسلحة تهددنا، عليها أن تتوقع مظاهرات واعتصامات حاشدة!» فقد نجحوا مرتين في إطلاق سراح نشطاء معتقلين، مرة لدى جماعة «أحفاد الرسول» التابعة للجيش السوري الحر، ومرة أخرى لدى جبهة النصرة. ولكنهم لم يتوقعوا البتة أن تكون هناك مجموعة لا تعير أي اهتمام إطلاقاً للاعتصامات والمظاهرات.

بشكل مستتر بدأت القبضة الخانقة التي فرضها داعش. ثم كانت الخطة التالية، وفق المخطط الذي كان قد وضعه حجي بكر، فبعد مرحلة الاختراق حان الآن وقت التخلص من أولئك الذين قد يشكلون زعامات وخصوصاً محتملين لخطط داعش في الاستيلاء على السلطة. وبدأت الشخصيات القيادية تختفي واحدة تلو الأخرى. في البداية اختفى عبد الله خليل، المحامي والرئيس المنتخب لمجلس المدينة التابع لسكان الرقة، والذي كان قد تم اعتقاله وتعذيبه سابقاً من قِبل النظام، قبل أن يتمكن من الهرب إلى تركيا، ليعود في شهر آذار/ مارس 2013. وفي منتصف شهر أيار/ مايو اختُطف على يد مسلحين ملثمين. نفت جميع الجماعات والكتائب بشدة، ومن بينها داعش، أن تكون لها علاقة باختفائه. ثم اختفى فراس الحاج صالح، شقيق الكاتب ياسين الحاج صالح، وبعده بيومين اختفى إبراهيم الغازي، الذي كان قد قاد حملة لرسم علم الثورة ذي النجمات الثلاث على الجدران، باعتباره العلم السوري الجديد. «كنا نخمن، من الذي خطفه»، كما روى أحد أصدقائه، «لكن لم يعد أحد يجرؤ على فعل شيء.» وفوق ذلك كله، انقلبت الجماعات الصغيرة فجأة، والتي كانت تابعة لجبهة النصرة، لتصبح تحت إمرة «الدولة». عمّ جو من عدم الثقة والخوف.

في شهر أيار/ مايو أعدم بلطجية داعش ثلاثة رجال في الساحة الرئيسية في الرقة، ولكن في شهر تموز/ يوليو اختفى عشرات، بل مئات. في بعض الأحيان كانت تظهر جثثهم، ولكن في الغالب لم يُعثر لهم على أثر. وكان يتم فرض أحكام جديدة على الدوام، كالملابس التي ينبغي أن ترتديها المرأة، وإغلاق المحلات في أوقات الصلاة. وفي 19 من تموز/ يوليو أصدر «شباب الرقة» بياناً «مؤقتاً» للامتناع عن الاحتجاج ضد داعش. رفضت المعلمة سعاد نوفل التوقيع على البيان. وعوضاً عن ذلك، وقفت لمدة يومين أمام مقر داعش الرئيسي وهي تحمل لافتة تطالب فيها بإطلاق سراح المختطفين، بينما كان المارة يخافون مجرد الاقتراب من المقر. هذا ضرب من الجنون، حذرها أصدقاؤها. «اذهبي»، صرخ فيها سعودي ملثم. «لماذا، هل الشارع لك؟»، ردت عليه. «كان لبشار»، أجاب الرجل. «والآن لنا.» أحد تلاميذها

السابقين، كان قد انضم إلى داعش، صاح بها: «لقد علمتنا الدين والحياء، فكيف تقفين هنا؟» لكن سعاد نوفل لم تستسلم: «لم أعلمكم أن تكونوا إرهابيين وتخطفوا من يخالف رأيكم!»(2)

في 29 تموز/ يوليو دخل اليسوعي باولو دالوليو مقر داعش الرئيسي للتفاوض على الإفراج عن المخطوفين. كان «الأب باولو» شخصية مشهورة في سوريا، إذ كان يعيش فيها منذ 30 عاماً، وقد أعاد إعمار دير قديم، وحوّله إلى مركز للقاء المسلمين والمسيحيين. وعلى الرغم من التحذيرات الملحة التي تلقاها الإيطالي المحبوب، الذي سبق له أن توسط بنجاح في حالات عديدة، فإنه أصرّ على أن يتحدث مع الأمير شخصياً. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي شوهد فيها حيّاً.

في شهر آب/ أغسطس أرسل داعش عدة سيارات مفخخة تباعاً، يقودها انتحاريون، إلى المقر الرئيس للواء أحفاد الرسول في محطة الرقة السابقة، ويعد هذا اللواء أقل ألوية الجيش السوري الحر تشدداً، فقُتل عشرات المقاتلين ولاذ الباقون بالفرار. وفي شهر أيلول/ سبتمبر نهب البلطجية كنيسة ورفعوا رايتهم السوداء بدل الصليب. وكانت تلك المرة الأولى التي تتعرض فيها كنيسة في الرقة للتدنيس. حتى جبهة النصرة لم تتجرأ في تلك الفترة على المساس بدور العبادة.

في 17 تشرين أول/ أكتوبر دعا داعش جميع الوجهاء ورجال الدين والمحامين في المدينة إلى اجتماع. اعتقد البعض أنها لفتة للتصالح. من ضمن الأشخاص الثلاثمائة الذين لبوا الدعوة، أبدى رجلان فقط امتعاضهما من الاستيلاء التدريجي الوحشي على السلطة من قِبل الملتحين، واشتكيا من عمليات الخطف والقتل. كان أحدهما مهند حاج عبيد (مهند حبايبنا)، الصحافي والناشط في مجال حقوق الإنسان المعروف في المدينة. وبعد خمسة أيام عُثر على جثته مقيدة. كان قد أُعدم برصاصة في الرأس. وقبل ذلك تلقى بعض أصدقائه رسالة إلكترونية، من مرسل مجهول. ولكن عندما فتحوا الصورة المرفقة، علموا أيضاً هوية المرسل. تحت صورة جثة مهند حبايبنا، التي تحمل آثار تعذيب شديد، كُتبت جملة واحدة فقط: «هل أنت

حزين الآن على صديقك؟» باسل أصلان، مهندس شاب، كان جالساً في المقهى عندما تلقى الرسالة الإلكترونية: «شعرت أن المرسل كان في المقهى ذاته، وانتابتني حالة من الذعر.» وما هي إلا ساعات قليلة حتى فرّ قرابة 20 معارضاً إلى تركيا – أطباء، أعضاء في مجالس المدينة، نشطاء. فرّوا هرباً من داعش، كما قالوا، «لكننا نسميهم أيضاً جيش الأقنعة»، قال باسل، المهندس الهارب، «لأنهم لا يكشفون عن وجوههم أبداً، ويرتدون ثياباً سوداء دوماً، وملثمون دوماً». كذلك سعاد نوفل، المعلمة التي تحدت الموت، ولكن في نهاية المطاف اضطرت للتواري عن الأنظار لمدة أسابيع، هربت الآن من المدينة إلى تركيا – وحتى وهي هناك، استمرت تهديدات بالقتل تصلها كرسائل نصية قصيرة على هاتفها، مع أنها غيّرت رقمها القديم.

في الثاني من تشرين ثاني/ نوفمبر أصدر آخر صحافيي «المركز الإعلامي لثوار الرقة» بيان توقفهم عن مزاولة نشاطهم، قبل أن يغلقوا موقعهم الإلكتروني ويتركوا مكتبهم الذي تعرض للمداهمة عدة مرات. «أهلنا في الرقة، اعذرونا! والله أحب إلى قلوبنا أن ندخل الاطمئنان لقلوبكم. كنا نتمنى أن نطل عليكم في البيان الختامي لحظة سقوط الطاغية بشار الأسد، لكن الظروف أقوى منا. نسأل الله أن يهدينا لخير ما يحب ويرضى!»[3]

كانت الرقة نقطة التحول. فقد ذهبت بلا رجعة المرحلة التي أقام فيها داعش احتفالات للأطفال ووزّع فيها دمى تليتبيز والعصير ونسخ المصحف المجانية، وانتهت مرحلة مكاتب الدعوة الودودة التي كان يتم فتحها، ولكن إغلاقها أيضاً، نزولاً عند رغبة سكان المنطقة. والآن بدأت مرحلة الإذعان الوحشي، ومرحلة وضع قواعد صارمة للحياة اليومية. مرحلة تعتبر فيها أية معارضة انتهاكاً لحرمة الله والدين، وقد يُعاقب مرتكبوها بالقتل.

في الرقة، تماماً كغيرها من المناطق، فهم داعش ببراعة النزاعات والصراعات القائمة، والتي كانت غالباً قديمة ومتجذرة، وعرف كيف يستغلها لصالحه – تماماً كما فعل نظام الأسد طوال العقود السابقة. الأغلبية الصامتة من سكان المدينة،

والمتمثلة في هذه الحالة بشيوخ العشائر الكبيرة، تم تصويرهم في شهر تشرين أول/ أكتوبر 2013 في مراسم احتفالية وهم يقدمون البيعة للأمير أبي بكر البغدادي القرشي. في ذلك اليوم أدى 14 شيخ عشيرة قسم الولاء وعاهدوا أميرهم الجديد على الطاعة بالروح والدم. لقد كانوا شيوخ العشائر ذاتهم، الذين أقسموا أمام الرئيس بشار الأسد قبل عامين فقط في حفل مماثل، ولكن بكلمات مختلفة بعض الشيء، على تقديم فروض الولاء والطاعة. في المقدمة عشيرة البريج، التي قام شبيحتها بقمع المتظاهرين ضد الأسد. تفاجأت العشائر بانتصار المتمردين، ولكنها أثبتت مرونة في تعاملها مع الوضع الجديد: فكما خدمت في الماضي نظام دمشق بدافع الانتهازية، خدمت الآن الحكام الجدد، وحاولت استعادة قوتها التي فقدتها في هذه الفترة. بخاصة عشيرة البريج التي أصبح رجالها أتباعاً جهاديين للحكام الجدد.[4] أصبح رجل يدعى أبا لقمان أميراً على الرقة، وهو أحد المتشددين الذين أُطلق سراحهم فجأة في عام 2011 من السجون السورية.[5] علماً أنه في حالة أبي لقمان لم يكن واضحاً أبداً، فيما إذا كان قد اعتُقل بسبب أنشطة إسلامية، أم تهريب الأسلحة، أم بسبب كليهما.

كانت الرقة بالنسبة لداعش مجرد بداية فقط: ففي منتصف شهر أيلول/ سبتمبر اقتحم التنظيم الجهادي، والذي كان قوامه آنذاك نحو 7000 مقاتل، مدينة أعزاز الحدودية في شمال غربي سوريا، وأطلق على استيلائه على المدينة اسم «معركة النهروان»، تيمناً بالانتصار الساحق الذي حققه الخليفة الرابع على الخوارج قبل قرابة 1400 عام. لقد أُعجب الحكام الدينيون بهذه المراجع التاريخية. واستخدموها كأجزاء مقتطعة لاستعادة صورة ماضية: فكما نجح النبي محمد منذ ما يقارب ألف وخمسمائة عام، في تشكيل دولة مترامية الأطراف، من العدم، هكذا أقاموا الآن «دولتهم الإسلامية» أيضاً. وكلما استطاع دعاة داعش عرض المزيد من الحجج، من خلال اتباع نهج الانتصارات المتوالية للنبي محمد، فإن ذلك يدعم حقهم في السلطة والقمع - حتى وإن كانوا هم أنفسهم مصدر تلك المراجع التاريخية.

وبعد أسبوعين من سقوط أعزاز بسط داعش سلطته على بلدة جرابلس التي تبعد 200 كيلومتر شرقاً، بالإضافة إلى بسط سلطته على مدن الدانا والأتارب وبنش والباب، وحتى على أجزاء من مدينة حلب؛ وهي مناطق كانت جميعها خاضعة لسيطرة جماعات متمردين سورية مختلفة. وفي جميع المدن الرئيسة كان يتم تهديد المنادين بدولة مدنية وخطفهم وقتلهم: محامين وصحافيين وأعضاء مجالس المدينة، وأيضاً رجال دين، كالإمام المعتدل للمسجد الرئيسي في مدينة منبج. ما إن يثبّت داعش أقدامه في مدينة ما، كما في الباب، حتى يبدأ الأمير المحلي باستصدار مراسيم، كما ذكر أحد الفارين: «في البداية، يجب أن ترتدي النساء العباءة، ومن ثم لا يُسمح بأن يتواجد أحد في الشارع في أوقات الصلاة. بعد ذلك مُنع التدخين، وفي الأسبوع الماضي تم منع سماع الموسيقى. والآن يراقبون فيما إذا كانت تُعزف الموسيقى في حفلات الزفاف. إنهم أسوأ من النظام.»

نجح داعش في فرض نهجه، وعيّن أمراء على المناطق التي استولى عليها، وترك عامة الشعب يعتقدون أن الأمر سيتوقف عند هذا الحد. ولكنّ ثمة نهجاً ثانياً دائماً: إذ يتعين على الجواسيس والحراس وفرق المهام الخاصة وأد أدنى معارضة في مهدها، وفي الوقت ذاته الحرص على ألا تتعاظم سلطة أحد أمراء داعش في المنطقة التي يحكمها بشكل مبالغ فيه، لكي لا يصبح قادراً على الاستقلال بذاته، من تبعية المركزية المتنقلة وغير المرئية والمطلعة على كل شيء.

وبناءً عليه، لم يكن من المهم، من سيصبح أمير قرية ما، أو مدينة ما حتى. في بعض المناطق تم تعيين مراهقين، متشددين مغسولي الأدمغة؛ وفي مناطق أخرى حكم أجانب، مارسوا أوهامهم التسلطية مثل المصري أبو حفص المصري، الذي كان يتلذذ بالسلطة في مدينة الباب من خلال إذلال فلاح طاعن في السن أمام الكاميرا وهو يجري معه "اختباراً في الإسلام"، فسحب مسدسه عندما لم يتمكن الرجل المسن من الإجابة على أسئلته.[6] حتى في مدينة كبيرة مهمة مثل حلب عيّن داعش أميراً، كان المعتقل السابق دياب سرية يعرفه جيداً من خلال السنوات التي قضاها معه في سجن صيدنايا، ووصفه بأنه كان «أبله ومتطرفاً». إنه عمرو العبسي،

الـذي كان في منتصـف الثلاثينـات، ودرس في المملكة العربية السـعودية، ثم ذهب للقتـال في العـراق، وعندمـا عاد إلى سـوريا أودع في السـجن. حتى إنـه أعلن فجأة في سـجن صيدنايـا أن أئمة التاريخ الإسـلامي كفـرة، كما يتذكر ديـاب سرية: «من رأى قبـل 600 عام أن أحد المشـككين محق فيما يقوله، فهو ملعون. من ألّف شـعراً كالإمام الشـافعي، الذي يعد مؤسـس أحد المذاهب الإسـلامية الأربعة، فهو كافر. وكان الشـافعي قد كتب البيت التالي: 'دعِ الأيام تفعل ما تشـاء'، لكن العبسي رأى أنه لا يجوز أن تفعل الأيام ببساطة ما تشاء. بل عليها انتظار أمر الله!" وضحك سرية قائلاً: "هذا هو أمير حلب."»[7]

لم يكن داعش يأبه فيما إذا كان أحد جديراً بأن يكون أميراً. لقد كان الولاء المطلق هـو الأمر المهم بالنسـبة للجهاديين. أمـا المهارات الأخرى، مثـل القدرات الإدارية أو الخـبرات الفنيـة، فقد امتلكها آخـرون في هرم السـيطرة في «الدولة». وفي حال لم يكن أداء الأمير بالمسـتوى المطلوب، يتم اسـتبداله، تماماً كما كان يحدث مع الآمرين المحليين بانتظام. أو يتم قتلهم إذا دعت الضرورة، كما حدث مع أبي حفص المصري، الذي أصبح متقلباً أو عبئاً على داعش. ففي صباح أحد الأيام تم الإعلان عن عزله، واختفى المصري إلى الأبد دون أي أثر.

في كل مكان كان داعش يعرف بسرعة وبالتفصيل من هم الأشـخاص المهمون، وأين يقطنون، وما هي الجهات التي يقصدونها. وذلك على الرغم من أن المجموعة الأساسية تتكون معظمها من أجانب، كانوا يشكلون الغالبية في هذا التنظيم، وكانوا يعينون الأمراء أيضاً. فقط في جرابلس والرقة كان السـوريون يشـكلون الغالبية في داعـش. لكن شـبكة المخبريـن المحليين التي تـم بناؤها طيلة أشـهر، وبنيـة الخلايا النائمة، التي خطط لها حجي بكر بدقة في هيكله التنظيمي، بدأت تؤتي ثمارها.

وبينما كان الاسـتيلاء المسـعور على السلطة يتنامى بشـكل متزايد، كانت الدوائر الداخلية في داعش منشـغلة بالتجسس على المشهد غير الواضح لجماعات المتمردين المتعـددة، ولكن أيضاً عـلى مؤيدي النظام وعلى الانتهازيـين في كلا الجانبين. وفوق

ذلـك كله، بذل داعش جهداً إضافياً لمراقبة كوادره الخاصة وأنشـأ ملفات دقيقة لمَن راقب مَن أثناء التدخين.

وفي شـهر كانون ثاني/ يناير من عام 2014 عندما اندلعت حرب مفتوحة وغير متوقعة، بين المتمردين السـوريين وداعش، بعد أن تم تحاشـيها لفترة طويلة، توجب عـلى الجهاديـين مغادرة مقرهم الرئيس في حلب بسرعة، والذي كان مشـفى سـابقاً للأطفـال. جبـال الرماد، التي عُثر عليهـا في المجمع الذي تم اقتحامه، تشـير إلى أن الهجوم باغتهم، فأقدموا على إحراق ما استطاعوا إحراقه - ومن ضمن ما تم إحراقه جبل من جوازات السـفر والأوراق الثبوتية، التي لم يبقَ منها سـوى بقايا بلاستيكية متفحمـة. غـير أن حزمة مـن الملفات المتبقيـة، والتي نُقلـت إلى مقر لـواء التوحيد، تمكن الاسـتفادة منها لهذا الكتاب. فهي ترسـم صورة لتنظيم يشبه الأخطبوط، جمع تفاصيل عن كل شيء وعن كل شـخص: بعض الجهاديـين الأجانب قدموا طلبات التحـاق متكاملة، تتضمن مؤهلاتهم الإرهابيـة في وطنهم الأم، وكذلك اتصالاتهم غـير الشرعيـة. تماماً مثل الأردني نضـال أبو عياش، الذي أرسـل مراجعه الإرهابية بتفصيـل مسـتفيض، كيف تدرب عـلى صنع القنابـل، وأنه كان ينوي تفجير نفسـه في إسرائيـل، ولكنه يفضل القدوم إلى سـوريا لكي ينضـم إلى الجهاديين. ويمكن أن يكفله الشيوخ التالون (مع أرقام هواتفهم)، وهو ابن أخت أبي مصعب الزرقاوي، ومدربـه عـلى صنـع القنابل هـو رشـيد س. (أيضاً مـع رقم الهاتـف). أمـا هواياته فهـي الصيد والملاكمة وصنـع القنابل، ومرفوع ضده قضية جنائية لدى السـلطات الأردنية، ورقم الملف 75/ 2013.

حالـة أخـرى، خصص لهـا موظفو الإرهـاب ملفاً خاصـاً، تتناول أحـد مقاتلي التنظيـم: اضطر الرجل إلى مغادرة مسـقط رأسـه قرية تادف في منطقـة الباب، لأنه مطلـوب هنـاك لأنه لـص. لم تقبل جبهة النـصرة انضمامه إلى صفوفهـا، لأنه لم يكن يصـلي. ويبـدو أن داعش قبِلـه في صفوفه. «قد يتحسـن»، دونت هـذه الملاحظة في المحضر، ولكن بعد ذلك كان أحد قناصة داعش يراقبه عن بُعد وهو يدخن - فأُلقي القبض عليه بأمر شخصي من حجي بكر.

كما أكدت بعض الوثائق ما سجله بكر، العقل المدبر، قبل شهور في رسمه التخطيطي للاستيلاء على السلطة: مثل ضرورة التركيز على المصاهرة مع الأسر المحلية المؤثرة. وفي ملفات حلب عُثر على قائمة تضم أسماء 34 مقاتلاً من داعش، أجانب وسوريين، يرغبون بالزواج، وعلاوة على ذلك يلتمسون تجهيزات إضافية. فقد ذكر أبو لقمان وأبو يحيى التونسي أنهما بحاجة إلى منزل. أما أبو صهيب وأبو أحمد أسامة فطلبا أثاث غرفة نوم. في حين أراد أبو البراء الدمشقي معونة مالية إضافة إلى أثاث كامل، في حين ذكر أبو عزمي بصراحة أنه من المهم بالنسبة له الحصول على غسالة أوتوماتيكية.

من بين أغرب الملفات تقرير التحقيق عن الساحرة المحتملة في شمالي حلب: أم ماهر، كما يقال لها، تتمتع بقوى سحرية. هكذا أبلغ أحد «الإخوة». وأن لها صلات مع نظام الأسد، ولكنها أيضاً تقيم علاقات جنسية بانتظام مع المتمردين لقاء المال، وتبيت يومياً في قاعدتهم. وحسب التقرير، فإنه أثناء إلقاء القبض عليها عُثر على شعارات مؤيدة للأسد على جدران غرفتها، ولكن حسب الجيران، فإن الشعارات تعود لأبنائها. أحد سكان المنطقة ذهب بعد عملية الاعتقال إليهم واشتكى من أن المرأة سحرت زوجته، وفوق ذلك سرقت منه 275 ألف ليرة سورية، أي ما يعادل قرابة 1500 دولار أمريكي. وسُجل في التقرير أن عليه اللجوء إلى أقرب محكمة شرعية. وأثناء الاستجواب اعترفت أم ماهر أنها لها علاقة مميزة مع أحمد سلبي، أحد عناصر مجموعة متمردين تركمانية. لكن التقرير أشار إلى أنها أقامت علاقة عاطفية مع سلبي، حسبما أكد أحد مخبري داعش. غير أن أم ماهر زعمت أن سلبي هو صهرها. لكنه نفى ذلك أثناء استجوابه. وهكذا هلم جرا.

في قوائم لا متناهية دوّن الجهاديون القائمون على السجلات أسماء مخبريهم، وأماكن إقامتهم، وفصائل المتمردين أو مليشيات النظام التي ينتمون إليها. حتى إنه تم تدوين أسماء أشخاص من فصائل المتمردين المذكورة، الذين عملوا جواسيس لصالح مخابرات نظام الأسد. «كانوا يعلمون أكثر منا، أكثر بكثير»، كما اعترف خازن المستندات. ولكن لم يمكن ضمن المستندات أسماء جواسيس داعش داخل لواء

التوحيد. ولكن في جدول قوائم داعش تم إدراج تلك الوثيقة الخطية. لقد جرى تقييم دقيق شامل لتلك الوثيقة، كما قال الرجل؛ لأن الحذر من لواء التوحيد واجب لأسباب كثيرة: في منتصف شهر تشرين ثاني/ نوفمبر 2013 استهدفت غارة جوية لقوات الأسد عبد القادر صالح، أحد أبرز قادة المتمردين في سوريا، وقتلته بالرغم من جميع الاحتياطات المتخذة. ولم يُعرف من كان المخبر الذي وشى بمكان إقامته.

هذه الكمالية البيروقراطية، التي تشبه جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية (شتازي)، كانت دائماً السمة المميزة لـ "الدولة الإسلامية": فالعديد من الملفات التي عُثر عليها في العراق، وكان آخرها في شهر حزيران/ يونيو 2014 في الموصل، كانت تحتوي على أكوام من سجلات الموظفين الخاصة بالانتحاريين، وكشوفات الحسابات، وقوائم الجواسيس، وفواتير مشتريات الأسلحة.[8] لقد نسخت واستخدمت كوادر داعش القيادية البنية الأساسية لدولة صدام حسين المخابراتية - ونجحوا في نقل هذا الأنموذج المجرب إلى الجارة سوريا، والاستيلاء على مناطق واسعة بفضله.

في خريف عام 2013 لم يعد يتجرأ أحد في سوريا على الوقوف في وجه الملثمين. وعندما مرت قافلة لداعش مؤلفة من سيارات بيك آب مجهزة بمدافع رشاشة في قرية ترمانين في أواخر شهر تشرين ثاني/ نوفمبر، لم تُطلق طلقة واحدة. وبدون أية مقاومة استولى الجهاديون على أكبر مبنى في القرية ونصبوا الحواجز. وارتفع عدد قادة المتمردين السوريين، الذين اختفوا، بعد أن كانوا يتحدون داعش، مثل قائد الجيش السوري الحر مصطفى وضاح الذي اختفى في قرية أطمة. ومع أن الجهاديين الوافدين كانوا يصولون ويجولون هناك منذ فترة طويلة، لكن وضاح كان يعرف أنه مدعوم بما يكفي من الرجال، بخاصة من سكان المنطقة. في شهر تموز/ يوليو نَهَر مجموعة من التونسيين الملتحين، وطالبهم بأن يهتموا بشؤونهم الخاصة، وأن لا يفرضوا شيئاً على سكان المنطقة. والآن تم اختطافه أيضاً واختفى.

حتى أولئك القادة، الذين ظهروا مع داعش في مقطع الفيديو الأسطوري في شهر آب/ أغسطس 2013، واحتفلوا معاً بتحرير مطار منغ، بات عليهم الآن أن

يخشوا على حياتهم: فجأة استقال في شهر تشرين ثاني/ نوفمبر عبد الجبار العكيدي، رئيس المجلس العسكري الثوري في حلب، وهرب إلى مدينة غازي عنتاب التركية، وعزا استقالته المفاجئة إلى اللامبالاة الدولية: «لم تصل المساعدة الموعودة من الخارج إطلاقاً.» ولكن السبب الحقيقي وراء انسحابه المفاجئ ذكره أحد المقربين منه: «الخشية من الموت ببساطة».

وبشكل مؤقت عومل قائد آخر بعناية، كان قد ظهر أيضاً في مقطع الفيديو: رضوان قرندل. ولأنه كان من المنطقة التي لم يكن حجي بكر يريد مؤقتاً أن يحدث فيها أية احتكاكات أو نزاعات: تل رفعت، مكان إقامة بكر، المكان الذي كان قد اختاره ليصبح مركز داعش في الشمال مستقبلاً. لهذا السبب تم تجنب العداوات العلنية مع قرندل. عوضاً عن ذلك حدثت معه أمور غريبة: أثناء لقائه بقادة محليين انقطعت الكهرباء. استخدم قرندل هاتفه المحمول كمصباح لفترة قصيرة، ثم وضعه جانباً. وعندما عادت الكهرباء بعد 15 دقيقة اختفى الهاتف. وفيه رسائل نصية مخزنة، وأسماء أشخاص، وأرقام هواتف. كان قرندل جالساً حينها مقابل حجي بكر، الذي كان لا يزال يدعي أنه مجرد مشرف لا أهمية له. وبعد يومين حضر أمير عربي الاجتماع التالي. وأمام باب غرفة الاجتماع وقف حراس القادة الشخصيون، وجميعهم يرتدون أقنعة. «لكنني تعرفت على حجي بكر، كما أنه لم يكن في الداخل»، قال أحد المقاتلين المحليين لاحقاً. «لقد وقف مع الآخرين ليتنصت على ما يقال. ليعرف نوايا قرندل الحقيقية، وكيف كانت الأجواء.»

لم يكن باستطاعة «الدولة الإسلامية» بعد، أن تضاهي الفصائل السورية الأكبر بكثير، من حيث السلاح وعدد المقاتلين. ففي مطلع شهر كانون أول/ ديسمبر كان داعش يضم نحو 5500 أجنبي في سوريا. يضاف إليهم قرابة 2000 سوري، معظمهم من الرقة. كانت قائمة الرواتب لدى محاسب لداعش، يعد شقيقه مصدراً لنا، تضم 2650 مقاتلاً أجنبياً في «إمارة حلب»، ثلثهم تونسيون، الذين يشكلون غالبية المجموعة هناك. يليهم بفارق بسيط السعوديون، ثم الأتراك والمصريون، ومن ثم الشيشان والداغستانيون والأوروبيون والعراقيون والإندونيسيون. وأيضاً

في إدلب والرقة كان التونسيون هم المجموعة الأكبر، حسب شهود من أماكن مختلفة. وكان معظم الأمراء المحليين تونسيين أو سعوديين أو كويتيين أو شيشاناً أو عراقيين.

ولكن، لم تكن الكثافة العددية هي السبب في قوة داعش، بل براعة التنظيم في الوصول إلى السلطة. وكان العمل العسكري مرناً يتناسب مع الظروف: كانت مجموعات داعش المقاتلة تدار مركزياً، وتتمركز في موقع ما بعد خضوعها لتدريب لمدة شهرين. ولأن قوام المجموعات يتألف من غالبية من الأجانب، فإنه لم تكن هناك أية اعتبارات محلية بالنسبة للمقاتلين، بحيث لم يكن هناك عائق أمام انتشارهم وقدرتهم العالية على التنقل. وعلى الدوام كان المقاتلون يظهرون ملثمين، وكان لهذا الأمر ميزتان: فمن ناحية كانوا يبثون الرهبة من خلال هذا التخفي، ومن ناحية أخرى لن يتمكن أحد من معرفة عددهم الحقيقي. عندما كان 200 مقاتل يظهرون في خمس مناطق على التوالي، فهل يمتلك داعش 1000 مسلح هناك؟ أم 500؟ أم ما يزيد عن 200 بقليل؟ لأن الجيش السوري الحر وتشكيلات المتمردين الأخرى كانت في نهاية المطاف عبارة عن تجمعات مليشيات محلية، فقد كان من السهل إخفاء نقص عددي كهذا - ما دام لم ينسق الآخرون هجماتهم الانتقامية ضد داعش. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان داعش يدفع جيداً: في المتوسط 500 دولار أمريكي شهرياً، أي أكثر من ضعف الراتب الذي كانت تدفعه جبهة النصرة، التي فقدت تمويلها بسبب داعش، وأصبحت تعتمد إلى حد كبير على مولين من الخارج. بينما كان الجيش السوري الحر يدفع بالكاد 100 دولار، وبشكل غير منتظم.

بفضل هذا المزيج المكون من القيادة المركزية والرشوة والبطش أصاب داعش موطن الضعف عند الثوار السوريين: انقسامهم. عندما هاجم داعش بلدة أعزاز الحدودية، كان هناك اجتماع لقادة الفصائل الكبرى للمتمردين في الشمال، حسب شاهد عيان. هل ينبغي مساعدة كتيبة الجيش السوري الحر المحاصرة من قِبل مقاتلي داعش؟ «لا»، قال عبد القادر صالح، الذي قُتل لاحقاً، وكان قائد لواء التوحيد، أكبر الفصائل في حلب ويبلغ تعداد مقاتليه آنذاك قرابة 10 آلاف مقاتل. إذ لا يمكن

تحمل فتح جبهة ثانية، لطالما كان قتال جيش الأسد يوحد جميع القوى. علاوة على ذلك، لم يكن يحب تلك الكتيبة، إذ كان يتنافس معها منذ أكثر من سنة على جلب الديزل المهرب المربح وجباية الرسوم الجمركية. بدلاً من ذلك، تفاوضت قيادة لواء التوحيد على هدنة مع الجهاديين - وبطبيعة الحال صمدت الهدنة إلى أن حشد داعش عدداً كافياً من المقاتلين الملثمين، لكي يُخضع المدينة بشكل نهائي. «إنهم يشتمّون مواطن الضعف»، قالها بمرارة قائد من كتائب الفاروق، والذي سبق وحذر قادة آخرين من الجهاديين، ولكن دون جدوى. إنهم مهووسون بالأوامر والطاعة، كما يروي. «إنهم يستندون دوماً إلى حديث الرسول: إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم.» حتى إنه يتوجب أن يكون هناك رئيس لكل دورية، «فقط إلى المرحاض يذهبون فرادى»، يقولها وهو يتنفس الصعداء. إذن، هكذا يمكن لعدد قليل جداً من الرجال أن ينجح في مضاهاة خصوم أكبر بكثير.

في فجر يوم 11 تشرين ثاني/ نوفمبر من عام 2013 وقف زميلان سوريان متجمدان من البرد أمام البوابة الجديدة لمكاتب شبيغل السابقة في مدينة الريحانية الحدودية الصغيرة. كانا يرتعدان من الخوف والبرد، سارا طوال الليل، لكنهما ما زالا متوترين، على الرغم من أنهما أصبحا الآن بمأمن على الجانب التركي. «إنهم يعلمون كل شيء، كل شيء!»، قال عماد القاسم معبراً عن خوفه الشديد. «ولكن كيف؟»، سأل صديقه وزميله محمود الشهابي مستغرباً. منذ انطلاق الثورة في سوريا عمل الاثنان على جمع الأخبار وتصوير الأحداث، في البداية في الخفاء، وفي وقت لاحق علناً لصالح «مركز حلب الإعلامي» ومراسلين أجانب. فعلا ما لم يتمكنا من فعله في الماضي، لكنهما سرعان ما تعلما أن يكونا: مؤرخين للأحداث المحفوفة بالمخاطر، والتي غالباً ما تكون مربكة في المدينة المتنازع عليها. لقد وثقا ما كان يجري بالفعل، وكذلك التجاوزات والدعاية التي كانت تصدر عن جميع الأطراف. على الأقل، فعلا ذلك إلى أن جاء الملثمون. كان الطالبان صعبَيْ المراس، حتى وإن لم يكونا يبدوان كذلك. وقد اعتادا على سقوط قذائف هاون بالقرب منهما أو أن يشهر رجال يستشيطون غضباً بنادق الكلاشينكوف في وجهيهما طالبين منهما أن يتوقفا

عن التصوير. غير أن «الدولة الإسلامية» كانت تفضل اللجوء إلى طرق أكثر عنفاً. في نهاية شهر تشرين أول/ أكتوبر جلس محمد سعيد، وهو زميل للاثنين، على كرسي عند الحلاق، عندما دخل أحد الملثمين وأطلق على رأسه الرصاص دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ثم غادر من جديد. بعد عدة أيام قامت وحدة تخريبية من مصريين مسلحين بتدمير مكاتب المركز الإعلامي، وتم نهب أجهزة الكمبيوتر والهواتف الفضائية والكاميرات، وهددوا عماد القاسم وزملاءه بالقتل، إذا لم يتوقفوا عن ممارسة عملهم. وكإجراء وقائي كان هناك مقر إقامة بديل، فقد كانت المنازل الخالية متوافرة بكثرة في شرقي حلب، منذ أن بدأت البراميل المتفجرة تنهال على المدينة: والبرميل عبارة عن أسطوانة مصنوعة من الصلب، ممتلئة بالمتفجرات وبقطع من خردة الحديد، ويتم رميها من المروحيات. «لكنهم يعرفون هذا العنوان أيضاً»، تابع المؤرخ المطارد، «بالكاد وصلنا إلى هناك، حتى جاؤوا مجدداً. اللعنة، كيف علموا بالمكان؟ إنهم تونسيون ومصريون وبريطانيون، فمن أين لهم أن يعلموا حلب جيداً هكذا؟ عندما اقتحموا المنزل، راحوا يصرخون أن هذا هو التحذير الأخير. ولأننا كنا نقدم تقارير لوسائل إعلام عالمية، فقد يقطعون رؤوسنا في ساحة عامة. أمامنا يوم واحد لمغادرة سوريا.» بقي الاثنان تسعة أيام مختبئين بين أنقاض حلب، إلى أن دبّر أصدقاء طريق تهريب معقدة إلى تركيا، بحيث لا يمر الاثنان على حواجز التفتيش. ثم بقيا لعدة أيام في الريحانية، وبعدها انطلقا باتجاه أسطنبول، ليستفسرا هناك عن إمكانيات الهرب الممكنة: «أوروبا، أستراليا، لا يهم، المهم هو الذهاب بعيداً.»

مثلهما تماماً سافر كثير من السوريين، الذين اعتقدوا أنهم يواجهون خصماً واحداً فقط: وهو نظام الأسد. أولئك الذين تظاهروا، واعتُقلوا، وعُذبوا، وعايشوا على مدى سنتين ونصف حتى ذلك التاريخ، كيف مات أصدقاؤهم وأقاربهم، وكيف قُصفت مدنهم وتحولت إلى ركام، وكيف استغل مجرمون الفوضى وانتحلوا صفة المتمردين وقاموا بالنهب؟ وكيف اضطر آخرون إلى النهب بسبب العوز الشديد؟ ولكن على الأقل كان جلياً، ضد من وقفوا ولماذا استمروا بالقتال.

ولكن كثيرين لم يتصوروا ظهور سلطة مختلفة تماماً بشكل فجائي، تتبع نفس أساليب النظام بالتجسس، والإرهاب، والخطف والقتل، ويتوسع نفوذها بينهم. «في البداية لم نعرف إطلاقاً من هم هؤلاء الجهاديون»، يروي الهارب عماد القاسم وهو جالس على أريكة في الريحانية، «لقد كانوا لطفاء معنا بالفعل والقول إنهم في صفنا، ولم يكونوا منظمين في بادئ الأمر. بدا وكأنهم جاؤوا جميعاً بشكل فردي من أجل الجهاد. لم نتدخل بهم، ولكننا أيضاً لم نكن نرى أنهم يشكلون تهديداً علينا.» وبالرغم من ذلك بقي عصيّاً على الفهم، كيف انتفض شعب على عنف الأسد المدمر بكل ما يملكه من وحدات عسكرية ودبابات وطائرات مقاتلة – ولكنه الآن ركع أمام عصابة قتلة ملثمين. «كانت الأمور أوضح ضد الأسد»، يحاول القاسم التوضيح. «كل واحد كان يعرف لماذا كان ضده. الآن الوضع أقل وضوحاً. هل جاء الأمريكان لمساعدتنا؟ الأوروبيون؟ لم يأتِ أحد غير الجهاديين، الذين قالوا إنهم إخواننا. والآن استبدلنا فجأة طاغية بطاغية آخر: في البداية كان يحكمنا الأسد، والآن الإسلاميون. أو: خليط من الاثنين.»

قد يبدو ذلك محيراً في البداية. بدا القاسم وكأنه يبالغ في وصف الوضع، في أن الجهاديين استغلوا الثورة كذريعة، لفرض سيطرتهم الحصرية على المناطق التي تحررت من حكم الأسد. ولكن بعيداً عن التزامن في أن أجهزة استخبارات النظام وفرق الموت التابعة لداعش كانت تلاحق وتقتل ذات الشخصيات المعارضة بالضبط – قادة المتمردين وكذلك المحامين، الصحافيين، الوجهاء –، إلا أن ضباطاً سابقين في المخابرات ظهروا مجدداً في مناطق مختلفة فجأة على أنهم أمراء لداعش: في محافظة دير الزور أصبح ضابط المخابرات سعود فيصل شيحان قيادياً لدى داعش، وقد سبق له في الماضي أن عمل لسنوات في عدة سفارات سورية. وفي محافظة الحسكة المجاورة، وتحديداً في مدينة الشدادي ذات الكثافة السكانية المنخفضة، حيث كانت طلائع «الدولة الإسلامية» تقيم بشكل سري في الأشهر الأولى، أصبح رجل أميراً لداعش، تعرف إليه زميل سابق من جديد: «كنا معاً لعدة سنوات في

جهاز الاستخبارات العسكرية في القامشلي.» كما تم رصد رجال آخرين للأسد لدى داعش في كل من إدلب وحلب.

يمكن الاعتراض على ذلك بالقول إنه ليس فقط عناصر المخابرات هم وحدهم الذين بدلوا الولاءات، بل أيضاً عدد لا يحصى من جنود وضباط القوات المسلحة الرسمية. لكنهم يفعلون ذلك بفخر، لدرجة أن تلك البيانات المصورة والموضوعة على الإنترنت، باتت تُعرف باسم خاص بين مقاطع الفيديو السورية: فيديو الانشقاق، وفيه يقوم أفراد من الجيش أو مجموعات من الجنود بذكر رتبهم العسكرية القديمة وأسمائهم، ويعلنون انشقاقهم عن «نظام الأسد المجرم»، ويقرون بانضمامهم للثورة، وفي الختام يبرزون بطاقاتهم العسكرية أمام الكاميرا. وفي بعض الأحيان يقف الجنود مع أو بدون المصحف أمام الكاميرا. لقد ظهرت آلاف مقاطع فيديو كهذه على وجه الخصوص في عامي 2011 و 2012 كتعبير على أن الرجال لم يهربوا من الخدمة العسكرية، وإنما انشقوا، ولم يخونوا الوطن، بل أرادوا تبنيه. ولكن أولئك الذين انضموا إلى داعش، فعلوا ذلك سراً، وتم التعرف عليهم مجدداً من قِبل ضحايا سجن أو رفاق سابقين على أبعد تقدير. وسبق أن شهد نائب قائد شرطة محافظة حمص السابق، بأن المخابرات قامت قبل سنوات بتدريب بعض من كوادرها الخاصة لاستخدامهم كإسلاميين.

كما أن بعض المهاجرين (المقاتلين الأجانب) كانوا يتعاونون مع المخابرات السورية: مثل الأمير أبو أسامة التونسي في إدلب، الذي لم يكن يريد معرفة أسماء رهائن القبعات الخضراء الثلاثة، وإنما أراد معرفة اسم المخبرين حصراً. كان قد وصل إلى سوريا قبل سنوات، وتلقى تدريباً عسكرياً في اللاذقية من قِبل المخابرات، قبل أن يتوجه إلى العراق، ويتنقل بين البلدين في السنوات اللاحقة.[9]

حدثت أمور غريبة في هذا الخريف: عندما طلب أمير داعش المحلي من سكان بلدة الأتارب رفع راية «الدولة»، خشي الناس من غارات النظام الجوية. فما كان منه إلا أن هدأهم وقدم لهم تأكيدات غير مألوفة. «إذا رفعتم راية الدولة الإسلامية،

فلن تقصفكم طائرات الأسد إطلاقاً!»، كما وعد الأمير شحود عبد الرحمن. ومع أن ذلك كان اعترافاً صريحاً من قِبل داعش، أنه يحتفظ بعلاقات ودية مع دمشق، ولكن بعد تعرض البلدة لعدة غارات جوية وسقوط قتلى، أصبح الأمر سيان بالنسبة لسكان الأتارب، الذين لم يعد يدهشهم أي شيء، بخاصة بعد أن رأوا من كان أميرهم. «كنا نعرفه جميعاً»، حسب المؤرخ المحلي عماد عبيد، «لقد كان في السابق في حزب البعث»، بصفته قيادياً محلياً للحزب الحاكم الأبدي. وكان قد غادر القرية لفترة، ثم عاد مع داعش. وأخيراً رفع سكان الأتارب الراية السوداء على صخرة خارج القرية. وبالفعل لم تصبهم الغارات الجوية.

تماماً كما حدث في مناطق أخرى مثل مدينة الباب، التي سيطر عليها داعش اعتباراً من خريف عام 2013. حتى إن لاجئين انتقلوا إلى هناك، بالرغم من السيطرة العدوانية الشديدة والخطر من تعرضهم للخطف في أية لحظة. والسبب الوحيد في مجيئهم إلى هناك هو أنهم لن يخشوا القصف الجوي بعد الآن. إذ لم يعد هناك خوف دائم وقاتل عند سماع كل هدير طائرة في السماء. وقد تشاركوا هذه الطمأنينة مع مقاتلي داعش، وقد اقتبست صحيفة التلغراف البريطانية لاحقاً قولاً عن أحدهم: «كنا ننام دوماً بأمان في قواعدنا.»[10]

5

هجوم مضاد مشترك

محاولة السوريين الدفاع عن أنفسهم ضد داعش كإسلاميين

في مطلع عام 2014 ضاق المتمردون السوريون ذرعاً بـ«الدولة الإسلامية» وقاتلوها. أحد المحاربين الجهاديين القدامى، الذي كان قد تشارك مع أسامة بن لادن السكن في أكواخ الطين في أفغانستان، تعرف على العلامات. فتخلص منه داعش واستطاع أن يعتمد في محاربته للمتمردين على غارات الأسد الجوية.

لقد كان أحد عرابي الجهاد العالمي، ونجا من حروب كثيرة. ولكن في النهاية أصبح شخصية مأساوية في ذاك العالم، الذي ساهم في صنعه طوال عقود من الزمن. أبو خالد السوري، كان الاسم المستعار الشائع للرجل الذي ولد في حلب حوالي عام 1963. المحارب المخضرم في مشهد الكفاح المسلح باسم الله شارك مراهقاً في مقاومة الإخوان المسلمين السوريين ضد الطاغية حافظ الأسد. ومنذ أواخر السبعينيات أصبحت الحركة راديكالية، بخاصة في محافظات إدلب وحلب وحماة ودير الزور، ولجأت إلى التسلح – تحت الرقابة الدقيقة لأجهزة الاستخبارات. كان حافظ الأسد رجل الترقب. لم يكن يريد أن يتنازع مع خصومه سياسياً، بل سحقهم عسكرياً.

وهذا ما فعلته «سرايا الدفاع» سيئة الصيت التابعة للأسد في أوائل الثمانينيات في حلب وكذلك في المدن الصغيرة في محافظة إدلب – إلى أن أعطت انتفاضة الإخوان المسلمين أخيراً الأسد الذريعة، في مطلع عام 1982 في مدينة حماة في وسط سوريا، لتدمير أجزاء واسعة من قلب المدينة وقتل الآلاف من سكانها. انضم السوري مراهقاً إلى جماعة «الطليعة المقاتلة» السرية والمسلحة، التي كانت تُعتبر الجناح العسكري لجماعة الإخوان المسلمين. ثم لاذ بالفرار – وقضى الثلاثين سنة التالية متنقلاً أو في السجون.

أصبح متنقلاً وراء الجهاد، وعاش في إسبانيا، وكان كثير التردد على أفغانستان والبوسنة والشيشان، وقضى فترة من الزمن في لندن، حيث كان يدير مع صديق شبابه أبي مصعب السوري، من حلب، مكتباً إعلامياً، وكان له دور وساطة في المقابلة الشهيرة التي أجرتها قناة سي إن إن مع أسامة بن لادن في عام 1997.[1] وفي أفغانستان التقى أثناء محاربة الاحتلال الروسي بـ عبدالله عزام، المؤسس الأسطوري لتنظيم القاعدة والمرشد لأسامة بن لادن. كان يعرف الجميع، وكان يعرف جيداً كلاً من: ابن لادن، أيمن الظواهري، أبي قتادة، أبي ليث الليبي، وهم الرعيل الأول من إرهابيي القاعدة، الذين اجتمعوا معاً في أفغانستان أو عبرها، واعتمدوا سياسة جعل عملياتهم على مستوى العالم. ومع ذلك لم يؤدِ السوري إطلاقاً يمين الولاء أمام ابن لادن، وابتعد عن قيادات القاعدة قبل عام 2001.

محمد البهايا، وهو الاسم الحقيقي لأبي خالد السوري، كان في كل مكان، كمقاتل، مخطط، ساع، لوجيستي. لم يكن منظراً إيديولوجياً كصديقه ومرشده أبي مصعب، الذي كان قد ذهب معه إلى أفغانستان، وأصبح لاحقاً من أهم منظري الجهاد العالمي، بعد أن ألّف كتاب دعوة المقاومة الإسلامية العالمية المكون من 1400 صفحة، ونشره عبر الإنترنت في نهاية عام 2004. وبعد الفشل المتكرر للقاعدة في أفغانستان ينبغي من الآن فصاعداً، حسب الفكرة الجوهرية للكتاب، دفع القتال قُدماً عبر إرهاب خلايا مستقلة صغيرة، والتي سماها «مقاومة بلا قيادة». وقد مهّد

ذلك للمعركة التالية المفتوحة؛ «لأنه دون المواجهة المفتوحة والسيطرة على البلد لا يمكننا إقامة دولة إسلامية، وهو الهدف الاستراتيجي للمقاومة.»[2]

في عام 2005 اعتُقل الاثنان، أبو مصعب السوري وأبو خالد السوري، في باكستان من قِبل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التي سلمتهما على ما يبدو إلى النظام السوري بعد فترة. هنا في سوريا كانا مطلوبين رسمياً، ويمكن تعذيبهما، بشكل غير رسمي، دون مراعاة اتفاقيات حقوق الإنسان - وسيبقيان في السجن إلى الأبد. ولكن بعد ذلك تغير كل شيء. عند اندلاع الثورة ضد نظام الأسد، فجأة أصبح الزعماء الأصوليون العائدون أدوات ذات منفعة كبيرة. وفي منتصف شهر كانون أول/ ديسمبر من عام 2011، وبعد صدور عدة موجات عفو عن أتباع القاعدة والسلفيين والإخوان المسلمين، وكل أولئك الذين كان نظام دمشق يحذر من خطرهم على الدوام، أُطلق سراح أبي خالد السوري أيضاً.

حتى إنه قبل الأشهر التي سبقت الإفراج، تغيرت الأجواء في السجون بشكل ملحوظ، كما يتذكر لاحقاً مساعد أبي خالد وحارسه الشخصي: "عندما جاء لواء إلى سجن صيدنايا للتفتيش، شتمه أحد الجهاديين المسجونين بضراوة، ووصفه بالكافر، وبعدها ازداد غضبه وصرخ 'بشار كافر!'، سابقاً كان ليُقتل على ذلك. لكن ما حدث هو: لا شيء." فأعداء الغد الرسميون كانوا شيئاً ثميناً وينبغي الحفاظ عليهم على ما يبدو.

بعد الإفراج عنه غير المتوقع انتقل الرجل الضخم ذو اللحية الكثة الطويلة إلى محافظة إدلب في الشمال السوري، حيث تجمع لاحقاً كثير من قادة الكتائب الإسلامية، وحصلوا على الأسلحة من الجيش السوري الحر. وانضم أبو خالد السوري إليهم، وهو أحد المخضرمين النادرين، من الحقبة المزدهرة للإخوان المسلمين في سوريا، والذي لم يكن مصيره بعد مذبحة حماة في عام 1982 إحدى المقابر الجماعية، أو السجن، أو اختفى في المنفى الداخلي أو الخارجي - بل كان يعمل بشكل دؤوب على تحقيق نهج الجهاد القديم بشركاء جدد وتكتلات جديدة دوماً. وذلك على

الرغـم من أنه كان يشـتكي بمـرارة من وقت لآخـر من تكرار خيبـة الأمل، من أن فكـرة الوصول الديني إلى السـلطة كانت تُسـتغل من قِبل أجهـزة الأمن والمجرمين والانتهازيين، وكذلك الأنانية المفرطة لقادة تلك الفكرة، ما يجعلها تفشل في النهاية.

ومتابعـةً لتاريخـه الأول في العمل السـري في «الطليعة المقاتلـة» التابعة للإخوان المسـلمين بحث أبو خالد عـن مجموعة تكون الأقرب للجماعة التـي تركها قبل 30 عاماً: تشـكيل «أحرار الشـام»، المتنامي بسرعـة والملتزم دينياً والمنظـم، والذي كان يتزعمـه رفيقه في السـجن والمطلق سراحه أيضاً حسـان عبود. تُمول الحركة بشـكل رئيس عبر شـبكات الإخوان المسلمين السوريين، من إخوة العقيدة الأثرياء في دول عربيـة. وقـد اعتمد ذلك على اعتبار الإخوان المسـلمين القـوة القادمة بعد الإطاحة بالحكـم في مصر وسـوريا وأماكن أخـرى. بقي أبـو خالد مع الحركـة، حتى عندما تشـكلت جبهـة النـصرة، ولاحقاً عندما ظهـر تنظيم داعش فجأة في سـوريا في عام 2013. علـماً أنـه كان هـذه المـرة أيضاً، كـما في السـابق، قليل الانخـراط في الأمور القياديـة. لقد كان المـشرف، المفاوض وقريباً المندوب من قِبـل جهة أعلى: فقد عينه زعيم القاعدة أيمن الظواهري ممثلاً عنه في الشـأن السـوري، فقد توسـط هناك بين فرع تنظيم القاعدة الرسـمي جبهة النصرة، وبين تنظيم داعش، الذي لم يكن يمتثل لمناشـدات الظواهـري وأوامـره. ومرة أخـرى كانـت الفتنة، شر الانقسـام الأزلي، حاضرة، والتي تعد قديمة قدم الإسلام ذاته.

مساعد أبي خالد الشاب وحارسه الشخصي، الذي لازمه دائماً في سنته الأخيرة، يتذكر في خريف عام 2014 الاجتماعين اللذين عُقدا في حلب وفي البادية في الشرق: «أراد أبـو خالد لقـاء البغدادي، الأمير، لكنه لم يحضر قط. عوضاً عن ذلك، أرسـل أبـا علي الأنباري وأبا أيمن العراقـي وحجي بكر. ولكنهم، كما قال أبو خالد مراراً، كانوا رجال اسـتخبارات صدام حسين القدامى، ثعابين مزيفة لا يمكن الوثوق بهم على الإطلاق.»

لقـد كانت تلـك صدمة حيـاة أبي خالد، وقد بـدا ذلك واضحاً عليـه: «لا أريد أن يسـلك الجهـاد في الشـام طريـق الفشـل ذاته الـذي سـلكه في الجزائـر والعراق وأفغانسـتان»، أعرب عن ذلك بشـؤم متزايد. ما تكشف هنا، كان حرباً بالوكالة في العالم السري للحركات الأصولية الإسـلامية، والتي نـادراً ما تظهر علاقاتها البينية الفعليـة إلى العلـن: بين أولئك الجهاديين، الذيـن برغم أنه لا رادع لهم في نشر الموت والإرهـاب، لكنهم على الأقـل يقاتلون أيضاً خصومهم المعلنـين.فعلاً – وبين تلك التشكيلات، التي من غير الواضح، ما إن كانت مخترَقة أو تديرها أجهزة استخبارات البلد ذاته أو دول أخرى؛ ويستخدم زعماؤها «مشروع» الأسلمة كوسيلة فقط، بينما هم مسـتعدون لفعل كل شيء في سـبيل كسـب المزيد من السلطة أو الثروة، حتى لو كان ذلك على جثث الآخرين.

كان أبو خالد السوري يدرك ماذا حل بالثورة في الجزائر، بعد أن راح الإسلاميون الراديكاليون في «الجماعة الإسلامية المسلحة» يقتلون بتعسف تام – وبخاصة أقارب الإسلاميين المعتدلين، كما حدث في عام 1997 في مذبحة بن طلحة، التي حدثت على مرأى ومسمع الجيش. ودون أن يعترضهم أحد، ذبح الأصوليون أولئك المعارضين الذين كانوا، بسـبب شعبيتهم، يشكلون خطراً على الجنرالات الحاكمين. وقد روى السوري، على سبيل التحذير، كيف تم شراء قادة الجماعة الإسلامية المسلحة من قِبل دائرة الاسـتعلام والأمن، سـيئة الصيت، وكيف كان المجرمـون الجنائيون يظهرون في صفـوف الجماعـة في البداية، ومن ثم يصبحون مسـتقلين، فيقتلون وينهبون دون رادع.

"الدولـة الإسـلامية"، هي الرواية الأخيرة بالنسـبة لجميع أجهـزة المخابرات في سـوريا وإيـران"، قالها بسـخرية لاذعة قاصداً مـن ورائها "الجهاديـين المزيفين" في داعـش: "سـوف يتم الغـدر بالجهاديين الحقيقيـين. داعش لا يعـرف الأخوة، فقط الإخضـاع، الكـذب، القتـل!" كان هناك شيء مـن الكوميديا التراجيديـة، لكن أبا خالـد كان مؤمنـاً عن قناعـة بالجهاد القويم، حسـبما قال حارسـه، وكان يدافع عن القاعـدة مقابـل مجموعـة كادر البغـدادي المريبة. إرهـابي، يقاتل من أجل اسـتقامة

جهـوده، مقابل مـن يريد اختطاف أهدافه – حسـب وجهة نظره – ويريد الإسـاءة إلى الجهاد.

تصاعـد الخلاف بين داعـش والقاعدة طيلة أشـهر؛ لأن قيـادات داعش طالبوا بالإذعـان الكامـل من قِبل الفصائل الأخـرى كافة. وعلى نحـو متزايد أقدم داعش في الأشـهر السـابقة على اختطاف قادة الجماعات الأخرى، أو هاجم قرى بأكملها، أو اقتحـم محطـات إذاعية تحت ذريعة أنه يريد القضاء على مجرمين أو معاقبة «عملاء للغـرب». وأصبحت مناشـدات زعيـم القاعدة الظواهري، المختبئ في مكان ما في المنطقة الحدودية بين أفغانسـتان وباكسـتان، أكثر شدة، ولكن دون أي نجاح يُذكر. وبعـد لقـاء قمة في شـهر تشريـن ثاني/ نوفمبر من عـام 2013، لعب فيـه أبو خالد دور الوسـاطة بين النـصرة وداعش بقبول من الطرفين، أنكـر مبعوث داعش مجدداً عمليات خطـف المتمردين الآخرين وقتلهم. «فقام أبو خالـد بإبلاغ الظواهري أنه لا فائدة تُرجى من البحث عن تسـوية. ويتعين عليه إعادة داعش إلى العراق بشـكل نهائي، وإبقاء النصرة في سوريا»، كما ذكر مرافق أبي خالد. وقد وافق الظواهري على ذلك. فكان رد داعش: «الظواهري بعيد جداً. لا تتدخلوا فيما لا يعنيكم!»

كانت بوادر الشقاق تلوح في الأفق، إذ توجه أبو خالد في نهاية شهر كانون أول/ ديسـمبر من عام 2013 إلى بلدة مسـكنة في أقصى شرق محافظة حلب، مرة أخرى، لإنهـاء المعارك المسـتعرة بين أحرار الشـام وداعـش. وفي 10 كانون أول/ ديسـمبر تمكنت قوات داعش من السـيطرة على البلدة القريبة من سد الفرات، وتم اختطاف العديد من قادة أحرار الشـام، وبخاصة الطبيب حسين السليمان، الذي كان معروفاً باسـمه المسـتعار أبي ريان: قائد وطبيب أطفال يحظى باحترام كبير، وسـبق أن جهز مشفى ميدانياً. وعلاوة على ذلك كانت قيادة أحرار الشام قد عينته مشرفاً على معبر باب الهوى الحدودي، وهو أحد المعبرين المهمين، في شـمال غربي سـوريا، مع تركيا. وقد كان داعش يريد السـيطرة على هذا المعبر بكل وسـيلة؛ لأنه من خلاله ستشرف «الدولـة» على إمدادات إدلـب، من الأدوية ومواد البناء، وإجلاء الجرحى، وكذلك سـيتمكن داعش من جني أرباح من رسوم المرور عن سائر الواردات. بالإضافة إلى

ذلك، سيصبح من السهل جمع المقاتلين الأجانب المتسللين إلى سوريا، ولن تعود هناك حاجة لجلبهم عن طريق المهربين عبر المروج والخنادق غالباً، بل تمريرهم عبر المعابر الحدودية بأريحية تامة – دون استجواب أو أختام.

لكن جميع محاولات الوساطة من قِبل أبي خالد باءت بالفشل. عندما سلم مقاتلو داعش جثة أبي ريان المقتول في 31 كانون أول/ ديسمبر ضمن إطار صفقة لتبادل الأسرى، كان ذلك يعني التمهيد لحرب داخل الحرب في سوريا. كانت جثة أبي ريان مثخنة بالجروح، وكانت إحدى الأذنين مقطوعة، وكذلك غطاء الجمجمة. وعندما رأى الجسد المشوه، اتصل أبو خالد بالمقر الرئيسي في حلب فوراً، حسبما يتذكر مساعده: «أرسلوا وراء جميع المقاتلين، على الأقل 600!» يجب وضع حد لإرهاب داعش. كما اتصل بمجموعتي المتمردين الكبيرتين في الشمال، لواء الإسلام ولواء التوحيد، وطلب المساعدة منهما. لم يلبِ أحد النداء، ووصل من الرجال الـ 600 الذين طلبهم، 150 رجلاً فقط.

«ما زالوا لا يفهمون أن المجاهدين أيضاً يمكن أن يكونوا أعداءهم»، يتذكر مرافق أبي خالد بعد شهور وهو يهز برأسه. فهم أبو خالد الأمر – لكن ضد مجموعات داعش المتفوقة، التي كانت قد تحصنت في مصنع السكر بالقرب من مسكنة، لا يمكن فعل الكثير. عبد الله المحيسني، وهو شيخ سعودي، كانت له علاقات جيدة مع المتشددين، توسط لهدنة وقف إطلاق نار أخيرة، والتي استغلها أبو خالد وثلة مقاتلي أحرار الشام للانسحاب شرقاً عبر الطريق المغطى بالثلوج.

وما هي إلا أيام، حتى استعر القتال في كل مكان. تارة بشكل منسق، وتارة بشكل عفوي انتفض المتمردون السوريون من جميع الأطياف السياسية، من العلمانيين في كفرنبل[3] في أقصى الغرب، وصولاً إلى بعض الوحدات المتحالفة مع القاعدة اسمياً والتابعة لجبهة النصرة في الرقة في أقصى الشرق. لقد طفح الكيل، وتخطت «الدولة الإسلامية» حدودها كثيراً من خلال عمليات خطف الناشطين المحليين والمتمردين وقتلهم، ومن خلال جنون العظمة والإرهاب الذي تمارسه.

بدأ التحرك في 2 كانون ثاني/ يناير 2014 بمظاهرة غاضبة لسكان بلدة الأتارب، حيث كان بلطجية داعش قد قتلوا سابقاً اثنين من القادة المحليين البارزين للمتمردين. أطلق رجال داعش النار على المتظاهرين، ولكن هذه المرة لم يعد التخويف يجدي نفعاً. وتم اكتساح الجهاديين، وقتل أميرهم التونسي. وفي مناطق الشمال السوري كافة تقريباً، حيث وطد داعش نفسه، تمت مهاجمة الإسلاميين الآن، ومحاصرتهم، وطردهم: الباب، أطمة، أعزاز، بنش، الدانا، جرابلس، كفر تخاريم، معرة مصرين، مسكنة، سلقين، ترمانين، حتى إنه تم تحرير مقر داعش الرئيس، في مشفى الأطفال السابق في حلب والمحصن جيداً، في غضون فترة قصيرة. "لو كنا نعلم، كم هم ضعفاء في الواقع"، كما لو كان لسان حال الناس في تلك المناطق يقول، «لكننا قضينا على ذاك الشبح من زمن بعيد!» الشرارة الأكثر غرابة لهذا الإجلاء - الوقتي - أشعلها داعش في البلدة الحدودية المهمة استراتيجياً جرابلس: في ظل الأجواء المشحونة أصلاً أراد الجهاديون في هذا التوقيت بالذات تطبيق حظر التدخين في البلدة، والذي كان قد أُعلن عنه مسبقاً. وهو الحملة الحكيمة الوحيدة - الصحية - للمتشددين. ولكن، وبعد أن كان داعش قد قام بعمليات اختطاف سابقة للسكان في جرابلس، ولم يترك له كثيراً من الأصدقاء هناك، كان أمر واحد من أحد الأوزبكيين لسكان البلدة المدخنين الشرهين، بالإقلاع عن التدخين فورياً، كافياً لإشعال شجار، أثار معركة بعده. وفي نهاية القتال، هُزم داعش في جرابلس أيضاً، غير أن مجموعة صغيرة من الجهاديين تحصنت في المركز الثقافي في البلدة، وقام المتمردون بمحاصرته.

وكما تعاضدت العشائر الكبيرة في جرابلس في وحدة غير معهودة ضد الجهاديين الأجانب، تعاضدت فصائل المتمردين الكبيرة وتعاون بعضها مع بعض في هذه المرحلة أكثر من أي وقت مضى. من خلال تحركهم في آن واحد في كل مكان، انتزعوا من خصمهم قوته التكتيكية، والمتمثلة في نقل الوحدات بسرعة إلى المكان الذي كان فيه الملثمون يتعرضون لورطة ما. فالملثمون الآن يتعرضون للضغط في كل مكان.

تراجع بعض مقاتلي داعش إلى المقرات والقرى الجبلية النائية أو إلى الرقة، معقل «الدولة» في الشرق. والبعض انشق وانضم إلى المتمردين. فيما حاول المئات العودة إلى الأماكن التي جاؤوا منها، وفرّوا عبر الحدود إلى تركيا. أكثر من 100 جهادي وصلوا في 8 كانون ثاني/ يناير إلى بلدة الريحانية الحدودية. ثلاثة منهم، كانوا تونسيين في حالة مزرية، ظهروا هناك أمام كشك لبيع الوجبات السريعة، واستطاع لاجئون سوريون التعرف عليهم، وأوسعوهم ضرباً.

حتى قبل أيام من الهجوم، كانت «ولاية حلب» قد أرسلت رسالة إلى «الإخوة في أحرار الشام». في هذا الخطاب المتدين الحاد اللهجة تناوبت عبارات الوعيد والاقتباسات الدينية. وفي الخطاب أيضاً وصف داعش نفسه بأنه موكل من الله، وأنه ينفذ مشيئته. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾، بهذه الآية القرآنية بدأ الخطاب. «ولكن علينا أن نقاوم فتن الشيطان. إن أولئك الذين يعملون تحت اسم أحرار الشام، الذين يقتاتون على الانقسام، الذين يتجاهلون الحكماء وهددوا جنود الدولة الإسلامية ... لقد أغواهم الشيطان. نقسم بالله، أننا لن نسفك عمداً دم المسلم الذي لا غبار عليه. دمكم عندنا أغلى من كل شيء في العالم.

ولكن: ينبغي علينا أن نحذركم، أن لا تقعوا فريسة للشيطان!

أخلاقنا تحرم علينا تهديد الذين لا يهددوننا. ولكن في الوقت نفسه نؤكد أننا سنهاجم بكل ما أوتينا من قوة، أولئك الذين أغواهم الشيطان ويعتدون على أبناء الدولة الإسلامية ومشروعها!» ثم اختُتمت الرسالة بآية قرآنية مجدداً: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(4)

بعد أيام، عندما كانت المعارك على أشدها، بدا المتحدث الرسمي باسم داعش، أبو محمد العدناني، أكثر صراحة: مقاتلو داعش «أسود جياع، شرابهم الدماء، وأنيسهم الأشلاء، ولم يجدوا أشهى مما شربوا من دماء الصحوات»، واصفاً المليشيات في العراق التي حاربت القاعدة بأموال أمريكية في السابق – والتي يقصد

بها الآن المتمردين السوريين الآن.[5] سوف يتم «سحق الأعداء ووأد المؤامرة في المهد».[6]

في المناطق التي تم تحريرها من سيطرة «الدولة»، ظهرت صور الفظائع، وكذلك الارتياح العميق أيضاً: حسب الحالة، إن كان المنسحبون قد قتلوا أسراهم قبل رحيلهم كما حدث في حلب – أو كانوا قد فروا على عجل، بحيث كان بالإمكان إطلاق سراح عشرات المعتقلين كما حدث في الدانا. وصفهم متشابه فيما يتعلق بالتفاصيل المروعة: «لقد اقتلعوا أظافرنا كما في سجون النظام»، كما روى رجل بعد تحريره في الدانا مباشرة، «كان كل شيء شبيهاً بسجون الأسد. وقد تعرفت إلى أحدهم مجدداً كان يعمل في 'الأمن السياسي'، وكان يراقبني في إحدى المظاهرات. والآن هو مع داعش.»[7] سجينان آخران أيضاً، كانا قد اختطفهما الملثمون بسبب منشوراتهما الناقدة على الفيسبوك وعملهما صحافيين، وصفا لاحقاً «ذات الأساليب السابقة: نفس أسلوب التعذيب، الضرب عندما تسنح الفرصة، الزنازين الصغيرة، الذهاب مرة واحدة إلى المرحاض لمدة دقيقتين، لقد سبق لي أن تعرفت إلى كل ذلك.»[8] لكنّ ثمة شيئاً واحداً غريباً، يتذكر السجين السابق أحمد بريمو: «عندما استجوبوني، كانوا يعرفون اسم صديقة قديمة من أيام الجامعة واسم صديق من أيام الخدمة العسكرية – لكن ذلك كان في عام 2006، لا بد أنهم حصلوا على ملفي من جهة ما.»

تم نقل كثير من المعتقلين ثلاث أو أربع مرات إلى سجون جديدة باستمرار، والتي كان داعش ينشئها في جميع المناطق – كما فعلت المجموعة التي خطفت الألمان الثلاثة العاملين في القبعات الخضراء، إذ أنشأ الخاطفون في الصالة السابقة في مزرعة دجاج مهجورة سجناً حسب الأصول، يحتوي على زنازين منفردة كثيرة وبوابة حديدية، وقاموا بهدمه قبل انسحابهم. كان يتم اعتقال أولئك الذين قالوا أو كتبوا شيئاً ضد «الدولة الإسلامية»، وقادة المتمردين، وأعضاء مجالس المدن، ورجال الدين المسلمين، وكذلك مقاتلي داعش الذين سرقوا أو لم ينصاعوا للأوامر – لكن لم يكن هناك أي سجين من جنود أو مليشيات النظام.

«إنهـم متطرفـون، متشـددون مجانين تماماً، لا ينشرون شـيئاً سـوى الإرهاب!»، كـما قـال رجل بذهـول، شـارك في معارك حلـب، وعايـش تحرير سـجون داعش، ورأى أكـوام الجثـث التي أُطلقـت النار عليهـا في باحة مقر داعش الرئيس السـابق قبل انسـحابه منـه. كان الرجل يعمـل في «جهاز الأمن» الداخـلي في جبهة النصرة. وقد اشـتكى تنظيم القاعدة من تطرّف داعش - يبدو الأمر محيراً، ولكنه يعكس أن المصطلحات المألوفة سابقاً لم تكن مناسبة جداً، لفهم الواقع الجديد.

هـرب المقيمـون في أحد مقـرات داعش في غربي حلب على عجـل، لدرجة أنهم تركـوا وراءهم كثيراً مـن الوثائق غير الاعتيادية: شرائـح هواتف إيرانية وجوازات سـفر إيرانيـة، وكذلـك جوازي سـفر كازاخسـتانيين، وعليهما ختم دخـول إيراني، ولكنهـما لا يحتويـان على ختم مغادرة. ما الـذي كان يفعله أتبـاع القاعدة في إيران؟ ولماذا كانت السلطات الإيرانية تشرف - فيما يبدو - على تهريب مسافري داعش أو مسـافري جبهة النصرة سـابقاً؟ تم حلّ اللغز بعد أسـابيع قليلة، في 6 شباط/ فبراير 2014، عندمـا نـشرت وزارة الخزانـة الأمريكيـة على قائمتهـا للداعمين للإرهاب بعـض الأسـماء الجديدة وأسـماء شركائهـم الممولين. من ضمن تلك الأسـماء اسـم الأوزبكـي أوليمزهـون أدخاموفيتش سـاديكوف، الذي كان يتـولى في إيران مهمة تهريـب أتبـاع القاعـدة إلى جبهة النصرة في سـوريا.[9] عن طريق شريكه أبي ياسـين السـوري[10]، الـذي رصدت الولايـات المتحدة في عـام 2011 مبلغ عشرة ملايين دولار أمريكـي للقبـض عليـه. وقد كتب أحـد موظفي وزارة الخارجيـة الأمريكية في شـهر كانون ثاني/ يناير 2014، أنه «أكثر نشـاطاً من أي وقت مضى، في إرسـال مقاتلين يتمتعون بالخبرة من باكستان عبر إيران وتركيا إلى سوريا».[11]

في نهاية الأسـبوع الأول من الانتفاضة كانت قوة السـوريين في الغرب والشمال، في محافظتي إدلب وحلب، كبيرةً جداً لدرجة أنه توجب على داعش الانسـحاب من معظـم المناطق. وفي بلدة أعزاز الحدودية تمترسـت مجموعة كبيرة في انتظار الأوامر. لكن القتال تركز بشـكل رئيس في الرقة، عاصمة المحافظة التي يسيطر عليها داعش بشكل تام، حيث فرّ كثير من مقاتلي داعش الآن. وكأحد ردود الأفعال الأولية على

الخطـر الداني نقل موكب مـن داعش الرهائن الأجانب مـن المدينة، والذين يعدون كنزهـم الثمـين. وبعـد أيـام كان المتمـردون قد وصلوا عـلى بُعد 400 مـتر من مقر المتطرفين الرئيس في قصر المحافظ، ولكن «الدولة الإسلامية» كانت لا تزال تسيطر على الجسور في المدينة، وكان على المتمردين عبور نهر الفرات بالقوارب. وقد حدثت حالات غريبة، بدت وكأنها لا تنسجم مع الصورة النمطية المعهودة لمشهد المتمردين السوريين. عندما استعاد مقاتلو جبهة النصرة كنيستين كان داعش احتلهما وخربهما، أعلنوا أنهم يريدون تسليمها مجدداً لإقامة الشعائر المسيحية فيها.[12]

بدا وكأن النصر بات مسألة أيام، ولكن داعش عاد وضرب بكل ما أوتي من قوة عسكرية واستخدم وسيلة، قلما لجأ إليها الجهاديون حتى ذلك التاريخ: انتحاريون، يضربون بسـياراتهم المليئـة بالمتفجرات خطوط العدو. حتى الآن، اسـتخدم داعش الانتحاريين كسـلاح بشـكل متفـرق، كما حدث عنـد اقتحام مطار منغ العسـكري شمالي حلب. والآن انطلق «استشهاديو» داعش بأعداد كبيرة باتجاه حواجز المتمردين ومقراتهم ومساكنهم. وفي حلب شكّ الحراس في الوقت المناسب، عندما ذهب أحد الانتحاريـين إلى مضر نجـار، أحد كبار قادة لـواء التوحيد، وزعم أنـه جاء من قبل أحرار الشام. لكن زر الحزام الناسف لم يعمل، فتمكن الحراس من إلقاء القبض على الانتحاري. ولم تمضِ سـوى 15 دقيقة حتى اندفعت سـيارة نحو المبنى، وانفجرت عنـد جداره، مخلفة سـتة قتـلى في صفوف المدنيـين. وحتى في بلـدة الراعي الصغيرة بالقـرب من الحـدود التركية، نفذ داعـش هجوماً مزدوجاً مشـابهاً. ففي اجتماع بين العديـد مـن قـادة المتمرديـن ومبعوث داعـش للتفـاوض على هدنـة لوقف إطلاق النار، دخل رجل داعش إلى الغرفة – وفجر نفسـه، وفي الوقت ذاته انفجرت سيارة مفخخـة أمـام مكان الاجتماع. كما عُثر على أحد قادة لـواء التوحيد مقتولاً، وعلى ما يبدو فقد تم إطلاق النار عليه أثناء نومه باسـتخدام مسـدس كاتم للصوت، لأنه لم يسـمع أحد أي شيء. «ما هذا الكابوس الذي حلّ بنا؟»، يتساءل مضر نجار، الذي كاد رجاله على وشـك إطلاق النار على أية سـيارة تمر في المنطقة، خوفاً من تفجيرات انتحاريين محتملين. وحتى نهاية شـهر شـباط/ فبراير فقط سـجل المرصد السـوري

لحقوق الإنسان، وهو منظمة غير حكومية مقرها لندن وتعد مصدراً موثوقاً لتوثيق الأحداث، 34 هجمة كتلك الهجمات المذكورة.

وحيث اضُطر جهاديو داعش في شهر كانون ثاني/ يناير 2014 إلى التراجع والفرار، تركوا وراءهم في كثير من المناطق كلمة أخيرة، وغالباً ما رسموا وويخوا على الجدران على عجل؛ لأنه لم يكن لديهم الوقت الكافي، إذ كان عليهم حرق ملفاتهم وتصفية سجنائهم. ولحسن الحظ لم يتمكنوا من إنجاز هاتين المهمتين في الغالب. في مناطق كثيرة تركوا خلفهم هذه الكلمة: «باقية»، وهي تحية أخيرة تهديدية مختصرة. «باقية»، هي مبدأ في الواقع، وهي الجزء الأول من شعار داعش «باقية وتتمدد». شعار موجز وقصير لا يتناسب مع تنظيم يطمح في الاستيلاء على سلطة لا متناهية. ولكن هذه الأسابيع من شهر كانون ثاني/ يناير رسمت صورة دقيقة عن قدرة التنظيم على التحول. فهو اليوم دولة، وغداً جماعة إرهابية، ولكن دولة مجدداً بعد غد. ففي العراق سيطرت «الدولة الإسلامية» بعد عام 2006 على نصف المحافظات، قبل أن تصدها القوات الأمريكية والوحدات العراقية من جديد. لقد تمكنت «الدولة الإسلامية» من الصمود كنواة خلية إرهابية في العراق، وكادت تتوسع في عام 2013 في أرجاء الشمال السوري كافة. والآن عليها الانكماش من جديد – وتركت وراءها هذه الكلمة فقط، التي تحمل في طياتها تهديداً غير معلن: سنعود مرة أخرى.

وفي الوقت الذي كانت فيه وكالات الأنباء العالمية – رغم انعدام التفسيرات – لا تزال في شهر كانون ثاني/ يناير تصف داعش على أنها فرع من القاعدة[13] أو تشكيل مرتبط بالقاعدة، انبرى زعيم القاعدة أيمن الظواهري بنبرة حادة لإيضاح أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق: في 23 كانون ثاني/ يناير وجه نداءً إلى الفصائل يقول فيه إن الانتماء إلى جماعات مسلحة متنافسة يقف عائقاً في وجه الجهاد، وإنه لا بد من وضع حد لتكفير إخوة العقيدة لبعضهم بعضاً.[14] لم تجد هذه المناشدات آذاناً صاغية لدى داعش. وبعد أسبوعين قطع الظواهري الصلات بأنجح مشروع

جهادي في العقود الماضية: «ليست هناك علاقة لما تسمى 'الدولة الإسلامية'، لم نُخطر بتشكيلها ولم نستشر. القاعدة ليست مسؤولة عن الدولة.»[15]

ما فاجأ «الدولة الإسلامية» وأصابها في الصميم، لم يكن تبرؤ الظواهري منها، بل لأن مجموعات المتمردين الأخرى هاجمتها بغتة وبشكل مُركز. فبالرغم من كل التجسس على كتائب المتمردين واختراقها والاتفاقات السرية معها، لم يشهد داعش هجوماً كهذا. علماً أن الجهاديين استفادوا دون شك من معاهدات عدم الاعتداء والأحلاف التعاونية التي أبرموها مع الآخرين. كما حدث في الرقة مثلاً، حيث تحالف داعش بشكل منفصل مع مجموعتي ثوار الرقة ولواء المنتصر، كل على حدة، ضد أحرار الشام، كما تحالف مع أحرار الشام ضد الجميع. باختصار: ظنت كل كتيبة أن غيرها هي المعنية بالأمر، وليست هي ذاتها.

لم تستغرق «الدولة الإسلامية» وقتاً طويلاً لاستجماع قواها وتعود لتنتقم. ففي الأسبوع الثاني من شهر كانون ثاني/ يناير تحركت تعزيزات من العراق قوامها 1300 رجل. لكنهم لم يقتحموا الرقة، بل لجأوا إلى المكيدة، كما يتذكر طبيب هارب: «كانت الرقة خالية تقريباً، ولكن كانت هناك فصائل كثيرة جاءت من مدن أخرى، ولم يكن أحد يعلم، من كان الآخرون بالضبط. وفجأة بدأت مجموعة ترتدي ملابس المتمردين، وليس لباس الجهاديين الأسود، بإطلاق النار على الآخرين. وعمت الفوضى، ولم يعد أحد يعرف، من مع من، ولاذ الجميع بالفرار.»

قام مقاتلو داعش بتنكر بسيط: خلعوا أسمالهم السوداء، وارتدوا سراويل الجينز والستر، واستغلوا الفوضى. الأمر الذي منح وقتاً كافياً لوصول التعزيزات. وفي الأسبوع الثالث من شهر كانون ثاني/ يناير 2014 كانت الرقة، «نواة الخلافة» كما يسميها داعش، تحت سيطرته مجدداً. وأعدم قرابة 70 سجيناً، معظمهم مقاتلون من جماعتي جبهة النصرة وأحرار الشام المنافستين. وكذلك في بلدة جرابلس الحدودية شمالي الرقة، انقلبت الموازين فجأة، بعد أن كان آخر قرابة 60 مقاتلاً من داعش محاصرين منذ أيام في المركز الثقافي هناك. جاءت كتائب الجيش السوري الحر

مـن مناطق أخـرى وعادت أدراجهـا، وكان الوضع ضبابياً. وعندمـا تقدمت فجأة مجمـوعةٌ صـغيرة ترتدي لبـاس المتمردين المعتاد، لم يخطر ببال أحد أنه كمين. إلى أن فتحت هذه المجموعة النار فجأة.

نجحت الخدعة ذاتها مرة أخرى. اسـتغل مهاجمو داعش الارتباك وسيطروا على البلـدة بعد اشـتباكات قصـيرة. فيما بعد تم تعليـق أربعـة رؤوس للمحاصرين على سـور المركز الثقافي، الذي كان مطوقاً، كاستعراض مريع للقوة. وعلى الفور تم قتل نحـو 20 متمرداً، بعد ذلك بدأت مداهمة المنـازل واحداً تلو الآخر: قتل الجهاديون المتمرديـن وأقاربهم أيضـاً. «الآن عرفوا، مـن كان خصمهم»، يتذكـر أحد الفارين لاحقـاً. في مناطـق أخـرى اعتقـل المتمردون عـدة مرات سـائقي سـيارات داعش المفخخـة، والذين كانوا يسـتفسرون بارتباك: «وأنتم من السُـنة؟ لقد قال لي أميرنا، إنكم كفار من جيش الأسد.»

باختصار، يبدو الأمر مثيراً للسخرية دوماً: المدّعون بأنّهم أولياء الله على الأرض نصبوا أنفسـهم لفتح إمبراطوريتهم المسـتقبلية، ولكن بماذا؟ بلبـاس النينجا، المكر، خلايـا التجسـس، تحت عبـاءة الديـن. بهذه الوصفـة بالتحديـد حققـوا نجاحاً في سـوريا، وكذلك أيضاً بسـبب الطبيعة الفوضويـة للمتمردين السـوريين. لأنه على الرغـم من أنهم يحاربون العـدو ذاته، إلا أنهم بقوا محليين بتعنـت، اعتنوا بمنطقتهم ببراعـة وانضباط، ولكن بمنطقتهم فقـط، أو مدينتهم، أو بمحافظتهم كحد أقصى. على عكس داعش، الذي كان منظماً تنظيماً مركزياً محكماً، وكان يحشـد قواته حسـب الحاجـة، وبهـذه الطريقة كان قـادراً على تعويض النقص العـددي. إضافة إلى ذلك، وفرت كتائب الجواسـيس دوماً المعلومات الدقيقة، بحيـث كانت قيادة داعش على علم بالمناطق الهشة والمتفرقة، أو على علم بالصراعات المحلية القائمة، بحيث يمكن لداعش تقديم الحماية لأحد الأطراف، من أجل كسـب موطئ قدم. «لم نفعل شـيئاً من هذا القبيل البتة»، كما قال أحد قادة الجيش السـوري الحر وهو يهز برأسـه، «لماذا نسيطر على قرية خالية أصلاً؟ لم نخطط بهذه الدناءة إطلاقاً.»

لكن، حتى التناقض العجيب بين الظهور العلني المخطط له بعناية والواقع، كان السمة المميزة لـ"الدولة الإسلامية". ففيما يتعلق باختيار الوسائل والتحالفات؛ اتسعت المفارقة بين التصريحات الراسخة والتعسف التام إلى ما هو أبعد من ذلك: فما بدأ في شهر كانون ثاني/ يناير، كان المرحلة الأوضح على التعاون بين داعش وعدوه الأساسي الرسمي، عائلة الأسد الحاكمة والنخبة العلوية الحاكمة. العلويون، وهم جماعة انبثقت من المذهب الشيعي، لا يُنظر إليهم كمسلمين بسبب شعائرهم العقائدية السرية، ولا حتى من قِبل كثير من الشيعة -ناهيك عن السنة المتشددين مثل مقاتلي داعش، الذين يعتبرون جميع الشيعة بلا استثناء روافض، يحرفون العقيدة ويطعنون بها.

هذا على الصعيد النظري. لكن على الصعيد العملي كان الأسد وداعش في مطلع عام 2014 عدوين تكافليين وكانت هناك منفعة متبادلة بينهما. فقد كان داعش في غاية الفائدة فيما يخص الأسطوانة التي كان إعلام النظام يكررها باستمرار، وهي أنه ضحية مؤامرة أجنبية، حولها إسلاميون أصوليون إلى إرهاب. باختصار: النظام لا يقمع انتفاضة ديمقراطية، بل يحارب إرهابيين فقط. السوريون السلميون الذين كانوا يرفرفون بالأعلام، كما في بداية الثورة، شكّلوا عائقاً في وجه النظام. ولكن جماعة جهاديين همجية، تقطع رؤوس الضحايا وتشن حرباً على جميع الكفار، تلائم تماماً مفهوم القيادة السورية للعلاقات الدولية، فقد أرادت القيادة أن تقدم نفسها في مؤتمر جنيف الثاني للسلام، الذي انعقد في مطلع عام 2014، على أنها السد المنيع الذي يقف في وجه الإرهاب – في الوقت الذي تحوّل فيه طائراتها المدن والمناطق المتنفضة في سوريا إلى رماد.

والآن، فإن انتصار المتمردين على هذا العدو المفيد وطرده بعيداً، يهدد بتخريب استراتيجية العلاقات الدولية العامة لنظام الأسد. كما سبق قبل أشهر أن استفادت دمشق من اختطاف قادة المتمردين وقتلهم من قِبل داعش. ولهذا السبب أيضاً لم تتم، ولا حتى لمرة واحدة طوال نصف سنة، مهاجمة مقر داعش الرئيس في قصر المحافظ المكشوف والمزين برايات سوداء ضخمة – بينما في تلك الفترة سوّت البراميل

المتفجرة، التي يصل وزنها إلى طن، أحياءً بأكملها في حلب بالأرض وقتلت آلاف الناس.

ولكن ما بدأ الآن لم يعد من قبيل التقاء المصالح، بل أصبح تعاوناً عسكرياً: في أهم ساحات المعارك الشرسة بين داعش والمتمردين، في حلب، الدانا، الباب، حريتان، كفر تخاريم، سلقين، تدخلت الطائرات بعد المعركة فوراً، وأحياناً أثناء الاشتباكات - وكانت تقصف مواقع المتمردين دوماً، ولم تقصف مواقع «الدولة الإسلامية» على الإطلاق. عموماً كانت المعارك في تلك الأسابيع، التي قُتل في أيامها الأربعة عشر الأولى أكثر من 700 شخص[16]، غير واضحة دون شك. غير أن دقة تحديد الأهداف ووتيرة الغارات الجوية يستبعدان أن يكون ما يحدث صدفة:

- 3 كانون ثاني/ يناير 2014: بعد ساعات على تحرير تحالف مؤلف من عدة كتائب متمردة لحواجز استراتيجية مهمة لداعش في حي الإنذارات في حلب، وهو أحد أهم الطرق المؤدية إلى الشمال، قصفت الطائرات المقاتلة موقع الحاجز بالصواريخ. فقُتل 25 شخصاً، وجُرح قرابة 50. مع أن الحاجز لم يتعرض للقصف الجوي أبداً قبل 3 أشهر، عندما احتله داعش في تشرين أول/ أكتوبر 2013.[17]

- 5 كانون ثاني/ يناير 2014: عندما كان أبو عمر الشيشاني، أهم قادة داعش العسكريين، يسير بقافلة من الرقة نحو حلب لفك الحصار عن جماعات داعش المحاصرة هناك، كانت الطائرات تحلق في السماء، ولكنها لم تهاجم، ما أعطى انطباعاً أنها كانت تحلق لحمايته. لكن في اليوم التالي، كانت مجموعة من لواء التوحيد تسير على طريق موازٍ، تم قصفها على الفور.

- 8 كانون ثاني/ يناير 2014: أثناء استمرار المعارك لطرد داعش من مدينة سلقين في محافظة إدلب، هاجمت طائرة مقاتلة المقر الرئيس للمتمردين المحليين في مخفر شرطة المدينة السابق. أما مقر داعش

اللافت للنظر والواقع شمالي المدينة على الطريق إلى حارم، فلم يتعرض لهجوم.[18]

- 8 كانون ثاني/ يناير 2014: عندما هاجمت قوات داعش مدينة الباب في شرق محافظة حلب، ليست بعيدة عن الرقة، من عدة محاور، وحاولت السيطرة عليها، وقصفتها بالمدفعية، قامت الطائرات المقاتلة بقصف المدينة 4 مرات في غضون ثلاثة أيام، وقتلت نحو 20 شخصاً. كانت المدينة خالية لمدة أيام قليلة، بعدها عاد تنظيم داعش.
- 10 كانون ثاني/ يناير 2014: بعد فترة قصيرة على طرد داعش نهائياً من مدينة حلب، هاجمت المقاتلات مواقع المتمردين في حي الأكراد الشيخ مقصود.[19]
- 18 كانون ثاني/ يناير 2014: بمجرد أن تمكن المتمردون من طرد داعش من معسكر الجيش السابق التابع «للفوج 46» بالقرب من الأتارب، والذي كان الجهاديون يستخدمونه طيلة شهور كقاعدة لهم، ولم يكن سلاح الجو يزعجهم هناك أبداً، قامت الطائرات الحربية بمهاجمة المتمردين.[20]
- 1 شباط/ فبراير 2014 هاجمت طائرات مقاتلة موكب قائد ألوية صقور الشام، أبي حسين الديك، الذي كان متجهاً مع مجموعة من مقاتليه إلى البادية في شرقي حماة على حدود محافظة حمص. وبعد ساعة تقريباً ظهرت مجموعة من داعش، وقتلت المقاتلين الذين بقوا على قيد الحياة، وأسروا الديك، الذي مات تحت التعذيب بعد أيام. كان في طريقه إلى منطقة الشاعر، حيث يقع أحد أهم حقول الغاز السورية -والذي استولى عليه داعش في صيف عام 2014 وأثناء الأشهر المقبلة تغيّر المسيطرون عليه عدة مرات.

- 6 شباط/ فبراير 2014: في الوقت الذي كانت فيه المعارك في بلدة كفر تخاريم في جنوبي محافظة إدلب لا تزال مستمرة، استهدفت طائرة مقاتلة المقر الرئيس للواء صلاح الدين التابع للمتمردين. بينما لم تتم مهاجمة داعش، الذي اتخذ من المركز الثقافي في البلدة مقراً له، ويبعد 500 متر فقط.[21]

- 12 شباط/ فبراير 2014: طوال فترة تواجد داعش في حريتان، إحدى ضواحي حلب، كانت المدينة تنعم لعدة أسابيع بتوقف الغارات الجوية عليها. ولكن، وبعد ثلاثة أيام على طرد داعش ألقي على المدينة برميل متفجر في البداية، وفي اليوم التالي أُطلق عليها صاروخ سكود، الذي نادراً ما يتم استخدامه.[22]

ليس فقط بسبب الغارات الجوية، بل بفضلها أيضاً، استطاع تنظيم داعش في الأسابيع الأولى من السنة استعادة جزء من الأراضي التي كان قد خسرها. لقد تلقى الجهاديون دعم سلاح الجو، على سبيل الإعارة. وحتى في فترة لاحقة، عندما قاتلت قوات الأسد «الدولة الإسلامية» في شرقي سوريا، استمر هذا النوع من التعاون العسكري في الشمال الغربي وحول دمشق.[23] قد يبدو ذلك غير منطقي للمراقب عن بُعد، ولكن مسألة التعاون والمواجهة بين الجيش والجهاديين مرهونة بالمنطقة والموقع، وليس بالبلد ككل: فعندما تقوى شوكة المتمردين في مكان ما، تتم مهاجمتهم من قِبل الطرفين. وعندما لا يتبقى سوى الجيش و«الدولة الإسلامية»، فإما يتقاتلان وإما تسود هناك حالةٌ من السلام، توصف في سوريا بأنها «جبهة باردة».

في نهاية شهر شباط/ فبراير أصبح خط الجبهة الجديد يمر عبر محافظة حلب بشكل عمودي: الرقة ومدن تل أبيض، منبج، جرابلس والباب عادت تحت سيطرة داعش. بينما انسحب الجهاديون مؤقتاً من غربي تلك المناطق، من الجزء الغربي لمحافظة حلب، من إدلب، حماة، اللاذقية. أما آخر موطئ قدم لهم في محافظة حلب،

وهـو بلدة أعـزاز الحدودية، حيث كان قد انسـحب إلى هناك أكثر مـن 100 مقاتل مـن داعش، فقد أجلوه في مطلع شـهر آذار/ مارس بعد اتفاق انسـحاب عن طريق التفاوض.

خـلال الأشـهر القادمـة تغـيّرت وجهة قتـال داعش: الهجـمات المتفرقـة القوية والدعائية التي كانت تُشـن سـابقاً على مواقع الجيش السـوري توقفت بشـكل تام. ففي مستهل المعارك في شهر كانون ثاني/ يناير كان داعش قد حذّر من مغبة انسحابه من جبهات القتال في حلب، حيث كان يزعم أنه كان يقاتل قوات النظام. ولإثبات مشـاركته في المعـارك، قـام داعـش بنشر مقطـع فيديو خصيصـاً لذلـك، وفيه يظهر جهاديون يقفون في منتصف الشـارع بشكل شبه عشوائي، يطلقون قذائف بازوكا. ولكن عندما انسـحب مقاتلو داعش بالفعـل، لم يحدث شيء إطلاقاً. لم يتقدم جيش الأسـد؛ لأنه على ما يبدو لم يكن الجهاديون يسيطرون على جبهة قتال مشتعلة فعلياً. والظاهر أن الخصم على هذه الجبهة لم يكن قوات معادية في الواقع. وعوضاً عن ذلك، حدثـت في مناطق أخرى أمور تؤكد تبديل داعش للجبهات بشـكل واضح: بغض النظر عن أن سجون داعش كانت تحتوي على متمردين ومعارضين فقط، دون أفراد الجيش، ففي 1 شـباط/ فبراير اقتحم داعش أهم سـجن للمتمردين في بلدة الراعي المتاخمـة للحـدود التركية، وأطلـق سراح أكثر من 100 من مسـؤولي حزب البعث، معظمهـم من كبار ضبـاط الجيش ورجال الأمن، بالإضافة إلى مسـلحي النظام من الشـبيحة – الذين كانوا محتجزين هناك؛ الأمر الذي أدى إلى التعبير عن الفرح لدى أنصارهـم. وقـد روى أحد المنشـقين عن داعـش، في مقابلة له مـع محطة سي إن إن، سبب عدم رغبته في المشاركة في القتال: «كنا نريد مهاجمة جيش الأسد، ولكن أميرنا منعنا من ذلك. لم يسمح لنا أبداً بمحاربة الجيش.»[24]

وبعـد أن أثخنت مجموعات داعش بكافة فصائـل المتمردين في الرقة وما حولها، تمكنـت مروحيـات النظام في نهاية شـهر كانـون ثاني/ ينايـر من إيصـال الإمدادت دون عوائـق مـن جديـد إلى الفرقـة 17 المتمركزة بالقـرب من الرقة، بعـد أن كانت الإمدادات قد توقفت لعدة أشـهر بسـبب الخشـية من القصف. وكان فريق تصوير

قناة المنار التلفزيونية، التابعة لحزب الله، قد حلق في إحدى تلك الحوامات، وعرض جنوداً متحمسين وتوزيع صناديق الطعام، دون أن يوضح كيف أصبح الوضع آمناً مجدداً مرة واحدة فجأة.[25] وبالمناسبة، فقد شكلت هذه القاعدة العسكرية نقطة محورية بارزة في مجرى الأحداث: فبعد ستة أشهر على استيلاء داعش على الموصل، ستتحول القاعدة إلى أول أحجار الدومينو في القتال ضد الجيش السوري، وسيكتسحها الجهاديون الذين قويت شوكتهم. بعد ذلك سيذبحون أولئك الذين كانوا لا يزالون يحمونهم قبل نصف عام. ولكن، وكما غيّرت «الدولة الإسلامية» اسمها بشكل دوري، غيّرت جهة هجماتها بشكل انتهازي: لقد حاربت في خندق المتمردين ما داموا مفيدين وضروريين لها؛ كما حاربت في صف نظام الأسد، ما دام مفيداً لها: وحاربت الجميع، بمجرد أن أصبحت قوية كفاية. لقد تم استغلال جميع الأطراف، ولكن عندما كانت تلك الأطراف تستوعب ما يدور، يكون قد فات الأوان عادة.

تجلى عدم التزام الأصوليين بثوابتهم في جرابلس، حين استعادوا السيطرة على البلدة مستعينين بالمكر، بحيث تقدم مقاتلو داعش المتنكرون وأطلقوا النار حولهم. وما إن سيطروا على البلدة مجدداً، وعلقوا رؤوس خصومهم على الأسوار في مركز المدينة، حتى أرسل الحاكمون الجدد رسالة إلى وكالات الغوث الدولية، التي قطعت دعمها بسبب المعارك. طلب الجهاديون من الوكالات استئناف عملها، ولكن تحت رقابتهم فقط - فجرابلس بحاجة إلى مساعدات في نهاية المطاف.

بعد النكسات الوجيزة في مطلع العام عادت الأمور بالنسبة لداعش تسير الآن مجدداً كما كان مخططاً لها. فيما عدا ما حلّ بالعقل المدبر للجهاديين. تحديداً حجي بكر، الذي فوجئ بالانتفاضة وقُتل في 27 كانون ثاني/ يناير في تل رفعت. هل كان يعتقد يا ترى، أن بإمكانه البقاء مع الآخرين الذين ما زالوا يكابدون في خضم حالة الفوضى في إدلب، أم إنه كان ينوي أن يتوارى عن الأنظار، ويتسلل إلى أعزاز الحدودية؟ حيث هناك احتشد حتى مطلع شهر آذار/ مارس بضع مئات من مقاتلي داعش، وتفاوضوا على هدنة وقف إطلاق نار قصيرة المدى. أم إن بكر كان يأمل أن

يتمكن من أن يتزعم معارك استعادة الأندلس من تل رفعت؟ على أية حال، كانت البلدة، التي تعد أحد معاقل داعش، بمنأى عن المعارك إلى حد كبير حتى ذلك الحين. أم إنه جازف في البقاء في مكان إقامته السري، الذي لا يكاد أحد في البلدة يعرفه، تماماً كشخصيته المجهولة؟

ولكن، عندما هجم المتمردون السوريون بالفعل، انقسمت المدينة في غضون ساعات: بقي النصف الشمالي والغربي تحت سيطرة داعش، بينما سيطر المتمردون على النصف الآخر، بخاصة لواء الإسلام، وهو فصيل محلي. كان حجي بكر يقيم في النصف الخطأ. وتمكن المتمردون من السيطرة على هذا الجزء من المدينة بسرعة كبيرة، بالإضافة إلى ذلك لم يقطن حجي بكر في أحد المساكن العسكرية المؤمنة جيداً، وذلك بغرض ألا يثير الشبهات. على ما يبدو تمكن من إبلاغ فرقة بما يحدث، لأنه عند فجر يوم 27 كانون ثاني/ يناير زحفت قافلة مدججة بالسلاح من قرية كفر ناصح باتجاه تل رفعت. وكالعادة، يتقدمها انتحاري فجر نفسه عند حاجز المدخل الجنوبي للبلدة. غير أن المتقدمين كان قد تم رصدهم قبل ذلك، وكان وصولهم متوقعاً، وتعرضوا على الفور لإطلاق نار كثيف. فكانت عودتهم آخر مسمار دق في نعش المخطِط الفذ، الذي أخطأ في حساباته هذه المرة: أثناء الاشتباكات، ركض شخص إلى المتمردين وصاح قائلاً: «إلى جوار منزلي يسكن شيخ داعشي!» توجه القائد المحلي عبد الملك حدبة مع حفنة من الرجال ودق الباب. فتحت امرأة الباب وقالت بفظاظة: «زوجي ليس هنا!»

ولكن السيارة مركونة أمام الباب؟

عندها ظهر حجي بكر عندي الباب مرتدياً لباس النوم. صرخ حدبة في وجهه طالباً منه مرافقتهم. فأجابه بكر بأنه يريد أن يرتدي ثيابه أولاً. وفي ظل الأجواء المتوترة السائدة، رفض حدبة طلب بكر، وكرر ثانية: «تعال معنا! فوراً!» وفجأة وبرشاقة لا تتناسب مع سنه، قفز حجي بكر إلى الوراء، وركل الباب بقدمه. أطلق حدبة النار، ولكنه أصاب الباب فقط. وفقاً لرواية شخصين لاحقاً شهدا

ذاك الموقف. اختبأ العراقي تحت الدرج وراح يصرخ بصوت عالٍ: «أرتدي حزاماً ناسفاً! ستتطاير جميعاً في الهواء إذا لم تغادروا!» أطلق حدبة النار، وبكت المرأة، وتوسلت إلى زوجها: «اذهب معهم!»، فصرخ: «حسناً» وخرج وهو يحمل بيده بندقية كلاشينكوف، وراح يطلق النار. فأصابت شظية يد حدبة، الذي رد على إطلاق النار وأصاب الرجل في مقتل، دون أن تكون له أدنى فكرة عن هويته بعد.

اصطحب المتمردون زوجة بكر معهم، وكذلك كمبيوتره وقنابل وجهاز تحديد المواقع والسيارة، نيسان جيب بيضاء. «ادفنوه في مكان ما في الحديقة»، قال حدبة. في وقت لاحق من اليوم، عندما مرّ شخص من إحدى الفصائل الأخرى أمام المقر الرئيس للمتمردين، ورأى السيارة، سأل متعجباً: «من أين لكم السيارة؟ إنها سيارة حجي بكر!»، عندها توضحت لهم صورة الرجل الذي قتلوه للتو. «لا تدفنوه!»، أعطى حدبة تعليمات جديدة: «تحفظوا على كل شيء، وصوروا صوراً ثابتة وفيديو!» عُثر لدى حجي بكر على أكثر من عشر شرائح هواتف سورية وعراقية، وجواز سفره العراقي وجواز سفر سوري، ورخصة قيادة مزورة، بل وحتى على قسائم مساعدات تموينية، أصدرها «الائتلاف الوطني»، التمثيل السوري في المنفى والمتواجد في غازي عنتاب. وإلى جانب حزمة المستندات آنفة الذكر، مخططات وقوائم، معظمها بخط اليد، لبناء «الدولة الإسلامية»، التي لن يعيش مبدعها ليشهد انتصاراتها في الشهور التالية.

أما أبو خالد السوري، الوسيط الفاشل بين الجماعات الجهادية وخصوم حجي بكر، فسيعيش بعده شهراً واحداً فقط. إذ ليس لدى «الدولة الإسلامية» مشكلة في الإشادة بأسامة بن لادن كبطل، وتسمية معسكرها للتدريب باسمه – وفي الوقت ذاته قتل ذاك الرجل من المتمردين، الذي ربما كان الأقرب لابن لادن. لكن الإيديولوجية لم تكن مهمة، فأبو خالد السوري كان يعتبر داعش خطراً. وبالرغم من تحقيق نصف انتصار على داعش، إلا أنه كان متكدراً، كما يتذكر حارسه الشخصي. «لا فرصة لإيديولوجيتنا البالية أمام داعش»، قالها ذات مرة لأولئك الذين كانوا لا يزالون يؤمنون أن باستطاعتهم طرد داعش نهائياً. «من إذن؟»، سأله الآخرون.

«القرويـون. الناس الذين لا يمتلكون أيـة إيديولوجيا أبداً، بل يمتلكون أخلاقهم، وغرائزهم. هؤلاء هم الذين لديهم فرصة. لا نحن.»

أصبـح السـوري ورجالـه يتوخون الحـذر، وكان لا يعلم أحد بجميـع لقاءاتهم سـوى دائـرة ضيقـة، ويجري تغيـير الأماكـن باسـتمرار. كان أحد المسـاكن السرية يقـع في ضاحية عـين التل الصغـيرة، في منطقة مهجورة، حيث محلـج قطن ومصنع منسـوجات. «كان لدينـا موعـد في التاسـعة صباحاً مع أبي ياسـين، خليفة أبي خالد في حلـب، وبعض القـادة الآخرين»، حسـب الحارس الشـخصي، "كنـا في الصالة الكبـيرة، التي نجتمع بها عادةً. وفجأة دخل رجلان مـن البوابة الجانبية وفتحا النار عـلى الفور. بـادرت بإطلاق النار، وأمسـك أبو خالد ببندقيته الكلاشـينكوف، فيما اختبـأ أبو ياسـين خلف إحدى الدعامات. ألقى الرجـلان قنابل يدوية، وفقدت أنا الوعـي. ربما اسـتغرق الأمر دقيقـة واحدة. عندما عدت إلى رشـدي، كان أبو خالد ميتاً، وأبو ياسين منحنياً عليه، 'يا شيخي، يا شيخي'! ركض الرجلان نحو الخارج، وعندما وصل الحراس من المدخل الرئيس، فجّر أحدهما نفسه على الفور. فيما أطلق الآخر عدة طلقات، ثم فجّر نفسه أيضاً."

كان هناك شخص، من المفترض أن يكون متواجداً في الاجتماع المخصص لمناقشة إمكانية الاستمرار في مجابهة داعش، كان غائباً هذا الصباح: أحمد اللولو، المسؤول في حركة أحرار الشـام عن "إنتاج" مصافي النفط البدائيـة ومطاحن الحبوب. حاولت المجموعة نسـخ أنمـوذج الإخوان المسـلمين، وكان لديها فرع كامل يُعنى باسـتثمار مـواد الإغاثـة والمـواد الغذائية وتوزيعهـا. لم يكن عـدم حضور اللولو هو السـبب الوحيد للاشتباه به. ولكن منذ فترة تحوم شائعات حول تورطه في محاولة اختطاف. "ابحثوا عن اللولو!"، هتف أحد رفاقه في القتال أثناء التوجه إلى المشفى التركي، كما يتذكر الحارس الشـخصي، الذي كان قد تعرض لإصابة بالغة أثناء تبادل إطلاق النار. بينما نشر أحد أمراء داعش البارزين تغريدة على تويتر، ينفي فيها علاقة تنظيمه بمقتل أبي خالد.[26] وهذا محض كذب.

تم العثور على أحمد اللولو بعد شهرين، بالقرب من الحدود. لم يكن في حسبانه أن يتم التحري عنه بهذا الإصرار في ظل فوضى الحرب. استطاع متعقبوه استعادة الرسائل النصية المحذوفة، التي كان قد أرسلها بواسطة هاتفه إلى قيادة داعش، بحيث كان أمير حلب الداعشي قد أرسل رسالة داخلية بعد الاعتداء بفترة وجيزة: "الحمد لله لقد تم القضاء على الخونة! لقد انتهى مشروع 'سوريا للسوريين'!"

اعترف اللولو: أن داعش جنده قبل أشهر ماضية في مدينة أنطاكية التركية، وكانت مهمته التجسس في البداية. ولكن بعدها تم تكليفه بمهمة القتل من قِبل "المسؤول الأمني" في داعش، أبي عبيدة المغربي. كان على اللولو رصد التحركات واللقاءات والأشخاص الذين يتم التواصل معهم. كان يتم التحقق من معلوماته دائماً، إلى أن تم الوثوق به، وبعدها تم ربطه بالثنائي الذي نفذ مهمة القتل: سوري ومغربي يحمل جواز سفر فرنسياً. في ذاك الصباح، عندما تأكد اللولو من أن المجموعة القيادية كلها ستأتي إلى عين التل، أبلغ الاثنين. وأثناء استجوابه تأسف بمرارة على مبلغ 500 ألف دولار أمريكي، كان البغدادي قد وعده به جزاء عملية القتل، ولم يحصل عليه على الإطلاق.[27]

6

حرب الجهاديين الخاطفة

الاستيلاء على الموصل وعودة داعش إلى العراق

في شهر حزيران/ يونيو 2014 تم اكتساح الموصل، وفي غضون أيام استولى الجهاديون على ثلث البلاد. أصبح داعش «دولة الخلافة» - وفجأة هاجم مقاتلو التنظيم في سوريا قوات الأسد، وهو الأمر الذي كانوا يتجنبونه بصرامة قبل ذلك.

هدوء مزيف، فمنذ أشهر لم يعد يُسمع الكثير عن «الدولة الإسلامية» في العالم. ولم يأخذ الغرب محاصرة قوات داعش المهاجمة للجيب الكردي، في كوباني منذ مطلع العام، محمل الجد. في يوم جمعة في منتصف شهر أيار/ مايو في كوباني، كان المدافعون الأكراد يرابطون في موقع تلي فوق نهر الفرات، عندما حملت الرياح معها جملاً متقطعة من خطبة صلاة الجمعة كان يلقيها أحد مقاتلي داعش على ضفة النهر: «اعتصموا جميعاً! ... خونة الدين ... سنسحقهم!» كلمات مروعة بصوت الخطيب الصادر من مكبرات الصوت المعلقة على مآذن المسجد، وجهاز تقوية الصوت الذي يعشقه الجهاديون، يشوه صدى الصوت.

في الجزء الأسفل من النهر تجمع مقاتلو داعش استعداداً لشن الهجوم القادم. على بُعد بضع مئات الأمتار في الأعلى، على التلال المقفرة التي ينعكس عليها وهج الشمس، جلس الأكراد وكانوا يشعرون أنهم وقعوا في شراك فيلم رعب. «ما الذي يريدونه منا؟»، تساءل أحد المقاتلين الشباب، الذي كان قبل أسابيع قليلة لا يزال

يعمـل بائعاً في محل سـوبر ماركت. «لا يـزال هؤلاء المجانـين يهاجموننا ولا يقف في طريقهـم شيء، حتـى وإن تـم إطلاق النار عليهـم. لقد أصبت أحدهـم مرتين. ولم يتوقـف إلا بعـد أن أصابتـه طلقـة في الـرأس. إنهم معتوهـون، يأتـون إلى هنا لكي يموتوا.» وكان الأكراد قد بدأوا في مطلع العام بحفر خنادق ووضع دُشم خرسانية. وبدا خط الجبهة الأمامي وكأنه مشهد من الحرب العالمية الأولى.

وإلى الغـرب لم يطـرأ أي تغيير: فخطوط الجبهة في سـوريا لم تتغير كثيراً، وكانت تسـير عموديـاً عبر محافظة حلـب وعبر البادية جنوبي الرقـة. وإلى الشرق لم يطرأ أي تغيير: ففي العراق بسط داعش هيمنته منذ شهر كانون ثاني/ يناير 2014 على مدينة الفلوجة سـيئة السـمعة لأنها تعد معقلاً للمتشـددين، ولكن بعيداً عن ذلك لم تكن هناك تحركات عسـكرية تستحق الذكر. غير أن جهاز اسـتخبارات حكومة الإقليم الكردي في شمالي العراق اعترض رسائل منذ أسابيع، مفادها أن داعش يخطط لعملية عسـكرية كبيرة وتتجه أنظاره الآن نحو مدينة الموصل. حسـب ما روى بعد أشـهر لاحقة منصور بارزاني، قائد جهاز الاسـتخبارات في إقليم كردسـتان العراق ونجل رئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني: «حذرنا بغداد و(رئيس الوزراء) المالكي عدة مرات. كنا نعرف أن داعش يعد العدة لمهاجمة الموصل، وقد نسق مع جماعات أخرى من أجل ذلك. كان واضحاً أن ذلك سـيحدث قريباً. لكن المالكي اكتفى بالإشـارة بالنفـي، فهو لديه الجيش. وهو الذي سـيهتم بذلك.» وكذلـك يتذكر أحد المقربين من أحمد الجلبي، السياسي العراقي البارز المثابر، الذي اعتبره وزير الدفاع الأمريكي دونالد رامسـفيلد في عام 2003 الرجل القوي الجديد في العراق، ولكنه لم يعد محل رضى لاحقـاً: «كان هنـاك تواصل بين الجلبي والمالكـي. وقد حذره.» حتى إن أحد الضبـاط وكان المالكي قد عيّنه شـخصياً في الموصل، مهدي الغراوي، داهم في نهاية شـهر أيار/ مايـو خلية لداعش وقـضى عليها، وعلِم بمخططات الهجوم الوشـيكة، وطلب تعزيزات من بغداد – لكن دون جدوى.[1]

الموصـل، ثاني أكبر مدن العراق يعيش فيها ما يقارب المليوني نسـمة، كانت دائماً مدينـة مبهمـة عصية على الفهـم. مدينة سـنية حتى النخـاع في العـراق ذي الغالبية

الشيعية، ولكنها ليست مدينة ريفية مثل تكريت، مسقط رأس صدام وعشيرته المهووسين بالسلطة. ومن الموصل، العاصمة التجارية في العراق، كان هناك كثير من ضباط الجيش. هنا اختبأ نجلا صدام، وهنا تمت الوشاية بهما. هنا أصدر شيوخ القاعدة في ذروة الحرب الأهلية العراقية في عام 2007 مراسيم تجاوزت ما هو أبعد من فرض النقاب على النساء وإطلاق اللحى بالنسبة للرجال. وكان هناك إقبال على الوشم في المدينة، حيث كان الزبائن يشمون أسماءهم وأرقام هواتفهم على الظهر أو على الساق: «حتى يتعرف إلى أقاربي في حال قُطع رأسي.» فقط في السنوات الأخيرة، حتى عام 2012، هدأت الموصل ظاهرياً - بينما كان داعش يسيطر على عالم الجريمة السفلي في المدينة منذ سنوات. فقد كان فرض الإتاوات على تجار الموصل من أهم موارد التنظيم المالية لسنوات.

لكن مرحلة الهدوء الظاهري لم تدم طويلاً. وعلى الجانب الآخر من الحدود، التي لن تعود قائمة قريباً مع سوريا، كان داعش يخطط منذ أشهر لشن هجوم على المدينة، وأعد العدة لما سيتبع الآن.

كانت الأجواء مشحونة في الموصل في الأيام الأولى من شهر حزيران/ يونيو 2014، شديد الحر. في 4 حزيران/ يونيو حوصر القائد العسكري للجهاديين في المدينة، والذي فضّل أن يفجر نفسه على الاستسلام. بعدها عمّ هدوء خادع لفترة وجيزة إلى أن جاءت ليلة 6 حزيران/ يونيو: حوالي الساعة الثانية والنصف فجراً تقدمت أول قافلة من سيارات البيك آب قادمة من الصحراء، يصل عدد المقاتلين في كل سيارة أربعة، قاموا بتمهيد الطريق من خلال الاشتباك مع نقاط التفتيش الأمامية على أطراف المدينة.[2] وبعد ساعة وصلت طلائع الجهاديين إلى مركز المدينة. ردّت وحدات الشرطة هناك بإطلاق النار، لكن لم يكن بمقدور قوات الشرطة فعل شيء ضد سيارات البيك آب المزودة برشاشات 14.5 ملم. كما أن الجيش لم يفعل الشيء الكثير. وقام انتحاريان بتفجير سيارتيهما في الطرف الآخر من المدينة. فيما أطلقت مجموعات صغيرة من الفرقة الثالثة قذائف الهاون، لكن الجنود كانوا يفرون غالباً من مواقعهم، كلما اقترب المهاجمون منهم.

كانـت أعـداد مغاويـر داعـش، التـي تزحف بسرعـة، تتـوالى باسـتمرار عندما يلاحـظ قـادة داعش أنهم يواجهـون أية مقاومـة، حتى وإن كانـت لا تذكر. وفي 7 حزيران/ يونيـو كان المقاتلون يسـيطرون على خمسـة أحياء من المدينـة. ومرة أخرى عرض الرئيس الكردي إرسـال وحدات البيشـمركة من المناطـق الكردية المجاورة إلى الموصـل. رفض المالكي في المـرة الأولى، وكذلك في المرة الثانية. ورد عليه بأنه في المدينـة ما يكفي من القوات. عوضاً عـن ذلك، قصفت الحوامات التي انطلقت من المطار الواقع جنوبي المدينة، وقتلت المقاتلين والمدنيين على حد سواء. في تلك الأثناء كان الخـط الدفاعـي الارتجـالي على طول نهر دجلـة لا يزال متماسـكاً، وكانت مهمة هـذا الخط الدفاعي وقف تقـدم المقاتلين الأعداء إلى الأحيـاء الشرقية. وبعد ظهيرة يـوم 8 حزيران/ يونيـو زحفت موجـة المقاتلين التالية: قرابـة 100 عربة تحمل أكثر مـن 400 مقاتل دخلـت المدينة. «لكنهم لم يأتوا من اتجاه واحد»، كما يسـتذكر أحد السكان الفارين: «لقد جاؤوا من كل حدب وصوب! كانوا يرتدون أقنعة سوداء، لم نكن نعرف من كان هؤلاء الرجال. ولكن عندما كانوا يقولون شيئاً، كانت لهجتهم موصليـة في الغالب». «لا يمكن أن يكونوا مهاجمين من الخارج فقط. كانوا يعرفون بالضبط، أين يقع مبنى ما، وكان كثيرون منهم يسيرون على الأقدام في الشوارع.»

في العراق – كما هو الحال في كثير من البلدان – يحب المرء الاعتقاد بنظرية المؤامرة، حتـى وإن لم يكن هناك أي دليل. لكن، فيـما يخص اقتحام الموصل فلقد كانت هناك بالفعل عملية عسكرية مخطط لها سلفاً على نطاق واسع. جماعات مختلفة تماماً، خلايا بعثية قديمة، العديد من التشكيلات الإسلامية، الصوفيون المتشددون أتباع الطريقة النقشبندية، وكتائب «ثورة العشرين» ذات التوجه القومي، جميع هؤلاء هجموا معاً الآن بالتنسـيق فيـما بينهم. في الماضي، لم تتمكن الجماعات مـن الاتفاق على تنفيذ أي عمل مشـترك. لكن داعش عـاد قوياً جداً بعد الانتصارات التي حققها في سـوريا. ومنذ ذلك الحين كان واضحاً من الذي يقود حملة الهجوم.

أثنـاء يـوم 9 حزيران/ يونيـو هـزّ انفجـار عنيـف المدينـة: صهريـج ميـاه، مليء بالمتفجـرات والخـردوات، انطلـق بسرعـة كبيرة ليصطـدم بالفندق، الـذي كان قد

صمـد فيه آخـر 40 شرطياً في الطرف الغربي من المدينة. أمـا الباقون فكانوا إما قتلى أو فارين – أو انشـقوا إلى الملثمين. أطلق رجال الشرطة النار على الشـاحنة المقتربة، التـي انفجـرت على مقربة مـن المبنى، ولكن الموقـع لم يتمكن من الصمـود أكثر.[3] الآن أصبـح الجـزء الغربي من الموصل بيد المهاجمين بالكامـل. وخلع رجال الشرطة زيهـم الوظيفي وفروا. قرابة السـاعة السـابعة والنصف مسـاءً التقـى الفريق الركن مهـدي الغراوي، الذي كان قد عُيّن في شـهر آذار/ مارس قائـداً لعمليات الموصل، بالمحافـظ وأرفع ضابطين في المنطقة، معاون رئيس أركان الجيش العراقي عبود كنبر وقائد القوات البرية علي غيدان. «أين هي الفرقة الثانية؟»، سـأل مستشار المحافظ. كانـت وحـدات الغراوي، التي تقلص عددها على أي حـال، عالقة في أجزاء مختلفة مـن المدينة. وكانت الفرقة الثانية على مسـافة بعيدة مـن المعارك التي تدور في شرقي المدينة. «يمكننا حشـد القوات»، وعد المستشـار. قاطعه كنبر بفظاظة: ينبغي عليك الاهتمام بشؤونك! «ونحن نهتم بشؤوننا.»[4] ثم غادر الاثنان الاجتماع، ونقلا غرفة عملياتهـما بعيـداً إلى الشرق واصطحبـا معهما قافلة كاملة من الجنـود والعربات. بدا الأمـر وكأنهما يهربان، وهذا ما ظنه الجنود والضبـاط، فسرعان ما انتشر خبر اختفاء القادة – وبموجب ذلك حدثت عملية هروب جماعي. تخلى الآلاف عن مسدساتهم، وخلعوا الزي العسـكري وحاولوا يائسـين الحصول على ملابس مدنية. لقد قايض مسـدس الخدمة من ماركة «غلوك» بقميص تيشرت، حسبما اعترف بعد أيام لاحقة جندي، اعتزل القتال، أمام أحد مكاتب السـياحة في أربيل، حيث كان يحاول حجز تذكرة طيران إلى مدينته في جنوب العراق.

نظريـاً كانـت هنـاك فرقتـان، بالإضافة إلى تشـكيلات من فرقتـين أخريين، وما مجموعـه 25 ألف شرطي وجنـدي في الموصل ومحيطها، جميعهـم هربوا من 1000 مقاتـل داعشي في البداية، وبلغ عددهم الأقـصى 2000 في اليوم الأخير من المعارك التـي اسـتمرت ثلاثة أيـام. جيش كامـل بدباباتـه، وحواماته الأباتشي، وسـيارات هامفـي المصفحـة، وقطعـه المدفعيـة وراجمـات الصواريخ فـرّ من عـدد واضح من الرجـال بسـيارات بيـك آب مـزودة بمدافـع رشاشـة – تاركين خلفهم ترسـانتهم

بأكملها. انتصار لا يُصدق، أرجعه الجهاديون فوراً على أنه جاء بيد الله. ولكن سقوط الموصل في أيدي داعش في غضون أربعة أيام فقط، بالرغم من التحذيرات العديدة، وبالرغم من المساعدات العسكرية الهائلة من واشنطن في عام 2013، وبالرغم من وجود جيش يتألف نظرياً من 200000 رجل وما يقارب نصف مليون شرطي ومسلحين شبه عسكريين، كان له عدة أسباب – ودعوى مساعدة الله لم تكن أحد تلك الأسباب.

كان نصراً، غذّته أحقاد قديمة وأخطاء جديدة، بسبب جنون العظمة الحالي لرئيس الحكومة، وغطرسة موظفي الاستعمار البريطاني قبل 100 عام، وفي نهاية المطاف الصراع الأخير على السلطة داخل الإسلام، الذي تم الاستيلاء باسمه الآن على المدينة. صراع السنة والشيعة، الذي سبّب نشوب الحرب الأهلية بعد الغزو الأمريكي للعراق. ونوري المالكي، الذي تم انتخابه منذ عام 2006 رئيساً للوزراء في البلاد، لم يدخر جهداً لتعميق هذا الشرخ. وما سهّل من مهمته، أن الأقلية السنية التي أُجبرت على التخلي عن السلطة في عام 2003 بذلت كل ما بوسعها لاسترداد السلطة التي اكتسبها الشيعة حديثاً، عوضاً عن المشاركة في العملية الديمقراطية. لقد نمّى المالكي ملكاته السياسية عن طريق العمل السري، ففي منفاه في إيران وسوريا غير الديمقراطيتين، طوّر المالكي غريزة البقاء حسب الظروف – والتي أصبحت وبالاً عليه لاحقاً عندما حقق كل ما يمكن تحقيقه: رئيس وزراء العراق. فبسبب هواجس الخوف لديه من أن يتمكن أحد أتباع صدام السابقين أو أي خصم آخر من القيام بانقلاب ضده، استبعد السنة والمعارضين المحتملين من صفوف الضباط ومجلس الوزراء والوزارات. أما الصحوات، وهي مليشيات سنية موّلتها الولايات المتحدة، وهزمت القاعدة اعتباراً من عام 2007، فلم يتم ضمها إلى الجيش ولا الدفع لها. ولسنوات دأب المالكي على استبدال الضباط الأَكْفَاء بالأشخاص المنتفعين والأقارب، لكي يكفل أن الجيش لن يتمكن على الإطلاق من القيام بشيء واحد: انقلاب ضده. أما فيما يخص عدم قدرة الجيش أيضاً على محاربة عدو خارجي، فقد كان ذلك أمراً ثانوياً بالنسبة له.

وعلى عكس العالم العربي لم يكترث الغرب كثيراً بمواقف المالكي التي كانت تزداد راديكالية تدريجياً، وبذا بدأ يدفع السنة في «بلده» إلى التساؤل عن مستقبل الإسلام السني هناك. فأثناء زيارة له إلى كربلاء في شهر كانون أول/ ديسمبر 2013 اقترح علناً ضرورة تغيير اتجاه القبلة، إذ ينبغي ألا تكون بعد الآن باتجاه مكة، بل باتجاه كربلاء. «هنا مرقد الإمام الحسين»[5] الذي يمثل أيقونة مقدسة في المذهب الشيعي. كما أطلق الجيش النار على الاحتجاجات السلمية للسنة، مثلما حدث في شهر نيسان/ أبريل 2013 في مدينة الحويجة.

وأخيراً أتخم المالكي نظامه بالموالين له – وهي الوصفة التي تعتمدها كثير من الديكتاتوريات. وقد آتى الولاء ثماره. أما في حال الاشتباه بعدم إخلاص شخص ما، فيمكن أن توجه إليه تهمة الفساد على الفور وبشكل قانوني تماماً. كما كان المالكي سيئ السمعة فيما يتعلق بإنشاء ملفات عن الكل، الأعداء، الأصدقاء، الحلفاء، الوزراء، الضباط، وهدد المالكي أكثر من مرة، «بهز أركان العراق»،[6] في حال أقدمت أية كتلة على الإطاحة به. وبهذه الطريقة تمكن من إجراء موجة تطهير باسم دولة القانون.

غير أن للفساد جانباً تآكلياً، فهو يدمر الدولة من الداخل، وينخر أجهزة الشرطة وقوى الأمن ببطء، وفي النهاية يشّل الجهاز الذي تم تأسيسه لتأمين حكمه. فبعد عدة حالات هروب جماعي لسجناء رفيعي المستوى في داعش من سجني البصرة وبغداد اللذين من المفترض أنهما من أكثر سجون البلاد أمناً، وبعد أن تباهى التنظيم الإرهابي علناً بأنه قام بتهريب أسلحة ومتفجرات إلى العراق، أبرزت التحقيقات في هذه الأحداث تورط شخص لم يكن متوقعاً: أبو علي البصري، مدير الأمن في مكتب رئيس الوزراء. حتى إنه تم استجوابه من قِبل لجنة برلمانية حول الاتهامات الموجهة ضده، وصدرت بحقه مذكرة توقيف، غير أن قاضياً، له صلة قرابة مع المالكي، عطّل تنفيذ المذكرة، وبالتالي تمكن البصري من الهرب إلى خارج البلاد.[7]

ذاك الجيش، الـذي أثبـت أنه الأقدر عـلى الدفاع عـن الموصل وأنـه قاتل حتى السـاعات الأخـيرة، كان قائده ضابط الشرطة السـابق مهدي الغـراوي، الذي كان معروفـاً أنـه زعيم إحـدى فرق الموت وسـيد سـجون التعذيب السريـة. كان لقبه: وحـش الموصـل. حتـى الحاكم الأمريكـي في بغـداد لم ينجح طوال سـنتين في إقناع المالكـي بتقديـم الغراوي للمحاكمـة في ظل الأدلة الدامغة عـلى تورطه في عمليات قتل وتعذيب.[8]

وتعـين عـلى داعـش أن يفعل فقط ما يتقـن قادته فعله –معرفـة أخطاء الآخرين واستغلالها. وقد بدأ بتطبيق ذلك في الموصل منذ فترة طويلة، قبل أن يظهر في الصورة الآن: لقـد عمل مقاتلو داعش في الخفاء بفاعلية وصمت، عندما كانوا يسـتخدمون كاتـم الصوت على سـلاح القتل، ولا يصـدر عنهم صوت إلا عندمـا كانت تحدث تفجيرات متكررة في مكان ما. ما طبقه داعش اعتباراً من بداية عام 2013 في شمالي سـوريا، بدايةً بالإحاطـة بمعلومات عن الأهـالي حتى أدق التفاصيـل: من يمتلك ماذا، ومن عليه ديون، ومن لديه السـلطة، ومن ارتكب ذنباً وأين يسـكن؛ كل هذا كان معروفـاً لـدى داعش منذ زمـن في الموصل؛ إذ كانت مدينتـه؛ فمنذ عام 2003 تشكلت خلايا أصولية هنا، أرهبت الأهالي بعمليات القتل الهادفة ولم يتم استئصالها تمامـاً. كثـيرون من رجـال داعش كانوا من الموصـل وكانوا يعتـبرون المدينة غنيمة، يمكنهم استباحتها – بغض النظر عن أن من يدفعون الإتاوات من أصحاب أراضٍ ومالكي محطات وقود وصيادلة كانوا من السنة أو المسيحيين أو الشيعة.

سياسـة نـوري المالكـي، المتمثلة برؤية سـنة بلـده باعتبارهـم إرهابيين أساسـاً واسـتخدام الجيش في الموصل كقوة احتلال، سـاعدت الإرهابيين الحقيقيين بشكل حاسـم. في الموصل كان معظم السـكان يخشـون مـن طرفين: يخشـون الدولة، التي كانـت تظهر في الأسـاس كسـلطة مسـلحة يمكن لهـا أن تعتقـل أي مواطن لا على التعيـين عند مروره عند نقـاط التفتيش اللامعدودة والمنتشرة في المدينة – ويخشـون الإرهابيين، الذي لم يتأثروا كثيراً بالحشـد العسكري الهائل، أو ربما كان ذلك الحشد في صالحهـم. «لمـاذا يتعين عـليّ الذهاب إلى الشرطة؟»، اشـتكى صحـافي هرب من

الموصل. «أولاً لن يساعدوني مهما حدث، وبالإضافة إلى ذلك قد يعتبرني بعض جيراني خائناً، لأنني أتعاون مع رجال المالكي. يكفي أن يراني جاسوس ويشي بي، فسيقتلونني.»

كانت الموصل مدينة الخوف من كائنات غير مرئية. من مغاوير القتل الصامتين من قِبل داعش، الذين كانوا يعرفون بالضبط، مكان عمل ضحاياهم وإقامتهم، والطرق التي يسلكونها، ويعرفون أن أحداً لن يقف في طريقهم. ففي مطلع شهر تشرين الأول/ أكتوبر 2013 كان صحافيان من قناة الشرقية التلفزيونية الخاصة يريدان تصوير مرتادي إحدى الأسواق بسبب اقتراب عيد الأضحى، فخرج بضعة رجال من حشود الناس وأطلقوا النار عليهما ولاذوا بالفرار.[9] كان إعداماً احترافياً، وُجهت فيه الطلقات إلى الصدر والرأس. لم يتبع أحد القتلة، ولا حتى رجال الشرطة الذين كانوا يقفون على مقربة من المكان. «كيف يمكننا حماية العامة، إذا كان لا يمكننا حماية أنفسنا أصلاً؟»، اشتكى ضابط شرطة، أراد تعريف نفسه بـ «أ. محمد».[10] الصحافي نوزت شمدين نجا من محاولة قتل: «شاهدت في السوق فتى يافعاً ما بين سن الثانية عشرة والخامسة عشرة يسحب فجأة مسدساً كاتماً للصوت من كيس ويوجهه صوبي. لوهلة، لم أستوعب ما يجري. وفي تلك اللحظة انفجرت قنبلة في الجوار، واختفى الفتى.»[11] ولم يقف الإرهاب عند هذا الحد، فقد تلقى عشرات رجال الشرطة تهديدات بالقتل، وتعرضوا للترهيب، أو هُجروا أو قُتلوا. في 8 تشرين أول/ أكتوبر، بعد ثلاثة أيام على مقتل طاقم التصوير، اغتيل سعد زغلول، الناطق باسم المحافظ. وكان سلفه قد لقي مصرعه في شهر حزيران/ يونيو. وبعد ساعات على مصرع زغلول عُممت منشورات في المدينة: من سيستمر في العمل كصحافي، فمصيره الموت. «أخذ الكل الأمر محمل الجد»، كما قال الصحافي الإذاعي طلال ماجد.[12] بقي البعض في المدينة، مثله، لكنهم غيّروا أماكن إقاماتهم، وحذفوا حساباتهم على الفيسبوك، وغيّروا أرقام هواتفهم.

استهدف الإرهاب الصحافيين ورجال الشرطة، وكذلك مخاتير الأحياء وضباط الجيش، وحتى سماسرة العقارات.[13] ومع أن مغاوير القتل كانوا ذات الأشخاص،

لكن دوافع القتل كانت مختلفة: بالنسبة للصحافيين، كان المطلوب هو استئصالهم وتكميم أفواههم ببساطة. فالحقيقة، على الأقل التي يتم نشرها، سيكون لها دور مهم لاحقاً. أما سماسرة العقارات وأصحاب الشركات ورجال الأعمال، فقد قُتلوا لأسباب أخرى. جعل داعش من الخوف الذريع أنموذجاً تجارياً مربحاً جداً: من أراد أن يعيش في الموصل ويزاول نشاطات تجارية، فعليه أن يدفع. ومن لم يدفع «ضريبة إرهاب»، مثل مستثمر أول مول تسوق في الموصل، فسيشاهد متجره يختفي خلف سُحب دخان الدمار. ففي 19 تشرين أول/ أكتوبر 2013 تم تفجير «سما مول» في حي العربي الراقي، وقد خلّف الانفجار 19 شخصاً ما بين قتيل وجريح. وفي ذات اليوم حدث انفجار آخر في مطعم «هابي».

«الجميع يدفع»، كما روى في مطلع العام رجال أعمال من الموصل، كانوا قد انتقلوا إلى أربيل في الإقليم الكردي، «لهذا السبب رحلنا.» لكنه يبقى من الصعب تحديد المبالغ التي جمعها داعش من الإتاوات في الموصل وحدها، نظراً لآلاف الحالات الفردية الواردة حول ذلك. لكن بريت ماكغورك، نائب مساعد وزير الخارجية الأمريكية، ذكر في جلسة استماع أمام مجلس النواب في شهر تموز/ يوليو 2014 أن مجموع المبالغ يُقدر بـ 12 مليون دولار أمريكي شهرياً.[14] وقبل سقوط المدينة من المرجح أن المبلغ أكبر من ذلك. في عالم الإرهاب الغامض «يريدون دوماً المزيد من المال من المزيد من الناس، دوماً»، حسبما قال صحافي محلي في عام 2013.[15] في البداية اقتصر الجهاديون على سوق البنزين السوداء والشركات الكبيرة، ولكن مع الوقت طال الابتزاز المساجد، والجامعات، والصيدليات، ومالكي مولدات الكهرباء، التي كانت تزود المناطق المجاورة بالطاقة عند انقطاع التيار الكهربائي الدائم، لقاء مبلغ مالي. من هذا المصدر جمع داعش مالاً مضاعفاً: فمن جانب دفع أصحاب المولدات، ومن جانب آخر كان هناك ما يصل عدده إلى ألف «مولدة وهمية»، كان يحصل أصحابها على ديزل مدعوم من دون أي وجود لتلك المولدات. وكان على أولئك أن يشركوا داعش في تلك المستحقات. الطريق الوحيد لقطع مورد

الدخـل هـذا عن الإرهابيين، هو «توفير الكهرباء»، حسـب موظـف في محطة توليد الطاقة، ولكن الكهرباء لم تعد متوفرة في الموصل منذ الإطاحة بصدام في عام 2003.

وبمجـرد شـعورهم بقدر كافٍ من الأمـان أو احتياجهم للمزيـد من المال، رفع المحصّلون الأسعار في خريف عام 2013: الصيدليات، التي كانت تدفع حتى ذلك الحـين 200 دولار، فُرض عليها فجأة مبالـغ تصل إلى 20,000. توقفت كثير من الصيدليات عن العمل وأغلقت أبوابها، تماماً مثل أصحاب محلات السـوبر ماركت وعيـادات الأطبـاء والمكاتـب العقارية. «دفعـت مبلـغ 20,000 دولار لأناس لا أعرفهـم»، كما روى أسـتاذ جامعي، «لقـد وصلتني أنا وكثير مـن الزملاء تهديدات بالقتل أو إنذارات بأن شـيئاً ما سـيحدث لعائلاتهم.»[16] وحتى قبل أن يبدأ اقتحام الجهاديين الفعلي للمدينة، كانوا قد أرهقوا الموصل بالإرهاب.

تفاصيـل مـا حـدث في 6 حزيران/ يونيو 2014 أثناء الاسـتيلاء عـلى الموصل، تشـبه تماماً ما تم تجريبه سـابقاً في المدن السـورية على نطاق ضيق: ففي الوقت الذي هاجمـت فيه طليعة صغيرة من الخـارج، تحركت الخلايا النائمة في الداخل، وهاجمت انطلاقاً من أوكارها السرية، التي كانت توفر المأوى ومجهزة سـلفاً بالسـلاح، وحتى الأوراق[17]، وشـاركت تلـك الخلايـا بالقتـال. واسـتحوذت على نقاط حساسـة، وأرشـدوا القادمـين عبر متاهـات المدينة. أما عدد الأشـخاص الذين فـرّوا في تلك الأيـام، فغير معروف على الإطلاق. تحدثت الأمم المتحدة عن عدد يصل إلى نصف مليون لاجئ، ولكن في الأسابيع التالية كانت مراكز تجميع اللاجئين شبه خالية، مما يوحي أن الأعداد كانت في البداية أقل بكثير.

لكـن، ما إن رفرفت الرايات السـوداء ذات الكلمات البيضـاء يوم الأربعاء، 11 حزيران/ يونيو، على جسـور الطريـق السريعة وأعلى المباني في المدينة، حتى سـادت الموصـل أجـواء احتفالية. في موكـب سـيارات مع التزمير جاب المئـات قلب المدينة واحتفـل الفاتحـون من خلال التجول في المدينة بسـيارات الهامفـي وناقلات الجنود المدرعة التي غنموها. «لقد حرر داعش نسـاءنا وجميع الأسرى الأبرياء من سـجون

المالكي»، احتفل غانم العابد، أحد منظمي احتجاجات الشوارع في ميدان التحرير في الموصل، كما سمّوا الساحة هناك لفترة قصيرة اعتباراً من عام 2011 تيمناً باحتجاجات القاهرة. «لم نطلب ذلك من داعش»، كما أكد العابد، «لقد قاموا بذلك من تلقاء أنفسهم. كثيراً ما طالبنا المالكي أن يطلق سراحهم، وتظاهرنا، ونظمنا اعتصامات، لكنه لم يستجب لنا.»[18] لقد كانوا سعداء ببساطة بسبب رحيل الجنود ورجال الشرطة، «لقد حولوا حياتنا إلى جحيم بحواجزهم واعتقالاتهم ومداهماتهم للمنازل.»

جاء فاتحو داعش ومعهم حلوى لأطفال المدينة – ومعهم أيضاً فرقة موت للمعتقلين الشيعة في أكبر سجون الموصل. وبينما تم إطلاق سراح السجناء السنة بالفعل، جُلب الآخرون من الزنزانات ليلقوا حتفهم. ساق مقاتلو داعش مئات السجناء على أطراف الصحراء وذبحهم هناك.

بعد يوم واحد فقط واصلت كتائب «درع الإسلام»، كما تسمي نفسها وحدات النخبة سريعة الحركة والمؤلفة من مقاتلين مدربين من داعش،[19] زحفها باتجاه الجنوب، واكتسحت مسقط رأس صدام حسين مدينة تكريت واستولت على المنشآت الحكومية ومعسكرات الجيش ومحطات الإذاعة والبنوك. وفي يوم سقوط الموصل تم نقل أسلحة وأموال وأقسام من أساطيل المركبات إلى سوريا.[20] لكن قلما اندلعت معارك في تكريت والحويجة ومدن أخرى تم الاستيلاء عليها، إذ لم تكن هناك حاجة لنشوب معارك: فالرعب الذي دبّ بسبب سقوط الموصل، إلى جانب الحملة الدعائية المدبرة ببراعة، والتي تهدد باجتياح وشيك لبغداد، قضيا على أي شكل من أشكال المقاومة، وسبقا داعش إلى المناطق المذكورة قبل وصول داعش إليها أصلاً. وبصرف النظر عن ذلك، كان الشعور بالكراهية عند كثيرين تجاه حكومة المالكي الشيعية العنصرية في بغداد كبيراً جداً، لدرجة أنهم هللوا في كل مكان للجهاديين، واعتبروهم محررين – رد فعل معاكس تماماً عما حدث في سوريا، حيث كان الوضع الحالي والثقافة السياسية مختلفين تماماً.

وبالتزامن مع التحرك السريع عبر غربي العراق أطلق داعش حملة على تويتر وهيّج مقاتليه بأخبار جديدة باستمرار: «ستصل المعركة إلى بغداد وكربلاء! اربطوا الأحزمة!»[21] وكأن أحداث القتال قطار أفعواني. ولكن على هذا النحو تقريباً كان يشعر معظم العراقيين أيضاً، الذين لم يعرفوا من ينبغي عليهم الآن ألا يثقوا به أكثر: التلفزيون الرسمي، الذي لا يزال يظن أن الوضع في الموصل لا يزال تحت السيطرة، في الوقت الذي خرج فيه كل شيء عن السيطرة؟ أم أخبار الجهاديين العاجلة والمتتالية؟

في بغداد علم رئيس الوزراء نوري المالكي على الفور، السبب الذي أدى إلى انهيار أحد أحدث الجيوش العربية تسليحاً من الناحية النظرية: «لقد كانت مؤامرة!»[22] لكنه لم يحدد مِن مَن، ولكنها بطبيعة الحال موجهة ضده. ولكن ما السبب وراء سقوط الموصل أصلاً؟ وكيف يمكن أن يحدث ذلك بهذه السرعة؟ ولماذا خذل 25000 جندي وشرطي المدينة ببساطة؟

أولاً وقبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى ما يلي: لم يكن هناك هذا العدد من الجنود! فكما أن هناك في العراق مولدات كهرباء وهمية وشركات بناء وهمية تجبي مبالغ طائلة تُقدر بالملايين دون أن تُنتج أي شيء، فإن هناك جنوداً وهميين أيضاً، يتقاسمون رواتبهم مع ضباطهم دون أن يؤدوا الخدمة العسكرية. وحسب تقديرات عدة ضباط كان في الموصل في الأيام الحاسمة ما مجموعه قرابة 10,000 رجل على رأس عملهم.[23] ومن بين هؤلاء كان هناك كثير من الشيعة، الذين لم يدركوا، لماذا ينبغي عليهم القتال من أجل إنقاذ مدينة سنية.

المثال الأنموذجي على التركيبة الكارثية التي تجمع فساد وقصور الجيش تمثل في مصير اللواء التاسع. صحيح أنه لم يكن متمركزاً في الموصل، بل هو تابع لقوات حرس الحدود، إلا أن هزيمته عند أهم معبرين حدوديين، وهما القائم والوليد، سهّلت بشكل كبير مرور كتائب داعش دون أية عوائق. وقد التقى مراسل صحيفة نيويورك تايمز كريس شيفرز بالرجال المحبطين في نهاية شهر حزيران/ يونيو في

جنوبي العراق، حيث لجأوا إلى أنقاض حصن يعود لبداية العصور الوسطى. «أردنا القتال»، كما قالوا، «لكنه تم بيعنا.» لقد تم إرسالهم إلى موقعهم في القائم دون ماء، وتحت درجة حرارة تقارب 50 درجة مئوية في النهار. وكان قد أوكل إلى شركة خاصة إمداد الفرقة بأكملها، وهي الطريقة الأكثر شيوعاً للثراء من العمولات. غير أن العقد لم يكن ينص على إيصال الإمدادات إلى مناطق الحرب أيضاً، والقائم كانت إحدى تلك المناطق دون شك. «لم يقدم لنا سكان المنطقة الماء»، قال أحد الرجال، «إما لأنهم كانوا متعاطفين مع داعش أو لأنهم كانوا يخشونهم.»[24]

بعد أقل من أسبوع، عندما شارف الجنود على الموت عطشاً، وصلهم أمر بالانسحاب إلى الوليد، المدينة الحدودية الأخرى. وهناك التقوا بقائد فرقتهم اللواء علي وهام المالكي، يرافقه فريق تصوير، فقد أراد اللواء تقديم الماء للظمآنين بشكل دعائي. «رفضنا»، كما روى الجنود، «وأردنا أن نعرف، لماذا لم نحصل على الإمدادات أولاً ولماذا طُلب منا الانسحاب!» ولكن اللواء المالكي، الذي يدين بنجاحه المهني لأصوله من عشيرة رئيس الوزراء، لم يكن لديه أي جواب. في عام 2008 تم تسريحه من الجيش بطريقة مشينة؛ لأنه كان يمد المليشيات الإرهابية الشيعية بالسلاح، والتي كانت تحارب آنذاك القوات الأمريكية والجيش العراقي. لكن المالكي أُعيد إلى الجيش عن طرق المحاباة بسبب قرابة الدم، لكنه اعتُبر «غير كفء في القيادة على الإطلاق، وأثناء تقدم داعش كان منشغلاً جداً بتنظيم ظهور وطني لائق لفرق التصوير التلفزيونية، بدلاً من تأمين الماء والرعاية والبنزين لقواته»، حسب ضابط، رافق مسيرته المهنية.[25]

ومع كل الفساد وعدم الكفاءة، اللذين يمكن لهما أن يفسرا ولو بشكل جزئي سلوك الجيش العراقي في تلك الأيام، بقيت هناك نقطة محيرة، ذكرها لاحقاً مراراً وتكراراً جنود وكذلك ضباط من الموصل وتكريت ومناطق أخرى: أوامر الانسحاب. في القائم كان البديل هو الموت عطشاً بكامل العدة والعتاد. ولكن في الموصل أيضاً ذكر لاحقاً جنود فارون[26]، أنه كان هناك أمر صريح بالانسحاب. «قال لنا الضابط المناوب إنه تسلم أمراً بالانسحاب من المدينة بأسرع وقت ممكن»،

كما أشار الجندي عامر السعدي الذي فرّ إلى بغداد. «اعتقدنا أنه يمزح في البداية، لكننا غادرنا القاعدة بعد ذلك، وارتدينا ملابس مدنية.» وقد أكد نقيب في الشرطة ذلك: «جاءنا عبر جهاز اللاسلكي يوم الاثنين، 9 حزيران/ يونيو، أمر بالانسحاب.»[27] كما ذكر اللواء الكردي عبد الله شيركو أن أفراد الجيش العراقي الفارين، الذين لجأوا إليه، كانوا متعجبين من أوامر الانسحاب. بالمقابل روى جنود آخرون أنهم هربوا عندما اختفى جميع ضباطهم.[28]

كان الوصف دقيقاً وجاء مجمعاً على نقطة واحدة، وهي أن الوصف لم يبدُ أنه حجج مختلقة. لم يُعرف أبداً، من الذي أعطى الأوامر التي انسحب بموجبها آلاف الجنود تاركين تراساناتهم وراءهم. كما لم يظهر في خضم فوضى تلك الأيام عدد الضباط الذين آثروا حماية قواتهم، عندما لاحظوا الهروب الجماعي. غير أن الأمر المؤكد هو أن أرفع ضابطين في العراق انتقلا إلى كردستان الآمنة: معاون رئيس أركان الجيش العراقي عبود كنبر وقائد القوات البرية علي غيدان. كان كنبر قائد عمليات بغداد، أهم رجال المالكي في القوات المسلحة، ما يشير إلى أنه تصرف بعلم رئيس الوزراء ورغبته. حتى إن المالكي رقى كنبر، وبعدها أحاله رئيس الوزراء الجديد حيدر العبادي إلى التقاعد، لكنه لم يُحاسب قضائياً حتى مطلع 2015 (تاريخ صدور الكتاب).

سواء كانت في النهاية عجرفة، أم غباء ببساطة، أم حسابات سرية: لم يفعل نوري المالكي أي شيء لوضع حد للكارثة الوشيكة. إذا تعلق الأمر بحسابات، فقد يكون أقدم على مخاطرة في غاية الخطورة، من خلال القبول بسقوط الموصل، لكي يتمكن في النهاية من تقديم نفسه للعراقيين والأمريكان على أنه المنقذ من الإرهاب. لكن على الأقل فعل المالكي في النهاية شيئاً: التمس من واشنطن أن ترسل إليه مساعدات عسكرية عاجلة ودعا البرلمان إلى إعلان حالة الطوارئ. لكن الجهتين رفضتا. قد يبدو الأمر مستهجناً للوهلة الأولى، أنه لم يتم إعلان حالة الطوارئ، بالرغم من خسارة قرابة ثلث البلاد لصالح جيش إرهاب وهمي، لكن البرلمان العراقي علل معارضته كالتالي: المالكي، الذي فاز في الانتخابات الأخيرة بفارق ضئيل، لن

يصبح بحاجة إلى الأغلبية لكي يبقى في السلطة لفترة أطول، في حال تم إعلان حالة الطوارئ. «نحن ضد ذلك»، كما أعلن النائب الكردي شيفان محمد طه. فما إن يتم الإعلان عن حالة الطوارئ، حتى يصبح المالكي «الحاكم المطلق للعراق بسلطات غير محدودة»، كما حذر عصمت رجب[29]، مسؤول فرع الحزب الديمقراطي الكردستاني في الموصل، الذي هرب في اللحظة الأخيرة من هناك.

وبينما كان المالكي يكافح جاهداً في نهاية شهر حزيران/ يونيو في بغداد للاحتفاظ بالسلطة، كانت الأجواء على الجبهة بعد أسبوع على القتال القصير غريبة، ألا وهي: اعتيادية تماماً. «نقطة نهاية»، آخر حاجز سيطرة قبل العدو، كتبتها قوات البيشمركة الكردية بالخط الأحمر على آخر موقع تسيطر عليه. يظن المرء وكأنها عبارة «آخر محطة وقود قبل بدء طريق السفر»، وبذات السلمية بدا المشهد الحيوي على الطرف الآخر. فقد استولت حشود الجهاديين على الموصل، التي يقطنها الملايين، وكانت حركة المرور مزدحمة بالاتجاهين وكأن شيئاً لم يحدث. حتى بعد أسبوع على نصر داعش الخاطف كانت السراويل والقمصان العسكرية التي غطاها الغبار تملأ الشوارع، وتمت إزاحة عربات الجيش المحترقة إلى أطراف الطرقات فقط. ولكن أمام مخلفات المعركة القصيرة كانت تمر شاحنات نقل المواد الغذائية والأخشاب والخردة بالاتجاهين، وكان سائقو السيارات من الموصل يذهبون إلى كردستان لشراء البنزين، كما عادت عائلات كانت قد هربت. «لم نهرب من داعش»، روى سائق سيارة، «كنا نخشى فقط أن يأمر المالكي بمواصلة قصف المدينة.» بعد سؤال 34 سائقاً في غضون أكثر من ساعتين، كانت الإجابات متطابقة تقريباً: «الهدوء يعم المدينة. كل شيء طبيعي. لا يتدخل الملثمون في شؤوننا. المشافي والإدارات وكل شيء يعمل بشكل طبيعي.» مدخن شره كان يجلس على المقعد الخلفي قال فيما يخص حظر التدخين الرسمي الذي فرضه داعش: «أسافر يومياً ذهاباً وإياباً، وأنا ما زلت أدخن دوماً!»

ومن ضمن ما عدده كثيرون من الذين سُئلوا، بخصوص الأمور التي تحسنت في مدينتهم، جاء ذكر التفجيرات التي كانت تهز مناطقهم بين الحين والآخر: «انتهت

الآن، الحمد لله!» وهذا الأمر ليس مستغرباً جداً، لأن منفذي الهجمات أمسكوا بزمام السلطة الآن. لكن الشيء الوحيد غير المتوفر في الموصل هو الكهرباء والبنزين، كما قال المسافرون. علماً أنه لا يمكن الحصول على البنزين في كردستان إلا بعد انتظار لمدة ساعات أو من خلال السوق السوداء، وذلك بسبب احتدام المعارك في أكبر مصافي البلاد في بيجي شمالي بغداد، ما أدى إلى عزلها.

وعند سؤال قوات البيشمركة على نقاط التفتيش عن التواصل مع مقاتلي داعش، هزوا أكتافهم: «نحن لا نتحدث إليهم. أنا لا أتقن اللغة الأفغانية»، رد أحدهم ساخراً. كان التواصل الوحيد من خلال منظار القناصة، الذين كانوا متحصنين على بعد 50 متراً خلف ساتر ترابي. وقد بقيت نقاط التفتيش الكردية هي ذاتها التي كانت قبل سقوط المدينة. حتى تلك النقطة كانت تمتد منطقة النفوذ، التي اتفق عليها سابقاً إقليم الحكم الذاتي الكردي مع بغداد[30]، وحتى تلك النقطة فقط تقدمت قوات داعش. عموماً، ركّز داعش في هذه المرحلة على اجتياح المدن السنية في غربي العراق، ولم يقف عائقاً في وجه البيشمركة الكردية، التي سيطرت على مدينة كركوك النفطية الشهيرة، «قدسنا»، ومناطق أخرى، كانت حتى ذلك التاريخ تخضع لسيطرة بغداد. وبهذه الطريقة وسّع الأكراد منطقة نفوذهم بما يعادل 40 في المائة.[31] على الأقل في الوقت الراهن كانوا المستفيدين من هجوم الجهاديين، في حين أعلنوا رسمياً أنهم أرادوا فقط إنقاذ كركوك من براثن «الدولة الإسلامية».[32]

لكن حالة الاسترخاء الأولية في الموصل كانت خادعة. فخطوة خطوة، سيطر داعش بشكل تام على المدينة، بعد أن كان أحد الجماعات الكثيرة التي شاركت بالاستيلاء عليها – وراح يفرض قوانينه الخاصة. وبعد مرور يومين فقط تم إصدار مرسوم مؤلف من 16 نقطة، يحدد من خلاله داعش المسموحات والمحظورات من الآن فصاعداً. في البداية، أُعلن أن قوات «الدولة» ستعيد إحياء أمجاد الإسلام، وستعوض السنة في العراق عن الظلم الذي لحق بهم من الثعابين الشيعية. وليطمئن الذين لم يرتكبوا جرماً في الدولة الفتية. كان داعش قد استحوذ على المال من البنوك، ولكن ذلك كان لغرض الحماية فقط، لكي لا يضطر للسرقة. لكن من يُقدم على ذات

الفعل، فسيكون عقابه الإعدام. كل من يؤسس تنظيماً أو ينظم اجتماعاً عاماً، يكون مصيره الإعدام، وكذلك كل من يرفع راية غير راية داعش. وبالنسبة للموظفين المحليين والجنود ورجال الشرطة، فلقد كانت أمامهم فرصة الاستتابة العلنية والتخلي عن الحكومة في بغداد. وسيُغفر لكل من يفعل ذلك. لكن هذا العرض لا يتكرر مرتين. وكل من لا يستغل الفرصة، فمصيره: الإعدام.[33]

بعض أهالي الموصل لم يأخذوا المرسوم محمل الجد. على عكس واضعي المرسوم: لقد كان إعلاناً لا لُبس فيه من قِبل الوافدين الجدد. لقد انتقل سكان الموصل من قبضة جنونية إلى أخرى. حتى أولئك الراديكاليون، الذين قاتلوا في صف داعش في مطلع شهر حزيران/ يونيو، واعتقدوا أنهم انتصروا، تعلموا بسرعة أن الأمر ليس كذلك. بخاصة أتباع صدام حسين، استوعبوا على الفور أن عليهم إزالة صور الديكتاتور السابق، التي تم إخراجها من المخابئ للتو، وعُلقت على الجدران. من الآن فصاعداً ثمة شعار واحد فقط مسموح به: راية داعش السوداء.[34]

واحد من أكثر التصرفات رمزيةً، والذي أظهر من خلاله داعش حقه في إقامة دولة جديدة، لاقى صدى إيجابياً حتى لدى كثير من مناوئي داعش: إزالة الحدود بين سوريا والعراق. إذ حفرت جرافة فجوةً في ساتر ترابي حدودي -كإجراء بسيط على تدميره، غير أن ذلك كانت له قيمة رمزية هائلة؛ لأنه بذلك أعطت «الدولة الإسلامية» لنفسها الحق في مسح «خط سايكس بيكو»، الذي رسمته قبل مائة سنة القوتان الاستعماريتان آنذاك فرنسا وبريطانيا، والذي فصل مناطق نفوذ الدولتين عن بعضهما بخط قطري مستقيم. مضى على استقلال سوريا والعراق أكثر من نصف قرن، لكن العداوة المريرة بين نظامي البعث في دمشق وبغداد حافظت على الحدود الاصطناعية التي وضعها «الصليبيون». لكن الآن، وكمقدمة لعودة مجيدة إلى القرن السابع، نشر قسم داعش الإعلامي تغريدات هاشتاغ #لا_لحدود_سايكس_بيكو (SykesPicotOver#)، كتعبير على نجاحهم في تحقيق هذا النصر المتأخر على الغطرسة الاستعمارية. كان فتح الحدود مفيداً لتحركات التنظيم العسكرية الخاصة، لكنه لاقى أيضاً استحساناً لدى العشائر، التي كانت تعيش على طرفي هذا الخط

منذ قـرون، وكذلك لدى القوميين العرب، الذين لا يزالون يفضلون تحميل القوى الغربيـة مسـؤولية بؤسـهم السـياسي، وأخيراً لدى جميـع الإسـلاميين، الذين كانوا يعتقدون أن العالم العربي الإسـلامي كان ليصبح أقوى لو أن الحدود، التي رسـمها الآخرون، لم تقسمه. يا له نجاحاً دعائيّاً عظيماً!

وفي الوقت نفسه، اتبع داعش في الموصل نوعاً مختلفاً من السياسة الرمزية وأزال النُصب التذكارية في المدينة: التماثيل الحجرية للشاعر أبي تمام، والشخصية الموسيقية الملا عثمان، وتماثيل عمالقة آخرين في تاريخ الموصل. حتى تمثال السـواس المجهول، لم يسـلم من داعش. كما لم تسـلم مقابر القديسين في «مدينة الأربعين نبياً»، كما كانت الموصـل تُسـمى في المـاضي؛ لأن شـخصيات كثـيرة وردت في القصـص المسـيحية يُفترض أنها مدفونة هنا. فقد تم تفجير مقام النبي جرجيس الذي يعود للقرن الرابع عشر، والمرقد المزعوم للنبي يونس، الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن، ومقام النبي شيث، الذي يوقره المسيحيون والمسلمون باعتباره الابن الثالث لآدم وحواء. لم يكن الغرباء هم وحدهم من سطوا على تاريخ الموصل: فبعض محطمي الآثار، كما وصف الصحافي الكردي نوزت شمدين، كانوا يتحدثون لهجة قرى جنوبي الموصل.[35]

كل بضعـة أيام كان يمحي تفجير مـا معالم المدينة تلك، ويُحيلها إلى أثر بعد عين، فتلك المعالم – وفق تفسـيرات إسـلامية شـديدة التطـرف – تُلهي عن ذكـر الله.[36] وبهدوء وتروٍ تولت في الأسـابيع التالية فرق التدمير والتفجير التابعة للحكام الجدد تدمير كل ما يعارض جبروتهم: المراقد المقدسـة، المسـاجد والحسـينيات الشيعية في المدينـة. كما صـودرت الأديرة المسـيحية ومعظم كنائس الموصـل. ولاحقاً حطمت فرق التدمير التماثيل الآشـورية القديمة، والتـي كانت موجودة في متحف الموصل، وقامت بتصوير فعلتها، في حين انتشرت شائعة قوية أن ما تم تدميره مجرد نسخ طبق الأصل، وأن النسخ الأصلية تم بيعها في السوق السوداء.[37]

بالنسبة لرجال الدين السنة العنيدين، فقد تم اعتقالهم أو اختطافهم، ومن بينهم إمام مسـجد نور الدين زنكي. بدا وكأن مدينتهم اغتيلت، كما قال سـكانٌ من مدينة

الموصل على الهاتف، طلبوا عدم ذكر أسمائهم. ودوماً كان يتم فرض قوانين جديدة: فجأة حُظر ارتداء قمصان التيشرت المطبوع عليها أرقام أو أحرف. وبالمثل ارتداء الجينز ولعب الورق والدومينو، وتدخين النرجيلة. كما أُغلقت كلية الفنون الجميلة وكلية الحقوق، ولم يكن مسموحاً للفتيات دون سن الثانية عشرة الذهاب إلى المدرسة، وألغيت جميع المواد الدراسية باستثناء اللغة العربية والرياضيات والتربية الإسلامية، كما قيل.

في منتصف شهر تموز/ يوليو 2014 صدر مرسوم يُلزم المسيحيين باعتناق الإسلام أو دفع الجزية أو مغادرة المدينة – وإلا سيُقتلون. وُضع حرف «ن» على منازلهم، اختصاراً لكلمة نصراني. حتى إن هذا الحرف وُضع على المنازل التي استأجرها مسلمون، ولكن مالكيها من المسيحيين. لقد تحرى الجلاوزة بدقة. واعتباراً من الآن يُدفع الإيجار إلى «الدولة الإسلامية»، كما وضّح الجهاديون للسكان الحائرين. حتى إنه كان لديهم علم بالعلاقات التجارية بين التجار السنة والمسيحيين، وقد تم إبلاغهم: بأن حصص غير المسلمين يجب التنازل عنها فوراً لـ "الدولة الإسلامية".[38] لقد أُسديت للمسيحيين «مكرمة عظيمة»، بمنحهم مهلة لمغادرة المدينة حتى 19 تموز/ يوليو. «وبعدها ليس بيننا وبينهم إلا حد السيف»، حسب إعلان تُلي في المساجد في خطبة الجمعة.[39] كل من كان قد بقي، فقد هرب الآن، علماً أن نقاط التفتيش أخذت من الفارين مقتنياتهم الثمينة، وكذلك سياراتهم، وحتى هواتفهم المحمولة. تُرك معهم ما يكفيهم من المال لدفع أجرة التاكسي للوصول إلى المنطقة الكردية المجاورة. أما منازلهم فتمت مصادرتها. وعلى الفيسبوك راجت صورة وداع: شاب مسيحي وآخر مسلم، أصدقاء منذ أيام الطفولة، يتعانقان للمرة الأخيرة وهما يبكيان. في هذه الأسابيع غادر ما يصل عدده إلى 10000 مسيحي مدينة الموصل، لينتهي بذلك وجود واحدة من أقدم الجماعات المسيحية في العالم.

وفي الوقت ذاته بدأت حملة تطهير داخلية: توقفت سيارات سوداء ذات نوافذ داكنة أمام منازل كبار المسؤولين السابقين في حزب البعث وضباط جيش صدام

حسين السابقين، الذين ظنوا أن السلطة الجديدة ستكون سلطتهم تلقائياً.[40] صحيح أن نواة «الدولة الإسلامية» تضم بعثيين سابقين، ولكن ذلك لا يعني أبداً أن قادة داعش يرضون بتقاسم السلطة المكتسبة حديثاً مع غيرهم. وبتعاقب سريع تم إحضار الكادر السابق للحزب: وعد الله حنوش، الذي كان من أحد آمري القوات الخاصة في عهد صدام، سيف الدين المشهداني، وهو قيادي بعثي كانت صورته على إحدى أوراق اللعب الأمريكية وكان من أكثر المطلوبين من الموالين لصدام، بالإضافة إلى شخصيات كبيرة مهمة سابقاً أيضاً. كان المجموع ما بين 25 وحتى 60 رجلاً من القيادات السابقة في الجيش والمخابرات والحزب، وقد اختفوا في الموصل خلال شهر تموز/ يوليو. كان الأسلوب المُتبع كما في عهد صدام: سيخضع اللواء «لاستجواب وبعدها ستتم إعادته إلى منزله»، هكذا كان جلاوزة داعش يقولون، ثم يصطحبون الرجل، الذي لم يرجع أبداً بعدها.[41] لم يكن الهدف هو تجنب الوحشية، التي أدت إلى هزيمة تنظيم «القاعدة في العراق» قبل سنوات، بل كان الهدف التحصن من التبعات. الرقابة الصارمة، أنموذج كوري شمالي ولكن بنسخة عربية، ستجعل من آراء ومقاومة المحكومين بلا معنى إلى حد كبير.

أما زعيم الاحتجاجات السلمية السابقة الذي كان متحمساً في البداية، وكان قد احتفل بغزو داعش في شهر حزيران/ يونيو، فقد بدا رأيه مغايراً تماماً بعد شهرين: «إنهم مجرمون»، قال غانم العابد، «ما يفعلونه بالمسيحيين لا يمت للإنسانية بصلة!»[42] ثم صمت بعد ذلك.

لم يكن لدى الأسياد الجدد استعداد لتقديم أية تنازلات، سواء في الموصل، أو في أي منطقة أخرى. بل على النقيض: بعد نهبهم لترسانة هائلة من الأسلحة والذخائر والعربات شرع الجهاديون إلى العمل بجدية. في 30 حزيران/ يونيو استعرضوا دبابات وعربات هامفي، بل وحتى صاروخ سكود، في موكب استعراضي في عاصمتهم السورية الرقة. وطوال شهر تموز/ يوليو تعرضت كوباني، الجيب الكردي المحاصر منذ شهور، إلى هجمات مستمرة. وفي غضون أسابيع تخلى جيش داعش، الذي أصبح جباراً، عن التحالف الخفي الذي كان قائماً لعدة أشهر مع نظام الأسد.

كانـت الضحية الأولى لتوازن القوى الجديد الفرقـة 17 بالقرب من الرقة، التي كان يحاصرهـا متمـردون سـوريون لأكثر مـن عام، والتـي لم تصلهـا أولى طائرات الإمـدادات التابعة لسـلاح الجو السـوري إلا بعـد أن انتصار داعـش في 23 كانون ثاني/ يناير. في 25 تموز/ يوليو اكتسـح الجهاديون القاعدة. بعدها اقتحموا القواعد العسـكرية المتبقيـة في المحافظـة: اللواء 93 والفـوج 121، وأخيراً مطـار الطبقة في شـهر آب/ أغسـطس، ودائماً يتكرر الأسـلوب ذاته. في المقدمة يفتح عدة انتحاريين ثغـرات في الخطوط الدفاعية، بعد ذلك تهاجـم عربات البيك آب والهامفي، المزودة برشاشات محمولة، بتشكيلات إسلامية واسعة.

شـكلت تلك الهجمات تغيراً غير متوقع في المسـار، وذلك بعـد أن تجاهل النظام السـوري وداعـش أحدهمـا الآخر عسـكرياً لأكثر مـن نصف سـنة وغالباً مـا كانا يتسـاندان. بالطبـع لم يتقبـل نظام الأسـد هـذا التقلـب دون عواقـب: بعد هجمات تحذيرية أولية، اكتفت فيها الطائرات بالرشـق بمدافعها الرشاشـة، شن سلاح الجو السوري، بعد أيام على الهجوم الخاطف على الموصل، هجوماً قوياً للمرة الأولى على الرقـة. غـير أن داعش كان قبـل ليلة قد أخلى مقراته الرئيسـة في الرقـة وضواحيها، وتراجع إلى مساكن مدنية والقرى المجاورة – ما يُرجح احتمالية أن يكون الجهاديون قد تلقوا تحذيراً من دمشق.

وفي الوقت ذاته تقريباً تمكنت جماعات داعش المدججة بالسلاح من إلحاق هزيمة بالعشائر المقاومة في محافظة دير الزور، الواقعة في شمالي شرق سوريا. لأكثر من عام استطاع هؤلاء الصمـود، ولكن لم يعد أمامهم أية فرصة أمام الترسـانة العسـكرية الحديثة والمتطورة التي يمتلكها الجهاديون الآن. كانت «الدولة الإسـلامية» في أوج قوتها – مؤقتاً. ودولياً ليست هناك حتى الآن مقاومة جادة للتمدد الجارف والظاهر لمناطـق نفوذ داعش. لقد كان وضعاً متناقضاً: طيلة ثماني سـنوات، حتى انسـحابها، طـاردت القوات الأمريكية في العـراق خلايا القاعدة، حتـى في القرى والصحراء. والآن احتل خلفٌ أكثر تطرفاً في العراق وفي سـوريا منطقة تعادل مساحتها مساحة بريطانيـا، وتمثل رد فعل واشـنطن بـأن فرضت على شركات الطـيران الأمريكية أن

تحلق مسـافة أعلى من مسافة 30000 قدم المعتادة، بمجرد أن دخلت المجال الجوي العراقي.

توقيـت مثـالي، خطط له اسـتراتيجيو «الدولة الإسـلامية» للإقـدام على الخطوة التاليـة، خطـوة لم يكن ليحلم بها أسـامة بن لادن، ولم يكن ليجـرؤ على تنفيذها على الإطـلاق. يوم الأحـد، 29 حزيران/ يونيو 2014 بداية شـهر رمضـان صدر بيان موجه إلى مليار ونصف المليار مسلم في جميع أنحاء العالم، وإلى كل من يمكن أن يهمه الأمر: بموجب البيان تقام «دولة الخلافة»، حسبما أعلن متحدثها الرئيس، أبو محمد العدناني. «ها هي راية الدولة الإسلامية، راية التوحيد عالية خفاقة مرفرفة، تضرب بظلالها من حلب إلى ديالى»، من شـمالي غرب سـوريا وحتى الحدود الإيرانية. ومن الآن فصاعداً سيكون أبو بكر البغدادي القرشي «الخليفة إبراهيم»، «أمير المؤمنين»، وبمقتضى أمر الله على جميع المسلمين مبايعته. وما عدا ذلك فهو بدعة، وهي جريمة عقابهـا الموت. «وتبطل شرعية جميع الإمـارات والجماعات والولايات والتنظيمات، التي يتمدد إليها سـلطانه ويصلها جنده»، كما ورد في البيان، والذي أعلن في الوقت نفسـه تغييراً في الاسـم. ومسـتقبلاً سـتصدر التداولات والمعاملات الرسمية باسم «دولة الخلافة الإسلامية»، دون ذكر أسماء البلدان.

الخلافـة، ذاك الحلم الذي تتوق إليه نفوس المجاهديـن منذ أجيال، والتي زالت مـع أفول نجم الإمبراطورية العثمانية في عام 1924، ها هي تعود فجأةً مرة أخرى. ولتسـهيل فهـم الموقع على الرعية المسـتقبلين، ظهـرت على حسـابات تويتر لدولة «الخلافـة» اليافعـة خريطـة باللونين الأسـود والأبيض، تحتوي عـلى ملامح الدولة المقبلة، والتي تشبه إلى حد كبير خريطة الدولة العباسية في القرن الثامن.

أول ردود الأفعـال عـلى هـذا الإعـلان كانـت عـدم تصديـق واسـتهزاءً ونقداً غاضباً، وجاءت من صفوف رجال دين جهاديين آخرين. تنصيب البغدادي لنفسه (والذي جرى اسـمياً بالطبع من مجلس شـوراه) زلزل مشـهد الإسـلاميين اللامع. فإعلان إقامة الدولة «باطل شرعاً، ولا يترتب عليه أي آثار شرعية، بل تترتب عليه

آثار خطيرة على أهل السنة في العراق، والثورة في سوريا»، حسب الاتهام الموجه لداعش من قِبل الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، على لسان الداعية التلفزيوني الشهير يوسف القرضاوي. «عليكم أن تصلحوا وتسددوا وتتوبوا وتؤوبوا وتكفوا عن دماء المسلمين وعن تشويه هذا الدين»، كما أعلن أبو محمد المقدسي، الداعية الأردني الفلسطيني الذي أفرج عنه للتو.[43] ولكلماته ثقل، إذ كان يُعتبر المرشد الروحي السابق للزرقاوي، مؤسس التنظيم الذي انبثق عنه داعش. البغدادي «ارتد عن العقيدة»، «غريب الأطوار»، «يقسم المجتمع»، «يزرع الكراهية والدمار»، كما أضاف آخرون. أما المتمردون السوريون، الذين يخوضون منذ شهر كانون ثاني/يناير صراعاً مريراً ضد قوات داعش التي تعتمد في عملياتها على المجازر والسيارات المفخخة، فقد كان رفضهم متوقعاً: «الدولة الإسلامية» هي «عدو الأمة»، ومجرمة، وهي «أداة لدى المخابرات السورية والإيرانية»، حسب زهران علوش، قائد جيش الإسلام، في مؤتمر صحافي في ريف دمشق.

لكن ردود الأفعال الأغرب جاءت من ذاك المعسكر، الذي يعاني من صعوبات في توجيه نقد عقلاني لداعش بسبب التشابه العقائدي: رجال الدين في المملكة العربية السعودية. «زنادقة، أكفر من اليهود والنصارى، بل هم أكفر من الوثنيين»، هكذا نعت الشيخ المحافظ المتشدد سعد بن ناصر الشثري أتباع داعش. داعية مشهور آخر، صالح الفوزان، الذي كان في مناسبات أخرى قد دعا إلى العبودية ومنع الزواج من غير المسلمين، ذهب إلى أبعد من ذلك: «الخلافة» هي صنيعة «الصهاينة والصليبيين والصفويين».[44] بينما جاء القبول والمبايعة بشكل متفرق ومتردد من قِبل جماعات متشددة على هامش الطيف الإسلامي.

تنظيم واحد فقط لم يقل شيئاً في البداية: القاعدة. فبينما كان داعش ينشر على تويتر أخباراً عن شبكته العالمية لحظة بلحظة، استغرق رد زعيم القاعدة الظواهري بعض الوقت كالعادة، إلى أن يوصل سعاة البريد موعظته إلى الجزيرة أو قنوات تلفزيونية أخرى. ولكن في هذه الحالة كانت المشكلة أعمق: ماذا عسى أن تقول السفينة الأم الراكدة للجهاد العالمي؟ أن الزورق الصغير المنشق حقق بالوقاحة

ما لم يسبقه أحد إليه من قبل؟ انتقاد إعلان «الخلافة» سيبدو وكأنه تذمر الخاسر. والترحيب بـ«الخلافة» يعني الخضوع لها. كان الظواهري قد استبعد خصومه المسعورين في داعش في مطلع العام - الذين لم يكونوا يريدون الاستماع إليه ببساطة. ونظراً لنجاح داعش الواقعي كان الأفق قاتماً. أو كما وصف بشكل سلس رئيس مركز الشرق الأوسط للدراسات الاستراتيجية والقانونية في مدينة جدة السعودية: «داعش مثل باكمان في لعبة الفيديو. فهو سيأكل جميع الجماعات الإرهابية التي تقف في طريقه.»[45]

قد يبدو إعلان البغدادي للخلافة ساذجاً: لكنه كان منطقياً نظراً لمكاسب المناطق الهائلة التي حققها جيشه في الأشهر السابقة. فراية المتشددين السوداء ترفرف من الباب، البلدة الواقعة في شرقي محافظة حلب، وحتى بيجي، البلدة الواقعة شمالي بغداد التي استولى عليها داعش وفيها أكبر مصفاة نفط في العراق. ولقطع هذه المناطق بالسيارة، يحتاج المرء إلى يوم كامل - حتى دون انتظار على الحدود السورية العراقية التي ألغاها الجهاديون.

وبحصافة مماثلة ينظر شادي حميد، خبير المنطقة من مركز بروكنجز الأمريكي، إلى عودة الخلافة من جديد: «ليس من المطلوب أن يحبها الناس، ولكن عليهم أن يفعلوا شيئاً ما. الآن، وبما أن هناك «خلافة» موجودة على أرض الواقع ولها «خليفة»، فسيضطر كثير من المسلمين إلى التعامل مع هذا الواقع، بغض النظر كيف سيتعاملون معه - والبعض سيتعاطفون معه.»[46] وبموجب البيان أصبحت الخلافة موجودة الآن في العالم، والتي لم تكن مجرد جنون عظمة نظراً إلى القوة الحقيقية التي حصل عليها داعش حتى ذلك الحين.

في واحد من أقدم دور العبادة في الموصل، مسجد نور الدين زنكي، الذي تم اعتقال إمامه من قِبل داعش، كان أبرز ظهور لأبي بكر البغدادي أخيراً في صلاة الجمعة في 4 تموز/ يوليو. بخطى متئدة صعد على المنبر - بخطوات رزينة كما فعل النبي - وبلقطات تصويرية عالية الجودة أعلن، وهو يضع في معصمه ساعة ثمينة،

رجوع تألق الإسلام وعظمته على شكل دولة دينية. وكإكسسوار صغير يتناسب مع أجواء مرحلة الإسلام المبكر أخرج أمام الكاميرا عود مسواك، كالذي كان النبي يستخدمه لتنظيف أسنانه. وكما كان المشهد تركيبياً، كان محتوى الإعلان كذلك: لأن «دولة الخلافة»، التي أعلنها الآن والتي هي تنفيذ لـ«وعد الله»، كانت عبارة عن جمع عناصر مختلفة، لم تكن موجودة على هذا النحو إطلاقاً.

البغدادي، الذي أظهره اسمه الحركي أبو بكر وكأنه شبح لأول خليفة بعد محمد، تظاهر وكأن تقليد الخلافة لم ينقطع، من زمن محمد وحتى سقوط الإمبراطورية العثمانية قبل 90 سنة. لكن الأمر لم يكن كذلك. الخلفاء الراشدون الأربعة الأوائل، الذين حكموا في السنوات الـ 29 بعد وفاة محمد، كانوا لا يزالون من أصحابه، الذين سرعان ما اختلف أتباعهم، فيما إذا كان قائدهم يجب أن يكون من آل البيت أم لا. وعندما أصبحت مؤسسة الخلافة متداولة للمرة الأولى بعد 400 عام، كان هناك تنافس على الخلافة بين القاهرة وقرطبة وبغداد. وعند مواجهة التحدي المتمثل في إيجاد قائد عسكري وسياسي وروحاني، فشل كثير من الخلفاء في الممارسة العملية. فتضاءلت أهمية لقب الخليفة، وبعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد في عام 1258 بسبب الغزو المغولي، تم الاحتفاظ بأحفاد العباسيين المتبقين في البلاطات حتى مطلع القرن السادس عشر باعتبارهم قيمة رمزية، دون أن تكون لهم أية سلطة حصرية. بعد ذلك أصبح اللقب وحامله باهتين لمدة قرنين من الزمن، إلى أن أعاد السلاطين العثمانيون إحياء اللقب من جديد. أما مضمون هذا اللقب، فقد شكّل في الماضي موضوع جدل طويل، ونزاعات لم تُحل قط: دور روحاني خالص، يشبه دور البابا في المسيحية، أم سلطة حقيقية، سياسية؟ أصبح «الخليفة» عبارة عن عباءة السلاطين المذهبة، التي تمنحهم سلطة دينية واسعة بخاصة على أولئك المسلمين، الذين يعيشون في الهند أو روسيا خارج حدود الدولة العثمانية. وفي عام 1924 ألغى كمال أتاتورك هذا اللقب، بعد أن حُسم موضوع السلطة الفعلية منذ سنوات وأُعفي السلطان من مهامه. فيما بعد حاول البعض ضمان اللقب لأنفسهم، لكنهم فشلوا جميعاً.

إذا كان هنـاك تقليـد يجمع كلاً من الإسـلام والسـلطة خلال القـرون، فهو ذاك الذي يمثل الاستغلال الانتهازي للإسلام للوصول إلى كل غاية مرجوة. حتى الملا عمر، مؤسـس طالبان وزعيمها والمرجح أنه مختبئ في باكسـتان منذ عقد من الزمن، منح نفسـه اللقب الفخري أمير المؤمنين. ولكن، مـا المقصود به بالتحديد، بقي غير واضح كالمعتاد؛ لأن حركة طالبان لم تكن لديها نية، وليست لديها نية حتى اليوم أن توسـع سلطانها إلى خارج حدود أفغانسـتان. جميع هؤلاء، وبالرغم من كل عاداتهم المتأثرة بالعصور الوسطى، قوميون بالدرجة الأولى.

إن «خلافـة» البغـدادي من الموصـل هي الآن نتاج خيال، رتبهـا من قطع مجتزئة من نصوص قرآنية وأحاديث متواترة. حقه، الذي أعلنه على حين غرة في أنه يمتلك السـلطة الكاملـة على أكثر من 5 , 1 مليار مسـلم (من بينهـم 100 إلى 150 مليون شـيعي يجـب القضـاء عليهـم أولاً، في حال طبّـق داعـش تصريحاته الخاصـة المليئة بالكراهية)، هو وهم تاريخي زائف. وبالرغم من أنه وهم، إلا أنه لا يحيد عن غايته. لطالمـا كانـت النفوس تتوق للترويـج لإقامة دولة إسـلامة «حقيقيـة» منذ عقود في ظل جميع الحركات الإسـلامية. ففي عام 1930 طرح الإسـلامي شـكيب أرسلان من خلال عنوان كتابه سـؤالاً: «لماذا تأخر المسـلمون؟ ولمـاذا تقدم غيرهم؟» وكان جوابه: «لأن المسلمين ابتعدوا عن الإسلام، فتأخروا.» وهو جواب بمثابة الخلاص بالنسبة لجميـع أولئك التائهين والمحبطين والسـاخطين، الذين لا يزالون متشـبثين بأمجـاد الماضي الوهمية، لكن لا يملكون جواباً على أزمات الحاضر. فبالنسـبة لهؤلاء قد تعني الدولة الحقيقية السلطة والسيطرة والثراء، وعلاوة على ذلك العودة المثالية إلى الأساطير، التي تغذيها دوماً ولم يتم إبطال مفعولها بعد.

مراراً وتكراراً كان الحديث في الأوساط الإسلامية يدور حول تأسيس الخلافة، حتـى إنه سـبق لزعيم تنظيم القاعدة الظواهري أن اقترحهـا، ولكن ليس في الوقت الراهن. ومن ثم جاء البغدادي. وفي وقت سـابق استـفاد داعش من التأثير المتبادل، المتمثل في طرح «المشروع» الأكبر لدولة مسـتقلة بهدف كسـب عدد أكبر من الأتباع والجهات المانحة، ومن ناحية أخرى لكي يتمكن داعش من توسيع سلطانه. لقد كان

إعلان «الخلافة» مجرد استمرار منطقي للنهج الراهن الناجح. حتى 29 حزيران/ يونيو 2014 كانت هناك منطقة واحدة فقط قد تم الاستيلاء عليها – والآن أقيمت «دولة الخلافة»! لقد كانت موجودة؛ لأن استراتيجيي «الدولة الإسلامية» قرروا أن يكون ذلك. قيمة مضافة من خلال الإعلان عن قيام «الخلافة».

7

القاعدة كانت بالأمس

لماذا يعد تشدد «الدولة الإسلامية» مختلفاً؟

لماذا كان أسامة بن لادن رجلاً مؤمناً مقارنة بأبي بكر البغدادي؟

ينبغي أن يفكر المرء بالتوقف عن السير على خطى الأولين، ويوماً ما قد يتضح السؤال، الذي لطالما أثار النقاشات مراراً وتكراراً: ما مدى علاقة الإسلام السياسي بالإسلام؟ ما هي الحدود الفاصلة بين أولئك الذين يريدون أن يعيشوا دينهم ببساطة، ووُلدوا بنسبة 99 , 99 في المائة بهذا الدين - وأولئك الذين يعتبرون الدين مسوغاً لإجبار الآخرين على اتباع تصوراتهم، سواء بالكلمة، أو بالقنابل، أو بالكلاشينكوف؟ لكن من الواضح أنه ليست هناك إجابة على هذا السؤال؛ لأن هذا الجدال في البرامج الحوارية والنقاشات والمقالات هو عبارة عن جدل بيزنطي.

لكن، لماذا الأمر هكذا؟ لماذا يفتح ناقدو الإسلام والمصلحون نيرانهم بعضهم على بعض - نادراً ما يشارك الجهاديون أنفسهم في البرامج الحوارية - ويستشهدون بآيات قرآنية مُحكمة ويشتكون من أن خصمهم أخرج الأمور عن سياقها، وفهمها بشكل مغلوط وأساء استخدامها؟ قد تكون وجهات النظر داخل الإسلام مختلفة اليوم بهذا الشكل حول الإسلام «الصحيح»، ولكن الطرفين يفعلان الشيء ذاته في

الرجوع دوماً إلى القرآن والأحاديث؛ لأنهما لا يتجرآن على حلّ نفسيهما من قدسية الكتاب وحتى الكلمة. ولذا يبقى الجدال عقيماً وغير مثمر.

الخلاف اللاهوتي، فيما إذا كان كلام محمد، وبالتالي كلام الله يصلح حرفياً لكل زمان، أم إنه يمكن فهم القرآن على أنه بمثابة وثيقة لحقبة محددة، يحتاج جوهره الأخلاقي إلى إعادة تفسير على الدوام، ذهب ذات مرة إلى ما هو أبعد من ذلك. فقد كتب الفيلسوف ابن رشد، الذي اشتُهر في أوروبا الوسطى لاحقاً، في حوالى عام 1179 في الأندلس: كيف يمكن لله أن يتكلم، وفوق ذلك كله باللغة العربية؟ أي إن تدوين القرآن كان فعلاً للتأويل. ما يعني أن تدوين القرآن هو عمل من التأويل. وبالتالي عمل من فعل الإنسان، يناسب عقله، الذي يعادل العقيدة أيضاً. نُفي الفيلسوف، ومنذ ذلك الحين أصبحت اليد الطولى لرجال الدين المحافظين، الذين طالما اعتبروا أن كلمة الله معصومة وأزلية، كما اعتبروا أنفسهم أمناء عليها. مع أن محمداً قال إنه مجرد إنسان بسيط، ليس ابن الله، بل رسوله فقط. ولكن بسلطته اللا محدودة نثر بذور عقيدة الكمال، التي تمحورت بعد وفاته حول القرآن، وحوله أيضاً.

لكن الفقهاء حافظوا لاحقاً على بقاء السلطة بأيديهم. وعملوا على تثبيت كل شيء كتابياً، العقوبات، تفاصيل الصلاة، وما يُسمح بأكله، وحتى كيف يؤكل. كانت السلطة هي القاسم المشترك بالنسبة للمتزمتين دينياً تجاه تأويل العقيدة والأحكام، ومن خلال هذه الرؤية لسلطة الإسلام المنصوص عليها أزلياً في العقيدة وكذلك في العالم رسّخ رجال الدين تحالفاً فتاكاً. الجمع بين «الدين والدولة»، والذي لا يزال حتى اليوم دعوة القتال التي يطلقها جميع من يسيطرون على السلطة باسم الله أو يريدون الوصول إلى السلطة. «لم يحدث في العالم العربي قط هذا الشرخ في الدولة القروسطية، التي تستغل الإلهية من أجل إضفاء شرعية على التسلط والتستر عليه»، اشتكت قبل 20 عاماً فاطمة مرنيسي، أشهر عالمة اجتماع في المغرب.[1]

وعندما قال وزير الداخلية الألمانية توماس ديميزير عقب مجزرة شارلي إيبدو في 7 كانـون ثاني/ ينايـر 2015: «الاعتداءات الإرهابية لا تمت للإسـلام بصلة»، كان ذلك قولاً محترماً، ولكنه يمثل نصف الحقيقة؛ لأنه إذا تم تقديس ما حدث في القرن السابع من حيث المبدأ، واعتُبر الرجوع إليه مقبولاً، فمن حيث المبدأ لا يمكن منع المتعصبين من الرجوع إليه أيضاً. ما دام كل فريق يستخدم المرجع القرآني وتفسيراته الخاصـة، فكل شـخص على صواب – وعـلى خطأ أيضاً؛ لأن المصـادر لا تمنح حق الاحتـكار لهذا التفسـير أو ذاك. وبـدلاً من التجرؤ على كسر التقاليد، يصر مفسرو القرآن المعتدلون، مثل الجمعيات الإسـلامية الألمانية، على التمسك بالآيات اللطيفة المتسـامحة والمنفتحة على العالم. أما السلفيون وإخوانهم المستعدون للقتال، فيبحثون عـن تلك المواضع التي يوهمون النـاس بأنّها تضفي شرعية على الحـروب العداونية والقمع والاستعباد تجاه غير المسلمين.

قام ابن إسحاق (أول من كتب سيرة النبي محمد) وعلى مدى عقود بجمع الحِكم والأحاديـث والقوائـم والعقود والشـعر، التي كان يتم تناقلها عـن النبي ومعظمها بشكل شفهي حتى ذلك التاريخ. كتب سيرة نبوية ذات طابع شبه عصري، حتى إنه اعترف أنها تحتوي على أوجه مختلفة للقصص الواردة فيها.

هذه النصوص المبكرة، تنعكس بطريقة مذهلة في انتصارات «الدولة الإسلامية» في صيف عام 2014. لم يتمكن المقاتلون من شـنّ هجوم مباشر على مدينة الموصل العراقيـة، التـي ينتمي كثيرون من قـادة داعش إلى محيطها – بـل كان عليهم أولاً أن يصبحوا قوة عسـكرية في ظل الفوضى الحاصلة في سـوريا، وأن يجعلوا مدينة الرقة ذات الأهميـة الأقل منطلقاً لخطوتهم القادمة في الاسـتيلاء عـلى الموصل. هذا الأمر شبيه بما فعله محمد، عندما اضطر إلى الهجرة من مكة إلى المدينة أولاً، قبل أن يتمكن مـن فتـح مكة لاحقـاً، التي كانت هدفه أصـلاً. ودخل المدينة دون قتـال تقريباً، كما دخل داعش الموصل.

لقد قام داعش بتصوير فيديوهاته ذاتياً، وكان يعرف تماماً كيف يستغلها. وقد كان يتعمد في المبالغة في جرعة الفظاعة عن قصد في بعض الحالات، بحيث إن عدوه كان يلوذ بالفرار غالباً قبل وصول داعش فعلاً.

حتى أقدس الكتب الإسلامية، القرآن، بعد نزوله على محمد تغيرت تفسيراته على مرّ القرون دوماً. تماماً كالشمع، ككتلة تذوب وقابلة للتشكل من جديد، تم تكييف تفسير الآيات لتناسب المتطلبات السياسية اللاهوتية. وفرضه بالطبع على أنه توضيح نهائي للمعنى الإلهي. إلى أن تطلبت الآونة الأخيرة تفسيراً جديداً.

مثل الهجوم الانتحاري، الذي يعد العنصر العسكري الأساسي في موجة هجمات داعش، الذي لم تسبقه حركة إرهابية أخرى في إرسال أكبر عدد من السائقين بسيارات مليئة بالمتفجرات. فحتى الهجمات الانتحارية يمكن تفسيرها على أنها تتوافق مع شرع الله – أو على أنها إثم عظيم. لأن للانتحار تاريخاً مضطرباً في الإسلام، بدءاً من قبوله، مروراً بلعنه في الخلود في نار جهنم، وعودة إلى قبوله من جديد. كل ذلك يستند إلى نصف جملة من الآية 29 من سورة النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾، إن ضمير الملكية المتصل في كلمة "أنفسكم" يمكن أن يحمل معنيين: "نفس الإنسان" أو "مجموع المؤمنين". وهذا الاختلاف يعطي الآية برمتها معنيين مختلفين تماماً: "لا تقتلوا أنفسكم البشرية" أو: "لا تقتلوا المؤمنين". أحياناً تكون اللغة العربية غير واضحة تماماً.

منذ أكثر من 1000 عام يتأرجح تفسير هذه الآية هنا وهناك: ففي القرن التاسع وجد الإمام الطبري أنها تعني عدم قتل مسلمين آخرين. ولكن بعد عقود من الزمن أُقرت حرمة الانتحار، وجزاؤها الخلود في نار جهنم. وفي الأحاديث، التي حُررت بعد قرون من نشأتها، هناك سرد كامل يلعن الانتحار. "قال النبي: من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تحسى سماً فقتل نفسه، فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً"، وهكذا

دواليـك. ليـس هناك ذكـر للانتحـاري، فآنذاك لم تكـن هناك متفجـرات بعد. وفي مطلـع القرن الثامن عشر صدرت فتوى أدانت الانتحـار، معتبرة إياه جريمة أعظم مـن القتـل؛ لأن مـن يضع نهاية لحياته فقد تدخل في آخر شـأن من شـؤون الله. كلما عظمت الديانة، طالت اللعنة الجميع، لجذبهم إلى سلطتها. وهذا الأمر لم يكن مختلفاً في الديانة المسيحية.

بعدها اختُرعت المتفجرات – ومن ثم جاءت فكرة تسليح الشهيد بها، فالشهادة أهم من حياته. وتقف كل سلطة عاجزة عن فعل شيء تجاه الانتحاري، لأنها تستطيع قتله، لكنها لا تستطيع إخضاعه. من لا يريد البقاء حياً، لا يمكن تهديده بشيء. وقد كان حزب الله الشيعي أول تشـكيل إسـلامي لجـأ إلى الانتحاريين في لبنـان بانتظام اعتباراً من عام 1983. ومرة أخرى، كان لا بد لأن يتناسب الوحي مع هذا الوضع الجديد. وبتأمل حسـابي تم إصدار فتوى، تشرعن الهجمات الانتحارية، لطالما كانت تقتل أكبر عدد ممكن من الأعداء. فظهر مصطلح جديد هو: استشهادي، المشتق من الشـهادة. فالشـهداء يدخلون الجنة فوراً. واليوم، أصبح الهجوم الانتحاري ممارسة شـائعة، لدرجة أن داعش أرسـل المئات، لتفجير أنفسـهم في خطـوط العدو ونقاط تفتيشـه. ولم يكلـف التنظيم نفسـه عناء تقديم تبريـر لذلك، متجاهلاً تفسـيراً يعود لألف عام وموسوعات أحاديث نبوية يرفعها شعاراً له.

إن هذا النوع الجديد من الراديكالية، التي تمارسها "الدولة الإسلامية" لا علاقة لـه بالإيمان بالدين والطاعة العمياء لله، بـل على العكس من ذلك. فتنظيم داعش لا يعتمـد على الإيـمان والآمال، بل يعتمد على تخطيط اسـتراتيجي وحسـابات واقعية من أجل تحقيق أهدافه. دون أن يُترك شيء للصدفة – أو للدين. ولم يسـبق لتشـكيل جهـادي في العقـود الماضية قبل داعش أن لجأ بهذا الشـكل إلى الاسـتخدام الرصين للأكاذيـب، والتبديـل التكتيكـي غـير العقائـدي للتحالفـات، وعدم الثقـة المطلق بالجميع بما فيهم أمراء داعش أنفسهم، ونظام تجسس ورقابة متطور. كما أن جماعات أخـرى فشـلت في اسـتغلال إغواء كتابة التوكيـل الإلهي على راياتهـا. ولكن داعش عـرف كيـف يوظف التفويض الإلهي بمثابرة وبنجاح أيضـاً. رغم أنه لا تمكن رؤية

الإيمان في أعماق "الدولة الإسلامية"، بل الحسابات فقط. وفي الحقيقة، لا يريد داعش السير على خطى تقاليد الوجود الإسلامي، بل يريد تعريف نفسه من خلال إقحام الإسلام في تسميته. ففي القرى الخاضعة لسيطرة داعش في الشمال السوري يُجبر السكان منذ خريف عام 2014 على مبايعة "الدولة" على أنهم "مسلمون جدد"، لأنها تعتبر أن كل ما مضى فقد صلاحيته. غير آبهة بأن تلك المناطق كانت مسلمة حتى فترة قريبة.

إن دمج الإخضاع بدولة ناجحة - نوعاً ما -، أنتج مزيجاً يجمع بين الجهاديين ومخططي السلطة أصحاب الرتب الرفيعة في حزب البعث. مع أنه قد يبدو للوهلة الأولى أنه من المستحيل أن يكون هناك التقاء بين حزب علماني ومجموعة متعصبة دينياً. قد يعتقد المرء أن هذين العنصرين المتضاربين تماماً في جوهرهما، لا يمكن أن يلتقيا معاً، ولكن بحنكة ومهارة فائقتين يمكن خلق تعاون بينهما لفترات قصيرة. إذ ثمة تشابه كبير جداً بين الأنموذجين من حيث البنية: فالاثنان يفترضان أن قيادة الجماهير يجب أن تعود إلى نخبة صغيرة وقوية، بحيث يتمكن حزب البعث من تحقيق مشروعه القومي وداعش من تحقيق مشروعه الإسلامي بإقامة "دولة الخلافة". وفي نهاية المطاف فإن الجوهر قابل للاستبدال.

وعلى النقيض، يجب النظر إلى القاعدة على أنها حركة فشلت على الدوام، وذلك بسبب إيمانها العميق بآمالها، بدلاً من استغلال الظروف الواقعية لصالحها. لقد كان زعماء القاعدة الأوائل مؤمنين بالله، وبالشعوب الإسلامية، التي قد تنتفض يوماً في وجه أنظمتها وضد جبروت الغرب الكافر. وطوال سنوات اعتمدت القاعدة نظرية "العدو البعيد"، التي أوجدها في منتصف التسعينيات أيمن الظواهري، المنظّر الذي فرّ من مصر: تدعم الفرضية وجوب محاربة "العدو البعيد" المتمثل بالولايات المتحدة وأوروبا، لكي يتخلى عن دعم "العدو القريب"، المتمثل بالأنظمة الاستبدادية العربية - ما يؤدي إلى انهيارها.[2]

لقـد كانـت هذه الفرضية خطة هـروب إيديولوجي من العجـز إلى حد ما، لكي تتمكـن القاعـدة مـن دحر الخصـم الفعلي، وهـو "العـدو القريب" المتمثـل بحكام السـعودية أو مـصر، حيث شـاركت جماعة الظواهـري المصرية الأصوليـة "الجهاد الإسـلامي" بأعمال إرهابية أدت إلى اغتيال الرئيس أنور السـادات. كما راهن أسامة بن لادن على قدرته على الإطاحة بآل سـعود في السـعودية في حال رفعت واشـنطن يدهـا عن دعم الأسرة الحاكمة. عندها سـتتاح الفرصة أمام الشـعب المسـتعبد لأن يقـوم بتمرد ناجح. لقـد كانت خطة التفافية جريئة، ولكنها لم تبـدُ خاطئة جداً نظراً لمـكان إقامـة الرجلين: ففي أفغانسـتان أدى قتـال المجاهدين ضد قـوات الاحتلال السـوفييتية إلى انسـحابها، وبـدا وكأن ذلـك كان سـبباً في انهيار الاتحاد السـوفييتي داخليـاً. وبـما أن الخطة نجحت هنا، فلـماذا لا تنجح في أماكن أخـرى أيضاً؟ بل إن ابـن لادن ذهب إلى ما هـو أبعد من ذلك، وتوهم إمكانية تفـكك الولايات المتحدة إلى ولايـات، في حـال تعرض هذا البلـد إلى ضربة قوية كفايـة.[3] ولكن بالرغم من قـوة الضربـة الإرهابية التـي وجهتها القاعدة للعـالم أيضاً، إلا أنها لم تـؤدِ إلى تفكك الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، أو الإطاحة بملـك السـعودية أو الديكتاتور الأزلي حسني مبارك في مصر.

غير أن ابن لادن وشركاءه لم يحققوا شـيئاً سوى الإرهاب والقتل الجماعي. ومن وجهة نظر رزينة، فإن هؤلاء كانوا رومانسيين دينيين، يشبهون الإرهابيين اليساريين الأوروبيين في سـبعينيات القرن الماضي، فيما يخص وهمهم بقدرة القوة الثورية. فقد كان اليسـاريون الأوروبيـون يؤمنون أيضاً بأن إرهابهم ضد رمـوز ما كان يُعرف بـ "نظام الخنازير"، المتمثل بقمع الدولة، سـيحض الشـعوب على التمرد. وقد باء هذا التوجه بالفشل كما هو معروف.

أمـا في حالة القاعدة، فعـلاوة على ذلك هناك تناقض ملحوظ: فمن جهة، يدعو تفسـيرها للقـرآن إلى إخضاع الناس بشـكل صارخ. كما حـدث في وقت لاحق على الاعتداءات التي نُفذت على السـفارات الأمريكية في كينيـا وتنزانيا في عام 1998، عندمـا برر أحـد المخططين المجهولـين موت مئات المدنيين المسـلمين، بـأن القنابل

انفجرت ظهر يوم الجمعة. وفي هذا الوقت يكون المسلمون الجيدون متواجدين في المسجد، وليس في الشارع.[4]

ولكن من ناحية أخرى، اعتمدت القاعدة في نهاية المطاف على صورة الإنسان الناضج، الذي يطلب الثورة الجماعية بمحض إرادته. وأما لماذا لم تقم تلك الشعوب بالتمرد آنذاك (بل ثارت اعتباراً من عام 2011 في إطار "الربيع العربي" ولم تكن ثوراتها تحت راية الإسلاميين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم الطليعة)، فقد كانت لها أسبابها المقنعة، بغض النظر عن مدى تحلي تلك الشعوب بالشجاعة أو الروح الثورية. لكن الإيديولوجيا الجوهرية بالنسبة للقاعدة تمثلت في أن يوحد المسلمون بلادهم في دولة إسلامية واحدة. وكانت القاعدة تدرك دوماً أن أفعالها هي مجرد تمهيد للطريق لبلوغ الهدف النهائي في إقامة تلك الدولة. وأنه ليس بمقدورها فعل شيء أكثر من ذلك.

في حين أن الأنموذج الإنساني مختلف تماماً لدى «الدولة الإسلامية»، التي تعتبر الناس نعاجاً. إذ يتم كسب الناس من خلال الإخضاع، وليس عن طريق الهداية. ولقد حاول محمد كسب الناس عن طريق الهداية لبضع سنوات عندما كان في مكة. وكان الناس يتهكمون عليه ويطلقون عليه لقب كاهن. وكانوا يستهزؤون به ويهددونه، ما دفعه إلى الهجرة إلى المدينة في نهاية المطاف – تلك الهجرة التي بدأ معها التأريخ الإسلامي وأصبحت منذ ذلك الوقت نقطة رئيسة في كثير من السير الجهادية. وبعد الهجرة إلى المدينة بدأ محمد يحاول كسب السلطة. لقد كان حكيماً، ووسيطاً في فضّ نزاعات ميؤوس منها.[5] وقد مهدت له تلك المكانة لكي يصبح زعيماً. وبعد ذلك بدأت الغزوات، ومن ثم المعارك. ومن كان يعتنق الدين الجديد ورسوله، يُعفى عنه.

واليوم تحاول داعش من خلال "الخليفة" أبي بكر البغدادي والمخططين في الخفاء تقليد الأمر ذاته، ولكنهم يستثنون مرحلة الإسلام المبكر عندما كان محمد يتقبل النقد في مكة. لقد اعتمد داعش على المناورة عندما كان موقفه المبدئي يتسم

بالضعف، ثم شنّ هجمات عنيفة متزايدة، ثم نقض المعاهدات، ثم شنّ هجمات بكل ما أوتي التنظيم من قوة، وكان دائماً يعرض على الآخرين الخضوع لكي لا يؤذيهم: يبدو أن داعش طبق الأنموذج التاريخي بحذافيره تدريجياً. مع فارق مهم، وهو أن داعش يمكنه اليوم استغلال جميع ملاحم الانتصارات قبل 1400 عام لصالحه. علماً أن مهندسي داعش من حزب البعث لعبوا دوراً حاسماً في صعود التنظيم.

لقد كانت للاختلافات الاستراتيجية الأساسية بين القاعدة و"الدولة الإسلامية" عواقب عملية هائلة: من منطلق أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، كرّر كثير من خبراء الإرهاب الغربيين على مسامع جمهورهم منذ مطلع عام 2014، أن داعش تنقصه سمة واحدة لكي يتمكن من اللحاق بركب القاعدة: تنفيذ هجوم كبير وهائل. فقد كان ذلك الجوهر الذي وعّى العالم على القاعدة: اعتداءات نيروبي ودار السلام في عام 1998، الهجوم على مدمرة يو إس إس كول في ميناء عدن في عام 2000، أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001، مدريد عام 2004، لندن عام 2005. لم يفهم المرء ببساطة سبب إحجام داعش عن تنفيذ مثل تلك الهجمات، التي أقدم عليها سلفه للفت نظر العالم إليه. ويعلل خبراء الإرهاب عدم قيام داعش بتنفيذ اعتداء كبير إلى عدم قدرته على ذلك (بعد). ولكن هذا التبرير هو استخفاف وتقليل من شأن داعش. ربما من الأنسب أن يطرح المرء هذا السؤال بشكل عكسي: لماذا يتعين على داعش تنفيذ اعتداء كبير في لوس أنجليس أو برلين أو دبي؟ ما الذي سيجنيه من وراء ذلك؟ ماذا استفاد منفذو هجمات 11 أيلول/ سبتمبر وغيرها من الهجمات؟ سخط واشمئزاز في جميع أنحاء العالم، وتشكيك لأبعد الحدود، لدرجة أن الناس في باكستان وبلاد إسلامية أخرى يعتقدون حتى اليوم أن ما حدث ينضوي تحت نظرية المؤامرة، في أن من يقف خلف عملية اصطدام طائرتي الموت بمركز التجارة العالمي هم ليسوا الجناة المذكورين، وإنما تحالف سري بين الموساد، تارة مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أو المخابرات الهندية (حسب الرواية الباكستانية).

بيد أن هدف القاعدة لم يتحقق، والمتمثل في أن الهجمات من شأنها أن تُحدث سلسلة من ردود الأفعال، قد تؤدي إلى الإطاحة بحكومات وتوحد المسلمين في دولة إسلامية. وقد اشتكى ابن لادن، مدعياً أنه تعرض "للغدر".[6] وعوضاً عن ذلك، تم طرد القاعدة في أواخر عام 2001 من أفغانستان، ومذئذ تتعرض للرصد والملاحقة وتقتل هجمات الطائرات بدون طيار قادتها باستمرار. ومن الآثار الجانبية التي كان يصعب التنبؤ بها من أفغانستان: إطاحة حكومة جورج دبليو بوش في عام 2003 بصدام حسين في بغداد، رغم أنه لم يشارك بهجمات القاعدة. ولكن حتى في العراق، فشل الجهاديون في الماضي بسبب عدم قدرتهم على السيطرة على مناطق بشكل دائم.

باختصار: صحيح أن الهجمات الكبيرة جلبت أكبر قدر ممكن من الاهتمام عالمياً، مقارنة بالجهد الضئيل المبذول نسبياً، إلا أنها لم تحقق نصراً، بل فشلاً ذريعاً. كما أن الحشود لم تتحرك إطلاقاً لتساعد القاعدة على الوصول إلى السلطة. أما أفراد القاعدة، فقد كانوا واهمين بالإرهاب، ربما لم يعيروا بالاً، لاستمرارية نظرياتهم أو ممارساتهم. ولم يعرفوا أن هذا الأنموذج فاشل، إلا عندما لم تصدر ردود الأفعال التي كانوا يتوقعونها من اعتداءاتهم.

وبالمقابل، فإن ما قام حجي بكر وقياديو داعش برسمه، كان خطة واقعية مجربة لإخضاع الناس في محيط درسوه بدقة بالغة منذ قرون. إنهم انتهازيو الوصول إلى السلطة، صبورون ولديهم خطة واضحة، وكانوا في صيف عام 2014 أسياد دولة، لا يبلغها أسامة بن لادن إلا في الأحلام. أو كما قال المتحدث الرسمي لـ "الدولة الإسلامية" في آخر رد له على أيمن الظواهري في شهر أيار/ مايو 2014: ليس هناك بالنسبة لداعش أي سبب، يدعوه إلى اتباع توجيهات القاعدة؛ لأنه لا يصح لدولة أن تبايع تنظيماً.[7]

8

على جبل الإيزيديين

كارثة سنجار ونقطة التحول إلى داعش

السبايا شيء عملي، يحاضر قادة داعش بعد النزوح الجماعي للإيزيديين من سنجار. لكن، بإقدام داعش على قتل هؤلاء «الكفرة» في شمالي العراق، أثار الجهاديون سخطاً عالمياً استدعى تدخل الولايات المتحدة الأمريكية.

في اليوم الثامن الذي قضته على الجبال، أنجبت بكيزا مولودتها البكر. أسماها والداها خُديدا، ولم يعد لديهما شيء يشربانه. هربت الشابة بكيزا وزوجها هادي من قرية سومري. كان الاثنان محظوظين؛ لأنهما سارا وحدهما، وليس مع إحدى المجموعات التي أمطرها المهاجمون بوابل من الرصاص عند سفح الجبل. وكان الاثنان تعيسي الحظ؛ لأنهما سارا وحدهما، لأنهما عندما توقفا ليستريحا قليلاً بظل نتوء صخري، لم يجدا أحداً يعرفانه هناك. لا أحد، قد يتقاسم مع بكيزا رشفة من مائه الثمين.

تقاربت عائلات أخرى معها رُضّع بعضها من بعض، لكي توفر ظلاً للأم والطفل، وقطع أفراد تلك الأسر عن أفواههم ما كان يوزع لهم مرة يومياً، من أجل توفيره. أو ما كانوا يجدونه في سواقي الجبال الجافة بعد ساعات طويلة من المسير.

لم يساعد أحد بكيزا وهادي والمولودة حديثة العهد، وتعين عليهم الانتظار في القيظ. إلى أن ظهر بعد يوم على ولادة خديدا ثلاثة مقاتلين أكراد، من حزب

العمال الكردستاني، وأخذوهم عبر الدرب الوحيد المفتوح في الجبل، فعبروا الحدود القريبة إلى سوريا، إلى مخيم نوروز. أخبر الفارون هناك عن الوحشية، التي خلفوها وراءهم. أخبروا، كيف نادى رجال داعش بالمكبرات في قرية غارزاريك: "ألقوا سلاحكم، لن نفعل لكم شيئاً." وكيف أطلقوا النار بعدها رغم ذلك على من أراد الهروب.

أخبروا عن الخروف الذي قتله اليائسون بصخرة لكي يشربوا دمه. أخبروا عن المسنين الذين توجب عليهم تركهم في البيوت. عن جثث الرجال في الشوارع. عن العائلات التي تم إيقافها وتم سحب أفرادها من السيارات، فأُطلق النار على الرجال فوراً، واقتيدت النساء. كما أخبروا عن نساء تضرعن إلى عائلاتهن أن يقتلوهن، لكي لا يقعن في أيدي هؤلاء المعتوهين.

لكنهم أخبروا أيضاً عن الجيران الذين انقلبوا إلى أعداء فجأة، إلى متواطئين مع الجهاديين الزاحفين: عرب من القرى المجاورة، تركمان من مدينة تلعفر المجاورة، وحتى بعض الأكراد. كان معظم المقاتلين يتحدثون اللغة العربية، ولكن بعضهم كان يتحدث لهجة المنطقة الكردية، عندما كانوا يتحدثون إلى الآخرين لكي يدلوهم على المنازل التي تستحق النهب، وأين يسكن الإيزيديون، وأين يسكن العرب. "كانوا يعرفون وجهتهم بالضبط"، كما قال أحد آخر الفارين. ومرة أخرى كان هجوم "الدولة الإسلامية" وفق نمط مجرب سلفاً. في البداية وطوال فترة طويلة قام رجال الاتصال بتكتم تام ببناء شبكة مخبرين، التي أطلعت مقاتلي داعش في ساعات الهجوم الخاطف على: محل إقامة فلان، وعدد المقاتلين. كانوا على دراية بحجم قوة الخصم – ومن ينبغي عليهم قتله أولاً. هكذا كان المنهج المتبع سابقاً في المدن والقرى في الشمال السوري أيضاً، وكذلك حدث في الموصل في مطلع شهر حزيران/ يونيو 2014.

لفترة تقارب الشهرين اعتقد سكان الجيب الإيزيدي في محيط مدينة سنجار على سفح الذي يحمل الاسم نفسه، أنهم نجوا من اقتحام المتشددين في حزيران/

يونيو. فمنطقتهم تقع شمالي الموصل في شمال العراق. ولكنها، وقبل كل شيء تقع على حدود منطقة نفوذ الحكم الذاتي الكردية التي لم تُرسم بوضوح أبداً. وكانت حكومة إقليم كردستان قد وعدت أخيراً بحماية الإيزيديين، بخاصة بعد هجوم داعش الخاطف في شهر حزيران/ يونيو. لأنه وبغض النظر عن دين الإيزيديين: هم أكراد! بالإضافة إلى ذلك، فهم يتبعون تلقائياً إلى المناطق الخاضعة لحكومة إقليم كردستان.

لم يكن معتنقو الديانة الإيزيدية من اليهود ولا المسيحيين ولا المسلمين، بل هم عبارة عن مجتمع يؤمن بتاريخ تكوينه الخاص جداً، بدأ بسبعة أسرار وملاك لافت للأنظار بهيئة طاووس، غفر له الله. وهكذا، فإن الشر لا وجود له في ملكوت إيمانهم. وحسب معتقدات الإيزيديين فإن الله لم تكن لديه قوة لدرء سلطة شريرة ثانية باستمرار. فما الحاجة لوجود الشر إذن، إذا كان بإمكان البشر أن يتفكروا بأنفسهم ويكونوا مسؤولين شخصياً عن أفعالهم؟ الإنسان حر، على الأقل من حيث المبدأ - فيما عدا ما يخص الزواج من ملة أخرى، وتناول السلطة والزواج في شهر نيسان/ أبريل. بالنسبة للمسلمين كان الإيزيديون، الذين ليس لديهم كتاب مقدس، ملحدين، وبالرغم من ذلك كانت هناك فترات طويلة من التعايش السلمي معهم. لكن منذ أكثر من 100 عام أصبحت كينونة الإيزيديين مدعاة للتعاطف، إذ تعرضوا للتضييق مراراً، في بداية الأمر من قِبل جيوش السلاطين العثمانيين، ولاحقاً من قِبل نظام صدام حسين، وبعد ذلك من قِبل القاعدة. لكن ما تعرضوا إليه الآن كان حملة إبادة. إيزيديو سنجار اعتقدوا، وأملوا، أن عصابات الجهاديين، التي استولت على الموصل قبل شهرين بهجوم مفاجئ، ستقتصر على البقاء في المناطق العربية. وبالفعل، بدا الأمر بعدها كذلك أيضاً، فقد توجهت أرتال داعش بعتادها العسكري الجديد، الذي استولت عليه من مخزونات الجيش العراقي، في موكب نصر نحو الرقة وواصلت قتالها في سوريا أولاً.

لكنها عادت إلى العراق بين ليلة وضحاها. بعد أيام قليلة فقط، بعد أن بدأ المقاتلون الأكراد في جيب كوباني السوري يستغربون من توقف هجمات داعش مرة واحدة بعد أن كانت شبه يومية.

في صبيحة يوم 3 آب/ أغسطس هاجمت أولى قوافل داعش قرى محيطة بسنجار. على جبهة واسعة وسرعة فائقة اقتربوا من ثلاثة محاور. في البداية ردت بعض وحدات البيشمركة التابعة لحكومة الإقليم الكردي على مصادر النيران. "لكن عند الفجر قال أحد القادة فجأة إن لديه أمراً بالانسحاب"، كما يتذكر في مخيم نوروز زعيم العشيرة الطاعن بالسن بليندكاس خلف. انسحب جميع مقاتلي البيشمركة، أكثر من 7000 رجل من مدن وقرى المحافظة اتجهوا بأسلحتهم شمالاً. كثير من هذه الأسلحة كانوا قد أخذوها من الإيزيديين في شهر حزيران/ يونيو. "كنا قرابة 1600 جندي من سنجار في جيش المالكي"، حسب خلف. "وعندما تفكك الجيش بعد سقوط الموصل في شهر حزيران/ يونيو ودخلت قوات البيشمركة إلى هنا، صادروا جميع الأسلحة ووعدوا بحمايتنا."

عندما غادر الذين نصبوا أنفسهم حماة لهم سنجار في صباح يوم الأحد 3 آب/ أغسطس، أراد الجنود السابقون استعادة بنادقهم الكلاشينكوف على الأقل، لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم. لكن دون جدوى. ووفق روايات متطابقة لعدة شهود عيان سدّ إيزيديون يائسون في قرية سورافا الشارع في الساعة العاشرة صباحاً، ولم يسمحوا لموكب البيشمركة بمواصلة سيره. أثار هذا التصرف هلعاً متنامياً. وتصعّد الموقف ليصبح ملاسنة كلامية غاضبة، إلى أن أطلق الأكراد المنسحبون النار ليفتحوا طريقهم وسط الجموع. قُتل ثلاثة متظاهرين، ثم انطلق الرتل العسكري.

لم يصدر أمر بالانسحاب إطلاقاً، حسبما نفى بعد أيام العميد هلكورد حكمت، المتحدث باسم وزارة البيشمركة في أربيل، الاتهامات بطريقة غير مألوفة: "جنودنا فروا ببساطة. هذا مخجل، لهذا السبب اختلقوا الأمر. لكننا سنحقق ضدهم – وكذلك ضد أولئك الذين أعطوا هذا الأمر المزعوم." كما أنه لم يستطع نفي أو

تأكيد إطلاق النار على ثلاثة إيزيديين، "ولكن ضعوا أنفسكم مكان البيشمركة: أنتم في حالة ذعر، وتريدون المغادرة فقط، ثم يأتي أحد ويسد الطريق ويريد أسلحة منكم. لكن إذا تعطلت سيارتهم، فسيكونون بحاجة إلى كل طلقة لكي يدافعوا عن أنفسهم."

إيزيديو سنجار، الذين تم التخلي عنهم، قاتلوا في تلك الساعات ما استطاعوا. "بقينا نطلق النار حتى آخر طلقة"، كما روى بعد أيام مصطفى عيدو، أحد الناجين. "لكن ماذا عسانا أن نفعل ضد داعش، لديهم قاذفات صواريخ ومدافع مضادة للطيران وكل سيارة بيك آب تحمل رشاش دوشكا"، وهي التسمية الروسية للمدافع الرشاشة عيار 5 , 14 ملم، عديم الكفاءة من حيث قوة الاختراق والمدى.

من تمكن من الهرب، فرّ إلى الجبل، فقط للابتعاد عن المعتوهين القادمين. كان الحظ الوحيد الذي حالف الفارين هو أن حرارة الشمس الحارقة بدت وكأنها حالت دون أن يلاحقهم المهاجمون سيراً على الأقدام. ومع أنهم أطلقوا نيرانهم باتجاه أعلى الجبل، في البداية من بنادق الكلاشينكوف، ثم من مدافع الهاون، إلا أنهم لم يلاحقوا هؤلاء عشرات الآلاف، الذين احتموا بالجبل المنتصب وحيداً وسط السهول. في الأعلى جلس الإيزيديون الآن في المصيدة: أكثر من 50 ألف شخص، ليس أمامهم سوى بضعة ينابيع صغيرة وشجيرات هزيلة. يتذكر عيدو كيف دخل إلى محل مهجور أثناء هربه، وأخذ منه ماءً بقدر ما يمكنه حمله. كما يتذكر أن ابن عمه نزل من الجبل في الليلة الرابعة، قاصداً قرية يجد فيها طعاماً وماءً: "لكنه لم يعد." كان عشرات الآلاف مهددين بالموت عطشاً. علقوا مذعورين على سلسلة جبلية يبلغ طولها 70 كيلومتراً وعرضها ما بين عشرة إلى 15 كيلومتراً.

بكيزا، الحامل في شهرها الأخير، التي لم تذهب في حياتها إلى أبعد من الناحية التالية من مدينتها، وصبرت بقدميها المتقرحتين وظل صخرة هزيل، لم تحصل على رشفة ماء. وبينما "كنت أقدم الماء لرجل مسن كان جالساً على طرف الطريق"، كما يتذكر عيدو، "فقد كان يشبه والدي"، الذي كان في هذا الوقت مرمياً في القرية في

الأسـفل بعد أن أُطلق عليه النار. "لكن الرجل لم يقوَ على الشرب. لقد مات، متكئاً على صخرة، وبقي جالسـاً." ومن السـهول واصل الجهاديون، الذين اقتربوا كثيراً، إطلاق نيران مدفعيتهم على الجبل، ومع أن إصاباتهم كانت عشوائية، إلا أنهم حالوا دون محـاولات إجـلاء المحاصريـن. بدا وكأنهـم إذا انتظروا أسـبوعاً أو اثنين فقط، فبالكاد سيبقى أحد الإيزيديين في الأعلى على قيد الحياة.

تخلـت قيـادة قـوات البيشـمركة والحكومـة الكردية عـن الإيزيديـين دون قتال تقريبـاً، ليواجهوا مصيرهم – وفي النهاية جعلتا من مصيرهم حجة لتحريك أمريكا والعـالم للتدخل أخـيراً. فمن أجل منع حدوث مثل هذه الكوارث، يجب وضع حد للجهاديين من خلال توحيد القوى.

عـدم قدرة قوات البيشـمركة منفردة على المجابهة، حتـى وإن أرادت، ظهر جلياً في خسـارة مخمور، التي احتلتها مليشـيات داعش لبضعة أيـام، وهي مدينة تقع بين الموصـل والعاصمـة الكردية أربيل. فبعـد مقاومة قصيرة جابت قوات البيشـمركة الشـوارع هناك وأنذرت السـكان بأن عليهـم الهرب فوراً؛ لأنها سـتفعل الآن الشيء ذاته أيضاً.

مـا حدث بعد ذلـك، وصفه أحد الذين كانـوا قد تجاهلوا هـذا الإنذار وبقي في المدينـة: "جاؤوا كالسرب، بسرعة فائقة ويطلقـون النيران حولهم، كما لو أن شـيئاً يمكـن أن يقف في طريقهم. 70 إلى 80 عربـة، بعضها من طراز هامفي المصفحة". أما باقي الرتل فقد كان مؤلفاً من سـيارات بيك آب المزودة بمدافع رشاشة ومدافع مضادة للطائرات، وجابت شـوارع المدينة بسرعةٍ تصل إلى 80 كيلومتراً في الساعة، وكأنه هجوم سلاح فرسان على الخيول من قرون بائدة. أصبحت مجموعات داعش أكثر ثراءً وتسليحاً من أي وقت مضى، وذلك بعد نهب كافة مخازن الفرقة العسكرية عند سـقوط الموصل قبل شـهرين، والآن تقدمت تلك المجموعات عبر السهول. لم يعد داعش جماعة إرهابية، بل أصبح جيشاً حقيقياً.

ذات الرواية وردت من مناطق أخرى تعرضت للهجوم، فقد أخبر لاجئون عن التشكيلات الهجومية المروعة للجهاديين. "تقدموا في نسق عريض عبر الصحراء، عشرات السيارات بعضها إلى جانب بعض، وكانوا يطلقون النار أثناء المسير. وفي حال تعطلت إحدى السيارات، كان الباقون يواصلون طريقهم غير آبهين بها"، حسبما ذكر جندي فار من إحدى الثكنات بالقرب من الموصل. "كانوا يرسلون في المقدمة عدة انتحاريين بسيارات مليئة بالمتفجرات"، كما يتذكر أحد مقاتلي البيشمركة، الذي كان يخدم في أقصى الشرق بالقرب من قرية جلولاء. "ثم وصلت الجماعة الرئيسة بسرعة بعد الانفجار، لكي لا يتمكن أحد من القيام بردة فعل سريعة. ومن استطاع الهرب، لم يتوانَ عن فعل ذلك."

أرادت قيادة داعش العسكرية تحويل سرب همجيي الجهاديين الفوضويين، الذين تسللوا من كل بقاع الأرض إلى سوريا، وكان قلائل منهم فقط يتمتعون بخبرات عسكرية، قوةً قتالية منضبطة وجسورة. وعلاوة على ذلك طوّرت تلك القيادة تشكيلات هجومية، كانت ناجعة جداً على الأقل في الهجمات الفُجائية: فبعد مرحلة طويلة من الاستطلاع والتغلغل ينطلق انتحاريون، غالباً بسيارات مسرعة مغطاة بألواح معدنية تحميها من رشقات الأسلحة الخفيفة، باتجاه نقاط التفتيش أو مواقع الخصم، ويفجرون أنفسهم مُحدثين ثغرة وارتباكاً لكي تتمكن الوحدات التالية من الاختراق. نادراً ما تُستخدم الدبابات لذلك، وإنما تظهر بالأحرى في استعراضات انتصارات "الدولة الإسلامية". بينما تعتمد الهجمات على السرعة. أما الفظائع، ليست التي ارتكبها داعش من قبل فقط، وإنما التي يبذل جهداً كبيراً لترويجها أيضاً، فهي كفيلة بأن لا تضطر جحافله في دخول معارك في كثير من الأماكن؛ لأن المدافعين وكذلك السكان كانوا قد فرّوا سلفاً عندما سمعوا بخبر اقترابها.

وفوق ذلك كله، جاءت قدرات داعش اللوجيستية، والمتمثلة في القدرة على نقل مجموعات قتالية كاملة وذخائر وماء ووقود من منطقة إلى أخرى خلال زمن قصير جداً. قد يبدو الأمر بسيطاً، لكن هذا هو بالضبط ما فشل فيه دوماً الجيشان

المدعومان من الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، بالرغم من أنه تم مدّهما بمبالغ طائلة وأحدث عتاد حربي: الجيشان العراقي والأفغاني. فحتى بعد مضي سنوات على الدعم والتدريب بقيمة المليارات توجب على ألوية الجيش الوطني الأفغاني، التي بدأت في عامي 2009 و 2010 عمليات عسكرية ضد طالبان، العودة بعد 48 ساعة، لأن الجنود لم يعد لديهم ما يأكلونه. أو بسبب نسيان الضباط التزود بالوقود مسبقاً. تختلف أسباب هذا الفشل المستمر من حالة لأخرى، فهناك الفساد - كما حدث مع قوات حرس الحدود العراقية في شهر حزيران/ يونيو 2014 - أو العجز الكامل أو اللامبالاة ببساطة، والمشاركة في الحرب وفق رغبات قوى أجنبية. ولكن الأمر اللافت هو أن الضباط ومسؤولي الإمداد اللوجيستي في داعش، بخاصة المحاربين القدامى في جيش صدام حسين، كانوا يجيدون بإتقان التعامل مع تحديات الحرب اللوجيستية. فمن خلال متابعة الهجوم الخاطف على جيب كوباني في العمق السوري، باستخدام الأسلحة المنهوبة للتو من الموصل، أو الهجوم على سنجار، مباشرة بعد توقف الهجمات على كوباني: يتضح من التفاصيل العسكرية أن قوات داعش هي جيش يتمتع بقدرة عالية على التنقل، وسريع الانتشار، ويتم توجيهه مركزياً. كما أنه لم تتمكن قوة أكبر حجماً من منع الجهاديين من السطو على الأراضي والمناطق.

يعود الفضل في عدم موت أكثر من 50000 شخص عطشاً، بعد أن تقطعت بهم السبل في جبل سنجار، وأيضاً في استعادة مدينة مخمور، إلى جماعة ذات توجه قومي ماركسي بدا حتى وقت قريب وكأن وهجها قد خبا: حزب العمال الكردستاني. لم يحقق الحزب مكاسب على الإطلاق من تمرده على الدولة التركية منذ عام 1984، لكنه أيضاً لم يخسره بشكل كلي إطلاقاً. وبعد توصل الحكومة التركية إلى اتفاق مع زعيم حزب العمال عبدالله أوجلان الملقب بـ "آبو"، الذي لا يزال يحظى على إجلال حزبه له حتى بعد 16 عاماً على اعتقاله، بدأ في عام 2013 انسحاب صامت لمقاتلي حزب العمال الكردستاني المتبقين من جبال شرقي تركيا إلى مقرهم في شمالي العراق في سلسلة جبال قنديل. غير أن كادر الحزب كان لا يزال يتدرب لهذه الحرب، التي

بدت منذ زمن أنها لن تندلع مجدداً، ويبجلون أوجلان بصورة قديمة له منذ 20 عاماً فبدوا وكأنهم من حقبة ماضية. ولكن، في هذا الزمن من المعارك والفوضى اتضحت الأهمية الكبرى للانضباط والقدرة القتالية والتنظيم المركزي لحزب العمال.

في مدينة مخمور، التي اجتاحها داعش، كان هناك معسكر صغير لحزب العمال، لم يتمكن المهاجمون من بسط سيطرتهم عليه. الرجل، الذي لم يذهب عندما جاء الجهاديون، واستطاع أن يروي ما جرى في كواليسهم، كان القائد الكردي مأمون أو "دكتور مأمون"، كما يسميه مقاتلوه الشباب. تم إرساله من جبال قنديل، المقر الرئيس، عندما أبلغ كشافة حزب العمال أن الوضع يتفاقم حول سنجار. "لقد رأيت الكثير في السنوات العشرين الماضية"، كما روى، "هجمات بالحوامات لسلاح الجو التركي، قصف دبابات، أسابيع من الاشتباكات، لكنني لم أرَ في حياتي مثل داعش قط، أبداً، لم أرَ. كأني كنت في فيلم رعب." في باحة معسكر حزب العمال الكردستاني كانت تقف سيارة بيك آب بيضاء جديدة، تحت التمويه الطيني الحديث العهد كان لا يزال شعار "الدولة الإسلامية" يلمع، وقبل ذلك بشهرين كانت السيارة قد سُرقت أيضاً من الجيش العراقي في الموصل. "يتبدل مالكو هذه السيارات باستمرار"، كما قال رجل مسن تابع لحزب العمال متهكماً، في الوقت الذي وصلت فيه تواً ثلاث شابات قادمات من الجبال كن يحملن بنادق كلاشينكوف على أكتافهن وسألن عن مقرهن. ومرة أخرى، وكما في الموصل وغيرها من الأماكن سابقاً، كان هناك كثير من قصص المصائر عن الصداقة وخيانة الجيران. ولأن العرب، جميعهم من السنة، كان بإمكانهم الخيار: في الوقوف إلى جانب جيرانهم الأكراد والإيزيديين أو إلى جانب الغزاة الإسلاميين، الذين يبيحون القتل والاغتصاب والنهب باسمهم.

بقي جار عربي لإحدى الأسر الكردية، كان أبناؤه قد اختفوا قبل أسابيع، ولم يهرب – ولكن يوم دخول داعش شوهد وهو يرافق المقاتلين الإرهابيين الوافدين ويدلهم على منازل محددة. وهناك فعل الرجال ما كانوا يعتبرونه طاعة الله – النهب. كما كان هناك جار عربي أنقذه مقاتلو حزب العمال. سمع في اليوم الثاني على غزو داعش رجلين يتحدثان عن أن هجوماً سيشنه المقاتلون من جهة غير متوقعة عبر

الحدائق، لاقتحام معسكر حزب العمال الكردستاني الواقع على تلة وبقي صامداً يقاوم بضراوة. عن طريق أصدقاء أكراد حذر مقاتلي حزب العمال الكردستاني هاتفياً، الذين نصبوا كميناً للكمين وحموا موقعهم. بالرغم من أنهم لم يعودوا يمتلكون شيئاً يواجهون فيه مدافع الجهاديين سوى بضع بنادق كلاشينكوف من السوق السوداء. اضطر مقاتلو داعش إلى وقف هجومهم، بعد أن فُتحت عليهم النيران من كافة الجهات فجأة. بعد أربعة أيام عادت وحدات البيشمركة، لاستعادة السيطرة على المدينة بالتعاون مع حزب العمال الكردستاني. وعندما سيطروا على المدينة أخيراً في 10 آب/ أغسطس، ذهبوا إلى منزل الرجل الذي كان يعطي مقاتلي داعش نصائح لنهب المنازل. وفتح مقاتلو البيشمركة صنبور أسطوانة الغاز ذات العشرين لتراً، وأضرموا النار فيها ودحرجوا الأسطوانة، التي تنفث لهباً، إلى غرفة معيشته. في اليوم التالي لم تبقَ سوى الجدران المغطاة بالسخام الأسود، والبناء المهدم تحت الحرارة التي بدأت تنخفض تدريجياً ببطء.

لكن، بقي محيراً، كيف أن القيادة الكردية كانت تعتبر احتمالية هجوم الجهاديين ضعيفة. "نود لو نصبح أكثر هجومية"، حسبما أكد القائد المحلي ذو الشعر الشايب نجاد علي في مخمور، المنشغل في السنوات الأخيرة بالتحضير لأطروحة الدكتوراة في اختصاص "الأمن الدولي" أكثر من انشغاله بالوضع الأمني المحلي: "ولكن الآن سنحفر للمرة الأولى خنادق دفاعية!" كان هذا إجراءً وقائياً من المفترض اتخاذه بعد موجة الهجوم الأولى قبل شهرين. لقد هزّ زحف مقاتلي الخلافة، الذي بدا بلا عناء، الثقة بالنفس لدى البيشمركة بعمق. وفي نفس الوقت أبطل مفعول عداوات قديمة أيضاً، على الأقل في الوقت الراهن. حزب العمال الكردستاني والقيادة الكردية، اللذان ساد بينهما عدم الثقة لسنوات طويلة، أصبحا الآن حليفين في الشدائد. وقد سافر رئيس الأكراد البارزاني إلى مخمور خصيصاً ليشكر قائد حزب العمال هناك. ومرة واحدة أصبح الأكراد في تركيا والعراق، وكذلك الشيعة وأمريكا وإيران، يحاربون عدواً واحداً مشتركاً، لا يتسم بالوحشية فحسب، ولكنه أيضاً يتصرف

وفـق حسـابات محنكة نـادرة أثناء غزوه العسـكري. لـذا فإن الوقـوف في وجه هذا العدو يتطلب تحالفات، بدت مستبعدة من قبل.

في نهايـة المطـاف كان دور حـزب العمال الكردسـتاني حاسـماً في سـنجار. يعود الفضل للطبيعة الجغرافية والحدود الاستعمارية المرسومة قبل قرن من الزمن، بحيث إن الطرف الغربي من جبل سـنجار متاخم مباشرة للحدود مع سوريا. فعلى الجانب السـوري يسـيطر حزب العمال الكردستاني على الأرض، وبشكل أدق: فرعها هناك «وحـدات حماية الشـعب»، التـي اجتمع مقاتلوهـا تحت راية أوجـلان. لقد فتحت وحدات حماية الشعب ممراً من خلال إنشاء سلسلة من نقاط التجميع والمعسكرات على طول الطريق إلى الداخل السـوري، وأحضروا اللاجئين من الجبل – في البداية سـيراً عـلى الأقدام، وأحيانـاً حملاً على الظهـور، كما حدث مع الشـابة التي وضعت وليدهـا للتو بكيزا، ثم لاحقاً بشـاحنات نقل الحصى وسـيارات البيك آب. وقد تم تجهيـز النقـاط الأمامية بأطباء ومـاء الشرب وحمالات، وسـوت الحفارات الأرض لإقامـة مخيـم تجميع كبير، وتم إحضار الخيام المخزنة من كوارث لاجئين سـابقة من كل حـدب وصوب. «صادرنا كل العربات المتوفـرة»، كما قال أنوار خليل، الرئيس ذو الذراع الواحدة لمخيم نوروز أكبر مخيم تجميع بالقرب من بلدة ديريك (المالكية) السـورية، حيـث تم إيواء قرابـة 12000 شـخص. ومن هناك تمت إعـادة الفارين إلى الإقليـم الكردي الآمن في شـمال العراق، حيث أقلتهم حافـلات منظمة الهجرة الدوليـة، المنظمـة الشريكـة للأمـم المتحـدة، إلى المخيـمات والقرى والمـدن المحيطة بمدينـة دهـوك. هنـا وجدوا ملجـأ في أي مكان يمكن السـكن فيه – كـما هو الحال في مبنى فندق قيد الإنشـاء مكون من 13 طابقاً. من فترة ما بين 9 ولغاية 14 آب/ أغسـطس تم إنقـاذ ما بـين 40000 و 50000 إيزيدي عبر الطريـق الالتفافية عبر سوريا.[1]

كانـت واحـدة من أكـبر وأكثر عمليـات الإنقاذ دراميـة خلال العقـود الماضية، والتي جرت في البداية دون أن ينتبه إليها الرأي العام العالمي. مع العلم أن الحسابات الإنسـانية لم تكـن هي وحدهـا التي دفعت حـزب العمال الكردسـتاني للتحرك، بل

أيضاً المصلحة الخاصة بعيدة النظر: فبعد جبل سنجار تقع مدينة ربيعة، التي لا تسيطر عليها حكومة بارزاني الكردية ذات السياسة العدائية في الغالب، وعن طريقها يتم نقل مقاتلي حزب العمال الكردستاني وعتادهم من جبال قنديل إلى سوريا، والعكس. وقد تكون خسارة المنطقة بأسرها وخيمة العواقب للقدرة على المناورة وتوفير الإمدادات لحزب العمال.

وبينما كانت وحدات حزب العمال تقوم يومياً بإيصال الآلاف عبر المناطق السورية إلى المعبر الحدودي العراقي فيشخابور، كانت واشنطن تمعن التفكير في كيفية إنقاذ الإيزيديين من جبل سنجار بواسطة جسر جوي. وعندما هبطت القوات الخاصة الأمريكية على الجبل في 13 آب/ أغسطس واستكشفت الوضع، فوجئت أن عدد اللاجئين أقل من المتوقع بكثير. لم يتبقَ هناك في الأعلى سوى ما يقدر بنحو ألف شخص. من سمات هذه الفوضى في كردستان أنها أراحت الجيش الأمريكي من عملية الإجلاء المنهجية لأولئك الذين تقطعت بهم السبل.

واجهت واشنطن مأزقاً: فطوال أشهر عديدة قلل الرئيس الأمريكي من شأن الخطر المحدق، لكي لا يضطر للانجرار إلى حرب جديدة. فقد فاز مرتين بالانتخابات بسبب انسحاب القوات الأمريكية من الحملات العسكرية في العراق وأفغانستان، التي كان سلفه قد شنّها. لم تكن هناك رغبة بالمقامرة بهذا الشعار الانتخابي الناجح، ولا سيما منذ إدراك أن أي تدخل في العراق إلى جانب المالكي لن يكون نصراً على الإرهاب، بل يعني تصعيداً للكراهية. والآن، فجأة، ودون أي مخطط مسبق، بل من مبدأ الدفاع عن النفس وبسبب تزايد الضغط الدولي، شاركت الولايات المتحدة الأمريكية في حرب جديدة في العراق. وفي 8 آب/ أغسطس بدأت أولى هجمات الطائرات بدون طيار على مواقع داعش. ولكن تأثير تلك الهجمات كان محدوداً في البداية، تماماً مثل هجمات مقاتلات إف 18 الأمريكية المتقطعة، بخاصة وأن داعش يسيطر على سائر المنطقة.

في 14 آب/ أغسطس، وبالتزامن تقريباً مع حديث أوباما عن النجاحات في كسر حلقة الحصار المفروض على سنجار، أغلقت القيادة الأمريكية من جديد آخر طرق الإجلاء، التي كانت آخر طوق للنجاة بالنسبة لآلاف الإيزيديين. سحب دخان كثيفة وداكنة، كانت الشيء الوحيد الذي كان من الممكن رؤيته من الشارع المؤدي إلى جبل سنجار، عندما كانت قذائف الهاون تتساقط على مسافات غير بعيدة. وبذعر كان سائقو الشاحنات الراجعون عبر الممر ينبهون السائقين القادمين بالاتجاه المعاكس هاتفين: «إنهم يطلقون النار!»

في صباح اليوم نفسه توقفت مولودة بكيزا وهادي عن التنفس. كانت خديدا في سن الأربعة أيام. لم يكن بالإمكان معرفة السبب بدقة، كما قال الطبيب الذي عالجها في مخيم نوروز: «بسبب كل شيء.» الحرارة في قمة الجبل، العطش، الرياح المستمرة المليئة بالغبار والفضلات، الجوع. لقد كانت ضعيفة جداً عندما وصلت إلى المخيم.

وبقطعة من البلاستيك حفر هادي حفرة على بُعد بضعة أمتار خلف خيام المخيم. شاهده أحد المسعفين السوريين هناك وهو يحمل صرةً على ذراعه. وأراد مساعدة الأبوين في توفير بعض الكرامة على الأقل، فما كان منه إلا أن سأل في مقبرة القرية المجاورة، فيما إذا كان فيها مكان لخديدا، مجرد قبر صغير. وبينما كانت الحشود المنهكة تصعد الشاحنات المتوجهة إلى العراق، أرسلتهم إدارة المقبرة إلى أمن حزب العمال الكردستاني، ومن هناك أُرسلوا إلى إدارة المخيم، ومن ثم إلى المقبرة من جديد. لم يكن أحد يريد أن يتحمل مسؤولية دفن طفل إيزيدي ميت من العراق في الأراضي السورية. إلى أن تعاطف حارس المقبرة مع هادي وبكيزا، وسمح لهما بدفن ابنتهما في مقبرة القرية.

لم يعد لدى الأشخاص الذين تم إنقاذهم من الجبل سوى أرواحهم. فقد ضاع كل شيء، قراهم، وحقولهم، ومنازلهم، التي أقدم داعش في الأسابيع والأشهر التالية على تفجيرها بشكل منهجي. كما أنه لم يعد بمقدور كثيرين أن يتصوروا أن يعودوا لممارسة حياتهم كما في السابق. «كيف لنا أن نثق بالعرب مرة أخرى؟»،

يتساءل بحيرة الشاب الإيزيدي مصطفى عيدو، الذي شاهد رجالاً من قرية تلعفر المجاورة يقومون بعمليات القتل. «لم يعد لحياتنا وجود، حتى وإن زال داعش.»

نهج داعش، الذي كان ناجحاً في بعض المناطق السورية فقط، سار على ما يرام في العراق، في الموصل وأيضاً في محيط سنجار: فقد تمكن الجهاديون من تجنيد أعداد كبيرة من العرب السنة، الذين كانوا يخضعون لسنوات لوصاية حكومة المالكي التي اتبعت تمييزاً عنصرياً، أو ربما كانوا لا يزالون أسيري الحنين إلى هيمنتهم السابقة في عهد صدام حسين التي فقدوها. هذه النظرة القصيرة الأمد، المتمثلة بالاعتماد على همجيي داعش، كانت قاتلة، ولكن إلى أن اكتشف سنة العراق ذلك، كان الأوان قد فات. فمن غير الممكن إعادة مراجعة المواقف المتعلقة بالخيانة والقتل الوحشي، في حال تمكنت القوات العراقية أو الكردية من استعادة المناطق التي خسرتها. حينها سيكون انتقام العائدين شنيعاً، بخاصة عندما تأتي المليشيات الشيعية من بغداد وجنوب العراق، التي مارست بدورها في السنوات السابقة القسوة بصفة رسمية.

من كان قد استكان ورضي بداعش، فقد بات رهينة له ضمن دينامية انتقام خاصة بالكاد يمكن وقفها. فهناك ثمن للمشاركة بأعمال النهب الرخيصة، وأعمال القتل الوحشية، والاغتصاب والسبي، ويبدو أن الذين خانوا جيرانهم بمحض إراداتهم لم يفكروا في العواقب الباهظة الثمن. تماماً على نقيض استراتيجيي «الخلافة»، الذين برعوا في إظهار فظاعاتهم في سنجار، تماماً كما فعلوا لاحقاً في إظهار أنهم رحيمو القلب. فمن خلال أفعالهم تعمد مقاتلو داعش بشكل جلي اعتبار الإيزيديين أنهم «عبدة الشيطان» وكفار، ويجب قتلهم حتى دون أن يرتكبوا إثماً، وأن تؤخذ نساؤهم سبايا. ولكن بعد قتل المئات وأسر المئات، وربما آلاف النساء والفتيات، بثّ الجهاديون مقطع فيديو مثيراً للدهشة بعد أسابيع على الهجوم الذي شنوه. ففي أجواء تفيض بالسماحة والرحمة جلس «الخليفة» بين شابين يرتعدان من الخوف، كانا إيزيديين سابقاً. وأوضح أن باب التوبة سيبقى مفتوحاً وأن من يريد اتباع الطريق القويم، فهو مرحب به دوماً – تماماً مثل هذين الشابين، اللذين تخليا عن دينهما المبتدع واعتنقا الإسلام. هكذا كانت الرسالة التي كررها وهو يبتسم.[2]

الوحشية المحمومة والرأفة المفرطة صنوان متلازمان لهوية "الدولة الإسلامية"، وبالنسبة للشخص غير المطلع فسيرى مشهداً مضطرباً. غير أن هذه التوليفة هي وسيلة شديدة الفعالية، وصل من خلالها داعش إلى مبتغاه: الاستسلام. فالمعنى الحرفي للإسلام هو "الخضوع لله"، والذي يمثله رسمياً، حسب قناعات داعش، أبو بكر البغدادي بصفته "الخليفة إبراهيم" منذ 29 حزيران/ يونيو 2014. إن جذر كلمة إسلام هو "س – ل – م"، والمشتقة منه كلمة "سلام"، وفي ذات الوقت كلمة "استسلام"؛ و"الدولة الإسلامية" تنتهج الربط بين المفهومين.

يعد الاستناد على الانتصارات الساحقة التي حققها النبي محمد قبل قرابة 1400 عام وسيلة ناجعة للاستيلاء على السلطة. لكنّ هناك طريقاً للخلاص بالنسبة لجميع أولئك الذي يرون فجأة الجحيم في اقتراب قوات داعش الجرارة؛ وهذا الأمر ينطبق حتى على الإيزيديين، الذين يُعتبرون من الضالين، فقد اتبعوا طريق الضلال طوال ألف سنة. لقد كانت رسالة الفيديو الدعائي واضحة: عليكم الاستسلام والتسليم بالإله الجديد. عندها ستعيشون.

ذات الرسالة تنطبق على النساء اللائي خُطفن بشكل مُستهدف في أول أيام الهجمات. كان جلاوزة داعش يهددونهن بالموت باستمرار أو بما هو أسوأ، إذا لم يتخلين عن دينهن، وكانوا يعطونهن في حرارة الشمس الصيفية الحارقة بضع رشفات من الشاي أو دلواً مليئاً بماء الغسيل ليروين ظمأهن، وكانوا في المقابل يحاولون إغواءهن: "ستحصلن على كمية وفيرة من المياه العذبة، بقدر ما تشأن، إذا اعتنقتن الإسلام." ولبضعة أيام، وأحياناً أسابيع، كانت بعض المختطفات لا يزلن يتصلن من هاتف محمول خبأنه معهن، وأخبرن أنه تم نقلهن إلى سجن سابق في الموصل أو إلى مسجد في مدينة تلعفر – واستمرت الاتصالات إلى أن فرغت آخر بطاريات الهاتف المحمول.

بعدها نجحت قرابة 200 امرأة وفتاة في الفرار، ومنهن الشابة ابنة الـ 20 ربيعاً ناديا مراد بيس، التي وصفت كيف سُجنت مع فتيات أخريات في مقرات مختلفة

كسبايا. لم يكن يريد الرجال، الذين تناوبوا عليهن، منهن شيئاً - باستثناء اعتناق الإسلام. كانت ناديا محظوظة أثناء هربها، فقد تمكنت من الوصول إلى أطراف الموصل والتقت بأسرة ساعدتها بالفعل عندما طرقت بابها.[3]

معظم النساء، اللواتي تمكن من الهرب من قبضة داعش، روين رحلة عذاب مشابهة من مكان لآخر، وتحدثن أحياناً بشكل مباشر، غالباً من خلال التلميح بحدوث حالات اغتصاب، كما روين أن الرجال كانوا يترددون عليهن باستمرار لاختيار زوجة منهن. كما تعرضت بعض الفتيات لضرب شديد يصل أحياناً إلى درجة فقدان الوعي، كما روت بعض الهاربات. بعضهن حاولن الانتحار. كما وصفت وفاء، ابنة الـ 27 عاماً، تجربتها لمنظمة العفو الدولية، فقد حاولت وفاء وضع حد للرعب الذي تعيشه: «قال لنا الرجل الذي احتجزني واحتجز شقيقتي، إما أن نتزوجه هو وشقيقه، أو سيبيعنا. وفي الليل حاولنا أن نخنق أنفسنا بغطائي رأسينا. ربطناهما حول عنقينا وشددنا بكل ما أوتينا من قوة. إلى أن أُغمي علينا. وفي تلك الأثناء استيقظت فتاتان كانتا محجوزتين معنا، ومنعتانا عن فعل ذلك. بقينا مستيقظتين حتى الساعة الخامسة صباحاً، وأعدنا الكَرة مرة أخرى. لكنهما استيقظتا ثانية ومنعتانا. بعدها لم أتمكن من الكلام لأيام.»[4] كان بعض الرجال غرباء، كما روت النساء الهاربات، وكان آخرون تجاراً من الموصل - وجِيراناً سابقين من القرى السنية المجاورة، وكانوا يتكلمون اللهجة الكردية ذاتها. كما أُخذ العديد من الفتيات الهاربات إلى أُسر «مالكيهن» الجدد، وتفاهمن فجأة مع أطفال ونساء محتجزيهن - اللواتي ساعدن العديد من الفتيات على الهرب.[5]

لم يتضح بدقة عدد النساء اللائي تم أخذهن من محيط سنجار في شهر آب/ أغسطس 2014. ومن عدة قرى لم ينجُ إلا عدد قليل من الشاهدات، اللواتي تمكن من الإدلاء بمعلومات عن الأخريات اللواتي قُتلن أو اختُطفن. وفي منتصف شهر آب/ أغسطس قدرت الخبيرة الأمريكية كريستين فان دين تورن، التي تابعت مصير اللاجئين الإيزيديين في كردستان، العدد بنحو 500، ولكن لا تزال المعلومات غير متوفرة من عدة مناطق.[6] بينما تفترض تقديرات لاحقة أن عدد الفتيات والنساء

المختطفـات يناهـز آلافاً. ومما شـكك مـن مصداقية تلـك المعلومـات، ميول بعض وسـائل الإعلام إلى تزييف هذه الوحشـية المروعة أصلاً بصـور مزورة: كصور عن «سـوق النخاسـة في الموصـل»، فقد انتشرت صـور لإحدى المظاهـرات الرمزية في مصر لنسـاء في قفص حديدي تم تركيبه على سـيارة[7]، ولموكب عزاء عاشـوراء في إيـران[8]، وكذلك قائمة مختلقة لأسـعار بيـع الإماء[9]؛ وجثة لفتـاة مقطوعة الرأس مـن قِبل جنود سـوريين تم تصنيفها على أنهـا من ضحايا داعـش[10]، وبيان داعش المزعـوم أن عـلى جميع النسـاء في الموصـل أن يخضعن لعمليـات ختـان[11]، تبين أنه تزوير فوتوشوب. انتشرت هذه الأخبار المزيفة آلاف المرات على تويتر والفيسبوك، وغـذّت بدورهـا الأسـطورة لـدى المتعاطفين مـع داعش، بـأن كافة الفظائـع التي ارتكبتها «الدولة الإسلامية» لا تتعدى كونها افتراءات.

في خضـم الضوضـاء التـي أصبحـت مـن المسـلمات مـن خـلال التغريـدات والمنشـورات، التي تنتشر في غضون ثوانٍ، تنمو عوالم رقمية موازية تراشـقية تسمح لمؤيـدي جميـع التوجهـات الفكرية التحـرك في دائرة إثبـات الذات فقـط. إنها عوالم عقائديـة، تغذيهـا نظريات المؤامرة، وتعطي لنفسـها الحق في تمثيـل الواقع الحقيقي، ويقوم مؤيدوها باصطفاء ما يناسب رغباتهم من بوتقة هذه الضوضاء العارمة. لقد كانت حالة صور الإثباتات المزعومة لسوق النخاسة في الموصل ساذجة جداً، وكان الأجـدر نـشر أخبار حقيقية عن الفظائـع التي يرتكبها داعـش والمتوفرة بكثرة، عن قطع الرؤوس، الإعدامات، الصلب، وغيرها مما يدور في تلك الأذهان السادية.

وحتـى فيما يخص اتخاذ الإيزيديات كسـبايا، لم تكتم «الدولة الإسـلامية» الأمر: ففـي الإصـدار الرابع لمجلتهـا الإلكترونيـة «دابق» شرحـت النصـوص الإعلانية لداعش بطريقة رهيبة لا مبالية تفسـيراً فقهياً، حول السـبب وراء اعتبار تلك النساء سـبايا ويَحل بيعهن وفقاً لشرع الله. بل أكثر من ذلك: وهو أن أي اعتراض على ذاك التفسـير قـد يعني إنكاراً لآيـات القرآن وأحاديـث النبي، أي يُعتبر كفـراً. إن ما تم نشره على تلك الصفحات الأربع وكذلك في مجمل المجلة، كان تركيباً لعالم متناقض

متكامل ومحكم الإغلاق. أما الواقع فهو لا يزال موجوداً إلى حد ما فقط، لطالما كان يوفر إثباتات لأحاديث وتصرفات من زمن النبي.

يبدأ المقال بالتمهيد من خلال تفسير من هم الإيزيديون، وأنهم يعبدون دون الله ملكاً عاصياً على هيئة طاووس - «أي كفر واستكبار أكبر من هذا؟» - «قبل السيطرة على سنجار كُلف طلبة العلم الشرعي بالقيام بالبحث في أمر الإيزيديين ليتم تحديد هل يجب معاملتهم كطائفة شركية في الأصل أم إنها جماعة من المسلمين الذين ارتدوا.» وعليه فإنه يمكن للمرتدين أن يُستتابوا فوراً أو يُواجهوا القتل، أما المشركون فإنه «يجوز سبي نسائهم». تمت دراسة آراء الفقهاء والاستشهاد بأحاديث النبي محمد. حتى إن النص يحتوي على ملاحظة هامشية في أسفل الصفحة، وكأن المرء يريد إضفاء ظاهر الموضوعية العلمية على هذا الكون المغلق. وقد أُورد الحديث الذي يذكر الاسترقاق كإحدى علامات قيام الساعة، وهي «أن تلد الأمة ربتها». لذا فإن زمن كثرة الفتوحات يتمثل بـ«جلب الرقيق من بلاد الكفر». بعدها «يكثر عدول الناس عند النكاح إلى التسري فقط.» وهذا يوضح من أين استمد أبو محمد العدناني، المتحدث باسم داعش، إلهامه، بأن هذه المعارك الراهنة ستكون الأخيرة: «إلا أنه هذه المرة نحن من سيغزوكم بعدها، ولن تغزونا أبداً. وسوف نفتح روماكم، ونكسر صلبانكم، ونسبي نساءكم، بإذن الله تعالى.» وحتى من الناحية الأخلاقية فإن الاسترقاق أمر سديد، حسبما خُتم المقال، بحيث إن الرجل الذي لا يستطيع الزواج أو تسول له نفسه ارتكاب معصية الزنا مع الخادمة، فإن تمتع بـ«ملك يمينه لكانت هذه العلاقة مباحة.»

يتأرجح النص بين الآيات والأحاديث، لإضفاء قدسية عليه في محاولة لتقديمه كبرهان دامغ. وبلغة رصينة وتصميم جذاب يقدم كتّاب النص أنفسهم وكأنهم من رواد القرن السابع. إن كل ما ورد من مسوغات سمجة في النص استند إلى تحليل مقتضب: إذ لم يعد هناك داعٍ للتبرير، ففي عالم داعش لا وجود لأي مرجعية تتطلب التبرير - باستثناء شرع الله، ولكنهم على كل الأحوال يدعون أنهم يفعلون ما يفعلونه باسمه. لقد خلقت «الدولة الإسلامية» عالمها المتماسك الخاص، الذي لم يعد بحاجة

لقياسه بعالم آخر. عالم أعلن الحرب على الآخرين، وسينتصر، كما تثبت العلامات. وقد شكل هذا العالم عرضاً مثالياً للحالمين بالسلطة المطلقة والفاشلين والساخطين، ولكل بائسي العالم، سواء أكانوا بائسين حقاً أم يتخيلون أنهم في وضع بائس.

ولكن، مع كل ذلك يبقى شيء واحد مبهماً: لماذا هاجم داعش سنجار أصلاً؟ فمنطقة سنجار لا تحتوي على آبار نفط أو مصانع أو مدن غنية. هل كان السبب فعلاً التقليد الدقيق لسيرة النبي، والإيمان الخالص بالدعاية التي أطلقها داعش لكي يتمكن من غزو قرى المشركين، ونحر الرجال وقبل كل شيء استرقاق النساء؟ في وقت سابق كان المقاتلون قد انقلبوا على إخوتهم في الدين، بعد أن أوجدوا مبررات لقتلهم. أم إن سبب غزو سنجار كان المعبر الحدودي في بلدة ربيعة، الذي كان مهماً جداً بالنسبة لـ «الدولة الإسلامية»؟ ففي نهاية المطاف، كان يتم إيصال الجهاديين من سوريا إلى العراق عبر هذه الطريق إلى تنظيم القاعدة في العراق، الذي انبثق عنه داعش. يقع المعبر في جنوب مناطق الأكراد وفي أقصى الطرف الشمالي لقلب العراق، ولا يسيطر على المعبر أي طرف فعلياً – وعلاوة على ذلك كان هذا المعبر من أهم المعابر بالنسبة لحزب العمال الكردستاني، بحيث كان يستخدمه لجلب مقاتليه من جبل قنديل في شمال العراق إلى سوريا. أم إن السبب كان ربما وجود العديد من التركمان السنة في قيادة داعش، وهم من مدينة تلعفر أصلاً، التي ينبغي تأمين عدم الاستيلاء عليها؟

قبل الهجوم على سنجار لم يُقدم داعش على شنّ أي هجوم دون التحضير له بعناية مسبقاً وبشكل محسوب. فالهجوم بالنسبة لداعش يعني النصر، ولكل عدو أوانه. لكن هذه المرة أخطأ الجهاديون في الحسابات. ففظائعهم المرتكبة بحق الإيزيديين لم تكن أسوأ من مجازرهم السابقة، ولكنها كانت موجهة ضد أقلية، وقوبلت بصدمة عالمية، يغذيها إعلام حكومة الإقليم الكردي. فبدأ سلاح الجو الأمريكي بقصف مواقع داعش في العراق. ولم يكن هدف الجهاديين جرّ الولايات المتحدة إلى التدخل، فقد كان الجهاديون يسعون من وراء فظائعهم الشنيعة إلى إثارة الخوف، ولكن دون استثارة أية مقاومة ضدهم. ولكن الهجوم الفاشل على سنجار

عاد على داعش بعواقب وخيمة من ناحيتين: فللمرة الأولى يتعين على الجهاديين الانسحاب، كما أنه بتدخل الولايات المتحدة أصبح للجهاديين خصم جديد قوي.

وبدلاً من التريث والتزام الهدوء، نظراً لهذه النكسات، لجأ استراتيجيو داعش إلى التصعيد. ربما ظنوا أن بإمكانهم ثني الولايات المتحدة عن التدخل من خلال إعدام الصحافيين الأمريكيين جيمس فولي وستيفن سوتلوف. ربما كان عليهم فعل شيء ما لإرضاء أتباعهم المتطرفين. على أية حال، لم يؤدِ تنفيذ الإعدام إلى ردع الولايات المتحدة، وإنما إلى المواجهة: فقد أظهر استطلاع للرأي، أجرته صحيفة واشنطن بوست، ارتفاع نسبة المؤيدين الأمريكيين لشنّ ضربات جوية ضد داعش منذ منتصف شهر حزيران/ يونيو 2014 بنسبة 26 في المائة، فوصلت نسبتهم إلى 71 بعد أن كانت 45 في المائة. وفجأة أصبح هنالك خصم حقيقي، ربما لن يسحق «الدولة الإسلامية»، ولكن بإمكانه الحد من تمددها مبدئياً.

9

من يقطع الرؤوس يحظى بالمصداقية

«الدولة الإسلامية» والإعلام

يـدرك اسـتراتيجيو الإعـلام في داعش ما الـذي يتوقعـه الجمهور منهـم. إيقاع تصريحاتهم الرنانة، وتغريداتهـم، وفيديوهاتهم، وصورهم، غطى على مدى القبضة الحديديـة الممسـكة بمملكتهم بإحكام. لقد حدد اسـتراتيجيو داعـش صورتنا عن «الدولة الإسـلامية». ولهذا الغرض غيّروا مسـميات ضحاياهم، واستعاروا أمواتاً وكذبوا بما يتلاءم مع صورتهم.

بحيوية مفعمة يتوجه إلى «قلب الخلافة». ومن على تلة يتحدث مراسـل برنامج اليـوم وهو يحرص عـلى أن تظهر لهجة صوته وكأنه يتمتع بمـزاج جيد: «نحن نقف على ارتفاع عالٍ جداً في الموصل، مطل على ثاني أكبر مدن العراق، وهي تحت سيطرة كاملة للدولة الإسـلامية لأكثر من خمسة أشـهر!» الجسور والطرقات السريعة تقود إلى صخب الأزقة القديمة، عبر السـوق، والمراسـل خلف مقود السيارة: «حصلنا عـلى إذن لزيـارة المشـفى الرئيـسي.» ولكن الآن عليـه أن يتحدث بصـوت خافت، «لأن هؤلاء الأطفال شديدو الحساسية بسبب الانفجارات»، التي تلقيها الطائرات الأمريكية.

اسـمه: جون كانتلي. حتى وقت بثّ هذا الفيديو البهيج كان قد مضى على كانتلي 25 شـهراً وهـو تحت رحمـة سـجّانيه. كانتلي هو آخر رهينـة بريطانية لـدى «الدولة

الإسلامية»، بعد أن قُطعت رؤوس خمسة بريطانيين وأمريكيين منذ شهر آب/ أغسطس. «أعيروني سمعكم»، هكذا يدعى برنامج كانتلي الإخباري، الذي يروّج أسبوعاً بعد أسبوع لأولئك الذين يريدون قتله في أي وقت. في البداية ظهر شاحباً وهزيلاً، ولكن الإضاءة حوله كانت ممتازة، وقد جلس كانتلي أمام طاولة بنية وكأنه مذيع نشرة إخبارية: «مرحباً، اسمي جون كانتلي، المواطن البريطاني الذي تخلت عني حكومتي والمأسور منذ زمن طويل عند الدولة الإسلامية.» كانت الكاميرات تُظهره تارةً من الأمام، وتارةً من الجانب، وتقترب الكاميرا من وجهه الشاحب غير الحليق، وعينيه الغائرتين في جحريهما، وكان كانتلي يتحدث لإنقاذ حياته: «كونوا معي في الحلقة القادمة»، هكذا كان يودع متابعيه بعد قرابة ست دقائق.

في البداية كان يرتدي لباساً برتقالياً، مثل سجناء معتقل غوانتانامو. ولكن من فيلم لآخر أصبح مظهره عادياً. وفي الفيديو، الذي أخذ فيه المشاهدين في جولة في الموصل، كان يرتدي ثياباً غربية مدنية، وكان يسخر أمام الكاميرا من أن «الإعلام يحب تصوير الحياة في الدولة الإسلامية على أنها موحشة، الناس يمشون في ذل بسلاسل تضربهم قوانين حكم استبدادي. لكن بغض النظر عن الجو الشتوي البارد، وطقس شهر كانون أول/ ديسمبر المشمس، فإن العيش هنا في الموصل طبيعي.»[1]

ومع كل النصائح الساخرة، ومع كل الاستكشافات التمثيلية لعابر السبيل الفضولي، يبقى الفيديو، الذي مدته ثماني دقائق، محاكاة دعائية شيطانية لواقع مغاير: أن الكهرباء غير متوفرة تقريباً، وأن الناس يعانون من البؤس – فهذا مجرد هراء لا صحة له. وأن داعش ينهار ببطء بسبب الغارات الجوية وعدم قدرته على التحمل – فهذا كله خاطئ، «فالدولة الإسلامية بإمكانها التحمل. وستنتصر!» غير أن المذهل هو ليست كلمات كانتلي، بل الادعاء الصارخ المبالغ فيه بأن الواقع يبدو هكذا: كانتلي، السجين، يجلس خلف مقود السيارة، ويقودها عبر شوارع الموصل يوحي بحرية، هو لا يمتلكها. حتى إنه سُمح له قيادة دراجة شرطة نارية، وخلفه يجلس رجل يرتدي زياً أسود ويحمل رشاشين. ثم يمزح كانتلي عندما تترنح الدراجة قليلاً، «لم أقد دراجة نارية منذ زمن»، ثم ينطلق بسرعة من أمام الكاميرا، مشغلاً

صافرة الإنـذار: «سنقوم بدورية الآن!» حتى وإن كان يبدو أنه لا حاجة لوجود الشرطة في الموصل، لأن الوضع أصبح آمناً في الموصل حالياً.

منتجو أفلام داعش، الذين صمموا شعار قسمهم للإنتاج الإعلامي «الحياة» زخرفياً على شكل قطرة ماء على غرار قناة الجزيرة، أنتجوا برنامج «واقع افتراضي» بطريقة احترافية من حيث التصوير والمونتاج، وكانوا يتمتعون بثقة بالنفس لدرجة أنهم تمكنوا من جمع الهدوء والبهجة. يريدون أن يقولوا: انظروا هنا! هنا يوجد عالم آخر تماماً! تم تقديم كانتلي، والكل يعرف أن حياته على المحك. لكن ذلك غير مهم أو حتى يعزز رسالة مقاطعه المصورة، التي نشرها الجهاديون على الفيسبوك ومواقع تواصل اجتماعي أخرى، وحصدت «إعجابات» كثيرة.[2] لقد لجأ مخرجو داعش إلى استخدام أناس حقيقيين، مهددين بالموت من قِبلهم، ليطوّروها إلى شخصيات لعرضهم: في البداية السجين بالزي البرتقالي، في البداية عمليات القتل، ومن ثم الغربي المُطهر من الدنس بلباس طبيعي، الذي يجلس خلف المقود، ويجد أن كل شيء في «الخلافة» جيد وقويم.

لم يحدث من قبل أن قام تنظيم إرهابي باستخدام الإعلام بهذه البراعة كما تفعل «الدولة الإسلامية» بالذات، التي تعد بالعودة إلى عهد النبي. في المملكة العربية السعودية، التي تشبه جذور إيديولوجيتها الصارمة إيديولوجية داعش، كان هناك قبل أربعة عقود قتلى أثناء مظاهرات مناهضة لإدخال التلفزيون. فهو لم يكن موجوداً في عهد محمد.

والآن: «جحافل ثقافة البوب المدربة»، كما سماهم كاتب شبيغل غيورغ ديتس، تتقن التعامل بثقة عمياء مع إنتاج الفيديو ومواقع التواصل الاجتماعي، وقادرة على بثّ الحماسة، والتضليل، وخداع جمهور محدد. كما يتعاملون بمهارة مع المواضيع والرسائل المختلفة، ويُخرجون كل فيديو بشكل خاص بحسب الطرف المتلقي المقصود بالرسالة: هادئ ونظيف ومتعقل للمشاهد الغربي؛ عنيف ودموي للجمهور المحلي، الذي لا ينبغي إقناعه، وإنما ترويعه فقط. يتظاهرون بالتعددية وفي

الوقت ذاته يحافظون على تلك الصورة الصارمة، التي ينبغي أن تُرسم عنهم لدى أتباعهم وأعدائهم. يمكن التعرف على أمثلة عن ذلك من خلال 3 فيديوهات، ظهرت في شهر آب/ أغسطس 2014 في نفس التوقيت تقريباً: الأول يعرض قتل الأمريكي جيمس فولي. أما الفيديو الثاني فينبغي أن لا يدري به الغرب على الإطلاق. ولم يسترعِ الفيديو الثالث اهتمام أحد في الغرب.

فولي، الصحافي الذي اختُطف برفقة جون كانتلي في أواخر شهر تشرين ثاني/ نوفمبر 2012 في شمال سوريا، كان عليه أن يخاطب العالم من أمام كاميرا داعش: في ضوء نهار مناسب، وببزته الأرجوانية لسجناء غوانتانامو حمّل الولايات المتحدة مسؤولية موته، معرباً عن أسفه أنه ولد أمريكياً، وبرأ ذمة قتلته من دمه. عندما يصغي المرء إلى كلماته، دون مشاهدة الصورة، يبدو حديثه مدهشاً، إذ كان يتحدث هنا وكأنه إسلامي مقتنع بكل ما يقوله: «أدعو أصدقائي وأفراد عائلتي إلى النهوض في وجه قتلتي الحقيقيين، الحكومة الأمريكية. كل ما سيحدث لي هو مجرد نتيجة غطرستها وجرائمها!» وبصوت حازم ولهجة متيقنة أعلن فولي في الفيديو، أن الغارات الجوية الأمريكية هي المسؤولة عن مقتله. كما خاطب ضمير شقيقه جون، أن يفكر ملياً بوظيفته لدى سلاح الجو الأمريكي، و«بالأرواح التي تزهقها». رباطة جأشه، قلما توحي بأن يقوم بذلك تحت الإكراه. بعد ذلك يقدم فولي السكين لقاتله.

الفيديو مزعج بكل المقاييس. ففيه لا يتوسل أحد طالباً الرحمة كما هو الحال في فيديوهات التنظيمات الإرهابية الإسلامية السابقة لقطع الرؤوس، والتي لا يُثبت فيها الجناة في النهاية سوى وحشيتهم وسلطانهم الواضح على لحظة الجريمة الوجيزة. كانت رسالة فيديوهات داعش، المُخرَجة بطريقة رائعة تقنياً، مختلفة: انظروا، كما أعلنت كلمات ووضعية فولي، الذنب ليس ذنب قتلتي -بل أنتم المذنبون! لقد كان وقع كلماته في غاية الثقل؛ لأن الذي يتكلم سيتحمل عواقبها المريعة أيضاً. ولكن في حضرة الموت، حسب الرسالة المسترة، لا يمكن إجبار أحد على قول الكذب. بأية وسيلة يمكن إجباره أكثر من ذلك؟ لقد تم قلب الواقع بطريقة متقنة جداً.

ولكـي تصـل هـذه الرسـالة إلى جمهورهـا، تـم التظاهر بقطـع رأس فـولي أمام الكامـيرا.[3] لم تسـلْ قطـرة دم واحدة، عندما وضـع القاتل المحتمل السـكين على حنجـرة فولي، وراح يجز رقبته مجيئـاً وذهاباً. بعدها عُتمت الصورة. في البداية احتار خبراء التحقيقات الجنائية في فحوى هذا الإخراج الساخر، وبخاصة عندما ظهر في الوضعيـة التالية رأس فولي المقطوع وكان جسـده ملطخاً بالدم. وبنفس الطريقة تم إخراج إعدام الرهينة الثانية، الصحافي الأمريكي سـتيفن سوتلوف.[4] أبسط تفسير لذلك: ينبغي أن يبقى الفيديو متاحاً للمشاهدة من قِبل المشاهد الغربي. وفي الوقت ذاته، تشغيل خياله ليملأ بنفسه اللقطة المحذوفة بين وضع السكين على الرقبة ونتيجة الخوف في اللقطة التالية. هذا الأسـلوب السـينمائي اسـتخدمه هيتشـكوك وكذلك أفلام هوليوود، وهو ذات الأسلوب الذي لجأ إليه مخرجو مشهد قتل حقيقي.

أما الفيديو الثاني فقد جاء مختلفاً جذرياً، وظهر في شـهر آب/ أغسـطس 2014 أيضـاً. أظهـر الفيديـو، الـذي بُـث دون عمليـة مونتـاج، كيف أقـدم قتلـة «الدولة الإسـلامية» على قتل أفراد من عشيرة الشـعيطات بالقرب من مدينة دير الزور. من الصعـب أن يجـد المرء كلمات تصف ما حدث في تلـك الدقائق الإحدى عشرة. كان الضحايـا، الذيـن لا يزالـون على قيـد الحياة، مسـتلقين على الأرض، قبـل أن تُقطع أعناقهـم واحداً تلـو الآخر، ويتم فصل الرأس عن الجذع. وفي خضم كل ما يجري، يُسـمع ضحك الجزارين: «لديه وجنتان ممتلئتان! أنت، انظر إلى السكين عندما أجز رأسك!» كانوا يتكلمون اللغة العربية بلهجة مغربية ومصرية.

كان هذا الفيديو موجهاً لسـوق مختلفـة: للرعية الخاضعين في مناطق نفوذ «دولة الخلافـة»، وبخاصة لأولئك الذين قد يتجرأون عـلى مقاومتها. تماماً كما فعل رجال الشـعيطات، الذين نُحروا أمام الكاميرا. لم تضل الرسالة طريقها: ففي نهاية المطاف طلب شيخ الشعيطات المغفرة والرحمة من داعش.

بالنسـبة لأولئـك الذين يجب القضـاء عليهم، وجّه داعش رسـالة وحيدة فقط: فليتملككم الرعب! إذ يتوجب بثّ الذعر الجماعي لدى الخصوم قبل الزحف، على

الرغم من قلة أعداد جحافل داعش في معظم الأحيان. وقد آتت هذه السياسة ثمارها في كثير من المناطق السورية والعراقية، كما حدث مع قوات البيشمركة الكردية، التي فرّت ببساطة في مطلع شهر آب/ أغسطس 2014 من جميع المناطق تقريباً. وهذا ما حصل في سنجار أيضاً، في المدينة والقرى والجبل الذي يحمل ذات الاسم، الذي لجأ إليه عشرات آلاف الإيزيديين الذين فرّوا في اللحظة الأخيرة، عندما شنّ داعش هجوماً خاطفاً من الجهة الغربية في 3 آب/ أغسطس.

الفيديو الثالث، الذي بُثّ في شهر آب/ أغسطس 2014 أيضاً ولم يسترعِ اهتمام الغرب، نشره داعش على شبكة الإنترنت بعد أسابيع على حملة الإبادة والقتل والخطف التي شنّها ضد آلاف الإيزيديين. في هذا الفيلم الدعائي جلس، (كما تمت الإشارة في الفصل السابق)، زعيم داعش البغدادي، الذي نُصب «خليفة» رسمياً، بين شابين خائفين كانا من أتباع الديانة الإيزيدية سابقاً، ووضّح لهما أن اعتناقهما الإسلام أنقذ حياتهما. يستعرض الفيديو رحمة البغدادي الواسعة، وكان فيديو محيراً للمُشاهد، مثل فيديوهات الإعدامات الوحشية.[5]

برنامج ريبورتاجات جون كانتلي، والكلمات الأخيرة لجيمس فولي، وطمأنينة أبي بكر البغدادي المرعبة بجوار شابين إيزيديين - قد تبدو تلك الفيديوهات مختلفة بعضها عن بعض تماماً للوهلة الأولى، ولكنها تنتهج نمطاً متطابقاً ذا صورة محددة. الرسالة المتكررة هي: أن يعترف المستسلمون الصاغرون بالسلطة الشرعية لمستعبديهم. وليس من المهم أن يقوموا بذلك عن طواعية. لكن من غير المسموح اتخاذ قرار الإرادة الحرة في عالم «الدولة الإسلامية» المنغلق بإحكام. فكل شيء منصوص عليه في كتاب الله وسنة رسوله. أما ما تفعله قيادة «الخلافة» فهو مجرد تنفيذ أحكام الله، ولذا فإن انتقادها أو حتى مقاومتها، يعد شركاً بالله، وعقابه الموت، وهو الأمر الذي شدّد عليه فيديو القتل الشنيع لمقاتلي الشعيطات.

من ناحية أخرى، فبالنسبة لأولئك الذين أصبحوا جزءاً من «الدولة الإسلامية»، أعدّ داعش رسالة سارة عن حياة مثيرة وأخوية وتحب الأسرة، في طوباوية «دولة

الخلافة» الموجودة واقعياً: ففيما يخص الذرية الجديدة تم تحريف لعبة الكمبيوتر «سرقة السيارات الكبرى 5»، بحيث يظهر فيها المقاتلون وراية داعش السوداء. وفي سلسلة الفيديوهات القصيرة «Mujatweets» يحكي أيضاً مقاتلون ألمان عن حياتهم الرائعة في ظل «دولة الخلافة». المَشاهد من عالم التآخي متعدد الثقافة موجهة للشباب المسلم في الغرب، الذين يشعرون بأنه تم تجاهلهم وتهميشهم: انظروا (وفق الرسالة)، الجميع لدينا سواسية! والجهاد لا يعرف حدوداً، حسبما توحي هذه الصور، فالجهاد يربط الأواصر ويبعث على السعادة. كما تُسبّح نساء متعصبات في المنتديات والمدونات على الإنترنت بحمد الحياة الأسرية في زمن الحرب، والشرف الذي تحظى به أرملة الشهيد. وفي مشهد شاعري تحت الأشجار جلست مجموعة من الجهاديين من بريطانيا ودول أخرى، وشددوا على أن الله قال إن «الشام أفضل بلاد الجهاد». وفي أوروبا ربما لا يكون المسلم ميسوراً، ولكنه غير سعيد بالتأكيد. كما أن محمداً قال ذات مرة: «عليكم بالجهاد، فإنه باب من أبواب الجنة، يدفع الله به عن النفوس الهم والغم.» وابتسموا جميعاً تحت ظلال أوراق الشجرة الخضراء الوارفة.[6]

هكذا هو التلفزيون العصري، الذي يستهدف شرائح محددة تتابع المجازر والمسلسلات اليومية المبتذلة، وقد أنجز بطريقة حرفية وحديثة لدرجة أن منافسين مثل القاعدة يبدون متخلفين أمامه. أو كما وصفته صحيفة نيويورك تايمز: «جهاد الإنترنت 3.0».[7] من الممكن رؤية مدى تحجر القاعدة مقارنة بداعش من خلال مقارنة لفيديو ظهر في منتصف شهر أيلول/ سبتمبر 2014 وفيه إحدى رسائل القاعدة التي أصبحت شبه نادرة: في الفيديو يحاضر أيمن الظواهري، زعيم القاعدة المصري الذي عفّى عليه الزمن، لأكثر من 55 دقيقة مملة، عن إنشاء فرع جديد للقاعدة في شبه القارة الهندية.[8] لم يظهر في الفيديو مقاتلون يطلقون النار، ولا دبابات متحركة وأرتال سيارات هامفي تشق طريقها في الصحراء (فقيادة القاعدة لا تمتلك عربات سريعة ولا شوارع غير مدمرة)، ولا مونتاج للقطات سريعة، ولا إثارة. ولكن، لهذا السبب بالضبط تلقى إنتاجات داعش إقبالاً، بحيث يتم

إطلاق النار على الكفار من سيارات متحركة، ومن بعيد تعلو كرات النار الناجمة عن الانفجارات، وهناك مقاتلون أشداء يطلقون النار من مدفع رشاش 14.5 ملم الثقيل. إذ يبدو المشهد مثل إصدارات عالية الدقة لألعاب كمبيوتر مثل لعبة «كاونتر سترايك» أو «نداء الواجب». هكذا يبدو الواقع في «أرض الخلافة»، وهو مفاد الرسالة أنه: عندنا هنا الألعاب حقيقة.

في مطلع شهر شباط/ فبراير 2015 أظهر فيديو عملية إحراق الطيار الأردني معاذ الكساسبة، وهو لا يزال حياً، بعد أن كانت طائرته قد سقطت بالقرب من الرقة. وكانت بين صور الرعب الحقيقية مشاهد من أفلام الخيال العلمي تمت منتجتها بسلاسة، وفيها يهاجم فرسان إحدى المدن وبجانبهم دبابات. وبهذه الطريقة أوجد داعش واقعاً هجيناً، عالم خيال يمزج الإنسان بالآلة. عالماً ينقل الاختلاف الراديكالي لـ "الدولة الإسلامية" إلى مستوى العواطف، تماماً كالاقتباسات القرآنية المنتشرة في رسائل داعش، التي مهمتها التأكيد على الشرعية الإلهية من خلال مخاطبة العقل.

فيديوهات «الدولة الإسلامية» ذات الاحترافية العالية لا تجمعها أية علاقة مع الصور الثابتة من حقبة التنظيم السلف قبل عشر سنوات: «في السابق كانت جودة صور فيديوهاتهم رديئة»، كما قال الباحث في الدراسات الإسلامية في لايبزيغ كريستوف غونتر، الذي يرصد إصدارات التنظيم الإعلامية منذ عام 2007. في معظم الأحيان كانت تُنشر على شبكة الإنترنت سابقاً تسجيلات صوتية باللغة العربية مدتها ساعات. بينما كان الجميع يدرك مدى أهمية الصورة الإعلامية منذ زمن. حتى إن الظواهري سبق أن ذكر في رسالة وجهها في عام 2005 إلى قيادة القاعدة العراقية، بأن «أكثر من نصف المعركة يدور في ميدان الإعلام، وإننا في معركة الإعلام في سباق على قلوب وعقول أمتنا».[9] غير أن قيادة القاعدة كانت تراوح مكانها في هذا السباق. على خلاف داعش الآن، الذي تحسن جهاده الرقمي منذ عام 2012 «بشكل متسارع»، حسب تقييم غونتر.

وفي هـذا العالم الجديد تُمثـل فيديوهات الرهائن، المُخرَجـة بعناية، أحد العناصر فقـط. إضافـة إلى ذلـك يصـول داعـش ويجـول في العالم الجديـد المتنوع للشـبكات الاجتماعية مثل تويتر، فيسـبوك، إنسـتغرام، تمبلر، واتسآب، جاست بيست، ساوند كلاود؛ ويسـتخدمه بطريقة ذكيـة أيضاً. وهذا كله يضمن أن الرسـائل التي يطلقها داعش ستصل إلى المتلقي المستهدف في جميع أنحاء العالم، حتى وإن جرت محاولات لإغلاق بعض القنوات الفردية.

قـام موقع يوتيوب بحجب فيديو إعدام فولي بعد قرابة سـاعة على نشره، ولكن مسـتخدمين قاموا بنشره على حسـابات أخرى مجدداً، وأشاروا إلى الروابط الجديدة عـن طريـق تويـتر.[10] ولكي لا يتجـاوب تويتر بسرعـة كبيرة ويتمكـن من حذف التغريدات، تم نشر فيديوهات كانتلي باسـتخدام وسـوم (هاشـتاغ) شائعة كتمويه، مثل هاشتاغ «#indyref» وهاشتاغ «#ScotlandDecides» حول الاستفتاء الذي سبق ونوقش حول اسـتقلال اسكتلندا.[11] كما استُخدمت وسوم أخرى شائعة جداً مثل هاشـتاغ بطولة كأس العالم، «#Brazil2014» أو هاشتاغ «#WC2014»، بهدف تحقيق انتشار إصدارات داعش على أوسع نطاق ممكن ولتقويض عمليات المراقبة.[12]

وهنـا، لا ينبغي أن يتخيل المرء أن اسـتراتيجيي داعش الرقميين هم مهووسـون ملتحـون يجلسـون في قبـو أحد المسـاجد في الرقـة. وبفضل شـبكة الإنترنت، تعين على القناة الرابعة البريطانية في شـهر كانون أول/ ديسـمبر 2014 الكشف عن أهم مغـرد – ربـما – لداعش على تويتر عن بُعد: الرجل، الذي ظهر تحت حسـاب تويتر «ShamiWitness@» وحسـابات أخرى، كان موظفاً مسؤولاً في إحدى الشركات في مدينـة بنغالـور الهندية، وادعى أنه لم يتمكـن من الذهاب إلى الجهاد بسـبب عائلته. وكان من خلال وجوده الرمزي المسـتعار على الإنترنت يحتفل باغتصاب المقاتلات الكرديـات المعتقلات، وأرسـل تغريـدات لفيديوهـات قطـع رأس الأمريكي بيتر كاسـيغ وغـيره مـن الرهائـن، إذ كان يغرد في كل دقيقـة لكي لا تختفـي المقاطع من الشـبكة. وقد أظهر مسح شمل 48 مليون تغريدة، أن 11 في المائة من أولئك الذين

يذكـرون تنظيم داعـش، يتحدثون عنه بطريقة إيجابية. وهي نسـبة أقـل مما هو عليه الحال في فرنسا (13 في المائة) وأكثر من الصين (10 في المائة).(13)

في العقد الماضي من الزمن نشأت السلطة الجديدة للمشاركين غير المباشرين من جميع أنحاء العالم. إذ لم يعد مستخدم الشبكات الاجتماعية محصوراً بإرسال منشورات شـخصية عبر الشـبكة، بل بدأ دوره يتنامى كناقل للمواضيـع والظواهر التي تحظى باهتمام العالم. وبات بإمكان المسـتخدمين بكبسـة زر وضع «إعجاب»، والمشـاركة، والتعليـق على ما يصلهم من الآخرين. إنه نظـام كرة الثلج، الذي يبطّئ جميع آليات الرقابة، ولكنه لا يوقفها. لم يستخدم أي تنظيم جهادي هذه السلطة الجديدة بشكل مثابـر وناجح مثل داعش.(14) كما أنه بارع ونشـيط في جعل سـيل أخباره يتدفق من حسـابات جديدة دوماً، وأسـماء مسـتخدمين جديدة، ووسوم شـائعة (ومن ناحية ثانية البحث عن أخرى تسـتوقف المتعاطفين في الغـرب).(15) يختلق داعش التنوع، في حين أنه في الواقع هناك سلسـلة نسـخ لا متناهية تقوم بنثر ذات الرسـائل دوماً. وفي تلـك الأثنـاء كان هناك حتى تطبيق «فجر البشـائر»، الذي طُـوّر ذاتياً للهواتف الذكيـة التي تعمـل بنظام الأندرويد: في حال قام المسـتخدم بتنصيـب التطبيق، يتم التحكم بحسـاب تويتر من الآن فصاعداً من قِبل مركز داعش الإعلامي، الذي لن يظهر بعد الآن كمرسـل للتغريدات، بل سـيتوارى خلف أسماء المستخدمين. وبهذه الطريقـة يتجنـب المركز الإعلامي خوارزميـات الرقابة المُثبتة من قِبـل تويتر، والتي تقـوم بتفعيـل خاصية حجـب البريد المزعـج عندما يصل عدد الأخبار المرسـلة من عنوان آي بي واحد إلى حد معين.(16)

أما إلى أي مدى بلغ تأثير هذا الأسلوب من التعامل مع تويتر، فقد ظهر في مطلع شـهر حزيران/ يونيو 2014، عندما هاجـم داعش الموصل. لقد أثار النصر السريع حالـة مـن الذعر عـلى كل حال، وزحفت قـوات داعش باتجاه الجنـوب، وفجأة بدا وكأن كل شيء ممكـن، عندما تم إطلاق 40000 تغريدة تحمل نفس تهديد الرعب، وبفضل التطبيق المذكور أصبحت خلال فترة وجيزة أعلى نتائج في عمليات البحث لكلمـة «بغـداد» تُظهر: مقاتـلاً ملتحياً يحمل رايـة داعش على مبنى عـالٍ في بغداد،

وعبارة «بغداد، نحن قادمون!»[17] لقد كان تزييفاً مضاعفاً: إذ لم يكن داعش يعتزم مهاجمة بغداد مباشرة، كما أنه لولا التلاعب لما تم إرسال هذا الكم الهائل من التغريدات. ولكن الأمرين كانا حيلة مثالية لإبقاء حالة الذعر سائدة.

كانت التهديدات عن التقدم نحو بغداد، التي شاعت بسرعة وتم تصديقها تلقائياً، مثالاً صارخاً عن التضليل الواعي، حسبما حلّل مسؤول استخبارات غربي، يُعنى منذ فترة طويلة باستراتيجية داعش: «حتى تلك اللحظة على الأقل لم يكونوا يعتزمون مهاجمة المدينة مباشرة!» لو اتبع الملثمون بالسواد دعايتهم وتوجهوا إلى بغداد، لكان طريقهم إلى الجنة أقصر نسبياً: ففي العاصمة وحدها كان هناك أكثر من 100000 جندي ومسلح شيعي متحفزين على أُهبة الاستعداد.

ووفقاً للنمط ذاته، بالغ مخرجو الصورة في إظهار أعمالهم الوحشية: فبعد المعارك القصيرة ما بين 11 و 14 حزيران/ يونيو، عندما اجتاح داعش مناطق السنة في شمال العراق واستولى عليها، رفع القسم الإعلامي فيديوهات الفظائع على الإنترنت. فوفق المعلومات الواردة قتل مسلحو داعش 1700 جندي شيعي تابعين للحكومة في مسقط رأس صدام تكريت – وقد تبنت وسائل إعلامية هذا الرقم فوراً دون أن تتأكد من صحته. فالمهم أنه كانت هناك صور متوفرة. ولكن، تلك الصور تُظهر على أبعد تقدير بضع عشرات من الجنود الأسرى، الذي قُتلوا بطريقة وحشية.

لا يمكن أن يختفي 1700 شخص بهذه السهولة، إذ سيترك موتهم أثراً على الأقل: مشيعين، جنازات، مسيرات احتجاج. غير أنه أينما بحث المرء في المدن العراقية الكبرى، فإنه لن يعثر على مظاهر حداد كبيرة، سواء في بغداد، أو في البصرة، أو في الحلة، أو في النجف. لكن باحثين تابعين لمنظمة حقوق الإنسان الأمريكية هيومن رايتس ووتش سلكوا طريقاً آخر بحثاً عن الحقيقة: فحصوا صور أقمار اصطناعية عالية الدقة بحثاً عن علامات لتحركات حديثة في الأرض، مثل القبور الجماعية، فعثروا على مقبرتين جماعيتين صغيرتين، تضمان ما يصل عدده إلى 200 جثة. «يرتكب داعش مجازر جماعية ويروج لها فوق ذلك»، حسبما علّق بيتر بوكيرت

مـن منظمة هيومن رايتس ووتش، باسـتغراب وغضب.[18] يبـدو أن داعش يروّج لنفسه أيضاً من خلال المجازر الجماعية، التي لم يرتكبها بهذا الحجم على الإطلاق.

أيـاً كان ما يشـيعه داعش عن جرائمه الهمجية، فقـد كان يؤخذ على محمل الجد. فمـن يقطـع الرؤوس يحظـى بالمصداقية. ولكن لمـاذا يا ترى؟ لمـاذا لا تبالغ «الدولة الإسـلامية» في همجيتهـا أكثـر مـن هذا الحد؟ حسـب ما هـو واضح، يتبـع داعش اسـتراتيجية مدروسة ومسـتهترة في نفس الوقت: فهو لا يريد نشر الرعب فحسب، بـل الكراهيـة أيضاً، فهو يسـعى إلى تحريـض خصومه - وهم الشـيعة في هذه الحالة - على القتل. مع العلم أن بغداد أصبحت بعد سنوات الإرهاب والحرب اعتباراً من عام 2004 بنسـبة 80 في المائة مدينة شـيعية. وهذه الحقيقة يعلمها داعش أيضاً ولهذا السـبب سـلك طريقاً غـير مباشر، على الأقـل لإغراق المدينـة في حرب أهلية طويلة الأمد، وذلك حسـب توقعات مسـؤول الاسـتخبارات، الـذي له باع طويل في دراسـة النهج الاسـتراتيجي لـ "الدولة الإسـلامية". «داعش بحاجة إلى كراهية الشـيعة، فهو بحاجة إلى أن يهاجموا السـنة. فعندما يصبح السنة المغلوب على أمرهم يائسـين تماماً ويقبلون بأي حليف، حينها سيتوجهون صوب داعش»، حسب تقييم رجل الاسـتخبارات. «الأمر شـبيه بعض الشيء بالجـزء الأول لفيلم باتمان للممثل كريسـتوفر نولان. لا يمكنهم مهاجمـة مدينة ميتروبوليس. ولكـن بإمكانهم تأجيج الصراعات الداخلية، إلى أن تنهار المدينة.»

«اسـتراتيجية المجـازر» لداعش، كما يسـميها الخبـير الأمريكي بشـؤون الشرق الأوسـط ومؤسـس موقع «jihadology.net» الإلكـتروني آرون زيلين: "هدفهم هو ليـس فقـط دب الرعب والخوف في نفوس الشـيعة، وإنما دفعهم عـلى التطرف، بأن ينضموا إلى المليشيات الممولة من إيران ويرتكبوا فظائع مشابهة بحق السنة. وبعدها تأمل 'الدولة الإسلامية' أن تتمكن من تنصيب نفسها كقوة حامية للسنة وبذا توطد سلطتها في معاقل السنة."[19] فالخوف من فرق الموت لدى الطرف الآخر هو أفضل سبيل للتجنيد.

عندما يتعلق الأمر بتكيف الواقع مع رسالة معينة، تتم المبالغة في جرائم القتل المرتكبة في بعض الأحيان، في حال تطابق الضحايا مع الإيديولوجية. وإذا لم ينسجم الضحايا مع الإيديولوجية، يتم تزوير هوياتهم. ففي سوريا انصب إرهاب وعمليات قتل داعش منذ شهر كانون ثاني/ يناير 2014 على المتمردين السنة، الذين يحاربون نظام بشار الأسد. بالمقابل، كان جهاديو داعش، الذين من المفترض أنهم الأعداء اللدودون المعلنون للنظام، بمنأى تام عن غارات الأسد الجوية حتى نهاية شهر حزيران/ يونيو 2014، الأمر الذي مكّنهم من توسيع قاعدة سلطتهم في الشمال السوري.

إلا أن كل شيء بدا مغايراً تماماً للواقع في دعاية داعش. قناة الرافدين الفضائية، التي كانت تبث برامجها من القاهرة وتديرها كوادر حزب البعث العراقي وتحظى بمتابعة كبيرة في العراق من قِبل السنة، كانت تعرض بشكل متواصل صوراً مرعبة لقتلى: جثث نصيرية (وصف مهين للعلويين) قام داعش في سوريا بقطع رؤوس أصحابها أو قتلهم بالرصاص أو فجّرهم، كما زُعم، فهم «جنود الأسد الكفار». وفي الحقيقة كانوا متمردين سنة، الذين شُنت ضدهم وحدهم حملات قتل في النصف الأول من العام. ما كانت قناة الرافدين تعرضه باستمرار كان تزويراً: لقد تم قلب الحقائق، من أجل تجييش السنة الذين يشعرون بالمرارة، وتحريضهم على الانتقام، ومن أجل نشر الخوف والرعب في صفوف الجنود الشيعة. ولم تسحب الحكومة المصرية الترخيص من القناة إلا بعد سقوط الموصل، بسبب ضغوطات من العراق.

وكذلك في الغرب أيضاً نجحت «الدولة الإسلامية» بشكل مدهش في رسم صورتها وفق رغباتها: فقد كانت التقارير الإخبارية عن ضحايا داعش تتبع كليشيهات معينة، على الأقل لا تنطبق في سوريا على الإطلاق. «وحشية ضد جميع معتنقي الديانات الأخرى: الشيعة، العلويين، المسيحيين، اليهود»، كما ذكرت قناة آر تي إل في شهر كانون ثاني/ يناير من عام 2014 [20]، وعلى نحو مشابه فعلت جميع وسائل الإعلام الأخرى – تماماً كما يفعل داعش ذاته. مع اختلاف واحد فقط: وهو أن معظم ضحايا داعش في سوريا في عام 2014 كانوا من السنة، في النصف الأول

من العام كان معظمهم من المتمردين من جميع الفصائل، بما فيها جبهة النصرة، وفي النصف الثاني من العام كان معظمهم من المدنيين. فالإرهاب ضد الأقليات يسترعي الاهتمام، أما الإرهاب ضد الغالبية (السنية) يتم تجاهله إلى حد كبير، فهو لا ينسجم مع الصورة التي رسمناها عن داعش. وفي الفترة منذ «إعلان الخلافة» في نهاية شهر حزيران/ يونيو فصّل المرصد السوري لحقوق الإنسان في بريطانيا أصل قرابة 1500 قتيل: 879 مدنياً من المناطق السنية في الشمال، من بينهم 700 من عشيرة الشعيطات، الذين ذُبحوا، عندما رفضت العشيرة الإذعان لداعش. 63 قتيلاً من جماعات المتمردين بما فيها جبهة النصرة، 483 جندياً من الجيش السوري، وأربعة رجال قتلهم داعش من صفوفه.[21]

لقد نجح الجهاديون بالتلاعب في إدراك الإنسان الغربي لأن الصورة التي أراد داعش رسمها لنفسه في الرأي العام العالمي تُشبع توقعات الجمهور الغربي: صورة لرعاع متطرفين، يؤمنون بإيديولوجيتهم بشكل أعمى ويعدمون معتنقي الديانات الأخرى. وعندما لا يقومون بذلك بشكل متواصل، بل يرتكبون مجازر بشكل مؤقت، وبحق جماعتهم الدينية الخاصة بشكل أساسي، على عكس ما يعلن داعش على الملأ، فإن المليشيا الإرهابية تختفي أحياناً بشكل تام من التغطية الإعلامية الخشبية.

أغرب عملية تزوير جرت كانت في شهر كانون ثاني/ يناير 2014: من خلال تغريدة أعلن جهادي، بالكاد كان نشطاً حتى ذلك التاريخ، يُكنى بأبي حفص عمرو الفارسي، أن «الله يستقبل جندي الدولة الإسلامية عثمان الألماني، الذي نفذ عملية استشهادية في قرية الكافات بالقرب من حمص وقتل 50 شبيحاً من النصيرية»، حسب اسم التحقير للعلويين. المدعو عثمان الألماني هو ابن الـ 26 ربيعاً روبرت باوم من مدينة زولينغن الذي اعتنق الإسلام، حسبما ذكرت السلطات الأمنية الألمانية. ألماني كانتحاري! 50 قتيلاً! هذا الخبر شدّ انتباه السلطات إلى حد كبير – ولكن يبدو أنها لا تمتلك خريطة جغرافية. ودون تحديد مصدر التغريدة أو على الأقل التحقق من تفاصيل المحتوى، تم تناقل خبر الهجوم المدهش وتلقفته وسائل

الإعـلام بنَهم. المشـكلة الوحيدة في الخبر، هي أن معلومات هـذه التغريدة مغلوطة كلها تقريباً.

تبـدأ التناقضـات من الموقع الجغـرافي: فقريـة الكافات لا تقـع في محافظة حمص السـورية، بل على الطرف الشرقي للمحافظة المجاورة. أما محافظة حمص كلها، فلم تشـهد طوال شـهر كانـون ثاني/ ينايـر 2014 أي تفجير ضخم. في الهجـوم، الذي زُعـم أنـه وقع في الكافات، لم يُقتل أي علوي أيضاً. وفوق ذلك كله: لم يكن هجوماً انتحارياً. وحتى في نشرات الأخبار الرسمية للإذاعة الرسمية كان الحديث عن سيارة مفخخة فقط، ولم يرد ذكر انتحاري. أحد الأطباء من مدينة السلمية المجاورة عالج عدة مصابين من قرية الكافات بعد الانفجار الذي وقع في 9 كانون ثاني/ يناير. وكما ذكر الطبيب لاحقاً، أن المصابين فوجئوا قبل حدوث الانفجار بسـيارة مركونة منذ ساعات أمام مدرسـة في مركز القرية: «عادةً لا يُسمح بالسيارات الخاصة بالوقوف هنا. كانت سـيارة فضية اللون من طراز سـابا، وهو طراز غير شـائع جداً، وأحياناً يسـتخدمه سائقو سيارات الأجرة. ثم انفجرت السيارة. بعد ذلك ركض رجل من الأمن العسكري في الشارع وصاح بصوت عالٍ أن أفغانياً كان جالساً خلف المقود. لكن ذلك غير معقول، فالكل يعلم أن الانفجار جاء من السـيارة المركونة. وعلاوة على ذلك: هناك ثلاث نقاط تفتيش قبل الوصول إلى المركز، فكيف يمكن لشخص ما أن يتجاوز بسـيارة مليئة بالمتفجرات كل تلك النقاط دون تفتيش؟ الأمر الغريب هو: أنه في اليوم الذي سـبق الانفجار جاء رجال أمن من فرعين مختلفين إلى مشـفانا للتفتيش. ولم يسـبق لهم أن قاموا بذلك قبلاً.» في الأسـابيع التي سبقت كانت هناك توترات بين مسـلحي مليشيات النظام وأهالي القرية، الذين جلّهم من الإسماعيليين تقريبـاً – وهـي أقلية صغـيرة حاولت البقاء عـلى الحياد في الحـرب. وكانت أجهزة النظـام الأمنية في المنطقة قـد عبّرت بوضوح، من خلال تحذيرات مبطنة بتهديدات، أن «الإرهابيـين سـيأتون قريبـاً. ولكـن لا معنـى لذلك، فأقـرب مواقـع المتمردين يقع على مسـافة بعيدة عنا»، حسـب الطبيب الذي سبق وأعطى تفاصيل أيضاً عن السلمية.

ترى، ماذا حلّ بروبرت باوم؟ لقد كان الجندي الخجول السابق في الجيش الألماني صاحب الوجه الودود قد اعتنق الإسلام قبل سنوات، وفي خريف عام 2012 سافر إلى مصر أولاً، ثم تابع إلى سوريا. وهناك فُقد أثره. وبعد موته بفترة وجيزة ظهرت صورة له وهو لا يزال حياً إلى جانب حصان في مكان ما في شمالي سوريا بين أشجار زيتون - نُشرت الصورة على صفحة الفيسبوك التابعة لنظام الأسد. تم الحصول على الصورة من جهادي يُدعى أبا دجانة الحمصي. لكنه أيضاً لم يسبق أن ظهر في أي مكان على الإطلاق. لقد كانت الشكوك السابقة حول التغريدة المريبة عن الإرهابي الألماني الخارق مشروعة، ففي شهر تشرين أول/ أكتوبر 2014 أعلن داعش بنفسه: عرضت قناة الفيديو الحياة، التابعة لداعش، صوراً لروبرت باوم وهو يجلس على مقعد الراكب الأمامي في سيارة، وإلى جواره صواعق وأسلاك. وقد أعلن على تويتر: أبو سارة الألماني، هكذا سُمي هذه المرة، فجّر نفسه وبرفقته اثنان آخران من الأجانب في 12 تشرين أول/ أكتوبر في بلدة قره تبة في شمالي العراق، أمام مبنى قوات الأمن الكردية.[22] وفي تغريدة على تويتر كان اسمه المستعار القديم لا يزال مكتوباً باللغة العربية تحت صورته.

اقتفاء الأثر هذا يُوضح عدة أشياء: أولاً، يبدو أن قسم الدعاية الخاص بشهداء داعش يسمي جهاديين أوروبيين، انتحاريين بشكل عشوائي ومتكرر أيضاً. ثانياً، يتم تصديق تصريحات قسم الدعاية وكأنها بلاغات رسمية. الإرهابيون لا يكذبون، يبدو أنها فرضية واسعة الانتشار، ولكن داعش يكذب باستمرار. وثالثاً: لم ينفِ داعش في شهر كانون ثاني/ يناير، عندما أعلن مصدر مجهول باسم داعش عن الهجوم الانتحاري لروبرت باوم الملقب بعثمان الألماني، مع أن الهجوم لم يحدث أصلاً. وفي حال كان ذلك دليلاً على تعاون ساخر مع المخابرات العسكرية السورية، فإن ذلك يعني أن الفائدة تعود على الطرفين: لدى نظام الأسد مذنب مثالي مسؤول عن التفجير، الذي يبث الخوف والرعب في منطقة ليست موالية للنظام بالضرورة - كما أن بإمكان داعش إضافة اعتداء جديد إلى رصيده، ولا سيما أن مُنفذ الهجوم هو ألماني اعتنق الإسلام.

تعرف «الدولة الإسلامية» تماماً كيف تتلاعب بالتغطية الإعلامية وبالصور التي تروجها، دون أن يبدو ذلك واضحاً على الفور: فهي تتقن فن التعامل مع توقعات وسائل الإعلام واحتياجاتها. وبالرغم من وفرة الصور وتنوعها في داخل «الدولة»، التي يتم تسويقها أيضاً عبر وكالات أنباء عالمية مثل أسوشيتد بريس ووكالة فرانس برس (أ ف ب) ورويترز، إلا أن المصورين يعملون تحت رقابة صارمة من قِبل سدنة داعش. إذ تتم دعوتهم لأداء قسم الولاء لـ«دولة الخلافة»، ويتوجب أن تخضع صورهم للرقابة. ولا يُسمح لهم بإرسال أية صورة سوى التي حصلت على موافقة. من يحاول الالتفاف على الرقابة، فهو يغامر بـ 100 جلدة. أما من يلحق الضرر بسمعة داعش، كما قال أحد أمرائه، فإن مصيره الموت.[23] وبالنسبة للوكالات التي تريد تجنيب مصوريها المستقلين هذه المخاطرة، فتستقي صورها بين الحين والآخر من الصور الرسمية التي ينشرها المكتب الإعلامي: التابع لـ«الدولة الإسلامية»، وتدافع عن استخدامها من مبدأ «القيمة التاريخية المعاصرة» لتلك الصور. «نحن ندرك أنها دعاية. ولكن في الوقت ذاته نحن ندرك أن على العالم أن يرى ما يحدث»، وفق توضيح باتريك باز، مدير قسم الشرق الأوسط في وكالة فرانس برس، وهو أحد ممثلي الوكالات القلائل جداً الذين قبلوا أصلاً، الإجابة علناً عن مصدر حصول وكالاتهم على صور من «دولة الخلافة».[24]

بين الحين والآخر يوجّه داعش دعوةً للمصورين لالتقاط الصور في مناسبات محددة: استعراضات عسكرية، إصدار إعلان رسمي، إعدامات. وبهذه الطريقة يتحول المصورون المحليون، سواء بشكل متعمد أو عن عدم دراية، إلى مراسلي مناسبات يلتقطون الصورة، التي تريد «الدولة الإسلامية» للعالم أجمع أن يعرفها عنها. لا تهم طبيعة التغطية الإخبارية عن داعش التي تقوم بها صحيفة أو محطة تلفزيونية ما: المهم أنها ستستخدم المادة الصورية التي يرغب داعش في إظهارها. وبصرف النظر عن اللقطات الخفية المرتبكة المأخوذة بالهواتف المحمولة، فإن محرر الصور يفضل استعمال الصور الغنية بصرياً، لمقاتلين مندفعين على سياراتهم البيك آب، بحيث تُلتقط هذه الصور بضوء مشبع لونياً عند غروب الشمس. وهي

الصور الوحيدة المتوفرة. الكل، المحررون والمصورون، يصبحون «جنوداً بشكل لا إرادي في حرب الأصوليين الدعائية»، كما قال آيدان وايت، مدير شبكة الصحافة الأخلاقية.[25]

غير أن الرأي العام بالكاد يلحظ ذلك، لأنه من النادر أن يشار إلى أن هذه الصور، التي تُنشر عشرات المرات على كل حال، هي مادة صورية دعائية. وفي نهاية المطاف، فإن الحرب بلا صور هي حرب بلا رأي عام. ناهيك عن أن أسماء الوكالات العالمية توحي برزانة وتنوع في تغطية الأحداث، وهذا الأمر لا وجود له تماماً. هل شاهد أحدنا صوراً لمقاتلين مصابين من داعش؟ أو لرجال منهكين، أو نائمين، أو يأكلون، أو يائسين؟ لمجاهدين فارين، أو خائفين، أو مولين الأدبار؟ عوضاً عن ذلك يظهر ذات الموضوع الرئيس دوماً: محاربون يتقدمون عبر المدن والسهوب بسياراتهم ذات الدفع الرباعي أو دباباتهم، والرايات خفاقة في مهب الريح، ومصابيح السيارات مضاءة أحياناً حتى في وضح النهار.

إذا سمح داعش في حالات استثنائية لصحافيين أجانب بالمجيء إلى عرينه ومغادرته من جديد أيضاً، فإن المسؤولين الإعلاميين يهتمون بهم ويشرفون عليهم، ولا يدعونهم يرون، إلا ما تنبغي عليهم رؤيته تحديداً. عندما دخلت شركة فايس الأمريكية للوسائط المتعددة إلى مناطق داعش، كانت هناك مناوشات خفيفة مع قوات الأسد - التي قلما كانت تحدث في السابق. لكن اللقطات غذّت الصورة - الخاطئة - عن قتال داعش لنظام الكفار، ولهذا السبب حظيت بانتشار واسع في الغرب. كما وضع داعش للصحافيين برنامج زيارة على النمط الكلاسيكي في الدول الديكتاتورية، وتضمن البرنامج زيارة السجناء، الذين - وكأنهم شخوصٌ من قصص كافكا القصيرة - كانوا يؤكدون أن عقوبة السجن بحقهم عادلة تماماً وأنهم استحقوا عقوبة الجلد.[26] واستُكملت رحلة الدعاية بالعديد من الحيل التمثيلية المبتكرة، مثل استصدار وثيقة مرور - وكأن الزوار المحاطين بإشراف تام يُسمح لهم بالتحرك لوحدهم بحرية لمدة خمس دقائق فقط.

بالمقابـل، نقل الصحافيـون لجمهورهم المحلي بطاعة، ما سُـمح لهـم برؤيته وما رُوي لهـم - مثـل تصريحات الأخـرق معتنق الإسـلام كريسـتيان إيمده مـن مدينة زولينغـن، والناشـط حالياً لدى داعش تحت اسـم أبي مالك، الـذي أعلن بكل ثقة، أنه عند الضرورة سيتم قتل «150، 200 أو 500 مليون شـخص»، «لا يهم».[27] ومـع أن الجهادي الألمـاني صاحب اللحيـة الوبريـة المتدفقة وتعابير الوجـه المترهلة بعض الشيء يشـبه قليلاً الممثل بيتر أوسـتينوف، الذي أدى دور الإمبراطور نيرون، بصفته مقاتلاً صلباً، إلا أن اختيار هذا الشخص لإجراء المقابلة يبدو أنه كان لإراحة الصحافي الألماني من جهد الترجمة.

لقد وصلت الرسـالة، «التطهير الديني الهائـل»[28] المزمع له أُخذ محمل الجد. قد يبدو أن نشر إعلانات القتل التي تطلقها مجموعة من القتلة لا يعد من باب الدعاية. ولكن المرء لا يجد في وسائل الإعلام أي تنويه إلى أن معظم ضحايا داعش حتى نهاية عام 2014 كانوا من إخوته في العقيدة السـنة الثائرين، وإلى أن داعش يقوم بتزييف انتمائهـم بعد الوفـاة. وبطبيعة الحال لا يريد داعش أيضاً أن يقـرأ ما يُكتب عنه، بأنه يبيع نفطه إلى النظام في دمشـق وبأنه يمنع مقاتليه المجتهدين من الاشـتباك مع جنود الأسد المنافقين. فتنظيم داعش يُقدّر الناس الذين ينفذون ما يُقال لهم، أو يواصلون نشر ما يُقال.

خـلال جولـة جون كانتـلي عبر الموصل لمـدة ثماني دقائق في شـهر كانـون أول/ ديسـمبر ثمة لحظة ربما يبوح فيها البريطاني بما يجـول بخاطره بالفعل: عندما حلقت طائرة، كانت على الأرجح طائرة استطلاع أمريكية، فوق سماء المدينة، صاح كانتلي: «ساعديني! ألقي قنبلة! أنت عديمة الجدوى! عديمة الجدوى بلا شك!» الضربات الجويـة عديمـة الجدوى من ناحيتـين: إذ ليس بمقدورها طرد داعـش من الموصل، وليس بمقدورها تحرير كانتلي كذلك.

10

النسخة العربية لكوريا الشمالية

الهيمنة والاقتصاد والحياة اليومية في «الدولة الإسلامية»

إن وجود «دولة الخلافة» ينتمي بالفعل إلى القرون الوسطى، ولكن على عكس ما هو متوقع: فثمة رقابة تامة حتى أدق التفاصيل في حياة أصغر قرية، وقد ازدهرت تجارة بيع صكوك الغفران، في ظل وهن الاقتصاد. و«بطاقة التوبة» تمنح الحماية من القتل التعسفي. ولكنها باهظة الثمن وصالحة لفترة قصيرة فقط.

في مطلع عام 2015 أصبحت «الدولة الإسلامية» واقعاً. ويتم قصفها جوياً عشرات المرات يومياً في مناطق مختلفة، ورسمياً ليس لها أي صديق، وهي من ناحيتها أعلنت الحرب على النظام العالمي. كما أنها تسيطر على مساحة تناهز 100000 كيلومتر مربع[1]، مقسمة بالتساوي بين الأراضي السورية والعراقية. علماً أن المساحة الفعلية ليس لها مغزى كبير؛ لأن معظم تلك المساحة هي عبارة عن صحراء. لكن الأمر الحاسم هنا هو ألا تنحسر مساحة هذه المنطقة - بالرغم من الضربات الجوية التي يشنّها التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة، وبالرغم من معارك داعش البرية مع المسلحين الأكراد والمتمردين السوريين وجنود الحكومتين العراقية والسورية.

لقد تزحزحت هذه المساحة بعض الشيء، كما حدث في جيب كوباني السوري المتاخم للحدود التركية، حيث تمكنت الضربات الجوية والمقاتلون الأكراد من

استعادة المدينة، بعد أن ساد اعتقاد أنها فُقدت تماماً. وعلى الجانب العراقي تمت استعادة جبل سنجار وبعض القرى المحيطة، كما تم فك طوق الحصار الذي كان يُطبق على مدينة آمرلي التي يقطنها تركمان شيعة وتقع في شمالي شرق العراق. إلا أن داعش استطاع ضم مناطق نفوذ جديدة له في محافظة الأنبار في غربي العراق والبادية في محافظة حمص السورية. وأما المدن، التي استولى عليها داعش منذ مطلع عام 2014، فلا يزال التنظيم محافظاً عليها في مطلع عام 2015: بدءاً من مدينة الباب المحافظة، والمدن الصغيرة شبه الليبرالية جرابلس ومنبج في أقصى الشمال، وعاصمة محافظة الرقة بالإضافة إلى مناطق أصغر مساحةً على طول نهر الفرات على الجانب السوري مروراً بحدود الدولة البالية وصولاً إلى مدينة الموصل التي كان يقطنها الملايين، والمدن الصغيرة الحويجة والفلوجة وعشرات المناطق الأصغر في غربي العراق. وحدها تكريت كانت مدينة متصارعاً عليها في شهر آذار/ مارس 2015.

ومن هذه الناحية فمن الحصافة الاستدلال على ما يلي: الدولة، التي أطلقت على نفسها اسم «دولة الخلافة»، باتت قائمة. ولا يمكن التنبؤ أبداً إلى متى ستبقى قائمة، أو إذا كانت في المستقبل المنظور ستنحسر مجدداً أو ستواصل توسعها، أو إذا كانت ستحافظ على طابعها الهجومي أو أنها ستغيره. إذن، فإن الهيمنة القائمة على مساحة بهذا الحجم تضم ملايين السكان تعني أن هناك صيغة ما للحكم، والإدارة، والاقتصاد – منذ أن استولى داعش على مناطق في سوريا معظمها في مطلع عام 2014 وفي العراق إلى حد كبير في شهر حزيران/ يونيو 2014. كما أن غياب الثورات وحركات التمرد في الداخل يعني أيضاً أن الهيمنة الجديدة الراديكالية بكل معنى الكلمة، نجحت بشتى الوسائل في الحفاظ على سيطرتها على المناطق التي اكتسبتها. ولكن، ماذا تعني «الهيمنة الإسلامية» بالتحديد؟ ما هي آلية عمل «الدولة الإسلامية» وكيف توفر متطلبات رعاياها؟ كيف يطبّق آلاف الجهاديين المتسللين من تونس والسعودية ومصر وبريطانيا وألمانيا وحتى إندونيسيا، والمنضوين تحت القيادة العراقية، «وعد الله»، الذي من خلاله يسوغون نهجهم في الفتوحات الدامية؟

لم يعـد بإمـكان أي صحافي دخـول مناطق داعش بشـكل سري منذ خريف عام 2013، فالرقابـة المفروضة على الطرق الرئيسـة محكمة وبغاية الدقة، وكذلك الأمر داخل المناطق التي تغطيها شـبكة من المخبرين، بحيث قد تصبح كل محاولة مكوث هنـاك بمثابة مصيدة. ورسـمياً، من الممكن دخول تلك الأراضي، إذا اسـتطاع المرء تقديم نفسـه للقسـم الإعلامي في «دولة الخلافة» على أنه ناطق محتمل بلسان داعش لنقـل الرسـائل المبتغاة. ولكن عندها، سـيخضع المرء لـلإشراف وتتم مرافقته تحت الرقابة عند الانتقال من لقاء إلى آخر، تماماً كما في عهد صدام حسين. حتى مطلع عام 2015 كان عدد الصحافيين الغربيين، الذين خطفهم داعش وباعهم أو قتلهم، أكثر من الذين سـمح لهم بمغادرة مناطقه مجدداً بأمان. ومع ذلك، للحصول على صورة أقـرب مـا يمكن إلى الصحة والواقع لما يحدث في داخل تلك المناطق، قام العديد من الأشـخاص المحليين، الذين راحوا يستقصون الحقائق من أجل إنجاز هذا الفصل، بجمع تفاصيل من مناطقهم طيلة عدة أشهر. بقي بعضهم طوال الوقت في منطقته، وآخـرون جـاؤوا وغادروا، ما دام ذلك ممكناً. على الجانب السـوري جمعوا تفاصيل مـن البـاب ومنبج والراعـي وجرابلس والرقـة ودير الزور، وعـلى الجانب العراقي مـن ضواحي الموصل وتكريت. أتـت معظم المعلومات من مصدرين أو ثلاثة – تم التحقـق مـن مصداقيتها قدر الإمكان – وكانت جميعهـا دقيقة على مدى فترة طويلة مـن الزمن. ولأن تلك المصادر كافة لا تزال تعيش في مناطق نفوذ داعش أو لا يزال أقاربها يعيشون هناك، تم اقتباس معلوماتها مع التحفظ على الأسماء.

في الوقت الذي كان كل توسع لنفوذ داعش في الجانب السوري مرتبطاً بمعارك واستغرق أكثر من سنة، تم الاستيلاء على أجزاء واسعة من غربي العراق في غضون فـترة زمنية قصيرة، وغالباً بقبول السـكان السـنة الذين يعيشـون هنـاك. لقد كانت المعطيـات الأوليـة مختلفـة: ففـي سـوريا تغلغلت طليعـة داعش بشـكل غير لافت قـدر الإمكان في تلك المناطق، التي خرجت عن سـيطرة نظام الأسـد أثناء الحرب. ولفترة طويلة تجنب داعش الدخول في صراعات مع الخصوم الأقوى، وكان يخطف ويقتل غرماءه في الخفاء. ومع مجيء شهر كانون ثاني/ يناير 2014 ضرب بكل قوة،

عندما حاولت جماعات المتمردين مجتمعة طرد «الدولة الإسلامية». وفي العراق سلك استراتيجيو داعش طريقاً مختلفاً في نقطة واحدة: بفضل ما اكتسبوه في سوريا من سمعة وشدة بأس أصبحوا، مثلما أصبح اسمهم سيئ الصيت، رمزاً للزحف الخاطف المفاجئ في شهر حزيران/ يونيو 2014، الذي استولى التنظيم من خلاله على أجزاء واسعة من غربي العراق. وقبل ذلك كانوا يسيطرون منذ مطلع العام على مدينة الفلوجة فقط. الكراهية الموجهة ضد سياسة حكومة نوري المالكي العنصرية جعلتهم محرِرين مرحباً بهم لدى كثير من السنة، حتى وإن فرَّ مئات الآلاف من الشيعة والمسيحيين والإيزيديين، فضلاً عن عائلات رجال الشرطة والجنود وموظفي الدولة.

ولكن بالرغم من اختلاف المعطيات الأولية، إلا أن هناك تشابهاً كبيراً في الولايات السورية والعراقية. واليوم تسري فيها جميعاً نفس المراسيم، ولكافة الولايات نفس الهيكلية المكونة من أجهزة أمن مختلفة، وحتى إن الحالة المزاجية للسكان في الشطرين تصبح أكثر تقارباً مع الأيام: يهيمن عليها الخوف والريبة وانعدام الأمل. كل هذا على الرغم من أن الجهاديين من الناحية العددية لا يشكلون قوة خارقة ولا في أي منطقة من المناطق. لكن «الدولة الإسلامية» تعمل بشكل مختلف عن المحاولات التنافسية للاستحواذ الجهادي على السلطة. منافسها الأكثر قوة وعصرية، تنظيم القاعدة في شبه الجزيرة العربية، حاول في اليمن دائماً كسب القبائل المتنفذة في صفه منذ قديم الأزل. كما أن أسامة بن لادن، الذي ينحدر أبوه من اليمن أصلاً، كان قد حذّر قبل موته من أن الخطر الأكبر ليس من الولايات المتحدة، وليس من الجيش اليمني أيضاً: بل من اتخاذ القبائل كأعداء.[2] وقد سارت القاعدة في اليمن على هذا النهج، وكُللت محاولاتها بالنجاح أحياناً بفضل حملتها المنظمة «قلوب وعقول»، بهدف كسب قلوب المواطنين وعقولهم، وكأن التنظيم يقلد القوات الأمريكية في العراق وفي أفغانستان، والتي حاولت القيام بأمر مماثل هناك. ولكن في بعض الأحيان حصدت تجربة الاستمالة فشلاً ذريعاً، عندما كان

أحد مقاتلي التنظيم يقتل رجلاً واحداً فقط من قبيلة أخرى، كانت القبيلة كلها تهب فجأة ضد جبهة الأصوليين.

سلك داعش نهجاً مغايراً. ثمة عنصر تأسيسي لهيمنته مكون من مجزرتين. لم تُرتكب هاتان المجزرتان بحق إيزيديي سنجار، ولا بحق الجنود السوريين السنة والعلويين، ولم تُرتكب أية مجزرة بحق من يسميهم داعش أعداءً له، وهم الأقليات الدينية، بل: بحق عشيرتين سنيتين كبيرتين، واللتين من المفترض أنهما متحمستان لأن يأتي حكم السنة أخيراً، واللتين كان بوسعهما الدفاع عن نفسيهما من الداخل. لكن عندما كان لا يزال بمقدور العشيرتين السنيتين الدفاع عن نفسيهما، لم يتوقعا أن يتم اكتساحهما البتة. وعندما أرادتا الدفاع عن نفسيهما، كان الأوان قد فات.

حلّت الكارثة أولاً بعشيرة الشعيطات في محافظة دير الزور النفطية في سوريا في شهر آب/ أغسطس 2014. هذه العشيرة، التي ذُبح رجالها بوحشية لا توصف، كانت في نظر داعش: قوية أكثر من اللازم. إذ توجد تحت أرض قراها حقول نفط هائلة وسهلة الاستخراج، وقد أصبحت العشيرة قبل عام ونصف غنية بفضلها. فما إن انسحبت قوات الأسد في خريف عام 2012، حتى استحوذت الشعيطات على الآبار، وراحت تبيع النفط الخام بعشرة دولارات للبرميل الواحد، وسرعان ما اشتُهر رجالها بأنهم يقومون بوزن رزم الليرات السورية، بدلاً من عدّ الأوراق النقدية الكثيرة. كانت الشعيطات تبيع النفط لكل من يستطيع دفع الثمن، إلى حكومة الأسد وكذلك المتمردين، بأسلوب براغماتي تماماً، كما أقرّ أحد زعماء العشيرة في صيف عام 2013: «إذا لم أعطِ شيئاً للنظام، فسيمحون القرية بأكملها بضرباتهم الجوية. وإذا لم أبع للمتمردين، فسيهاجمون حقل النفط.»[3] تمتلك العشيرة ما يصل تعداده إلى 3000 رجل مسلح بأسلحة ثقيلة: رشاشات «دوشكا»، عيار 5 ,14 ملم و22 ملم، مثبتة على سيارات بيك آب، ومدافع مضادة للطائرات، ودبابات، وبندقية كلاشينكوف لكل رجل، وذخائر، سعر كل طلقة دولار واحد. ليس هناك نقص، لا بالمال ولا بالسلاح.

قبل اغتنام ترسانات سلاح الفرق العسكرية العراقية كانت فرص داعش في التغلب على مليشيا عشيرة الشعيطات ضئيلة. ولكن بعد الاستيلاء على الموصل في صيف عام 2014 انقلبت الموازين وانتقلت قوات «الدولة الإسلامية» إلى الهجوم. لقد بدت هزيمة الشعيطات واضحة للعيان، وقد طلبت الشعيطات المساعدة من جماعات متمردة أخرى، ومن واشنطن نفسها، ولكن لم يلبِ أحد النداء. فضلاً عن ذلك، لم يكن بإمكان أحد الوصول إلى مناطقها براً، وكانت الشعيطات آخر قوة في المنطقة تصدت لداعش. «كنا نعرف أنه لم تعد أمامنا أية فرصة»، حسبما اختصر الوضع أحد الذين لاذوا بالفرار.[4] وفي منتصف شهر تموز/ يوليو عقدت الشعيطات هدنة مع «الدولة الإسلامية»، وتقدمت قوات «الخلافة»، ولكن مقاتلي العشيرة كانوا لا يزالون يرفضون تسليم سلاحهم.

بدأت النهاية، كما في كثير من الأحيان، بسيجارة: قبضت دورية لداعش على مدخن وقام عناصر الدورية بجلده. فأطلق شقيقه النار على رجال داعش وأردى أحدهم قتيلاً. أُلقي القبض عليه وقُطع رأسه، عندئذ ثارت ثائرة قرية أبو حمام بأكملها، واقتحم رجالها مركز داعش المحلي وطردوا من كان فيه. وكأن القيادة العسكرية لأبي بكر البغدادي كانت تتحين تلك اللحظة بفارغ الصبر، فتقدمت الآن قوات الجهاديين العسكرية وقصفت الشعيطات بالمدفعية الثقيلة والدبابات وراجمات الصواريخ. استسلمت العشيرة بعد ثلاثة أيام. تم محو قرية أبو حمام وبعض القرى الصغيرة المحيطة عن بكرة أبيها، واقتيد الرجال فوق سن الـ 15 وأعدموا رمياً بالرصاص أو بقطع الرأس أو الصلب، وتم تشريد النساء والأطفال. وصادر الجهاديون الماشية والأثاث والسيارات، ونسفوا العديد من المنازل أمام الكاميرا.

تم تسجيل كل ذلك في مقطع الفيديو، وبذا يكون كل واحد قد فهم فحوى الرسالة، التي وردت بصوت أحد رجال داعش: «كان هذا منزل أحد كفار الشعيطات. هذا إنذار إلى جميع العشائر، بأن تطيع الدولة الإسلامية بإذعان.»[5] تناقلت التقارير أن عدد القتلى 700، ولكن لا أحد يعرف العدد بالضبط. وفي شهر كانون أول/ ديسمبر عُثر على قبر جماعي يضم 230 جثة، عندما سُمح لبعض

الأهـالي بالعودة. لقـد خالفت الشـعيطات «شرع الله»، كما أعلن القسـم الإعلامي «للخلافـة». «الآن نحن نكره كل من يصلي»، حسـبما لخـص أحد الناجين في تركيا، «حتى إننا نكره اللحى.»[6]

وفي بدايـة شـهر تشرين ثاني/ نوفمـبر 2014 جاء الدور على عشـيرة البونمر في محافظـة الأنبار العراقية: لم تكن العشـيرة تريـد الرضوخ لداعش، حتـى إنها طلبت المساعدة من المليشيات العراقية التابعة للحكومة في بغداد. الأمر الذي يُعتبر تدنيساً للمحرمـات. في غضـون أيام قُتل قرابـة 700 رجل وامرأة وطفـل رمياً بالرصاص عـلى يد فرق الإعـدام[7]، وتم رمي بعـض الجثث في الآبار. وخلافـاً للهجمات على مدينة كوباني الكردية، وعلى الإيزيديين في سـنجار، وكذلك خلافاً لإعدام الرهائن الأمريـكان والبريطانيـين، لم يكن هنـاك أي غضب دولي أو ضربـات جوية إنقاذية. وبينـما بقي العالم صامتاً إزاء جرائم القتل الجماعي، كانت رسـالة المجزرة قد فُهمت محليـاً: مـن يتمـرد، فسيُسـحق. وكذلك أيضاً من تدور حوله شـكوك، في أن نفسـه تُسوّل له التمرد، فهو مهدد بالإبادة. لم تعد هناك حيادية، وقبل كل شيء: لا مفر.

«لقد جمعوا كافة التفاصيل عن كل واحد منا»، قال مقاتل سابق في كتيبة منحلة، كانت تابعة للجيش السوري الحر، بتوتر لوكالة الأنباء رويترز، وروى عن عمليات الجـرد التـي أجراها داعش لجميع رجال المنطقة. «أنشـأوا قوائم تحتوي على أسـمائنا الثلاثيـة، ومـن شـارك في القتـال ضدنا وبأي سـلاح وبـأي معركة، ولكننـا لم نكن نـدري، لأي غـرض يفعلـون ذلك. هل يريـدون جعلنا نعمل بالسـخرة لديهم؟ أم مراقبتنـا؟ أم مصـادرة ممتلكاتنا؟» كان يتحدث من سـيارته، التـي ركنها أمام مقهى إنترنت. حيث عليه الذهاب إلى هناك بعد أن صادر داعش جهاز المودم خاصته.[8]

كان الجنـدي مـن بلـدة سـهيل، الواقعة في محافظة ديـر الزور وتعـد معقل جبهة النصرة، وهاجمها داعش في شـهر تموز/ يوليو أثناء شهر رمضان. استسـلم المدافعون بعـد سـاعات قليلة. كان الشـيخ حسـين راج العبود أحد قادة جبهـة النصرة هناك، وسـبق له أن قضى سـنوات طويلة في سـجن صيدنايا مع الصحافي السـوري دياب

سرية. «كنا نسميه 'دكتور الإسلام'، لأنه كان سلفياً، قرأ كل شيء بالفعل، ودرس في السعودية. كان يسخر مني دائماً لأني صادق وذكي، ولكن علتي الوحيدة للأسف، هي أني ديمقراطي." كان العبود من بين الذين أطلق النظام السوري سراحهم في عام 2011، وبعدها عاد إلى مسقط رأسه وانضم إلى جبهة النصرة هناك. بعد ذلك انقطعت أخباره عن زميله السجين السابق العلماني، إلى أن شاهده مجدداً في مقطع فيديو في خريف عام 2014: "كان جالساً وصامتاً تماماً في مجلس ولاء في الخيمة وقد نكّس عقاله"، في إشارة إلى التنازل والخنوع. "ثم قال بعد ذلك، إنه كان غير مؤمن في الماضي، والآن يُقسم على الولاء لـ'الدولة الإسلامية'، وإنه من الآن فصاعداً سيعيش حياته مسلماً مطيعاً. هذا سخف، سخف مطلق! لقد كان ملتزماً أكثر من جميع الدواعش مجتمعين، ولكنه الآن مجرد ظل لشخصه."

لم يكن داعش يعير اهتماماً للعقيدة أثناء سيطرته على آخر محافظة متمردة في مركز سلطانه – بل كان يهمه الخنوع التام لتلك العشائر والكتائب، التي لم تنضم إلى عرينه طواعية وستبقى دائماً بؤرة محتملة للتمرد، في حال تُركت وشأنها. ومنذ زمن طويل كانت عشائر دير الزور قد تصدت بعناد لداعش، الذي حاول عبثاً مراراً أن يستولي على وادي الفرات. ولكن الآن لم يعد أمام المقاومين أية فرصة. ولا سيما أنه في الأيام التي سبقت الهجوم، كثّفت طائرات نظام الأسد غاراتها الجوية على معاقل الفصائل السورية المتمردة، وقصفت الميادين والبوكمال وسهيل. وجرى سير الاشتباكات وفق النمط المجرب منذ مطلع العام: سنقصف من أجل تمهيد الطريق، هكذا كان لسان حال المساعدة الجوية التي قدمتها دمشق. في السنتين الماضيتين تعرضت تلك المناطق للهجوم، ولكن بشكل نادر مقارنة بحلب والمدن الواقعة في غربي سوريا. فمسافة التحليق كانت بعيدة جداً، ناهيك عن أن آخر المطارات العسكرية في الشرق كانت تتعرض للقصف غالباً. ولكن الأشهر السابقة شهدت هدوءاً نسبياً، إلى أن تقدم داعش. وبعد الاستسلام توجب على جميع سكان سهيل البالغ عددهم 30000 إلى 40000 مغادرة بلدتهم لمدة أسبوع، لكي يتسنى للتنظيم

تفتيش منازلهم ومصادرة جميع أسلحتهم. بعدها سُمح لهم بالعودة، ولكنهم بقوا تحت رقابة صارمة، كما تم إبلاغهم.

جهود الإقناع الودودة، والنداءات، وما إلى ذلك من الأساليب، التي لجأت إليها التنظيمات الإرهابية السابقة مثل القاعدة، لاستمالة أنصار لها وكسبهم في صفوفها، ضربت بها "الدولة الإسلامية" عرض الحائط. وحتى الإسلام هو بالنسبة لقيادة داعش ليس غاية، وإنما وسيلة. وعوضاً عن ذلك، كان كل شيء في ملكوت أبي بكر البغدادي يدور حول مفهومين رئيسين: الهيمنة والعنف. أما الأخير، فقد كان يُستخدم أحياناً، لكن الهيمنة تغلغلت في عمق نسيج المجتمع. من خارجه، ومن داخله أيضاً.

وفقاً لنظام محنك أُوكلت إلى «المهاجرين» مناصب قيادية متوسطة: كمنصب أمير منطقة ما، أو شيخ محكمة شرعية، بحيث يتمتع أصحاب هذه المناصب بسلطة اسمية على السكان المحليين. لكنهم لا يمكثون طويلاً في مكان معين، بل يُنقلون كل بضعة أشهر إلى الموقع التالي. فأمير منبج تم نقله إلى جرابلس، التي نُقل أميرها إلى الباب، وهكذا دواليك. فجرابلس مثلاً تناوب عليها ثلاثة أمراء خلال نصف عام. إذ لا ينبغي لأحد أن يتمكن من بناء قاعدة سلطة خارج إطار القيادة الفعلية. لكن معظم المتشددين الوافدين من جميع أنحاء العالم لا تتم ترقيتهم من هذا المستوى الوظيفي أبداً، بل ينتهي بهم المطاف كانتحاريين، أو كوقود للحرب على خطوط الجبهات، أو يُسمح لهم في الفيديوهات الدعائية أن يُسبّحوا بحمد الوطن الجديد، مثل الألماني مغني الراب السابق عديم الموهبة دينيس كاسبيرت الذي كان يُعرف باسم «ديسو دوغ»، واختار لنفسه لقب «أبو طلحة الألماني». وعلى أبعد تقدير فإن هناك حاجة فعلية لمختصين، كالأطباء والمهندسين. مثل تقني الاتصالات التونسي، الذي يتولى صيانة الشبكة في الرقة، أو ذاك الكيميائي الأمريكي الأردني، الذي يُزعم أنه حصل على قنابل الغاز السام القديمة المُغتنمة في العراق، لكي يطوّرها إلى أسلحة كيماوية في مختبر في الرقة.

حتى أبو عمر الشيشاني، قائد القوات المسلحة الاسمي في تنظيم داعش الذي يظهر على كثير من الجبهات، لا يملك السلطة التي يتظاهر بها، وقد ظهر هذا الأمر جلياً من خلال واقعة حدثت في خريف عام 2014. ففي شهر تشرين أول/ أكتوبر حدثت مواجهة درامية على جبهة كوباني. إذ وجد مقاتلون أوزبك أنفسهم في خط المواجهة الأمامي، عندما انسحبت الوحدة الشيشانية التابعة لداعش فجأة، الأمر الذي سهّل عملية تطويق الأوزبك. فقُتل 65 منهم. فما كان من قادتهم المشتاطين غضباً إلا أن توجّهوا إلى الرقة على الفور، لكي يحاصروا مقر الشيشان هناك. وكانت معارك مفتوحة على وشك الاندلاع. عندها تدخل أبو بكر البغدادي وأصدر أوامره: يجب على الفور قتل القائدين الشيشانيين أو الثلاثة، الذين يتحملون مسؤولية ما حدث في كوباني. وهذا ما تم تنفيذه فعلاً. في حين لم ينبس أبو عمر الشيشاني ببنت شفة فيما يتعلق بالقضية برمتها، مع أنه يتقلد منصب القائد الأعلى في «الدولة الإسلامية» وفوق ذلك كله شيشاني الأصل. علماً أنه (وربما قد لعب ذلك دوراً في الحسابات) ليس شيشانياً في نهاية المطاف، بل من جورجيا، ولهذا السبب يستهزئ به كثيرون وينعتونه بالمغتر الثرثار وبأبي عمر «غروزينتز»، أي أبي عمر الجورجي.[9]

هذه الأممية الدموية المتوائمة ظاهرياً هي مجرد واجهة، تم تدبيرها بعناية وتوازن. لكن المجموعة القيادية الحقيقية في «الدولة الإسلامية» هي عبارة عن مجموعة عراقية صغيرة، ولا تتخذ قراراتها في «مجلس الشورى»، وهو الهيئة المنوط بها هذا الأمر أصلاً، بل في مجموعة «أهل الحل والعقد»، استناداً إلى تلك الدائرة الضيقة التي قررت في الماضي من سيخلف النبي محمداً. وقد أخذت هذه الدائرة العراقية الضيقة على عاتقها تطبيق رقابة داخلية صارمة.

وكذلك رقابة خارجية، التي بدت في بادئ الأمر مختلفة في الظاهر عن حقيقة الواقع لاحقاً. على كل حال، في المناطق التي كان داعش يضمن فيها ولاءً مبدئياً من سكانها، بدأت قبضته الخانقة بالإحكام عليها أحياناً برقة تامة. بالنسبة للوضع السوري فقد كانت مدينة الباب في شمالي شرق حلب مدينة محافظة بشكل مبالغ فيه. وهنا أيضاً حاولت فصائل المتمردين إبقاء داعش بعيداً عنها. ولكن في الباب

كانت النساء في الماضي يرتدين اللباس الأسود الكامل في الشارع، لذا تفاهم الأهالي بسرعة مع حكامهم الجدد، عندما استولى داعش على السلطة بالكامل في شهر شباط/ فبراير 2014.

بعد بضعة شهور قصد رجال داعش التجار وأصحاب الأراضي، وسألوا عن أوضاعهم المالية من منزل لمنزل. «كل هذا من أجل سجلات الزكاة»، كما جاء التوضيح. في أغلب الحالات كانت الإجابات على هذا السؤال اللطيف جداً أقل بكثير من الملكية الفعلية. بعد ذلك يعود الرجال: بدعوى أن الشخص المعني كاذب للأسف. وهذه جريمة مشينة وعقوبتها مصادرة أملاكه. «كانوا على دراية بكل شيء مسبقاً»، قالها أحد الهاربين بتهكم على غزارة الحيل التي في جعبتهم، «كانوا يعرفون من يملك أي منزل، وأي بستان زيتون، وأي مرعى، لقد استطلعوا كل ذلك قبل فترة طويلة.» كان تاجر ماشية ثري، وهو عم الشخص الهارب، يمتلك أرضاً وقطعاناً وعقارات بقيمة ما يعادل عدة ملايين يورو: «لقد ذهب كل شيء.»

أما البنوك في الباب، فقد أغلقت أبوابها منذ زمن. وباتت جميع التعاملات النقدية تتم عبر محلات الصرافة في المنطقة وعن طريق الحوالات بين مكاتب متعاونة في مناطق مختلفة، التي تدفع المال بدون تحويل مالي رسمي. وفي شهر تشرين أول/ أكتوبر 2014 اقتحمت دوريات داعش المكاتب في الباب وأخذت الكمبيوترات المحمولة. وفيها عثر المحققون الماليون في إدارة الخلافة على حوالات مالية بمبالغ تفوق بكثير الوضع المالي المُفصح عنه في كثير من الحالات - ما يعني عمليات مصادرة أخرى. ومنذ ذلك الحين لا يُسمح بإجراء معاملات مالية كبيرة إلا بإذن رسمي من ديوان الزكاة التابع لداعش والمسؤول عن جباية الضرائب.

وحتى شهر كانون أول/ ديسمبر 2014 كان بإمكان من يريد أن يغادر الباب متى شاء. لكن العودة لم تكن سهلة هكذا. من يتجرأ على العودة إلى الباب مجدداً من تركيا أو مناطق المتمردين، فكان يخضع لاستجواب محرج: «من أين لنا أن نعرف أنك لست جاسوساً؟»

وفي الرقة، فقد بدأ داعش في مطلع عام 2014 بتطبيق شكل آخر من رقابة الاختراق في عاصمته غير الرسمية. إذ كانت المحاكم الشرعية تنظر بنحو 100 قضية متعلقة بخلافات على أراض وإيجارات، كان جزء من تلك القضايا متراكماً منذ سنوات: أصحاب أملاك يريدون استرجاع متاجرهم، التي أُجرت منذ عقود، وغالباً بإيجارات زهيدة جداً حتى اليوم. مالكو أراضٍ يريدون استرجاع حقوقهم. ومزارعون مستأجرون يرفضون أن يتم تشريدهم من حقوقهم. من لديه أي نزاع، وهؤلاء كُثر، فبإمكانه المجيء إلى المحكمة، حسبما أعلن داعش. ووفقاً لأقوال أحد الشهود على إحدى القضايا، فإن معرفة القضاة بالأمور الفقهية أو حتى المراجع القرآنية سطحية، لكنهم يوضحون لجميع الفرقاء أن قرارهم نافذ وغير قابل للطعن. كانوا يحكمون أحياناً لصالح المقربين منهم، ولكن ليس دائماً – ولا سيما إذا كان الطرفان ليسا ممن يهمهم أمرهما. كانت هناك دوماً تسويات، وكان يتم الاستماع دوماً إلى الحجج، والنظر بالوثائق. غير أن الحكم كان أمراً ثانوياً، والأهم منه هو المحاكمة بحد ذاتها: تهدف المحاكمة إلى توضيح أن ناصية الأمور كلها بيد داعش، أن الألم والراحة مرهونان به وحده. حتى إن امرأة احتال عليها أخوها وأخذ حصتها من ميراث العائلة، حكمت المحكمة لصالحها في الخريف. كما تم قطع يد سارق ينتمي إلى داعش. حتى إنه تم إعدام أمير منطقة مصري في الباب. إذ ينبغي ألا يشعر أحد بالأمان، حتى وإن كان محسوباً على داعش.

ولكن كلما زاد تدخل الجواسيس والسلطات، شرطة الآداب وفرق الموت التابعة لداعش، في النسيج الاجتماعي في المناطق؛ انزوى الأهالي أكثر. فالرقة أصبحت مدينة منقسمة إلى قسمين، كما روت المصادر في خريف عام 2014: من ناحية أغلبية السكان والنازحين السوريين الآخذين بالتناقص، وحكام داعش من ناحية أخرى. بحيث إن السكان باتوا يتحاشون بخوف متزايد أي مواجهة مع الجهاديين. «النقاش غير ممكن معهم، وإلا يطلقون فتوى أنك كافر»، وفق ما ذكرت مصادر من عين المكان. بخاصة التونسيين في الحسبة (وهي فرق شرطة الآداب أو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فظون ووقحون. يتّبعون أسلوباً في التحرش الجنسي

في عالم المحجبات من خلال تحذير النساء بشكل عنيف قدر الإمكان: «أنتِ، ثيابك غير مناسبة، أستطيع التعرف على عينيك! أستطيع رؤية مؤخرتك، ارتدي ملابس محتشمة!»

من استطاع، يبقى في المنزل لأسباب كثيرة جداً. كالرغبة المفهومة في عدم رؤية الضحايا، الذين يُطلق عليهم النار أولاً، ثم يُصلبون، أو عدم رؤية الرؤوس المقطوعة المعلقة على أسوار السياج في مركز المدينة. كما لم يبرح الشباب منازلهم، منذ أن ازدادت حالات التجنيد الإجباري. في حين تبقى الشابات في المنازل، لأن حملة داعش، لتزويج الرجال الأجانب، يتم الترويج لها بعدوانية متزايدة. ويتعين على العازبات ارتداء غطاء رأس أبيض تحت النقاب الأسود، لكي يسهل على الدوريات التعرف عليهن والتحدث إليهن. ولتسهيل الزواج، خفض داعش المهر بمعدل واحد على ألف من قيمة المبلغ الرائج، حفنة من الدولارات، كما تم إلغاء حفلات الزفاف – والتي لم يعد يُسمح بعزف الموسيقى فيها منذ زمن على أية حال. يجب أن يصبح الزواج سهلاً: بالجهاديين الوافدين، الذين جاؤوا بهدف القتال، ولكن فكرة الحصول على امرأة إضافية كغنيمة، ظلت تطاردهم في دردشاتهم مع أصدقائهم. وباستثناء الأسر الفقيرة المعدمة لم يرغب أحد بتزويج ابنته للمهاجرين.

كما بقي الأطفال في المنازل، لأن مدارسهم مغلقة على أية حال، ولأنها تعلم تفسير القرآن فقط – ولأن ذويهم يخشون ببساطة، أن يتم أخذ أو إغواء أو إجبار الفتية على الالتحاق بمعسكر «الشيخ ابن لادن» أو «الشيخ الزرقاوي» لتدريب الأطفال. وبعد أن وزع داعش في أيامه الأولى الألعاب ونصب نطاطات ليلعب بها الأطفال بعد الظهيرة، ها هو ذا يدربهم، حتى من هم بسن الحادية أو الثانية عشرة، على حمل الكلاشينكوف أو يُعدّهم ليصبحوا انتحاريين عما قريب. في محيط الرقة وحده هناك خمسة معسكرات تدريب للأطفال من هذا النوع[15]، حيث يحصل مئات اليافعين على وجبة طعام ساخنة، وتدريب على أسلحة الرماية والقنابل اليدوية، والأهم من ذلك كله: إعطاؤهم الشعور بأنهم مهمون. إنهم (كما يقول لهم المدربون)، «القلوب النقية، لمحاربة الكفار وأعداء الله». يحصلون على زي قتالي، بما في ذلك أقنعة سوداء،

ويُسمح لهم بإمساك الكلاشينكوف والرمي بهذه البنادق، التي يقارب طولها طولهم. وينبغي عليهم الصيام يومين في المعسكر. كما تُوكل إليهم مهمات حقيقية: استطلاع أخبار جيرانهم، ومالكي الأراضي، وعائلاتهم. والإنصات بدقة، إذا حدث وتجرأ شخص ما على انتقاد «الدولة الإسلامية»، أو أتى بنكتة، أو لمجرد التدخين أيضاً، أو سماع الموسيقى، أو فعل أي شيء محظور. وأن يعودوا إلى مدربيهم بالأخبار. إنها مشيئة الله.

روت إحدى الأمهات قصة ابنها البالغ من العمر تسع سنوات، والذي كان متحمساً دوماً للذهاب إلى «دروس خيمة» داعش في المدينة. قالت إنه كان يحلم أن يصبح «أميراً» حقيقياً، وقد اختار لنفسه اسماً: أبو زهير الأنصاري. وأراد من ذاك الحين أن تناديه أمه بهذا اللقب. عندما رفضت إرساله إلى معسكر تدريب تابع للجهاديين، لمدة ستة أسابيع، شتمها ناعتاً إياها بـ «الكافرة»، التي ينبغي «إعدامها» [11] الأطفال في الرقة يلعبون ما يعايشونه: كأن يقتلوا طيوراً، ويصلبوها على الأغصان ويعلقوا لافتة حول رقابها المكسوة بالريش كُتب عليها «كافر»، أو أن يضربوا حماراً بالعصي ويصيحوا: «جلدناه لأنه كان يدخن.»[12]

وكذلك أيضاً ظهرت في دير الزور والحويجة والموصل معسكرات الأطفال تلك، وبات منظر مراهقين بأسلحة ثقيلة أمراً مألوفاً. أُرسل بعضهم إلى الجبهة في كوباني، حيث عثر مقاتلون أكراد على عدة جثث لشباب في سن الرابعة عشرة تقريباً. يمارس داعش سياسة تجنيد الأطفال بشكل علني، بحيث تمكن رؤية ذلك في فيديوهاته الدعائية. «الجيل القادم»، يعلق الصوت الذي سُمع في الفيديو، وفيه يظهر فتية يقومون بفك وتركيب بندقية الكلاشينكوف. وفي مقطع فيديو آخر لداعش يظهر صبي في سن العاشرة أو الحادية عشرة، يطلق النار من مسدس على رجلين راكعين أمامه. وعندما سُئل عن خططه المستقبلية، قال: «سأكون الذي يذبحكم، أيها الكافرون! سأصبح مجاهداً!» اسمه عبد الله، كما يقول الفتى، وهو من كازاخستان[13] «يخاف الجميع من كلماته، لأنه لم يعد من الممكن الوثوق بالأطفال في الشارع أو في الفناء»، كما وصف أحد المصادر الصمت الجاثم في الرقة.

وكانـت «الدولة الإسـلامية» قد اعتمـدت في أواخر صيف عـام 2014 قواعد جديـدة فيـما يخص المـدارس، لا يُسـمح بالتدريـس المختلط بين الذكـور والإناث، ويُحبذ ألا تدرس الفتيات. وإن كان لا بد لها من ذلك، فيجب أن تكون منقبة. ولكن معظـم المدارس سـتبقى مغلقة لبعـض الوقت، كما قيل. فمن ناحيـة لا بد من إعادة تأهيـل كادر التدريـس، ومن ناحية أخـرى يجب أن تخضع المناهـج لتنقيح جذري. سـيتم حذف اللغات الأجنبية والتاريخ والسياسة والعلوم الطبيعية والفن، وعوضاً عنها سـيتم تدريس الرياضيات البسـيطة واللغة العربية وتفسير القرآن – بالإضافة إلى تاريـخ «الخلافـة» الحالية. ومع أنه تاريخ فتي، ولكن يجب تدريسـه باسـتفاضة. فحسب قناعات الجهاديين، الذين يحددون السياسة التعليمية، تعد الحكمة صفة من صفات الخالق، والكثير من الحكمة ليس بالأمر الجيد لعباده.

أمـا قائمة المحظورات والأحـكام، التي ينظم من خلالها داعـش حياة الناس في مناطق هيمنته، فتطول بشـكل متواصل: التدخين ممنوع. يُجلد المدخنون، وفي بعض الأحيان يتم كسر أصابعهم. يجب إغلاق المحلات التجارية في أوقات الصلاة. يُمنع ضبط السـاعات على التوقيت الشـتوي. يجب على النسـاء ارتداء النقاب، ويجب أن تكـون الجوارب والقفازات والحذاء جميعها سـوداء اللون. إضافة إلى ذلك واعتباراً من خريف عام 2014 يجب ارتداء «درع» مسـتطيل، من قماش سـميك، في مقدمة الجسد، لإخفاء مفاتن المرأة بشكل كامل.[14] ويُمنع إظهار الشعر. ولا يُسمح للمرأة بمغادرة المنزل إلا بصحبة محرم، ابنها، أبيها، أخيها، زوجها. وإذا كان ملبسها مخالفاً للتعاليم، يتم جلد الرجل.

أحـد المصـادر في بلـدة الراعـي شـمالي الرقة تحـدث عن جنـازة: «جـاء صهري وزوجته للمشاركة بمراسم الدفن، وكانا يرتديان ملابس سوداء. لكن لمح الحراس خطـاً رفيعاً جـداً من سروالها الجينز الأزرق: 'كيف تتجرآن؟' وأثناء التفتيش عثروا على سـجائر في منزل صهري، فقاموا بجلده وقالوا له بتهكم إنهم سيترأفون به الآن وسـيدعونه وشأنه." أما المصدر نفسه، فقد بقي متوارياً عن الأنظار في الأيام الأولى بعد أن حلق شـعره، وقال: "إنهم يذبحون الناس كالبعير. لم أعد أحب الذهاب إلى

المسجد الآن، على عكس السابق." وكان الجهاديون قد أعلنوا، أنهم قريباً سيجوبون الشوارع في الخامسة صباحاً ويطرقون باباً باباً، ليسوقوا الناس إلى المسجد. "لننتظر ونرى ماذا سيحدث."

من شرق سوريا وحتى غرب العراق تسري الآن أحكام خاصة بتسريحة شعر الرجال: لا يهم داعش إن كان طول الشعر قصيراً أو متوسط الطول، المهم هو أن يُقص الشعر بطول واحد. وتُعتبر قصات الشعر العصرية رمزاً للكفر وتخضع للعقاب. إذ يُحلق شعر المذنبين كله، وبعدها عليهم العمل في كنس الشوارع. يجب أن تكون تغطية الصورة على عبوات صبغات الشعر باللون الأسود. ولم يعد يُسمح لأحد بحفظ صور للنساء على هاتفه المحمول. أما دمى العارضات والعارضين في واجهات المحلات فيجب أن تكون محجبة، للحيلولة دون أن تبدو كأوثان. كما أن استخدام الإطارات الاحتياطية في السيارة ممنوع، فهذا الأمر يتعارض مع مبدأ الوثوق بالله! واختفت فرشاة الأسنان من الأسواق، واستعيض عنها بالمسواك، الذي ظهر بيد أبي بكر البغدادي أثناء إعلانه الخلافة في الموصل، والذي كان النبي يستخدمه قبل 1400 عام خلت.

ولكن، إذا كان إطار السيارة الاحتياطي محظوراً، فلماذا لا يتم حظر السيارة كذلك؟ وإذا كان على النساء أن يتحجبن بالكامل وأن يرتدي الرجال سراويل حتى الكاحل لأنها كانت مفروضة في زمن النبي كما هو مزعوم، فماذا عن أشياء أخرى مثل تويتر والهواتف المحمولة والكلاشينكوف؟ لم يجرِ أي نقاش حول أي الابتكارات الحديثة مشروعة وأيها لا. بل يتم اتخاذ القرار من القيادات العليا، ولكن هذا الأمر بالنسبة للجلاوزة سيان. إذ يبدو أنهم لا يمانعون قرارات الأمير التعسفية، ما دام بإمكانهم ممارسة شهوتهم للسلطة والتلذذ بها في تطبيق كل تلك المحظورات بأدق تفاصيلها.

كان المهاجرون، بوجه خاص، مهووسين برقابة حياة رعاياهم اليومية، كما يتناهى إلى السمع. هكذا كان المهاجرون، الذين قدِموا من عشرات البلدان، وما

زالوا يتدفقون حتى في مطلع عام 2015 عن طريق تركيا إلى سوريا دون أي عائق: شرذمة متعددة الثقافات، تتأرجح عواطفهم بين الحماس المتعطش للقتل والتذمر من أوضاع أوطانهم، بأنه بسبب نقص الكهرباء والديزل تتعذر التدفئة هناك. إن استعراض جنسياتهم يستغرق وقتاً: "من أوروبا، بخاصة البريطانيين والهولنديين والألمان. يقول البريطانيون إن حكومتهم تسمح لهم بالذهاب، دون أية مشاكل. وهنالك أيضاً الأمريكان، والأتراك، ومن آسيا الهنود والأفغان والأوزبك والشيشان والصينيون، وكثير من الإندونيسيين، ورجال من باكستان؛ وعرب من جميع البلدان، ويأتي التونسيون في الدرجة الأولى، ثم السعوديون، والمصريون، والجزائريون، والأردنيون، والعراقيون، والسوريون على كل الأحوال. فقط لم أرَ فلسطينيين." وفي بعض المناطق تتركز مجموعات فردية: في جرابلس مثلاً، على الحدود التركية السورية مباشرة، اجتمع كثير من الأتراك هناك. منبج، غير البعيدة، فهي تحمل لقب "لندن الصغيرة". وفي الجنوب، في محيط دير الزور، هناك كثير من المغاربة. حتى من حيث المهام، التي تؤديها الجنسيات المختلفة، يبدو أن هناك ميولات محددة: فالانتحاريون يتم تجنيدهم بكثرة من السعوديين، وهم شباب يافعون جداً ومتطرفون، حتى من منظور داعش. وفي فرقة المضايقة الحسبة يوجد كثير من التونسيين والمصريين. أما أكبر المجموعات القادمة من الخارج فهم التونسيون، الذين يناهز عددهم 3000 رجل، ولكنّ هناك أعداداً متزايدة من النساء أيضاً.

أكبر مجموعات النساء المتدفقة إلى "الدولة الإسلامية" تتألف من تونسيات، وبعدهن من المغرب والجزائر وأوروبا وأستراليا، وليست هناك نساء من المملكة العربية السعودية. "وهناك نساء يسافرن وحدهن من إفريقيا السوداء"، يتعجب مصدرنا الذي يتقصى الحقائق من الرقة، "بعضهن يحملن جوازات سفر فرنسية. لماذا؟ ليست لدي أدنى فكرة!" يشعر المرء بغربة في مدينته. "النساء غريبات الأطوار"، يقول أحد المرتادين الدائمين لمقهى إنترنت في الرقة، تجلس فيه بشكل خاص منقبات شابات جئن من أوروبا لوحدهن أو مع مرافق، ويعبثن لساعات طويلة بحساباتهن على الفيسبوك، ويتحدثن عبر سكايب مع صديقاتهن، وأحياناً

مـع أقاربهن. "يتحدثن عن الشـباب هنا ويعتبرن الشـباب، الذيـن يعتزمون تفجير أنفسـهم، هـم الأكثر إثارة. وعندمـا يموتون، تهيم الفتيات بأولئك الشـبان وكأنهم نجـوم بـوب. إنهـن يحتفلن بـكل خبر مـوت. وكأن المـوت شيء مثير. إنـه أمر مثير للرهبة، ولكنهن يزددن في التنافس فيما بينهن، أكثر من الرجال." ففي منبج، "لندن الصغـيرة"، كتبـت ابنة الـ 18 ربيعـاً أم خطاب البريطانية عـلى مدونتها، أن زوجها السـويدي البالغ من العمر 28 عاماً "نجح أخيراً" أن يصبح شـهيداً، عندما أصابته قنبلـة في كوبـاني. لم تكن قد تعرفت عليـه منذ فترة طويلة وهـي حزينة عليه، ولكن "لم ألقَ هنا أرملة شهيد مكتئبة. لأننا ندرك مدى الشرف الذي منحنا إياه الله!"(15)

تعـد النسـاء الشـابات في داعـش (غالبـاً ما زلـن فتيات بعـد) أحد أكثـر وجوه هـذه الحركـة غرابة. في المـاضي توافد الرجال فقـط إلى القاعدة في أفغانسـتان أو إلى سـاحات القتال المتغيرة في مشـهد ترحال الجهاديين، وفي حالات نادرة كان الرجال يصطحبـون زوجاتهـم معهم، ولكن الآن هنـاك زيادة سريعة لنسـبة المهاجرات إلى سـوريا. ولا سيما من أوروبا: 100 منهن جئن من بريطانيا حتى شهر شباط/ فبراير 2015، مـن بينهن العديدات بسـن 14 و 15 عامـاً. 40 امرأة وفتاة جئن من ألمانيا، وأخريات من فرنسا، وسويسرا، وحتى من فنلندا. تقدر نسبتهن حالياً ما بين عشرة إلى 15 في المائـة مـن مجمـل المهاجرين الغربيين. ليسـت تلك الفتيـات منعزلات أو قبيحـات أو مترددات، كتلك الفتيات اللواتي يخضعن لطاعة أهلهن أو الأعراف كما في السعودية، بل العكس تماماً: المهاجرات غالباً ما يوصفن بأنهن واثقات بأنفسهن، وعائلاتهن في الغالب ليست متعصبة دينياً ويائسة بصفة عامة.

مـا الـذي يدفعهـن إذن إلى كيـان يرتديـن فيـه نقابـاً؟ تزخـر قصـص الإسـلام المبكـر بأبطال فرسـان، ولكن النسـاء غالباً مـا يأتي ذكرهن كزوجـات، ولكن ليس كمهاجـرات عزباوات، يتوجهـن إلى منطقة الحرب دون موافقـة أسرهن. وبالرغم من ذلك، تقصد النسـاء والفتيات تركيا في الوقت الحاضر في الخفاء، ويزوّرن توقيع الأبوين للحصول على تذكرة طائرة، لكي يصلن إلى محيط يفرض على النسـاء قيوداً ونقاباً غريباً.

لكن هذا التفصيل المتعلق بالحظر بالتحديد يشي بالسبب، فكل ممنوع مرغوب، كما تروي الخبيرة في الإسلام السياسي كلاوديا دانتشكه من خلال خبرتها: كثير من الفتيات هن من أسر مهاجرة، بحيث يتمتع الذكور بكامل الصلاحيات، على عكس الإناث. «قد يبدو من المستغرب، أن تمثل السلفية تحرراً بالنسبة لتلك الفتيات»، حسب دانتشكه، مديرة مكتب الإرشاد «حياة» في برلين لمساعدة أسر الشبان المتطرفين: «يخضع الجنسان هناك للقيود، الأمر الذي تعتبره الفتيات أكثر عدالة.»[16] وعن طريق الفيسبوك والمدونات والتواصل الشخصي تنتشر قصص الفتيات اللائي سبقن بالمجيء، ويجذبن غيرهن من الفتيات.

رومانسية الكينونة في القتال، الرغبة في مقاومة المحيط في الوطن، هذان الأمران يظهران مراراً وتكراراً كدافع، والأمنية في الحصول على منظور واضح وبسيط. الجهاديات هائمات بـ«أسودهن»، الرجال المقاتلين، الذين يتزوجونهن في عين المكان، وبالملاذ الآمن في مجتمع «الدولة الإسلامية». «مجاهدات النكاح»، كما يطلق المحامي الاسكتلندي عامر أنور على الشابات، اللواتي يزداد حماسهن خلف شاشات الكمبيوتر، ويذهبن إلى مناطق داعش دون سابق إنذار.[17] كما فعلت ابنة العشرين ربيعاً أقصى محمود من مدينة غلاسكو، التي ذهبت إلى الرقة في عام 2013، وقد أوكلت عائلتها المحامي أنور ليتولى قضيتها. عندما وصلت إلى سوريا، كتبت على مدونتها نصائح حول كيفية تنظيف اللباس العسكري من الأوساخ، كما عبّرت عن سعادتها بأفران الميكروويف التي اغتُنمت من الكفار.[18] نساء أخريات نصحن الملتحقات قريباً بعدم نسيان زجاجات حليب الأطفال وحمالات صدر للمرضعات، أو يكتبن أنهن يشاهدن للتو فيديو قطع رأس، ويتمنين أن يشاهدن المزيد من تلك المقاطع.

مع العلم أنهن هناك لسن مجرد خادمات بالمطبخ بأي حال من الأحوال: فهناك فرقة خاصة بالنساء تابعة لشرطة الخلافة، تقف عند نقاط التفتيش وتعتقل نساء أيضاً، وغالباً بسبب مخالفة قواعد ارتداء النقاب. حتى إن كتيبة الخنساء أصدرت في مطلع عام 2015 دليلاً خاصاً يوضح دور المرأة في «الدولة الإسلامية»[19]:

من الأفضل أن تبقى النساء محجبات ومستورات. ويُمنع الذهاب إلى صالونات التجميل ومراكز التزيين فهي مهن الشيطان. لكن ذلك لا يعني أن تكون المرأة متخلفة. فالتعليم مهم، ولكن «الدور الأساسي للمرأة» هو في المنزل أولاً. يُسمح بزواج المرأة شرعاً ابتداءً من سن التاسعة، غير أن السن الأمثل للزواج هو بين 16 إلى 17 سنة، «ولكن بالنسبة للرجال أيضاً يجب أن لا يتجاوزوا سن العشرين في الأجيال القادمة المظفرة».

وبالفعل يزداد عدد العائلات التي تقصد داعش، وتجذبها الفيديوهات اللطيفة. كما يقوم القادمون بتمزيق جوازات سفرهم أمام الكاميرا: فمعظمهم يأتي ليبقى، وليس كالسابق عندما كان المهاجرون يسافرون من أجل القتال والموت – أو العودة إلى ديارهم مجدداً. فالدولة موجودة الآن. والجهاديون الوافدون يسكنون مجاناً. ومن أجل هذا «البرنامج العائلي» لداعش تم الاستيلاء على منازل في جميع المناطق. «تذهب والدتنا إلى المنزل كل يوم وتنير مصباحاً كل مساء»، يروي رجل من جرابلس، «يتعين أن لا يلحظ أحد أننا غادرنا. كل منزل يبقى خالياً لفترة طويلة يستولون عليه.» وفي الحويجة صدر مرسوم في شهر تشرين أول/ أكتوبر: النازحون الذين جاؤوا من أجزاء أخرى من البلاد، واستقروا في منازل جنود أو رجال شرطة فارين، أمامهم مهلة مدتها 24 ساعة لإخلاء تلك المنازل. فحسبما يبدو، داعش بحاجة إلى المنازل لرجاله ولمهاجريه.

ولكن اعتباراً من خريف عام 2014 بدا واضحاً كيف أن التآكل من داخل الدولة الجديدة بدأ بالظهور. في الأشهر الأولى استطاعت «الدولة الإسلامية» تدبر أمورها اقتصادياً بأريحية مما كانت قد غنمته سابقاً، لكن مصادر الدخل بدأت تنضب تدريجياً، فقد توقفت مولدات الكهرباء في محطات توليد الطاقة على السدود، والتي كانت تعمل بأقصى طاقتها، وتراجع استخراج النفط وتصفية الديزل بسبب تكرار الهجمات الجوية. وفي غضون بضعة أشهر تحول داعش من «أغنى تنظيم إرهابي في العالم»، كما يتم وصفه، إلى أفقر دولة في العالم. فقد كان داعش يبتز الشركات والمؤسسات الحكومية من خلال جمع الإتاوات طوال سنين، إذ كان يجمع

في الموصـل وحدهـا حتـى حزيران/ يونيو 2014 مـا لا يقل عـن 12 مليون دولار شـهرياً، من خلال وجوده الطفيلي كعصابة مافيا سرية. والآن انتهى كل ذلك؛ لأن عصابة المافيا السرية أصبحت هي نفسها دولة. والدولة الأخرى الفعلية توقفت عن دعـم المبتزين. ولكن على ما يبدو كان داعش مهتـماً بإقامة دولته أكثر من الإيرادات التي كان يجبيها.

لقـد أنهكـت إدارة الموصل على وجـه الخصوص الجهاديين، فقـد كانت أعباؤها تفـوق طاقتهـم: إذ توقفـت مشـاريع البنـاء التـي كانـت الدولـة تمولهـا في الماضي. وحصـص التموين الغذائية، التي كانت تُوزع في المدينة حتى تاريخ اسـتيلاء داعش عليها - والتي تعود لفترة حصار العراق في التسعينيات - انقطعت بشكل مفاجئ. وفي شتاء ومطلع عام 2015 توقفت محطات معالجة مياه الصرف الصحي في المدينة عن العمل، وكذلك الأمر بالنسـبة لمنشـآت تعقيم مياه الاسـتخدام العام في المنازل. وتراكمت أكوام القمامة في الشـوارع، والتيار الكهربائـي لا يتوفر إلا كل بضعة أيام ولمدة سـاعتين أو ثلاثة. وفي نفس الوقت ارتفعت الأسـعار، وتضاعف سـعر الأرز والغاز المسـتخدم في الطهو بمقدار ثلاثة أضعاف، والطماطم بمقدار سـتة أضعاف. وهرب كثير من الأطباء، بعد أن قتل داعش العديد منهم، لأنهم استمروا في معالجة الرجال والنساء. ونُهب بنك الدم لإسعاف مقاتلي داعش. والآن، من يريد أن تُجرى لـه عملية جراحية، عليـه قبل ذلك التبرع بدمه. أحد مصادر الدخل القليلة لداعش في الموصل هي رواتب المعلمين وموظفين آخرين، إذ اسـتمرت الحكومة المركزية في بغداد بصرفها، ويتم إيصالها بموافقة داعش من كركوك إلى الموصل عبر وسطاء.

وفي الأشـهر التـي مـرت دون مضايقـات، حتـى شـهر أيلول/ سـبتمبر 2014 استخرج داعش حسب التقديرات 70000 برميل نفط يومياً، وجنى ما بين مليوني إلى ثلاثة ملايين دولار من بيع النفط والديزل، عندما كان سعر البرميل لا يزال نحو 90 دولاراً. ولكن منذ ذلك الحين قُصفت الكثير من المصافي والآبار النفطية الصغيرة على الجانب السـوري (أمـا الحكومة العراقية والكردية فتعلقـان أهمية كبيرة على ألا تُقصف الآبار في مناطقها)، وعلاوة على ذلك انخفض سعر النفط بمقدار النصف

تقريباً. بالإضافة إلى ذلك، أصبح القسم الأكبر من استخراج النفط في مناطق نفوذ داعش يذهب للاستخدام الخاص ببساطة. وأصبحت «الدولة الإسلامية» تعاني من مشكلة حقيقية في الإيرادات، والتي تزداد حدة بشكل متصاعد.

كما بقيت بساتين كثيرة في محيط الموصل بائرة؛ لأن داعش لم ينهج نهج الحكومة العراقية في توفير البذور والأسمدة المدعومة للفلاحين. وإلى جانب ذلك، يشك المزارعون فيما إذا كان الجهاديون سيشترون منهم المحاصيل الزراعية، كما سبق وفعلت الدولة أيضاً. وفي استطراداته الإيديولوجية يمجد داعش فتوحات النبي، ويميز بدقة بين الغنائم التي جاءت بقتال أو بدونه. ومن الناحية العملية، فقد موّل التنظيم نفسه من الغنائم في السنة الأولى، وليس من الإنتاج الخاص. وفي صورته الذاتية العدوانية يعيش داعش من التوسع المستمر، مستنداً إلى الفتوحات في عهد النبي. ولكن، لأن داعش يعتمد اقتصادياً على التوسع، سيتزعزع استقرار دولته، في حال بلغ هذا التوسع أقصى درجاته.

بالرغم من ذلك، أعلن داعش في شهر تشرين ثاني/ نوفمبر 2014 وبكل ثقة عن سياسة اقتصادية جديدة، من أجل «إراحة المسلمين من النظام المالي المستبد» ومن «ربا الغرب الشيطاني». كما أعلن عن عزمه قريباً طرح عملته النقدية الخاصة للتداول، والمقسمة إلى الدينار الذهبي والدرهم الفضي والفلس النحاسي. لكن هذه الخطط المالية بعيدة المنال لا يمكن أن تخفي حقيقة أن «الدولة الإسلامية» منشغلة تماماً في حقيقة الأمر بأن لا تُفلس. وبسرعة كبيرة تحوّل اقتصاد الخلافة إلى ابتزاز منظم. فانتشرت حملات السلب والنهب، ادّعت استمداد شرعيتها من كل أنواع المراجع القرآنية لتبرير المصادرات التي كانت تجري: فقد صادر داعش المنازل والمتاجر والحقول والسيارات والمجوهرات والأثاث، وكل شيء تركه الهاربون والمقتولون وراءهم. كما أقدم الجهاديون على بيع صوامع الحبوب، والمخزونات، والإنتاج المتواصل لمعامل بادوش الكبيرة لإنتاج الإسمنت، كلها بيعت على وجه الخصوص إلى إقليم كردستان العراق. وهناك غنائم هائلة فقدت قيمتها بسرعة كبيرة بسبب تهاوي الاقتصاد بشكل مستمر: الحقول، التي لم تعد تُزرع؛ الشركات،

التـي لم تعـد تُنتج شـيئاً؛ المنازل، التي لا يمكـن تأجيرها، لأنه لم يعد يـأتي أحد لديه القدرة على دفع الإيجار.

الأرقـام، التي نشرتها مراكز البحوث والحكومات وأجهزة الاسـتخبارات، عن مصادر دخل داعش لا تمثل الصورة الكاملة؛ لأنه لا يمكن بشكل جاد تقدير أشكال الثراء المتعددة، ولا الخسـائر الناجمة عن تدهور الاقتصاد. وجميع المنشورات المتعلقة بالموارد المالية لدى «الدولة الإسـلامية» تركز على النفـط، والفدية لقاء الإفراج عن رهائـن غربيـين، وتهريب الآثار المسـتخرجة من الحفريات غـير المشروعة، والتي لم يتمكن محققو الأمم المتحدة نفسـهم من إثبات عملية بيع واحدة حتى شـهر تشرين ثاني/ نوفمـبر 2014. ولكن كل ما ورد آنفاً من عمليات نهب ومصادرات واسـعة النطاق هي على كل حال مجرد بعض الجزئيات التي تمكن ملاحظتها من الخارج. أما عن نسبتها ضمن ميزانية داعش العامة، فهذا أمر يمكن التكهن به فقط.

غـير أن الأمـر الملمـوس بالتأكيد اعتباراً مـن خريف عام 2014 هـو: أن موارد «الدولـة الإسـلامية» الماليـة أصبحت شـحيحة وجباة مالهـا أصبحوا أكثر جشـعاً. يسـيطر داعش على أهـم المعابر الحدودية العراقية مع الأردن وسـوريا، حيث يتعين على سـائقي الشـاحنات دفع رسـوم ما بين 300 إلى 800 دولار حسـب الحمولة. ويسـتلمون إيصـالات لقـاء الضريبـة المدفوعة – كما توجّـه إليهم نصيحـة بإتلافها بعـد عبورهـم آخر نقطة تفتيش تابعـة لداعش، لكي لا يتم العثـور عليها بحوزتهم عنـد أول نقطـة تفتيش تابعة للجيـش العراقي. عند معبر مكتـب خالد، بين المنطقة الكرديـة ومنطقـة نفـوذ داعش، يجب على كل سـائق قـادم من كركـوك أو بغداد أن يدفع رسـوم عبور. وعندما أُغلق المعبر في وجه سـائقي السيارات في النهاية، استمر عبور شـاحنات التجار، الذين يدفعون رسـوماً إضافية. كما أن على سائقي سيارات الأجـرة دفع رسـوم وقوف. كما فُرض على أصحاب المتاجـر في الرقة والموصل دفع ضريبة شهرية على محلاتهم. وفي الرقة أيضاً يجوب الجهاديون التابعون لإدارة المدينة الشـوارع بيتاً بيتاً في كل شـهر، لجباية ضرائب على الهواتف الأرضية – التي توفرها الدولة السورية، الرسمية الأخرى في دمشق، بالمجان. وفي منبج فُرضت ضريبة على

تجار الديزل مرة أخرى، على الرغم من أنهم كانوا قد اشتروا الديزل من داعش في وقت سابق.

وفي أواخر شهر تشرين أول/ أكتوبر أوقفت شركتان من أصل ثلاث شركات لخدمات الاتصالات النقالة خدماتها على الجانب العراقي بشكل مفاجئ، وهما شركتا كورك وآسياسيل، الكرديتان. لقد طلب داعش من كل منهما دفع مليون دولار، حسب رواية موظفين لأقاربهم، وإلا سيتم تفجير أبراج الاتصالات واقتحام المكاتب. أما الشركة الثالثة، زين، فيبدو أنها دفعت المبلغ؛ لأن شبكتها لا تزال تعمل.

عندما يتعلق الأمر بإيجاد مصادر تمويل جديدة، فإن أمناء خزينة داعش لا ينقصهم الإبداع أو المرونة: فقد أعلنوا في نهاية شهر تشرين أول/ أكتوبر 2014، أن على جميع الأفراد السابقين من الجيش أو الشرطة أو مليشيات الصحوات السنية، التي استُخدمت لمحاربة القاعدة، التوجه إلى المحاكم الشرعية، فهم مذنبون. ولكن باستطاعتهم إنقاذ حياتهم وافتداء أرواحهم مقابل دفع 500000 دينار، أي ما يعادل 370 يورو. إضافة إلى ذلك يجب أن يُستتابوا ويحلفوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – وهي الشهادة التي يؤديها من يرغب في اعتناق الإسلام عادةً. كما بإمكان الكفار أن يُصفح عنهم ويُقبلوا في المجتمع من جديد – مقابل دفع ضريبة مالية طبعاً.

ولكن، بعد هذا الإجراء، كما يقول الذين كانوا حاضرين ذلك، تتم مصافحتهم بحرارة وبودية. بعد أن كان رجال داعش يرفضون أن يمدوا يدهم إليهم أصلاً. وفي الختام يحصل المسلمون «الجدد» النادمون على «بطاقة توبة»، تمنع عنهم المضايقات عند نقاط التفتيش. ومع أن مشاهد كهذه تُعتبر بالنسبة لداعش وسيلة لجني مال إضافي بطرق لا ترحم، إلا أنها في الوقت نفسه إشارة تعكس إدراك المجاهدين من الداخل: فهم لا يسعون إلى تأسيس دولة «إسلامية» وفقاً لتصوراتهم فحسب، بل في الواقع تعريف الإسلام من جديد عموماً.

في منتصف شهر كانون ثاني/ يناير 2015 صدر قرار جديد بالفعل: انتهت الآن صلاحيات «بطاقات التوبة» للأسف ولم تعد صالحة اعتباراً من اللحظة، حسبما قيل. ولتجديدها، يجب على حاملها دفع الآن مليون دينار للأسف، أي ضعف المبلغ، ما يعادل 740 يورو. وهو مبلغ يعادل ثروة بالنسبة لأولئك الذين لم يعد لديهم عمل. ولكن، من لا يمتلك البطاقة، فإنه في عداد المشركين شرعاً، ويجب قتله وفقاً لشرع الله.

عندما يتعلق الأمر بالمال، تصبح «الدولة الإسلامية» تتمتع بالمرونة حتى في تهريب السجائر، الذي يُعتبر في نظر داعش إثماً أكبر من التدخين بحد ذاته. وبالفعل، لم ينقطع التهريب، ولكن الأمر الوحيد الذي اختلف هو أنه أصبح بيد الجهاديين. ففي بلدة أقجة قلعة التركية قبالة مدينة تل أبيض السورية لا تزال السجائر المهربة من سوريا تباع بسعر السوق السوداء، بثمن ثلاث ليرات تركية للعلبة الواحدة. هنا يتهكم البائعون المحليون على الحظر المزعوم: «وبذا أبعدوا الآخرين من السوق. ولكن الإمدادات لم تتوقف.»

ومع أن قائمة المحظورات لم تصبح أقصر، والعقوبات لم تصبح أخف، إلا أن ثمة تحولاً شهدته «الدولة الإسلامية» في أواخر خريف عام 2014. في البداية لوحظ أمر بخصوص العقوبات: إذ تمكن تسوية كثير من الأمور بواسطة المال. ومن لا يدفع، فسيُستمر في جلده وضربه، حتى إنه ازدادت الاعتقالات التعسفية في الطرقات. ولكن من يدفع، يصبح طليقاً. غرامات التدخين، التي كانت تبلغ حتى ذاك التاريخ 30000 دينار، 22 يورو، عن كل سيجارة يتم العثور عليها، سيتم رفع قيمتها، أما كم ستصبح، فهذا ليس معروفاً بعد. ستصبح الرسوم الجديدة «مؤلمة جداً»، كما قيل. والمنازل في «دولة الخلافة»، التي يتوفى أو يفر أصحابها، سيتم تأجيرها، وسيذهب الإيجار إلى داعش – هذا في حال لم يتخذها كادر داعش مسكناً لهم. عندما تكون امرأة في سيارة أجرة ويتضح أنها مرتدية أية قطعة قماش مخالفة للتعاليم، فعلى السائقين دفع غرامة 60000 دينار عراقي أو 10000 ليرة سورية، أي ما يعادل 45 يورو. عند معبر أقجة قلعة الحدودي تشتكي النساء المسافرات من

أنـه تتم مصادرة معاطفهن ويتـم إحراقها على الفور: لأنهـا تخالف ما هو منصوص عليـه. ولكـن عنـد المعبر مبـاشرة هنـاك متجـر للجهاديين، يبيـع النقـاب الشرعي المحتشم الأسود.[20]

باندفاع شديد يقوم أمناء التشريعات الإلهية بجمع المال، حتى من مصدر الدخل الذي دفع مارتن لوثر للقيام بثورة قبل 500 عام في أوروبا: صكوك الغفران. بقيت المحظـورات موجـودة، حتى إنها ازدادت – غير أن مخالفتهـا تُدر الأرباح. في مطلع عام 2015 صدر إعلان، أنه مسـتقبلاً سـيكون هناك متجر لداعش في كل المناطق، يُسمح فيه للمدخنين غير القادرين على الإقلاع عن التدخين شراء سجائرهم. ولكن بأسـعار تقارب عشرة أضعاف السعر السـابق. «الآن يفعلون ذلك»، يستهزئ أحد الرعايـا، «بعد أن قتلوا جميـع المهربين، وأبعدوهم، وتولوا هم هذه التجارة برمتها.» كـما أن قرار الإجبـار بإغلاق المحال التجارية في أوقات الصلاة يمكن التحايل عليه بالمـال، كـما ذكر صاحـب أحد المحلات: فقـد قـدم الجهاديون عروضاً لهـم في هذا الشأن. كل المحظورات، التي لا تمس جوهر سلطة داعش، قابلة للتفاوض، بحيث يصبح الممنوع معروضاً للبيع. العائق الوحيد هو أنه لم يعد هناك كثيرون يستطيعون دفع الثمن.

عندمـا يتعلق الأمر بالصفقات، تقبض «الدولة الإسـلامية» حتـى من أعدائها: فحسـب أقوال العديديـن من أتباع داعش تدفع حكومة الإقليم الكردي منذ شـهر آب/ أغسـطس 2014 شـهرياً لكي لا يُقدم داعش على شـنّ هجـمات ضخمة على مدينة كركوك – الأمر الذي نفاه الجانب الكردي بشكل قاطع.

ووفقـاً لأحـد المحاسـبين في منطقة تقـع جنوباً ثمة علاقـة أكثر براعـة يعتني بها داعش مع المليشيات الشـيعية، التي باتت تمثل القوات الرسمية للحكومة العراقية: ما تُسمى بمليشيا بدر، وهي قوة عسكرية قوامها بضع عشرات آلاف الرجال وتُمول بشـكل خاص من إيران ويتولى قيادتها هادي العامري. وتدين هذه المليشيا بالفضل لصفقة مكّنتها من اسـتعادة أجزاء واسـعة من محافظة ديالى شـمال شرقي بغداد. لقد

دفـع العامـري من أجل انسـحاب داعش، «بضعـة ملايين من الـدولارات»، لكي يتمكـن من إعلان انتصارات سريعة. لقد كانت تلـك صفقة مقبولة من وجهة نظر داعـش؛ لأنه ليس بإمكانه السـيطرة على المـدى البعيد على تلك المنطقـة القريبة من الحدود الإيرانية، والتي يسكنها خليط من الشيعة والسنة. وبالمقابل، وحسب رواية المحاسـب ومصادر أخرى، طالبت مليشـيا بدر سـكان القرى السنية في ديالى الذين فرّوا بدفع مال الآن: «هناك مئات القرى، التي يتوجب على سكانها دفع مبالغ تصل إلى 30000 دولار، إذا أرادوا العـودة إلى منازلهـم. وإلا سـتتم معاملاتهم على أنهم داعمون للإرهاب، بغض النظر إن كانوا على علاقة بداعش أم لا.»

ليـس المـال وحده هـو الذي ينضـب في «دولة الخلافـة»، بل المقاتلـون أيضاً. إذ لقـي أكثر من ألف جهـادي مصرعهم في كوباني وحدها، تلـك المدينة الكردية التي حاصرها داعش منذ مطلع عام 2014 دون أن يلحظ العالم ذلك أبداً. وكاد يسيطر عليهـا في شـهر تشرين أول/ أكتوبر، لولا أن أصبحت كوبـاني في ظل زخم التدخل الـدولي المفاجئ رمزاً للمقاومة ضد داعش. وربما يكون الأمر الذي أنقذ المدينة على الأرجـح هو موقعهـا الجغرافي المناسـب للقنـوات التلفزيونية بالقـرب من الحدود التركية مباشرة. إذ استطاع العالم رؤية الحرب، وهنا أحدثت الضربات الجوية تحولاً بالفعل – حتى وإن كان القصف قد دمر كوباني إلى حد كبير. وفي نهاية شـهر كانون ثاني/ يناير 2015 انسحب داعش من المدينة على الأقل، ولكنه استمر بفرض حصار على نطاق واسع على المنطقة المحيطة بكوباني. أما بالنسبة لإجمالي عدد مقاتلي «الدولة الإسـلامية»، فلا توجد إجابات حول ذلك؛ لأنه إلى جانب القوات الأساسـية التي يُقـدر عددها بــ 30000 مقاتـل، يعيش عشرات آلاف الشـبان في مناطق سـيطرة «دولـة الخلافة»، الذين من الممكن تجنيدهم بشـكل جزئـي فقط. إذ تجوب دوريات داعش القرى وتقوم بالترويج في الأسـواق والمرافق الرياضية لتحض الشـباب على الانضمام إلى جيشها. يدعون في البداية بأسلوب لطيف، ولكن عندما يُحجم الجميع تصبح اللهجة تهديدية، كما ذكرت المصادر.

ولأن الرعية تنفض عن بلاد الله المعلنة، لم يعد يُسمح لأحد مغادرة «دولة الخلافة» بهذه السهولة اعتباراً من منتصف شهر كانون أول/ ديسمبر. ويجب أن يوقع الأمير المحلي على تصريح عبور، يُسمح من خلاله فقط اجتياز نقاط التفتيش. وإلى جانب الحصول على إذن صريح بالسماح بالسفر، يجب أن يكون سبب السفر مدوناً في التصريح. ويمكن أن يكون العلاج الطبي أحد تلك الأسباب، ولكن على مقدم الطلب أن يخضع لفحص طبي أولاً، للتأكد من أنه مريض بالفعل، كما يدعي. لقد تحولت «دولة الخلافة» إلى سجن.

كما أفقدت الضربات الجوية المتكررة «الدولة الإسلامية» أعصابها. فعندما تعرضت مدينة الحويجة لقصف في مساء يوم 24 تشرين أول/ أكتوبر 2014، هرع رجال داعش إلى الشوارع وهم مصابون بحالة من الذعر، وراحوا يدقون أبواب السكان بتخبط، طالبين منهم دخول منازلهم على الفور! لأنهم بحاجة إلى حماية! وبعد فترة وجيزة طُلب من جميع السكان من خلال مكبرات الصوت مغادرة المدينة. فهناك خشية من أن تقع معلومات حساسة في أيادٍ خاطئة، وعُلقت في كل مكان ملصقات تحمل تحذيرات واضحة لا لبس فيها: سيتم إعدام كل جاسوس علناً، وسيُدمر بيته. كما تغير القيادة مقرها يومياً، حسبما أفاد مسؤول في إحدى المحاكم الشرعية لداعش بالقرب من الموصل. وإذا قضى أبو بكر البغدادي فترة طويلة في الموصل، كان يتم قطع شبكة الاتصالات النقالة، هذا في حال كانت تعمل أصلاً.

في المدن الصغيرة والقرى الواقعة في جنوبي الموصل انتقل زبانية داعش من مقراتهم الرئيسة إلى مساكن خاصة في القرى المحيطة. واختفت راية داعش السوداء من مناطق عديدة، بعد أن كانت منتشرة في كل مكان. وحيث كانت مرسومة على الأسوار وجدران المنازل، تمت تغطيتها بالطلاء. حتى سيارات البيك آب المفضلة للجهاديين، بات استخدامها نادراً، وعوضاً عنها أصبح رجال داعش غالباً ما يتنقلون الآن بسيارات الأجرة الكلاسيكية ذات اللون الأبيض والبرتقالي أو الأصفر، وفي الغالب بسيارات من طراز تويوتا كورولا. كما تركوا نقاط التفتيش اللافتة للأنظار في النهار، وعادوا إليها عندما يحل الظلام. وفي نهاية شهر تشرين ثاني/ نوفمبر أُدرجت

لوحات أرقام سيارات جديدة: كُتب في أعلاها «الدولة الإسلامية»، وفي الأسفل رقم السيارة والولاية التابعة لها. ويتعين على الجميع القدوم إلى المراكز واستصدار لوحات أرقام سيارات جديدة لسياراتهم، حسبما أُعلن. وبعد بضعة أسابيع، اختفت لوحات أرقام السيارات الجديدة من جديد، حتى من سيارات مقاتلي داعش نفسها - فلقد كانت لافتة للأنظار جداً. إذ كان الخوف من الكاميرات عالية الدقة التي تحملها الطائرات بدون طيار الأمريكية أكبر بكثير في هذه الحالة.

وفي الموصل اتبع التنظيم طريقة مخالفة تماماً وماكرة: هنا رفع جلاوزة داعش راياتهم على تلك المنازل، التي لم تُقدم فروض الولاء والطاعة «للدولة الخلافة» بعد. وفي شتاء عام 2014 ثبّت الجهاديون راية داعش على مئات المباني في مختلف الأحياء، وبعد تركيبهم للراية ودعوا أحد مالكي المنازل وهم يقولون له ضاحكين: «أنتم لستم أفضل منا. إذا متنا، فستموتون أنتم أيضاً.»[21] إذ تشكّل الرايات مصدر خوف دائم للسكان، الذين يشاهدون الطائرات بدون طيار التابعة لسلاح الجو الأمريكي وهي تحوم ليلاً ونهاراً فوق سماء مدينتهم. ولكن ليست بيدهم حيلة، فإزالة الرايات ممنوع. وإذا قرروا أن يتركوا منازلهم، فسيصادرها الجهاديون. وكما المياه المترشحة، انتقلت القوات العسكرية والمقرات الرئيسة وورشات صناعة القنابل إلى عدد لا يُحصى من المساكن الخاصة، لكي لا ترصدهم طلعات الاستطلاع الجوية. وفي شهر كانون ثاني/ يناير كلّفت إدارة داعش في الموصل شركات بناء بحفر خندق عمقه عدة أمتار حول المدينة.

في مطلع عام 2015 بدت أمور كثيرة وكأن «دولة الخلافة» وصلت مرحلة سوريالية. ولم يكف التنظيم عن سنّ قوانين جديدة تزداد في غرابتها. فاعتباراً من الآن يُمنع بيع الدجاج المجمد أو اللحوم المعلبة. وبالإضافة إلى ذلك، لا يُسمح إلا بذبح الأغنام والأبقار المريضة أو المعاقة أو المصابة. وبعد سراويل الجينز تم حظر السراويل الرياضية أيضاً. ولم يعد يُسمح لحكام كرة القدم استخدام الصافرة، بل يهتفون فقط «الله أكبر». ولا جدوى من محاولة الحصول على تفسير أو تبرير لهذا التغير المتوسع دوماً في القوانين، بل إنه يعرض السائل للخطر. فالأسئلة

الاستعلامية يُمكن أن تُفسر على أنها شك، وبالتالي اعتراض. وفي ساحات القرى والشوارع الرئيسة في المدن تم تركيب مكبرات الصوت، التي تنقل بصوت مدوٍ ودون توقف أناشيد دينية وتلاوات قرآنية وخطب قادة داعش: النصر قريب، وعلى المقاتلين أن لا يخشوا من خوض المعركة، لأن الله معهم! وسيتدخل في نهاية المطاف ويقودهم إلى النصر!

في كافة المناطق لم يكن يبدو أن رعايا «دولة الخلافة» سعداء بإنقاذ أرواحهم عن طريق الإرهاب والنهب. ولكن البدائل أمام الناس، الذين يعيشون في مناطق نفوذ «الدولة الإسلامية»، سوداوية على حد السواء: ففي منبج، المدينة السورية، التي أُطلق عليها «لندن الصغيرة»، لم يكن الناس ليقبلوا الجهاديين طوعاً، كما يخمن رجل هناك. ولكن بالمقارنة بهول المعارك المفتوحة أو بنظام الأسد، الذي يحظى بقدر أكبر من الكراهية وقد قتَل عدداً أكبر من الناس، فإن حالة التيه والتذبذب هذه نجحت إلى حد ما: «في حال اجتمع العالم الآن مع الأسد لمحاربة داعش، فإن ذلك سيستنهض جهود داعش في التجنيد. وسيدفع الحقد الطائفي الكثير من السوريين إلى الانضمام إلى أحضان «الدولة الإسلامية»، إذا تعزز إيمانهم بأنها هي الوحيدة التي لا تزال تدافع عنهم ضد الأسد.»[22]

وعلى الجانب العراقي، فإن سبب المخاوف مختلف، ولكن النتيجة وخيمة العواقب بشكل مشابه: فهناك عندما تستعيد القوات، المكونة من اندماج الجيش العراقي والمليشيات الشيعية، قرى من داعش، فإنها في الغالب لا تختلف في سلوكها كثيراً عن سلوك الغازي السابق. ففي قرى مثل الرواشد بالقرب من بغداد أو بروانة في محافظة ديالى ذكر ناجون أن مسلحي المليشيات المقتحمة أعدموا عشرات المدنيين. حسب المنطق: أن من عاش في كنف داعش يعد إرهابياً. وبذا علق السنة بين طرفي كماشة قاتلتين: إذا تمردوا على داعش، فهذه المجازفة تُعرض حياتهم للقتل. وإذا انتظروا التحرير من قِبل الطرف الآخر، فهذه المجازفة تُعرض حياتهم للقتل. حتى إن المليشيات الشيعية أحرقت في بروانة منازل أولئك السنة القلائل، الذين كانوا قد شاركوا في القتال ضد داعش.[23]

إن التفاصيل المتزايدة باستمرار عن أعمال المضايقات والقتل، وعن الوضع الإعاشي المأساوي داخل «الدولة الإسلامية»، تغذي التوقعات بحدوث انهيار سريع. غير أن هذه التوقعات تفترض وجود خيار آخر للناس. ولكن ما هي الخيارات المتاحة أمام المتبقين، لكي يعدوا أنفسهم بشكل سري للمقاومة بشكل جماعي ومسلح؟ في محيط مُخترق من قِبل الجواسيس، حيث يأتي الرد على كل تمرد حتى الآن بمجازر، ويتم جمع جميع الأسلحة على نطاق واسع؟ حيث لا تتربص بهم من الخارج سوى أهوال جديدة؟ حتى تحركات الإنترنت ومواقع كمبيوترات المناوئين الصامتين يرصدها قسم داعش «عين الخلافة» بواسطة شيفرات حصان طروادة.[24]

تنجح الهيمنة وفق مبدأ الأواني المستطرقة: لا يمكن لضغط رقابة طفيف أن يصمد في وجه مقاومة منظمة. ولكن نظام سلطة، يرتكز على رقابة مُحكمة لجميع نواحي الحياة، ويخترق المجتمع بالجواسيس والمخابرات، ويسجل ويراقب أدق التفاصيل المتعلقة بالممتلكات والتحركات وامتلاك السلاح، ويعاقِب المخالفين لأحكامه أو المشتبه بهم بأنهم يحاولون التمرد بالاعتقال والعقوبات القاسية والقتل الذي يصل إلى حد ذبح قرى بأكملها، سيصمد طويلاً في وجه أكثر الضغوط يأساً. حتى في الصين أو الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين، تم تجويع ملايين البشر، دون أن يؤدي ذلك إلى الإطاحة بالطغاة.

إن ما يجعل من التنبؤ بمستقبل «الدولة الإسلامية» أمراً صعباً، هو التركيبة الخاصة المكونة من صفات متناقضة. فهذا الأنموذج الأولي للدولة يُوحد في جوهره عناصر عقلانية ولا عقلانية معاً. تتمثل العقلانية، من مفهوم الحفاظ على السلطة، بالرقابة والجبروت. واللا عقلانية، من ذات المفهوم، تتمثل بمضايقات المواطنين المغلفة بالدين. فمن خلال إثقال كاهل الناس بأحكام مستمرة تزداد صرامة، لن يجد الناس مساحة لخصوصيتهم. وحتى الديكتاتوريات المطلقة، مثل سلطة صدام حسين في العراق أو الأسد في سوريا، تقوم على ترك مساحة حرية معينة في

خصوصية الرعية، ما بقيت الرعية لا تتدخل بالسياسة. «كلْ عيشك بالجبن»، وفق مَثل مصري قديم، بحيث يعني الجبن: جبنة وخوفاً.

لكن داعش يرفض - أو يبيع برسوم باهظة - أتفه أشكال التنفيس، والتي في واقع الأمر لا تشكل خطراً على نظامه: كالتدخين، الموسيقى، الثياب الملونة، الجينز - أو مشاهدة مباريات كأس العالم في التلفزيون. وعندما يتم اللجوء إلى الجَلد، ما إن يظهر طرف ثوب المرأة المنزلي الملون، فإن ذلك أمر لا يطاق على المدى البعيد، حتى إنه يتعارض مع جميع أشكال القهر.

أما الجدوى من تطبيق داعش لتلك المضايقات اليومية المتشددة فيبقى أمراً محيراً، وربما يمكن تفسيره على النحو الأفضل من خلال الرجوع إلى المهاجرين أنفسهم. فبالنسبة لحثالة غلمان الجهاد الأجانب تعد الأحكام الكيدية أقوى دليل على امتلاك السلطة، التي يمكنهم من خلالها إثبات هيمنتهم تجاه المواطنين المحليين ورفاق القتال. وإلى جانب الشعور المتعالي، جراء الانتماء فجأة إلى حركة جديدة ذات سلطة مطلقة، يعيش كثير من آلاف الأجانب المتدفقين إلى هنا أوهام السلطان المطلق البائسة. وقلما يضم جهاز الحسبة (الشرطة الدينية) في الرقة أو في مناطق أخرى عناصر من السكان المحليين. وفي هذا الجهاز يصول ويجول الوافدون: تونسيون، سعوديون، وكل من يتمتع بالأنانية ويعامل المارة بازدراء، بسبب بروز طرف خصلة من الشعر أو بسبب قميص تيشرت يحمل صورة رسم. إذ يتلذذ المهاجرون بإجبار الآخرين على اتباع القواعد - حتى وإن كان كثيرون منهم يدخنون في الخفاء أو يشاهدون مباريات كأس العالم على هواتفهم الذكية سراً.

ولكن على المدى البعيد، فإن هذه التصرفات الرمزية للإذعان التام، الذي يفرضه داعش، هي التي ستؤدي إلى فناء تجارب السلطة الجهادية. ليس كسبب، وإنما كمسبب بالأحرى؛ لأن تسلطاً من هذا القبيل يصبح لا يُطاق، وسيدفع الناس إلى التمرد، عندما يطفح بهم الكيل، ولم يعد لديهم ما يخسرونه ببساطة. أما الطغاة الأذكياء فيتركون لرعيتهم حيزاً للحياة الخاصة.

أما ماذا يعني مثل هذا النوع من التعصب الأعمى بالنسبة للاستراتيجية طويلة الأمد لـ"الدولة الإسلامية" الموجودة على الأرض فعلياً، فسيظهر في نظام التعليم في المدارس على وجه الخصوص: كما هو مذكور في الأعلى، ففي المستقبل ستقتصر مواد الدراسة تقريباً على المحتوى الديني، والقراءة والكتابة، وبعض الحساب، ولكن بالكاد ستُدرس العلوم الطبيعية، والتاريخ (باستثناء تاريخ «الدولة الإسلامية» المكتوب ذاتياً)، ولن تُدرس الفنون، أو المواد التقنية. هذا الارتباط المدرسي الناقص، ومن خلال ربطه بمعسكرات تدريب الأطفال يُظهر بوضوح ما الذي يرمي إليه داعش: إنتاج عبيد مغسولي الدماغ في طريقة تفكيرهم. وفي حال استمرت «الدولة» لعقد من الزمن أو لفترة أطول، فستُنتج جيلاً مؤطراً وغير كفء، لن يبقى أمامه من أجل كينونة دولة الجهاديين إلا بديل واحد، بأن يصبح انتحارياً. ولكن بشعب كهذا، نصف متعلم في أفضل الأحوال، ستواجه «الدولة الإسلامية» صعوبات جمة في استمرارها، لأن مُرتل القرآن لا يمكنه إصلاح خط الكهرباء، أو إنشاء جدول بيانات إكسل أو علاج المرضى.

باختصار: إن آفاق المستقبل في داخل «الدولة الإسلامية» متفاوتة. رعاياها، حتى أولئك الذين هلّلوا بإقامتها منذ فترة قريبة، سيصابون بخيبة أمل واستياء ويأس في الصميم. ولكن، لن ينتفض الناس ضد داعش، ما دامت كانت أكثر البدائل احتمالية هي عودة الأسد على الجانب السوري وفرق الموت الشيعية على الجانب العراقي. وما دامت لا تظهر تصدعات في الدائرة الداخلية لداعش، فستبقى رقابته الحديدية. وحتى في إهلال السنة 2014/ 2015، عندما ازداد الضغط العسكري من الخارج وازدادت معه خسائر المقاتلين، أرسل داعش جلاوزته إلى القرى النائية للقبض على الأهالي الذين يشربون الكحول. وفي شهر كانون ثاني/ يناير 2015 صلب داعش وقطع رؤوساً ورجم جواسيس مزعومين، ورمى رجالاً مثليين ملعونين في الموصل ليلقوا حتفهم، مُتبعاً عرفاً في أن عقاب المثليين هو الرمي من أعلى سور في المنطقة.

وفي الوقت ذاته، تجرأ شخص، في قرية الشجرة جنوبي الموصل، على إنزال راية داعش التي كانت ترفرف هناك؛ فجاء الجهاديون بالعشرات، وفتشوا البيوت

واعتقلوا جميع رجال القرية، قرابة 160، واقتادوهم إلى سجنهم المركزي في الحويجة. «من سرق الراية؟»، هو نفس السؤال المطروح المتكرر، مصحوباً بالضرب. «من؟ ستموتون جميعاً!»، حُرم الجميع من الطعام ليومين تقريباً، وتعرضوا بشكل متواصل للضرب والشتائم ولتهديدات بالقتل. ولكن لم يعترف أحد من الرجال بإنزال الراية. وفي النهاية تم إطلاق سراحهم مجدداً. وفي أواخر شهر كانون ثاني/ يناير عاد جلاوزة داعش مجدداً، ليس إلى الشجرة وحدها، بل إلى جميع القرى والبلدات المحيطة – وجمعوا بأنفسهم جميع راياتهم المثبتة فوق المساجد والمراكز الإدارية. وكما فعلوا في الموصل سابقاً، من أجل تجنيب الأهداف الواضحة تماماً قصف الطائرات المقاتلة. وتم إبلاغ السكان المدهوشين بالمبرر عن طريق مكبرات الصوت: ليس هناك تأكيد صريح، فيما إذا كانت الرايات في زمن النبي، عليه الصلاة والسلام، خفاقة في كل مكان.

11

مستعمرات الخلافة

داعش كمُصدر للإرهاب

يتكـرر سـعار القتل عـلى نحـو متزايد مـن قِبل بعض المتنسـبين للإسـلام، في: أوروبـا، و أسـتراليا، والولايات المتحدة الأمريكية. لكن ليـس بالضرورة أن يتلقى هؤلاء الجناة أوامرهم من داعش مباشرة. لقد حوّل الخوف من الإرهاب في الوطن النظـر إلى الأهـداف الأقرب للتنظيم الإرهابي: تنفيذ اعتـداء في كل مكان، حيث لا تتمكن دولة ضعيفة من الرد.

بدأت هجمات محدودة في العالم، لم تؤخذ على محمل الجد، ولكنها كانت قاتلة: في فترة العصر من تاريخ 23 أيلول/ سـبتمبر 2014 دخل شـاب في سن الثامنة عشرة مركزاً للشرطة في مدينة ملبورن الأسترالية. كان الشاب قد استُدعي للتحقيق، لأنه كان يسـير في مركز للتسـوق قبل أسـابيع خلت، حاملاً راية داعش. وعلى حين غرة قام بطعن موظفين، قبل أن يطلق عليه ثالث النار.

بتاريخ 20 تشرين أول/ أكتوبر أقدم كندي اعتنق الإسلام، اسمه مارتين كوتور رولـو، عـلى دعس جنديين بسـيارته في مقاطعـة كيبيك الكندية، ما أسـفر عن مقتل أحدهما، وإصابة الآخر، ولكنه نجا من الموت. وأثناء مطاردته سقطت سيارة كوتور رولو في حفرة، فهجم بسـكين على رجال الشرطـة، الذين أطلقوا النار عليه وأردوه

قتيلاً. وكان قد سبق للجاني أن حاول في شهر تموز/ يوليو السفر إلى سوريا لكي ينضم إلى داعش، ولكن تم اعتقاله في المطار لفترة قصيرة.

بتاريخ 22 تشرين أول/ أكتوبر أطلق مايكل زيهاف بيبو، الذي اعتنق الإسلام، النار على محرس لحرس الشرف في العاصمة الكندية أوتاوا. ثم تم قتله عندما حاول اقتحام مبنى البرلمان القريب.

بعدها بأيام، هاجم الأمريكي، معتنق الإسلام زيل تومبسون، شرطيين في نيويورك بفأس، وكان في الأيام التي سبقت الحادثة قد جلس «منوماً مغناطيسياً» أمام كمبيوتره مدة 70 ساعة متواصلة، وكان يشاهد صفحات إنترنت جهادية طوال الوقت.

بتاريخ 22 تشرين ثاني/ نوفمبر أطلق رجل في العاصمة السعودية الرياض النار على شخص دانماركي وأصابه في كتفه، في حين قام شخص ثانٍ بتصوير الجريمة. وبعد سبعة أيام قام سعودي بطعن رجل كندي أثناء تسوقه في أحد المجمعات التجارية في الظهران الواقعة في شرقي البلاد.

بتاريخ 1 كانون أول/ ديسمبر طعنت امرأة منقبة معلمة أمريكية تدعى إيبوليا رايان في دورة مياه السيدات في مركز تسوق في أبو ظبي، ثم قامت بزرع قنبلة يدوية بدائية الصنع أمام باب عيادة طبيب أمريكي، قبل أن تغادر مركز التسوق دون أن يلحظها أحد، سوى كاميرات المراقبة التي صورتها.

اعتباراً من شهر أيلول/ سبتمبر 2014 انتشرت موجة هجمات عنيفة بدت عفوية. لقد كانت هجمات أصغر من أن تثير الانتباه، وغالباً ما اعتُبرت في البداية عمليات فردية غامضة. وقبلها كان العديد من المهاجمين يخضعون لعلاج نفسي ووصفوا بأنهم "مختلون عقلياً" أو "غير مستقرين نفسياً". الخبير الأمريكي في شؤون التطرف جي. إم. بيرغر أثار التساؤل حول ماهية الفعل الإرهابي وماهية أفعال المرضى النفسيين – أو ما هي العلاقة بين الاثنين، كيف يمكن للإرهاب والجنون أن يكمل أحدهما الآخر ويقوّيه.[1]

صحيح أن لموجة الاعتداءات المروعة صلة بداعش - لكن داعش لم يرتبها، ولم يستكشف أهدافاً ولم يوعز للجناة أو يزودهم بالسلاح. كما أن هؤلاء المعتدين لم يكونوا عائدين من سوريا أو العراق. لقد كان يكفي أن قام المتحدث باسم داعش أبو محمد العدناني بتوجيه نداء عبر الإنترنت، في 22 أيلول/ سبتمبر، أي قبل حدوث أول الأفعال ذات الدافع الإسلامي في ملبورن: "إذا قدرت على قتل أو ذبح كافر أمريكي أو أوروبي وأخص منهم الفرنسيين الأنجاس أو أسترالي أو كندي أو غيره من الكفار المحاربين رعايا الدول التي تحالفت على 'الدولة الإسلامية'، فتوكل على الله واقتله بأي وسيلة أو طريقة كانت!" أما الأهداف والوسائل التي اقترحها العدناني - "فارضخ رأسه بحجر أو انحره بسكين أو ادهسه بسيارتك" - فقد تم تطبيقها بحذافيرها.[2] لغاية شهر آب/ أغسطس 2014 لم يكن داعش مهتماً بتنفيذ عمليات إرهابية في الغرب. فالاعتداءات العالمية لم تكن موجودة ضمن رسومات داعش الإيديولوجية، التي وضعها حجي بكر. ولم يذكر أحد من الذين تركوا «دولة الخلافة» أو من المصادر عن أية تحضيرات لشنّ اعتداءات في الخارج. جميع النداءات الموجهة للأنصار المحتملين كانت منصبة على اجتذابهم إلى «الدولة الإسلامية» في سوريا والعراق. ولكن يبدو أن تغير رؤية داعش جاء بعد التصعيد بسبب هجمات داعش على مناطق الإيزيديين في شمالي العراق وتوسيع الضربات الجوية بعد قطع رؤوس الرهائن.

قبل ذلك حدثت بعض الاعتداءات الفردية جداً ذات الخلفيات الإسلامية، والتي بدت عفوية. في شهر أيار/ مايو 2014 أطلق الفرنسي مهدي نموش النار على أربعة أشخاص في المتحف اليهودي في بروكسل. وقد كان بالفعل في صفوف داعش في سوريا. بعدها عمّ الهدوء مجدداً، لكن الآن تحدث اعتداءات بشكل أسبوعي، مع مراعاة أن الجناة الآخرين لم يكونوا إرهابيين عائدين، بل تطرفوا في أوطانهم.

بتاريخ 15 كانون أول/ ديسمبر احتجز مسلح رهائن في مقهى ليندت في وسط سيدني، وأطلق النار على مدير فرع المقهى ومحامية، وأجبر آخرين على الإمساك

أمام النافذة براية شبيهة براية داعش. ثم طلب من الشرطة أن تجلب له راية داعش حقيقية. وكان الفاعل، وهو إيراني، قد ترك مذهبه الشيعي واعتنق المذهب السني قبل أسابيع، وكان متهماً بالمساعدة على قتل زوجته السابقة، ووضع إعلانات في الصحف بصفته «خبيراً في علم التنجيم وعلم الأعداد والتأمل والسحر الأسود». ويعد جلسات معه قدمت عدة سيدات بلاغات ضده بسبب التحرش الجنسي. وكان قد كتب على موقع الإلكتروني: «الإسلام دين سلام»، وذلك قبل أن يقصد المقهى ويحتجز رهائن ويتم قتله في نهاية المطاف.

بتاريخ 20 كانون أول/ ديسمبر هاجم شاب معتنق الإسلام ومغني راب ناجح، ثلاثة رجال شرطة بسكين في مدينة جويه لي تور، قبل أن يطلقوا النار عليه ويقتلوه. وكان الشاب قد وضع راية داعش على صفحته على الفيسبوك. وفي اليوم التالي أقدم رجل في مدينة ديجون الفرنسية على دعس خمس مجموعات للمارة بسيارته وهو يصيح «الله أكبر»، وجرح 13 شخصاً. وقيل لاحقاً إنه يخضع لرعاية نفسية منذ فترة طويلة.

بعد ذلك جاء دور باريس: قبل ظهر يوم 7 كانون ثاني/ يناير اقتحم الأخوان شريف وسعيد كواشي قسم التحرير في شارلي إيبدو، أوقح المجلات الساخرة في فرنسا، إذ ينشر قسم التحرير فيها بشكل متكرر رسوماً كاريكاتورية للنبي محمد (وكذلك لكل الأنبياء، والرؤساء، والبابوات)، وقبل دقائق من الهجوم نشرت المجلة تغريدة على تويتر فيها رسم كاريكاتوري لأبي بكر البغدادي، وهو يرسل تحياته بمناسبة العام الجديد ويتمنى «وافر الصحة بشكل خاص». قتل الأخوان كواشي أحد عشر شخصاً في قسم التحرير الواقع في الدائرة الحادية عشرة، بعدها اندفعا نحو الشارع، حيث صادفا الشرطي أحمد مرابط فقتلاه بإطلاق النار على رأسه. وقد سمعهما شهود وهما يصيحان: «الله أكبر! لقد انتقمنا للنبي!»، ثم لاذا بالفرار. وفي صباح اليوم التالي قُتلت شرطية برصاص مجهول: كان الجاني أميدي كوليبالي، صديق الشقيقين كواشي من أيام السجن، وقد اقتحم في اليوم الثالث

متجـراً يهوديـاً في باريـس، كان مدججـاً بالسـلاح؛ فقتل أربعة أشـخاص واحتجز زبائن آخرين رهائن.

أصيـب العـالم بصدمـة. فقد قتل الشـقيقان ثلة من أشـهر رسـامي الكاريكاتور الفرنسـيين أثناء الاجتماع الأسـبوعي لهيئة التحرير، التي تعد من إحدى المؤسسات الفرنسية منذ عقود. لكن، وقبل كل شيء أصاب الشقيقان بفعلتهما الوعي الأوروبي في الصميـم: الحـق في حرية التعبير عـن الرأي. كان الاعتداء على مجلة شـارلي إيبدو أعنـف هجوم إرهابي تتعرض لـه باريس منذ حرب الجزائر قبـل نصف قرن. وبعد أيـام تجمع الناس في أكبر مظاهرة شـهدتها فرنسـا: قرابة مليوني شـخص تجمعوا في باريـس، ونحو ثلاثة ملايين في سـائر أنحـاء البلاد، لإحياء ذكـرى القتلى ولإظهار تماسـك بلادهـم. أنـاس، لا يريـدون أن ينجـروا من قِبـل منفذي الاعتـداءات إلى حـرب انعـدام الثقة والكراهية، التي كان قد حذر منها الخبير بالشـؤون الإسـلامية والعلوم السياسية المتبصر جيل كيبل: «كانت نيتهم استقطاب مجتمعنا وخلق حرب أهلية.»[3]

كان وقع تأثير الاعتداء جسيماً، وبالمقابل كان تنفيذ عمليات القتل بسـيطاً، مرة أخرى: بندقيتا كلاشـينكوف، تم شراؤهما من السـوق السـوداء في بروكسل أو من مكان آخر، وقاذف عديم ارتداد مضاد للدروع، وتدريب عسكري بسيط – لم تكن هنـاك تحضـيرات أكثـر لدى شريف وسـعيد. حتى يبـدو أنهما لم يضعا خطة مسـبقة لهروبهما، وكذلك لم يتخذا قراراً فيما إذا كانا سـيفران أصلاً أم يفضلان الموت كرمز. وبذات الفوضى كان هروب الاثنين بعد الاعتداء، الذي نسي خلاله سـعيد كواشي بطاقته الشخصية في إحدى سيارات الهروب، وعندما استولى الشقيقان على السيارة التاليـة نزعا قناعيهما، ما سـهّل عملية وصفهما من قِبل شـهود. وبعد أن هاجما محطة وقـود تمكنت الشرطة من اقتفاء أثرهما مجـدداً، وطوقتهما في النهاية في مطبعة في قرية دامارتـان أون غويـل، ثم قُتـلا أثناء تبادل لإطـلاق النار. في الوقـت ذاته اقتحمت الشرطة المتجر الذي تحصن فيه كوليبالي، وقُتل هو الآخر.

أثناء أزمة الرهائن رجح خبراء الإرهاب إمكانية أن يكون الجناة عائدين من المعارك في سوريا والعراق، فوحشيتهم تُذكر بفيديوهات داعش المروعة. وكان التأكيد الرسمي الوحيد لهذا الافتراض - كما في كثير من الأحيان - تصريحاً دعائياً مختلقاً على لسان وزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف: إذ إن الشقيقين كواشي «أتقنا فن الإرهاب في سوريا»، حسب زعمه.[4] ولكن المعتدين الاثنين لم يكونا في مناطق نفوذ «الدولة الإسلامية» قط.

عندما سلط المحققون الضوء على خلفية الشقيقين، وجدوا سيرتهما الذاتية تتأرجح منذ سنوات بين الانهيار والحياة الطبيعية: قضى شريف وسعيد كواشي مرحلة طفولتهما المتأخرة وشبابهما في ملجأ، ووصفهما مدير الملجأ بأنهما «مندمجان بشكل مثالي». ثم انزلقا لاحقاً إلى بيئة الجريمة الصغيرة والراديكالية. أراد شريف، الشقيق الأصغر، الذهاب إلى العراق عن طريق سوريا للانضمام إلى القاعدة، لكنه أبدى ارتياحه لاحقاً عندما مُنع من مغادرة فرنسا وأُلقي القبض عليه. لم يكن يمتلك الجرأة على الخروج من تلك البيئة، كما قال للموظفين. أما سعيد، وفق معلومات أمريكية، فقد توجه في عام 2011 إلى تنظيم القاعدة في اليمن وقضى هناك عدة أشهر، ليخضع لتدريبات. ولكن بالرغم من تلك الاتصالات بالإرهاب ساد هدوء حول الشقيقين لأعوام. وقد خضعا للمراقبة لفترة من الزمن وكانا مدرجين على قائمة الشخصيات الخطرة في الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي كان يَحول دون حصولهما على تأشيرة دخول إلى هناك، لكن رقابة اتصالاتهما الهاتفية انتهت في فرنسا في عام 2013. كان شريف يبيع السمك في أحد المتاجر. الشيء الوحيد الذي كان يهمه ويتحدث عنه، هو أسعار السمك، حسبما ذكرت رئيسته السابقة لصحيفة نيويورك تايمز.

وكما جاءت اعتداءات الأخوين كواشي متأخرة زمنياً، جاء تبريرهما: كانت مجلة شارلي إيبدو قد نشرت الرسوم الكاريكاتورية للنبي محمد منذ سنوات خلت، وكذلك الأمر بالنسبة لدعوات القتل ذات الصلة، كالدعوة التي أطلقها زعيم القاعدة في اليمن والتي يعود تاريخها إلى عام 2011. ومع ذلك لم يتحرك الأخوان

كـواشي وكوليبـالي إلا في مطلع عـام 2015، لجلب الرعـب إلى باريس. صحيح أن الأخوين ذكرا لعدة شـهود أثناء تنفيذهما العملية الإرهابية أنهما يفعلان ذلك باسـم «القاعـدة في اليمـن»، كما ادعى كوليبالي أنـه أقرب إلى «الدولة الإسـلامية». ولكن فيديوهـات تبني الاعتداءات لـكلا التنظيمين، والتي نُشرت بعد أيام، لم تحتوِ شـيئاً يشير إلى صلة فعلية ذات مصداقية. إذ لم تكن مقنعة من حيث معرفة الجناة ولم تُظهر لقطات للجناة مع أولئك الذين يقفون وراء الاعتداءات. كل شيء كان يعزز فرضية أن التنظيمات الإرهابية الكبيرة استغلت الاعتداءات هذه المرة.

لم يكن الأمر يسـتلزم الخضوع لتدريبات في معسـكرات داعش في البوادي، ولا حوالات مالية ولا مساعدات بتقديم السلاح، لكي يتحرك الفرنسيون الثلاثة تحت اسـم الإرهاب ويصبحـوا قادرين على فعل ما فعلوه. أميـدي كوليبالي، الذي أُطلق سراحه من السـجن في شـهر آذار/ مارس 2014، حصل عـلى قرض بقيمة 6000 يورو في شهر كانون أول/ ديسمبر، وفقاً لصحيفة لا فوا دو نورد. وقد قدم كشوفات رواتب مزورة، لكي يتسنى له الحصول على المال، واختار خيار ائتمان مكلفاً، ولكن لديـه ميزة خاصة: في حالة وفاة كوليبالي، يُعفى أقارب كوليبالي من سـداد القرض، ويقوم البنك بسداد المبلغ.

جميع هؤلاء، كوليبالي، والشـقيقان كواشي، وكذلك الدانماركي عمر عبد الحميد الحسـين، الذي قتل في منتصف شـهر شباط/ فبراير 2015 شخصين في كوبنهاغن، كانت أفعالهم عبارة عن تصرفات فردية – وفي ذات الوقت لم تكن كذلك. وبالرغم من كل الهول الذي تسـببوا بـه، فإن جرائمهم المقترفة لا تـزال تُعتبر فظائع صغيرة، مقارنة بالفظائع التي ارتكبتها القاعدة باعتداءاتها. لم يتم التخطيط لتلك الاعتداءات بشكل مركزي، بل استندت إلى نداء عبر الإنترنت. ولم يكن من الممكن منع حدوث تلـك الاعتـداءات من خـلال الوسـائل المجرَبـة لمراقبة الخطـر(5)، بل تـم ارتكاب الهجـمات من قِبـل جناة أصبحوا متطرفين دون أن يذهبوا إلى سـوريا أو إلى العراق، وفعلـوا فعلتهـم بقرار منفرد. وفي نهاية المطاف، فإن الأمر هو كما قال رئيس الوزراء

الأسـترالي توني أبوت بعد وقوع أولى الهجمات في شهر أيلول/ سبتمبر 2014: «كل ما يحتاجه المرء لاعتداء إرهابي، هو سكين وجهاز آيفون وضحية.»

لكـنْ، ثمـة سـبب لتكـرر الاعتـداءات الآن وحدوثهـا في مناطـق مختلفـة؛ لأن مـا يحـدث ليس مجـرد موجة فردية، تظهر لفـترة، ومن ثم لا تلبـث أن تخبو. لكن ما يحدث هو الازدياد المطرد لمنسـوب مد وجزر الحضور المسـلح. إذ يبدو أن للوجود الحقيقي وكذلك الافتراضي لـ "الدولة الإسـلامية" تأثيراً هائلاً في العالم على أولئك المهمشـين، السـاخطين في ضواحي المدن، فقد فجر ذاك الوجود طاقاتهم التدميرية، التـي طالمـا بقيت محرومة من دفـة توجهها طوال الوقت. أو ربما لم يكونوا يشـعرون بالسـخط مـن قبل، وإنما مجـرد امتعاض غامض، فـراغ، اضطـراب. وبحق أو بغير حق يشـعر ملايين المسـلمين بأنهم يعيشـون على الهامش في أوطانهم الغربية، سـواء في ضواحـي باريس وتولوز، أو في أحياء غيتو في غوتنبرغ أو في دينسـلاكن لوبيرغ، حي عمال مناجم فحم سابقة في ولاية ويستفاليا شمالي الراين الألمانية، والذي التحق العديد من شبانه بداعش.

لم تتغـير حياتهـم منذ ظهور «الدولة الإسـلامية» قيد أنملة، وكانـوا قبلها يلقون باللوم على الآخرين أيضاً بسـبب بؤسـهم: الدولة، الملحديـن، اليهود والأمريكان، وكل مـن يعتبره جميـع أولئك الذين يدورون في فلك المؤمنـين بنظرية المؤامرة عدواً رئيسـاً لهم للتو. غير أن ثمة أمراً تغير الآن: فهناك سـلطة، يستقوي بها جميع هؤلاء. وهي بدورها تقول لهم، وتغرد لهم عبر تويتر، وتريهم في الفيديوهات: «هناك سبب ملـح للقتـال ضد العـالم! هناك مشروع إلهـي، علينا تطبيقـه. وتلاحظون من خلال نجاحنا أننا على الطريق الصحيح!» انظروا، وفق الرسـالة: «نحن المسـلمين يعتدي الغـرب علينـا! يريـدون محاربتنـا، قتلنا، إبادتنـا! إنهـم لا يريدون الإسـلام، الذي نجسـده نحـن بالدولة! ولكن: هناك قـوة الآن، يمكنها أن تناهـض الغرب الشرير أخـيراً. نحن! وأنت يمكن أن تشـارك فيها!» هذا هو جوهـر الفيديوهات الدعائية لـ "الدولة الإسلامية"، التي تصل وكأنها نسخة حقيقية من لعبة «كاونتر سترايك»،

التي تشع ثقة قوية جداً بالنفس، كتلك التي يُقدم بها داعش نفسه – ومظهرةً نجاحه الحقيقي الذي حققه مؤخراً.

للمرة الأولى لا يفجر إسلاميون، ويتباكون ويوجهون اتهامات فحسب، بل ينشئون دولة. وفي مقاطع الفيديو يوضح رهائن غربيون أن لـ "الدولة الإسلامية" كامل الحق في قتلهم – فمسؤولية موتهم تقع على عاتق الهجمات التي تشنها حكوماتهم، الأمريكية والبريطانية. وفي الفيديوهات الدعائية أيضاً يُظهر الجهاديون حماسهم الكبير بتحقق حلمهم، حتى إن سياسة باراك أوباما غير المقنعة تسهم في تلميع الصورة: فإعلان داعش عدو العالم رقم 1، ولكن القضاء عليه غير ممكن، جعل التنظيم يبدو أكبر من حجمه.

هذه القوة، التي أعلنت الحرب ضد جميع خصومها، تؤثر على كثيرين، مثل ظهور «شرطة شرعية» فجأة في شوارع مدينة فوبرتال الألمانية، أو تجول متعاطفين مع داعش في مراكز التسوق في ملبورن وهم يلوحون براية التنظيم. في البداية لم تبدُ هذه الأفعال خطرة، بل أميل إلى التبجح الفارغ: تقريباً، كما حدث في شهر كانون ثاني/ يناير 2014 عندما التقط متعاطفون صورة لهم أمام طاحونة في هولندا وقد رسموا شعارات داعش، وكذلك أمام برج إيفل في باريس، والأتوميوم في بروكسل، وساحة ألكسندر بلاتس في برلين، وساعة بيغ بن في لندن، وخط الأفق في نيويورك. وبشكل صبياني تماماً بدت صورة الورقة التي كُتبت عليها تهديدات والتُقطت أمام وسط شيكاغو: «سيزحف جنود الدولة الإسلامية إلى هنا قريباً» أو إنذار الواعظ البريطاني العاطل عن العمل، الذي يدعو للحقد شهيد جانجوا، بإلغاء أجراس الكنائس في إنجلترا بعد تولي «دولة الخلافة» السلطة، وبوضع أطواق حمراء اللون في رقاب الكفار وفرض النقاب على جميع النساء، «بما في ذلك الملكة إليزابيث وكيت ميدلتون، العاهرة». لقد عجّت شبكة الإنترنت بأوهام السلطة هذه كما أنها دعت إلى المشاركة. وهكذا اكتسبت تلك الأوهام قوة إضافية وخلقت جواً من التمادي. وكل شخص يشعر أنه معني بهذا الخطاب، عليه الانخراط.

ولكـن الاعتقاد أن الاعتداءات والأفعال الواردة آنفاً هي من فعل داعش، فهذا تدليـس؛ لأن تلـك الهجـمات لم تحدث حتى الآن - على الرغم مـن أنه ليس هناك ما هو أسـهل من فتح باب الجحيم على مصراعيه من خلال قتل عشرات في أوروبا أو الولايات المتحدة أو أسـتراليا، بدون اسـتخدام بنادق كلاشـينكوف أو حتى قنابل. فالبنزيـن والمواد الكيميائية المتاحة للجميع يفيان بالغـرض تماماً. كما أن بنية الغرب التحتيـة المعقدة وغـير المحصنة تتيح الكثير من الإمكانيـات، بحيث يمكن إحداث دمار كلي بالاسـتعانة بوسـائل بسـيطة وأفكار مبتكرة تُخطط لها سلفاً. كل ما يحتاجه المـرء هو جنـاة أذكيـاء إلى حد ما، غـير معروفين بالنسـبة للشرطة وأجهـزة الأمن، وموارد مالية محددة. وهذه الأمور متوفرة لدى داعش بكثرة.

إنها مسـألة استراتيجية وأولويات. وأولئك الذين يساوون بين داعش والقاعدة من هذا المنطلق، يقللون من شـأن الخطر كثيراً. فابن لادن وخليفته أيمن الظواهري اعتـبرا الهجمات أعظم هدف دومـاً، وهي في النهاية الهدف الوحيد المحدد بوضوح. ومـا عـدا ذلـك، فقد كان أمـلاً مجهـولاً. أما بالنسـبة لــ "الدولة الإسـلامية"، فإن الهجمات هي وسـيلة لتحقيق الغاية، التي لا تتسـم باللاعقلانية أو العدمية: إذ يبقى هدف داعش توسيع دولته وتوطيد أركانها. في بغداد، وعلى الخطوط الأمامية لمناطق الأكراد في العراق وسـوريا، يفجر الانتحاريون أنفسـهم بشـكل متسلسل في بعض الأحيـان. ولكـن، هل ومتى سـيُقدم داعـش على تنفيـذ هجمات على نطاق واسـع في الغـرب، فهـذا الأمر لا يمكن اسـتقراؤه مـن فيديوهاته الترويعية، بـل له علاقة بحسابات واضحة تتعلق بالمنفعة والتكلفة.

سيكون ثمن شـنّ هجمات ضخمة في أوروبا أو الولايات المتحدة زيادة العداوة مع الغرب أو حتى تدخل قوات برية أمريكية. حتى هذا سيكون من شأنه توليد تأثير متناقض: فمن ناحية ستزداد جاذبية «الدولة الإسلامية» وسيتم تأكيد الدعاية، التي تتشـدق بأن الكفار يشـنون حرباً شاملة ضد الإسـلام. ومن ناحية أخرى، قد يعني تدخل قوات برية بالنسـبة لداعش، الذي يمثل الآن دولة ملموسـة عرضة للهجوم ولم يعد تنظيماً إرهابياً يمكنه أن يختفي بين المواطنين، فقدان «مساحة دولته» ببساطة.

وبسبب عدم حدوث هجمات كبيرة في الغرب (حتى الآن)، يبدو أن داعش يقدر تكلفة ذلك ويراها في الوقت الحاضر باهظة أكثر من المنفعة.

إن الشرخ بين رسائل داعش وتصرفاته الفعلية يضلل مراراً وتكراراً ويقود إلى مفاهيم خاطئة. كما هو الحال في الغرب حتى الآن، بحيث توجه أصابع الاتهام عند حدوث أي اعتداء إلى العائدين من سوريا والعراق بشكل تلقائي، على الرغم من أنهم نادراً ما لعبوا دوراً في الهجمات التي حدثت، كما أنه تتم المبالغة أيضاً بدور الجهاديين الأوروبيين داخل صفوف داعش. هؤلاء الجهاديون من بريطانيا، ألمانيا، فرنسا، بلجيكا، وحتى من فنلندا يطلقون على أنفسهم اسم مهاجرين، تيمناً بهجرة النبي محمد مع عدد قليل من المخلصين له من مكة، التي عادوا إليها بعد أعوام منتصرين، ومن ثم انتشر الإسلام في مناطق واسعة. الفكرة بحد ذاتها رومانسية، بأن يترك المرء كل شيء خلفه، ويسلم نفسه لأمر ما ابتغاء لمرضاة الله – حتى وإن لم يكن هذا القرار مدروساً حقاً في كثير من الأحيان، إذ يستخدم داعش كثيراً من الوافدين فقط كممثلين هواة لفيديوهاته الدعائية كحراس وجلادي رهائن، أو كوقود للحرب على الجبهات – أو كانتحاريين. وبالرغم من هذا الدور الدوني تسلط الآلة الإعلامية المدوية «لدولة الخلافة» الضوء على الجهاديين الأجانب باستمرار، الذين يظهرون إلى جانب رؤوس مقطوعة، وعلى أطراف مناطق القتال، وتحت ظلال أشجار الزيتون الوارفة أثناء الاستراحة.

بهذه الطريقة من الجذب تم حتى مطلع عام 2015 استقطاب أكثر من 3000 إسلامي من أوروبا إلى «الدولة الإسلامية»، من ضمنهم مئات الألمان: معتنقي الإسلام، مهاجرين مع أو بدون جواز سفر ألماني. وإذا نظر المرء إلى طرق حياة حجاج الجهاد هؤلاء، فسيجد غالباً مسارات كئيبة لهؤلاء المنسيين، وليست لديهم شهادة مدرسية، ومهنة؛ ولكن من بينهم أيضاً أشخاص طبيعيون من الطبقة المتوسطة، الذين أصبحوا فجأة يبحثون عن معنى الحياة، فيتغيرون في غضون أشهر قليلة أحياناً، ويصبحون متطرفين وتنقطع أخبارهم فجأة. وأحياناً أخرى يكون السبب أزمة في الحياة، فيقعون فريسة لأحد السلفيين، المتواجدين في المساجد، أو

الأنديــة الرياضية، أو يتعرفــون عليه عن طريق أحد المعــارف. وأحياناً يبقى الدافع غامضاً.

إن ذلك يتطلب دافعاً قوياً، ليترك المرء كل ما يملك، دون أن يكون مضطراً لفعل ذلــك، ويذهــب للقتال في بلد، لم تكن له أية علاقة به إطلاقاً قبل ذلك. ولكن فضلاً عن هذا القتال لم يفصح أحد من جنود الجهاد عن الســبب الذي يدفعه الآن تحديداً للذهاب إلى ســوريا، وعن الدور الذي يريد أن يضطلعه في بناء «دولة إســلامية» – ســوى أن يكون تحت سلطتها. إنه عالم تفكير منغلق لجماعة، لكن أتباعها لا يكتفون بأقرانهم وشــعائرهم، بل يحاولون باســتمرار توســيع نفوذهم والسيطرة على مناطق أخرى.

غــير أن الحيــاة في «دولــة الخلافــة» الجديدة لا تبــدو بهيجة، كما يظهــر في مقاطع الفيديو الترويجية، التي يجلس فيها الشــباب أمام خلفية ســاحرة، حيث الجو المعتدل الجميــل ولا تنهمــر قنابل أيضــاً. بيتر نويــمان، المدير الألماني للمركز الدولي لدراســة التطــرف والعنف الســياسي في كلية كينغــز في لندن، يتتبع على الفيســبوك وغيره من المنتديات آثار المغادرين. وقد قال في شــهر أيلول/ ســبتمبر 2014 إنه «من المحتمل أن خُمــس الجهاديــين البريطانيــين تقريباً يريدون مغادرة ســوريا مجــدداً». إلا أنهم لا يعرفون كيــف: «يود الناس، الذين نتحدث إليهم، العودة، ولكن الحكومة البريطانية لا تتحــدث إلا عــن عزمها اعتقالهم لمــدة 30 عاماً.» أما عن سر هــذا التغير فيفسره مقاتلــون بريطانيــون لأحد مصادر تقــصي الحقائق على هــذا النحو: «جئنــا لمحاربة النظام، ولكن عوضاً عن ذلك تورطنا هنا الآن في حرب ثانوية مع جماعات أخرى. لم نأتِ من أجل هذا. ولكنهم يجبروننا على مواصلة القتال.»[6]

يقبع العديد من المهاجرين الأوروبيين في أسفل التسلسل الهرمي لداعش. فهناك أســباب ذات علاقــة باللغة، إذ إن كثيرين من الأوروبيــين لا يتحدثون اللغة العربية إطلاقاً أو يتحدثونها بشــكل يســير. ومن ناحية أخرى، فإن الوحدات الأوزبكية أو الشيشــانية مرتبطــة مركزيــاً بجيش داعــش، وهي تحتاج أيضــاً إلى مترجمين في أرض

المعركة. ثمة أمر حاسم: وهو أن معتنقي الإسلام، الذين يأتون من أوروبا للانضمام إلى صفوف داعش، ليسوا من أصحاب العقول اللامعة على وجه العموم. وبالمثل، فإن السيرة الذاتية لكثير من منفذي هجمات باريس أو سيدني ليست مشرفة، إذ تحتوي على ترك المدرسة في وقت مبكر، أو اعتقال في السجن، أو بطالة، أو مشاكل نفسية، كل تلك الأمور تجعل من المغري أن يبدأ المرء سيرة ذاتية جديدة - ولكنها بالكاد تؤهله لكي يستطيع التعامل مع أدوار معقدة في بيئة غريبة. وبالمقارنة مع الجهاديين أصحاب المؤهلات العلمية الجيدة غالباً، مثل التونسيين أو الأردنيين أو الإندونيسيين، أو أصحاب الخبرة العسكرية مثل الشيشان، فإن أولئك القادمين من الغرب يتبوأون أسفل مراتب المقاتلين الأجانب. في حين يحتل العرب داخل تنظيم داعش المراكز القيادية وصولاً إلى مستوى الأمراء المحليين، و«القضاة»، ورؤساء الإدارات المسؤولين عن التموين الغذائي وتوفير الكهرباء، ويأتي العراقيون والسوريون والتونسيون في المقام الأول.

لم يترقَ أي أوروبي معتنق الإسلام ليصبح ضمن دوائر القيادة الفعلية. وبالرغم من الشهرة التي حققها (بفضل فيديوهات الرعب لجثث مشوهة ورؤوس مقطوعة) مغني الراب السابق والرياضي السابق والسجين السابق، الألماني الغاني دينيس كاسبيرت، الملقب بأبي طلحة الألماني، والمعروف بأنه البوق الإرهابي لداعش. غير أن من يعتقد أن أندرياس بادير «جيل الواتساب»[7] قد ترقى بالفعل إلى «دائرة القيادة الضيقة» في داعش، كما يتردد دائماً، فهو يخلط حضور الفيديو بالمعنى الحقيقي. قد يكون الرجل أصبح مشهوراً لدى المتابعين: ولكن وبحسب عدة مصادر، لا أحد يعرفه داخل «دولة الخلافة» قائداً لأي شيء، من الباب غرباً وحتى الموصل شرقاً - باستثناء أنه «الأجنبي غريب الأطوار، الذي يغني بشكل سيئ» في تلك الفيديوهات، التي يتم تناقلها هناك أيضاً.

لكن الوضع مختلف بالنسبة لغالبية المهاجرين العرب: فهم يلعبون داخل «دولة الخلافة» دوراً أكبر، ويعتبرهم تنظيم داعش مهمين خصوصاً كعائدين إلى تلك المناطق التي يريد التوسع فيها قريباً: مثل شبه جزيرة سيناء المصرية أو ليبيا. ففي

تلك المناطق، حيث سلطة الدولة شبه معدومة أو موجودة على شكل جيش مدجج بالسلاح، يستعد داعش للاستيلاء على السلطة. هنا يوجد جهاديون عائدون، أوكلت إليهم مهام صريحة بإنشاء نقاط خارجية جديدة وزعامتها – وهو الأمر الذي يمكن أن يقدم تفسيراً لحقيقة يتم تجاهلها غالباً، تتلخص في أن معظم الجهاديين الذين انضموا إلى «الدولة الإسلامية» لم يبقوا في سوريا أو العراق، بل عادوا بعد شهور إلى أوطانهم من جديد. ففي المطارات ذات الصلة في جنوبي تركيا شوهد اعتباراً من أواخر عام 2012 الكثير من التونسيين والشيشان والأوروبيين القادمين والمغادرين أيضاً. سأم بعضهم القتال، ونفد مال بعضهم الآخر. لكن يبدو أن كثيرين عادوا إلى ديارهم، يحملون في أمتعتهم مهمة إيجاد موطئ قدم لداعش هناك.

وبناءً عليه، لم يكن من المفاجئ أن يعلن أهم تنظيم جهادي في مصر «أنصار بيت المقدس» انضمامه إلى داعش رسمياً في خريف عام 2014: فمنذ شهور سافر موفدو داعش إلى هناك، وبدأوا بالتحضير لمبايعة «دولة الخلافة» في شهر حزيران/يونيو، بعد أن لمسوا تعاطفاً لإقامتها من قِبل المصريين. أحد قادة داعش، الذين أقنعوا المتطرفين في سيناء في مطلع العام للانضمام إلى داعش، هو محمد حيدر زمار: جهادي سوري ألماني يعيش في ألمانيا منذ سنوات، وقد اختطفته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في أواخر عام 2001 في المغرب، وسلمته إلى السلطات السورية، وهناك حققت معه بمشاركة نظيرتها دائرة الاستخبارات الاتحادية (الألمانية) لمعرفة الدور الذي كان ضالعاً به في تنظيم القاعدة. وفي مطلع عام 2014 تم إطلاق سراحه في إطار صفقة تبادل للأسرى مع حركة أحرار الشام، «ولكنه فرّ بعد أيام»، كما قال أحد القادة المفاوضين: «توجه فوراً إلى داعش في الباب، وبعدها ذهب إلى الرقة، على الأرجح أنه خطط لذلك مسبقاً.» وحسب عدة مصادر من داخل داعش وشقيق زمار، قام زمار بتوطيد داعش في سيناء.

وفي الأشهر التي سبقت ذلك، كان التنظيم الجهادي المصري قد شنّ هجمات عسكرية ضخمة في سيناء، تم التخطيط لها بمهارة، كما شملت هجماته مواقع للجيش في المناطق الصحراوية النائية، وقتل المئات من رجال الجيش والشرطة.

وحسبما ذكر ممثلو الحكومة المصرية ودبلوماسيون غربيون، فإن لدى التنظيم عيوناً في الجهاز العسكري، الأمر الذي قد يُفسر الاعتداءات التي نفذها على عدد من الضباط وعلى وزير الداخلية.

كما ازداد التطرف، بعدما أقدم الجيش المصري في بداية شهر تشرين ثاني/ نوفمبر 2014 على إجلاء 1100 عائلة بالقرب من الحدود مع قطاع غزة وهدم المساكن هناك، بهدف الحد من عمليات التهريب إلى الأراضي الفلسطينية. «إذا كان هناك ثلاثة شبان يعيشون في كل منزل، فسينضم اثنان منهم إلى المسلحين حتماً»، حسب خبير الشؤون الأمنية المصري عبد الرحيم علي في تصريح له لصحيفة نيويورك تايمز.[8]

لم تكن الحكومة المصرية تسيطر فعلاً على شمالي شبه جزيرة سيناء، التي يعيش سكانها في فقر مدقع. كما أن القبائل البدوية التي تعيش هناك لا يشعر أفرادها بأنهم مصريون، وتعاملهم القاهرة على أنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وقد انتشرت هناك تجارة المخدرات والخطف الوحشي جداً، خصوصاً تجاه اللاجئين الأفارقة، الذين يريدون الذهاب إلى أوروبا عبر سيناء، إذ كان يتم أسرهم وتعذيبهم، ولا يُطلق سراحهم إلا بعد أن تدفع عائلاتهم مبالغ فدية بقيمة عشرات الآلاف. لقد ساد هناك المال وغياب القانون، كما كانت الأسلحة الثقيلة تصل إلى هناك عبر طرق التهريب من ليبيا، وتباع مجدداً إلى الفصائل الفلسطينية في قطاع غزة. وبعد تنحي الرئيس المصري حسني مبارك، الذي حكم البلاد لفترة طويلة، وتصعيد الصراع بين الجيش وحكومة الإخوان المسلمين المنتخبة، أصبح الأصوليون في سيناء في السنوات الماضية دولة داخل دولة – والتي بات من الممكن أن تتحول إلى نقطة تجمع لجميع المتشددين الدينيين في مصر، الذين مارس الانقلابي قائد الجيش والرئيس الحالي عبد الفتاح السيسي الاضطهاد بحقهم من خلال الاعتقالات الجماعية.

لكن العواقب الأوخم كانت في ليبيا في عام 2015. فهنا لا يكمن الخطر في الدولة الاستبدادية جداً – بقدر ما يكمن في تلاشي الدولة بإرادتها أصلاً. فمنذ الانتخابات البرلمانية في صيف عام 2014 على أبعد تقدير تفككت ليبيا بسرعة:

كانت نسبة المشاركة في الانتخابات في ذلك الوقت 18 في المائة فقط من مجمل الناخبين. حصلت الأحزاب ذات التوجه الإسلامي، في مدينة مصراتة القوية اقتصادياً، على وجه الخصوص على نتائج مزرية في الانتخابات. ونتيجة لذلك انهار البلد الكبير، الذي لطالما كانت الثقة بين مناطقه معدومة دوماً، ولطالما كانت المليشيات فيه أقوى من الحكام الفعليين. فشكلت كتائب من مناطق مصراتة تحالف «فجر ليبيا»، واقتحمت العاصمة طرابلس. وأعلنت عدم شرعية البرلمان المنتخب حديثاً. فيما هرب البرلمان المنتخب والمعترف به دولياً إلى مدينة طبرق على بعد 1000 كيلومتر بالقرب من الحدود المصرية.

ومنذ ذلك الحين لم يعد في ليبيا مجرد برلمانين فحسب، وإنما أيضاً حكومتان وجيشان، يشل أحدهما الآخر وبالنتيجة البلاد بالكامل. ومنذ خريف عام 2014 يتبادل الطرفان إطلاق النار في كثير من الأحيان، ويقصفان المطارات ومحطات النفط والمدن. وفي بداية صيف عام 2014 عاد الفريق خليفة حفتر من منفاه في أمريكا، بعد أن كان الديكتاتور السابق معمر القذافي قد أقاله من منصبه. إن عودة حفتر لكي يقود حرباً ضد جميع الإسلاميين انطلاقاً من محيط طبرق، مسمياً نفسه منقذ الأمة، فاقم الأوضاع سوءاً.

شكّلت تلك الظروف فرصة ذهبية لتمدد «دولة الخلافة»، بحيث اتبع داعش نفس النهج الذي اتبعه أثناء توسعه في سوريا. كان أول موطئ قدم للجهاديين في ليبيا هو مدينة درنة: لقد كانت المدينة الساحلية في الشرق، بسكانها البالغ عددهم 50000 نسمة، معقلاً للمتشددين دوماً، ومنذ عام 2004 كانت تصدّر إلى العراق أعلى نسبة انتحاريين أجانب من مدينة واحدة. وفي أعقاب الثورة الليبية تشكلت اعتباراً من عام 2011 مليشيات هنا أيضاً، كانت أكبرها كتيبة شهداء أبو سليم، وصحيح أنها طالبت بحكومة إسلامية – إلا أنها يجب أن تأتي عن طريق الانتخابات. ولكن جاء داعش بعد ذلك: في البداية على شكل جماعة من العائدين من سوريا، متمثلة بلواء البتار، الذي بسط سيطرته على المدينة بعد أن اغتال سياسيين وقضاة ومحامين، إضافة إلى زعماء الجماعات الأخرى. وفي شهر أيلول/ سبتمبر 2014

أرسل تنظيم داعش «أميراً» جديداً إلى درنة، وهو اليمني محمد عبد الله، الذي لم يكن معروفاً حتى ذلك التاريخ. وبتاريخ 5 تشرين أول/ أكتوبر عُقد أول اجتماع بين داعش والمليشيات الأخرى، وفيه بايع قادة الكتائب الأخرى المتبقون «الدولة الإسلامية» وتم الإعلان عن تأسيس «ولاية برقة» داخل «الدولة الإسلامية». بعد ذلك لم يعد أحد يأتي على ذكر الدولة الليبية. وتحولت الأبنية الحكومية إلى مكاتب لداعش، وباتت دوريات الشرطة تجوب الشوارع وهي تضع شعار «الشرطة الإسلامية» الجديد. وأُلزمت النساء بارتداء النقاب، واختفت مادة التاريخ من جدول الحصص المدرسية، ومن يشكك بالنظام الجديد، يعرض حياته للموت. وفي نهاية شهر تشرين أول/ أكتوبر 2014 بايع المواطنون «الخلافة» رسمياً. وعندما سأل الناشط محمد بطوحة الأصوليين، الذين كان معظمهم من الأجانب، عن سبب مجيئهم إلى درنة، أُطلق النار عليه من سيارة عابرة بعد يومين، ليلقى ذات المصير الذي سبقه إليه عشرات المنتقدين قبله، ومن بينهم إسلاميون أيضاً. ودائماً وفق نفس النمط كما حدث في سوريا في أواخر عام 2012 - ولكن باستثناء المرحلة الأولى المتمثلة بمكاتب الدعوة اللطيفة. لقد كوّنت طليعة داعش خلايا، وجندت مخبرين محليين، وأطلقت العنان لفرق القتل. وحدها في مدينة بنغازي في شرقي ليبيا كان هناك أكثر من 300 عملية قتل غامضة منذ عام 2013 - مُورست ضد محامين وناشطين وطيارين سابقين في سلاح الجو، وضد كل من يمكن أن يشكل خطراً الآن أو مستقبلاً على «الدولة الإسلامية».

ومن المفارقات أن التونسيين، أصحاب الأنموذج الوحيد «للربيع العربي»، الذين نجحوا حتى الآن بالانتقال من الديكتاتورية إلى الديمقراطية بعيداً عن ويلات الحرب، يشكلون أكبر عدد من الجهاديين المهاجرين في داعش -في درنة الليبية وكذلك في «دولة الخلافة» في سوريا والعراق. إذ بلغ عدد المقاتلين التونسيين في مطلع عام 2015 قرابة 3000 مقاتل في سوريا والعراق فقط. وبالفعل، كان التونسيون ابتداءً من عام 2012 حاضرين في الشمال السوري، في إدلب، حلب، الرقة. كما أنهم ظهروا لاحقاً في البلدات الواقعة جنوبي الموصل: كحراس وشرطيين،

كمقاتلين، كأمراء محليين، كرؤساء «محاكم» داعش، لهم صلاحيات تتجاوز القضايا الفعليـة لتصل إلى الأحكام الفورية باعتبار الأشـخاص غير المرغوب فيهم كفاراً – وإصدار حكم بالإعدام غير قابل للطعن. إذا صح التكهن، فربما ساعد هذا النزوح تونـس على عـدم الانـزلاق إلى الهاوية وعـلى البقـاء مسـتقرة نسـبياً في النهاية، بعد الاضطرابـات وعمليـات القتل المتعددة التي شـهدتها. غير أن مشـاكل البلاد، التي دفعـت في نهايـة عام 2010 بائع الخضـار التونسي محمد بوعزيزي إلى إحراق نفسـه مشـعلاً فتيـل أكبر تغيـير في العالم العربي، لا تـزال قائمة: بالـكاد يتنفس أحد الحرية الجديـدة، والشرطـة عنيفة كما في السـابق. ثُلث حملـة الشـهادات الجامعية عاطلون عن العمل، ومن يمارس مهنة ما، فبالكاد تسـد رمقه. ولا يبقى أمام هؤلاء الشـباب التونسيين سـوى الخيارات التالية: الأمل لسنوات طويلة في الحصول على وظيفة في الوطن، أو ركوب البحر باتجاه أوروبا – أو الجهاد.

من غير المعلوم، أعداد التونسـيين التي توجهت إلى ليبيا، ولكن الأمر المؤكد هو أن البلـد الجـار الغارق في الفوضى أصبح مرتعاً لتدفـق الجهاديين من منطقة حوض البحـر الأبيض المتوسـط. فمن مطار معيتيقة شـبه المدمر، الـذي عُلقت على مدخله لافتة من قطعة بلاستيكية كُتب عليها «مطار طرابلس الدولي»، تنطلق رحلات غير منتظمة – ثمة سـلطات كثيرة لا تسـمح بهبـوط الطائرات القادمة مـن معيتيقة على أراضيهـا –، ومـع ذلك كانت هنـاك حتى نهاية عام 2014 عدة رحلات أسـبوعية إلى الدار البيضاء في المغرب وأسـطنبول في تركيا. ولأن السـفر المباشر من تونس إلى تركيـا يثير الشـبهات في الوقت الحـالي، يتعمد الشـباب التونسـيون، الذين يريدون الانضـمام إلى داعش في سـوريا، السـفر عبر مطـار معيتيقـة، ليخفـوا آثارهم. ومن أسـطنبول يسـتقلون حافلات سـياحية صوب الحدود السـورية. وبالرغم من جميع جهود الحكومة التركية لضبط الحدود، يبقى هذه المسار مأمون المسلك.

وبعد السيطرة على درنة، جاء الدور على سرت، مسقط رأس الديكتاتور السابق معمـر القـذافي بالذات. أو ربـما بالذات لهذا السـبب أيضاً، فكما حـدث في الرقة في سوريا قصد تنظيم داعش الخاسرين من الثورة، حيث لم يجد هناك مقاومة قوية. وفي

مطلع شهر شباط/ فبراير 2015 كان شاطئ سرت مسرحاً لإخراج فيديو رعب جديد: بحركات كاميرا رثائية ظهر رجال ملثمون بالسواد يقتادون 22 عاملاً مصرياً قبطياً مختطفاً على طول الشاطئ، وكان العمال يرتدون ملابس برتقالية، ثم أجبرهم الملثمون على الركوع، قبل أن يعدموهم ذبحاً، حتى تلونت مياه أمواج البحر باللون الأحمر، لتزيد من المشهد عنفاً.

في اليوم التالي، حلقت مقاتلات مصرية للقيام بضربة انتقامية. لكن داعش كان يهدف من وراء فعلته الشنعاء في المقام الأول إلى أمر مختلف تماماً: لم تكن الرسالة موجهة إلى «روما»، التي وردت في نص التسجيل، بل كانت جنيف هي المقصودة بهذه المجزرة: ففي مطلع شهر كانون ثاني/ يناير 2015 تمكن مندوبو معظم الفصائل الليبية من التوصل إلى هدنة لوقف إطلاق النار تحت رعاية مبعوث الأمم المتحدة الخاص برناردينو ليون. ولاحت في الأفق بارقة أمل في أن يحدث تقارب بين جميع الأطراف. ولم تمر سوى أيام قليلة على هذا النجاح الصغير في جنيف، حتى اقتحمت فرقة انتحارية تابعة لداعش فندق كورنثيا في طرابلس، الذي تتخذه آخر الشركات الأجنبية والحكومة المحلية مقراً لها. بعد ذلك نشر التنظيم الإرهابي الفيديو الدموي. وجاءت مبررات قتل المصريين الأقباط في هذا التوقيت بالذات على شاطئ البحر في غاية السخافة: لأن الأمريكان كانوا قد رموا في شهر أيار/ مايو 2011 جثة أسامة بن لادن في البحر أيضاً، وكذلك الثأر لقبطية مصرية مُنعت من اعتناق الإسلام قبل سنوات.

وبالفعل، نجح داعش بفضل عمله الوحشي السينمائي في منع حدوث أي تقارب داخل البيت الليبي – الأمر الذي سيصب في صالح داعش دون شك. وقد أدى تحالف حكومة طبرق مع مصر ضد خصومهما في العاصمة طرابلس إلى انهيار التوازن الهش بسبب الضربات الجوية التي شنّها سلاح الجو المصري. ولكن لم يكن بمقدور أحد الطرفين حسم النصر لصالحه. وفي هذا الصراع بين طرفين متكافئين من حيث القوة يمكن لداعش أن يقوي نفسه بفضل تكتيكه المتمثل بتغير التحالفات، وهو التكتيك ذاته الذي حقق من خلاله نجاحاً كبيراً في سوريا، حيث

ناور فصائل متمردين تفوقه قوةً بكثير، الواحدة تلو الأخرى، وقد ساعده في ذلك أنه يمتلك ميزة يفتقر إليها المتمردون: التعاضد.

وهذه ذات الميزة التي يفتقر إليها الليبيون أيضاً، الذين اتسع الشرخ فيما بينهم بعد انتصارهم على النظام الديكتاتوري. وبعد الإطاحة بالقذافي مباشرة تم تشكيل «هيئة شؤون المحاربين» التابعة للدولة، والتي وضعت قائمة بأسماء 60000 مقاتل حملوا السلاح أثناء الحرب ضد الديكتاتور. وبعد ذلك بعام أحصت اللجنة، التي أوكلت إليها مهمة تقليص عدد المسلحين ودمجهم في الجيش أو الأعمال المدنية، 200000 مقاتل. لكن الرواتب وأموال المعونة المؤقتة، التي كانت مخصصة لتسريح المقاتلين، جاءت بنتائج عكسية: فقد ازدادت أعداد المنضمين إلى المليشيات.

في الأسابيع الأولى من عام 2015 كان من المفترض عقد اجتماع بين قادة عدة مليشيات إسلامية في مدينة سبها، التي كانت سابقاً موالية للقذافي، من أجل إعلان «ولاية فزان» تابعة لداعش. وفي حال تحقق لهم ما أرادوا، في فرض سيطرتهم على تلك المناطق الصحراوية الشاسعة، حيث تنعدم سلطة الدولة، فسيسيطر الجهاديون على طرق تهريب اللاجئين والسلاح والمخدرات عبر الأراضي الليبية، وسيخلقون لأنفسهم ممرات نحو تشاد والنيجر، وصولاً إلى نيجيريا حيث ثبتت جماعة بوكو حرام أقدامها. وبذا يكون داعش محقاً ببيانه الذي أطلقه في شهر كانون أول/ديسمبر 2014، عندما أعلن عن تأسيس ثلاث ولايات في ليبيا: واحدة في الشرق وواحدة في الغرب وثالثة في الجنوب.

لكن خشية الغرب من وقوع هجمات على أرضه وخوفه من العائدين، الذين قويت شوكتهم، جعله يحيد عن توجه داعش الرئيس، وإلى ما يرمي إليه التنظيم. فما حدث في أوروبا وأستراليا وكندا حتى مطلع عام 2015، لا يتجاوز كونه أكثر من تأثير جانبي مؤقت يصب في مصلحة «الدولة الإسلامية». بيد أن هدفها الرئيس، الذي تستنفد من أجله طاقاتها ومقاتليها، ليس أوروبا وليس الولايات المتحدة الأمريكية: بل إن هدف داعش هو توسيع سلطته في الدول المجاورة «لدولة الخلافة».

12

السائرون أثناء النوم

داعش ودول الجوار

لولا الأخطاء السياسية في المنطقة لما كان صعود «الدولة الإسلامية» ممكناً بهذه السهولة. ففي تركيا بدت بعض المطارات وكأنها صالات لاستقبال الجهاديين، وفي العراق ساعد متطرفو الطرف الخصم داعش – أما السعودية فتعاني من اضطراب في البرمجة.

لكي يفهم المرء حقاً مدى الأهمية الجوهرية، التي أسهمت في انتصارات داعش من خلال وجود حدود مفتوحة وبلد يرحب بالجهاديين يمكن الوصول إليه بسهولة، فمن المجدي إلقاء نظرة سريعة على دولة لا توفر كل ذلك: الأردن. فالمملكة الصغيرة جنوبي سوريا، التي تعاني بلا شك من مشكلة مع الأصوليين من شعبها، استطاعت إحكام السيطرة على حدودها المشتركة مع سوريا البالغ طولها 370 كيلومتراً، حتى بعد مرور أربع سنوات على الأزمة في البلد المجاور.

حتى إن الكاتب، الذي زار مناطق المعارضة السورية 17 مرة ويعرف حدودها الخارجية جيداً من خلال خبرته الخاصة، تفاجأ من قدرة المخابرات الأردنية والشرطة على بسط سيطرتها الفعلية، ومعرفة من بإمكانه عبور الحدود بصفة رسمية أو غير رسمية – على عكس لبنان والعراق، أو تركيا على وجه التحديد. وتبقى إسرائيل استثناءً؛ لأن حدودها القصيرة مع سوريا تعد خط مواجهة منذ عقود.

لقد فشلت عدة محاولات قام بها الكاتب منذ عام 2013 لعبور الحدود من الأردن إلى سوريا. فلا مجلس قيادة الثورة السورية، ولا ضباط الارتباط مع الجيش الأردني، ولا الاتصالات بجهاز المخابرات المحلية، ولا المهربون استطاعوا مساعدة صحافي ألماني على اجتياز الحدود الأردنية السورية. لقد كان ذلك الأمر مؤسفاً بالنسبة لمتقصي الحقائق، ولكنه يثبت أنه من الممكن ضبط الحدود جيداً. علماً أن هذا لا يعني كثيراً بالنسبة للصحافيين، ولكنه يوفر الاستدامة للجهاديين.

هذا كله لا يعني أن الأردن دولة مثالية، وخالية من الفساد وسوء استخدام السلطة. ولكن عندما يتعلق الأمر بالأمن القومي فإن المؤسسات تؤدي عملها بنجاح وتلتزم بتوجيهات الحكومة: التي تسمح بعبور المدنيين والمتمردين السوريين تحت إشرافها، ولكنها تمنع مرور الجهاديين الأردنيين أو الوافدين. وكانت النتيجة تحييد شبكات المهربين في الأردن؛ لأنه ببساطة ليس هناك من يهربونه أصلاً. لدرجة أن الأردنيين في صفوف داعش يتبعون في أغلب الأحيان طرقاً ملتوية، لكي يدخلوا في النهاية إلى سوريا عبر تركيا. وقد أدى هذا الإغلاق الأردني للحدود إلى تغير المشهد العام للقتال في المحافظات السورية الجنوبية، خلافاً للشمالية: فإلى حد ما لا تزال كتائب الجيش السوري الحر القديمة تحقق انتصارات ومتفاهمة نسبياً فيما بينها. ومع أن جبهة النصرة المتشددة نشأت هنا أيضاً، إلا أنها تتعاون مع الفصائل المعتدلة ولا تضم أجانب في صفوفها – فهم لا يستطيعون الوصول إليها أساساً.

وعلى عكس الأردن، كانت تركيا طريقاً مفتوحاً لتنقل الإرهاب عالمياً: فمن صيف عام 2012 حتى مطلع عام 2015 وصل إلى داعش عبر الأراضي التركية قرابة تسعين في المائة من أصل المقاتلين الأجانب البالغ عددهم 15000 إلى 20000. وما زالوا يتوافدون باستمرار، إذ يحطون في مطار أسطنبول، ثم يتابعون طيرانهم أو سفرهم إلى هاتاي أو غازي عنتاب أو أورفة، وأحياناً يبقون عدة أسابيع في مساكن أو معسكرات تدريب في تركيا، قبل أن يتوجهوا إلى سوريا على مرأى من أعين قوات حرس الحدود التركية، الجندرما، التي كانت تغض الطرف عنهم. لكن طريق العبور غير الشرعي لم يعد بالسهولة التي كان عليها حتى أواخر عام 2013،

عندما كان المهربون يعرضون خدماتهم ويصرخون بصوت مسموع بالنسبة لشرطة الحدود «تهريب، تهريب»، ويتقاضون بضعة يوروهات عن كل شخص ينقلونه عبر الحدود. ولكن أصواتهم لم تعد تُسمع في مطلع عام 2015، وأصبحوا يتقاضون نحو 50 يورو لقاء خدماتهم. غير أن معظم الوافدين إلى داعش يتم إحضارهم من المطارات من قِبل رفاقهم.

وعلى الدوام كانت الحكومة التركية، بزعامة الرئيس صاحب الصلاحيات المطلقة بشكل متزايد رجب طيب أردوغان، تعلن أنها احتجزت آلاف الأجانب وقامت بترحيلهم، وأنها رفضت دخول عشرات الآلاف إلى أراضيها. غير أن أحداً في أوروبا أو العالم العربي لم يلحظ شيئاً من عمليات الترحيل تلك، التي طالت الآلاف. وفي نهاية عام 2014 كان هناك بالفعل بضعة أوزبكيين في سجن أنطاكية، عاصمة محافظة هاتاي. ولكنه تم اعتقالهم أثناء عودتهم من سوريا، وليس أثناء دخولهم إليها. وفي تاريخ 19 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014 ذكر وزير العدل التركي بكير بوزداغ أمام البرلمان عدد عناصر داعش المحتجزين في السجون التركية: 16.[1]

وفي شهر كانون ثاني/ يناير 2015 وبعد أن سافرت حياة بومدين (زوجة أميدي كوليبالي أحد منفذي اعتداءات باريس) عبر تركيا إلى داعش في سوريا دون أية عوائق، اعتبر وزير الخارجية التركي مولود جاويش أوغلو أن الانتقادات الواردة غير مبررة: «لو أعلَمنا الفرنسيون في الوقت المناسب، لاعتقلناها (حياة بومدين) أثناء دخولها أراضينا. ولكن لا يمكننا التنبؤ بمن يريد الالتحاق بداعش، من ضمن آلاف الأوروبيين القادمين إلينا.» ولكنه أقرّ أن هناك «شبكات شبيهة بالمافيا»، تقوم بتهريب المقاتلين عبر الحدود. وليس بمقدور الحكومة الحد من ذلك.[2]

إلا أن تنقل الإسلاميين عبر الحدود لا يتم بهذه السرية التي وصفها الوزير. ففي السنوات الثلاث الماضية كان مرتحلو الجهاد من جميع أنحاء العالم يصلون ويغادرون المطارات التركية بحرية. حتى إن مطار هاتاي في جنوبي تركيا كان يبدو في أغلب الأحيان وكأنه صالة مسافرين للقاعدة: تونسيون وشيشان وسعوديون ومصريون

وأوزبك وأوروبيون وكثيرون غيرهم كانوا يسافرون مرتدين أحياناً الزي الأفغاني أو الزي العسكري، ويتنقلون في مجموعات، ومعهم أمتعة ثقيلة. وكانوا يغادرون تركيا مجدداً بأمتعة خفيفة، وأحياناً كان طين تربة شمالي سوريا الأحمر لا يزال عالقاً على أحذيتهم. ومن بين المغادرين كان هناك عشرات الشيشان أيضاً، الذين حكوا عندما كانوا على الطرف السوري أنهم مطلوبون جميعاً من قِبل الإنتربول.

لم تهتم السلطات بجواب ستة تونسيين طويلي اللحى قدموا من سوريا في شهر كانون ثاني/ يناير 2014، حاملين معهم أمتعة خفيفة، حين قالوا إنهم كانوا «هناك لقضاء إجازة». وكذلك لم يكن هناك أي رد فعل عندما اشتكى بعد عدة أشهر بعض المسافرين جواً من أن إرهابيين كانوا على متن الرحلة التي جاؤوا بها. لقد تكرر ذات المشهد شهراً بعد شهر، إلى أن أصبح المسافرون الأصوليون يستخدمون حافلات السفرات البعيدة بشكل أكثر في النصف الثاني من عام 2014. وبتاريخ 23 شباط/ فبراير 2015 استقل عدة مقاتلين شيشان وأسرهم حافلة من أسطنبول إلى أنطاكية. وكانوا يرتدون الجلابيب الأفغانية الشائعة لدى داعش، ويتحدثون جزئياً باللغة الروسية بلا حرج عن مهمتهم القادمة على الجانب السوري.

مقاتلو داعش، الذين كانوا يتنقلون بين الحدود أحياناً بأسلحتهم، شوهدوا منذ عام 2013 عند ما يُسمى بـ«المعابر الإنسانية» بين تركيا وسوريا أيضاً. في واقع الأمر تم إنشاء هذه المعابر لإنجاز إجراءات التخليص الجمركي للمواد الإغاثية دون بيروقراطية، بحيث يمكن لموصلي الشحنات التوجه إلى مخيمات اللاجئين الهائلة دون ختم دخول وخروج على جواز السفر. إلا أن مسافرين آخرين يدركون تماماً كيفية استغلال هذه البيروقراطية المفقودة. فبين نهاية عام 2013 وبداية عام 2014 رصد عمال الإغاثة العديد من الجهاديين المتربصين عند المعبر الحدودي بالقرب من مدينة كلس الصغيرة. لقد كانوا متواجدين في منطقة مؤسسة الإغاثة الإنسانية التركية الضخمة، المقربة من الحكومة التركية، وينتظرون من يأتي لجلبهم. وأيضاً كان يعقوب بولنت ألنياك، أحد المسؤولين رفيعي المستوى في مؤسسة الإغاثة، من بين قتلى أول غارة جوية أمريكية في سوريا في 22 أيلول/ سبتمبر 2014 استهدفت

جبهة النصرة في قرية كفر دريان في محافظة إدلب. ولم تفصح المؤسسة الإغاثية التركية عن سبب وجود موظفها ألنياك ليلاً في مقر عسكري تابع لجبهة النصرة.

حتى عند «المعبر الإنساني» بالقرب من قرية أطمة إلى الغرب، شاهد موظفو الإمدادات في إحدى منظمات الإغاثة الأوروبية في شهري أيار/ مايو وحزيران/ يونيو 2014 جهاديين من الشيشان ومن تركيا نفسها، كانوا يعودون إلى تركيا على مرأى من الجيش التركي. وفي شهر حزيران/ يونيو تحدث تركيان عند معبر أطمة الحدودي مع أحد الضباط، وقالا له إنهما عائدان للتو من مدينة الموصل المحررة وسيتوجهان إلى أسطنبول مبدئياً - «للاستراحة». وكان من العادي أنهما يحملان سلاحهما معهما.

في الصيف الذي سبق، أدى العثور على ذخائر لدى مقاتلي داعش في العراق إلى اضطراب العلاقات الدبلوماسية بين أنقرة وواشنطن. فقد عثر مقاتلو قوات البيشمركة الكردية على ذخيرة من إنتاج مصنع تسليح الجيش التركي (مؤسسة الصناعات الكيماوية والميكانيكية)، بحوزة قتلى داعش بالقرب من أربيل - الأمر الذي غذى الشكوك في أن السلطات التركية تدعم داعش بشكل مباشر.[3]

لم يقتصر الأمر على السماح لمقاتلي داعش بالتنقل عبر الأراضي التركية فحسب، بل كانوا يتلقون العلاج الطبي في المشافي الحكومية أيضاً، كما حدث مع القائد العسكري أبي عمر الشيشاني: فحسب أقوال أحد موظفي إمدادات المناطق الحدودية الفارين، تعرض الشيشاني في نهاية شهر نيسان/ أبريل 2014 إلى إصابة بالغة في ذراعه اليسرى في المعارك الدائرة على الجانب العراقي. آنذاك لم يكن داعش قد استولى على الموصل بعد، لذا نقله رجاله إلى الرقة، حيث مقر داعش الرئيس. وكان الأطباء المتبقون هناك يريدون بتر ذراعه. وأصلاً لم يكن مشفى الرقة مجهزاً بشكل جيد، ناهيك عن مغادرة معظم الأطباء هناك. لهذا السبب تم نقل الشيشاني عبر الحدود في غضون ساعات إلى مشفى تركي مجهز بشكل ممتاز في محافظة أورفة،

ولكنه بعيد بعض الشيء. وهناك خضع لعملية جراحية استمرت عدة ساعات، ثم أُعيد إلى سوريا بعد يومين، ثلاثة.

حتى إن إقامة مقاتلي داعش لفترات طويلة في تركيا كانت شرعية ودون مشاكل. كما هو الحال بالنسبة لمحمد يسري الزامك، الذي سافر إلى تركيا في أواخر عام 2013 وفجّر نفسه في مدينة عفرين في الشمال السوري في شهر شباط/ فبراير 2014: وقد عثر مسلحو نقطة التفتيش الكردية على جواز سفر الانتحاري، إلى جانب وثائق أخرى، إضافة إلى تصريح إقامة لمدة سنتين في تركيا، وهذه الوثيقة لا يحصل عليها إلا الأجانب الذين يثبتون أنهم يمارسون مهنة ما أو نشاطاً تجارياً في تركيا. لكن يبدو أن مركز التسجيل في حي فاتح، وهو حي محافظ جداً في أسطنبول، قد منحه التصريح صورياً. وعندما أراد صحافيون من صحيفة أوزغور غونديم معرفة كيفية حصوله على تلك الوثيقة، اكتشفوا أن هناك وكالة في حي فاتح، تستصدر العديد من تلك التصاريح بطرقها الخاصة. وبعد يوم على تواصل الصحافيين مع الوكالة هاتفياً، لم يعد أحد يجيب على الهاتف، ثم تم حلّ الوكالة.

أثناء الاستجواب اعترف رجلان من داعش، ألقى الأكراد القبض عليهما، بمعلومات دقيقة عن معسكرات التدريب العسكرية التابعة لداعش في تركيا، حيث كانوا يتعلمون في تلك المعسكرات الرمي وتكتيكات الاشتباكات. وقد وصف الجزائري بشير محمد معسكراً يقع على التلال القريبة من منطقة الريحانية الحدودية، وعلى الأقل تُثبت أختام الدخول على جواز سفره إقامته في تركيا لعدة أشهر. الكردي جميل محمود من عفرين، الذي بلغ سن السابعة عشرة للتو، كان يعمل في بيروت في طلاء الأثاث، وروى بالتفصيل كيف حاول داعش تجنيده طوال شهور، وبعدها تم تهريبه إلى تركيا عن طريق البحر، دون أن يخضع للرقابة مرة واحدة: «حاولوا إقناعي عدة مرات بالذهاب إلى داعش، وكان الجهاد يبدو مثيراً بالنسبة لي أشبه بمغامرة. وما إن وافقت، حتى أوصلني آخرون إلى ميناء صغير في شمالي لبنان، ومن هناك انطلقت الرحلة نحو ميناء تركي، لا أعرفه، فقد تم جلبي على الفور.»

سـارت السـيارة لمـدة أربع سـاعات، إلى أن وصلـت إلى مزرعة نائيـة فيها ثلاثة مبـانٍ وحديقة خضار كبيرة: «كان هنـاك قرابة 25 رجلاً، عرب وأتراك في منتصف الثلاثينيـات. تلقينـا تدريبـات عـلى اسـتخدام بندقية الكلاشـينكوف ومسدسـات غلوك. كان الشيوخ عرباً، بينهم تركي واحد، كان يخرج بسيارته بين والحين والآخر ليجلب لنا المواد الغذائية.» لم يسـتغرب كثيراً أن هدفهم كان نيل الشـهادة دفاعاً عن الإسـلام، «لكن ما وجدته سخيفاً هو أنهم كانوا يروون دائماً عن الجنة. لكن، لم يعد أحد من هناك بعد. فمن أين لهم أن يعرفوا كيف تبدو الجنة؟»

لم يغادروا معسـكرهم على الإطـلاق، ولم يختلطوا بأشـخاص آخرين. وغالباً ما كان يرد في الأحاديث اسم غازي عنتاب، عندما كان الأمر يتعلق بتوفير المؤن. وبعد شهرين قيل لجميل محمود إن تدريبه قد انتهى. وهناك مهمة سرية في انتظاره: بما أنه كـردي، ينبغـي عليه الانضـمام إلى «قوات الدفـاع الذاتي» في مدينة عفرين السـورية – وانتظـار المزيـد من الأوامر. «ثم أخذني تركي وعربي بالسـيارة إلى الحدود، وكان الاثنـان حليقـي الذقـن ومدنيي اللبـاس.» نجح جزء مـن الخطة، فقـد انضم جميل محمود إلى المليشـيا. ولكن بعد بضعة أشهر سـلّم نفسه، وخضع لتحقيق مستفيض، واليوم عاد يرعى الماعز في قريته بالقرب من عفرين.

بالمجمل العام، فإن جميع الحوادث والمشـاهدات تنفـي أن هناك مافيا تعمل سراً دون علـم حرس الحدود وقوى الأمن التركية. هناك موظفون فاسـدون، على طول الحـدود البالغ طولهـا 900 كيلومتر، لا يزالون يتهاونون في تهريـب النفط والديزل من مناطق داعش إلى تركيا أو بالعكس من خلال نقل السيارات المسروقة في أوروبا إلى سوريا. لكن ذلك لا يبرر غض النظر التام هذا، عن أكبر وأخطر تشكيل إرهابي في العالم. ولا سيما تشكيل أعلن عن تنفيذ اعتداءات على الأراضي التركية بين الحين والآخر، وأنشـأ شبكة كبيرة داخل تركيا أيضاً بمسـاعدة 1000 مهاجر تركي لدى داعش على الأقل.

إذن، لماذا لا تفعل تركيا شيئاً ضد مقاتلي داعش، الذين يتدفقون عبر حدودها؟ يرجع هدف التقاعس الرئيس، وكذلك تعاون السلطات التركية أحياناً، إلى نية أردوغان وكذلك عناصر أخرى من الجيش في اتباع هدفين سياسيين يعارض أحدهما الآخر: يسعى أردوغان إلى إسقاط الأسد، ولكن في الوقت ذاته يواجه واحدة من تبعات إضعاف نظام الأسد، التي تنعكس على تركيا. ففي ظل اندلاع الثورة السورية نجح الأكراد السوريون في فرض أمر واقع وإنشاء مناطق حكم ذاتي. وهذا التطور يلامس المخاوف الأزلية للمؤسسة التركية، التي تخشى أن يهدد الأكراد الآن الحدود التركية أيضاً. في البداية كانت نية أنقرة السياسية استخدام المقاتلين الإسلاميين المتشددين ضد الأسد، ولكن أيضاً ضد حزب العمال الكردستاني الانفصالي. وفي عام 2012، عندما بدأت جبهة النصرة بشكل خاص، وكذلك كتائب الجيش السوري الحر بشنّ هجمات متكررة على الأكراد السوريين، فإن ذلك حدث بناءً على تحريض من المخابرات التركية، وفق أقوال شهود متطابقة: لقد حصلت تلك الفصائل على المال والسلاح، لكي توجهه ضد الأكراد.

لقد شعرت القيادة بالتهديد، عندما رأت كيف استطاع الفرع السوري لحزب العمال الكردستاني بتصميم ونجاح أن يدير محلياً المناطق الثلاث التي يسيطر عليها. «كانتون كوباني» هو أحد تلك المناطق. "أطلقنا اسم 'كانتون' وفق المثال السويسري، فهمت"، كما شرح إبراهيم كوردو، "وزير خارجية" كوباني، في شهر أيار/ مايو 2014 الأنموذج التحضيري لدولته. عندما كانت كوباني والقرى المحيطة بها محاصرة من قِبل داعش، كان طريق التهريب عبر الحدود التركية هناك محمياً تماماً ومحفوفاً بالمخاطر. "ولكننا لن نسمح لأمر كهذا أن يثبط عزيمتنا على تأسيس دولتنا"، حسبما دافع "وزير الخارجية" عن محاولات الحبو الصغيرة لدولته الفتية. في الماضي كان كوردو يستورد الفواكه الاستوائية المعلبة من إندونيسيا، وقد أكسبه ذلك ما يشبه خبرة دولية ووهبه المنصب. وأراد جهاديو داعش سحق هذه الدولة القزمة الموجودة في قلب "دولة الخلافة" بكل ما أوتوا من قوة – وكذلك أنقرة كانت تود لو ترى تلك الدولة تزول من جديد.

غير أن كوباني، المدينة الكردية الصغيرة المتماسكة، أصبحت مشكلة بالنسبة للقيادة في أنقرة: فبفضل موقع كوباني تحت بعض التلال على الجانب التركي، تمكنت طواقم تصوير القنوات التلفزيونية من جميع أنحاء العالم من تصوير معركة المدافعين اليائسين ضد هجمات "الدولة الإسلامية"، في حين نشر الجيش التركي دباباته – وأجلى طواقم التصوير، ولكنه لم يتدخل في المعارك. هذا الأمر تولته المقاتلات الحربية الأمريكية، ولكن لم يُسمح لها استعمال قاعدتها الجوية في تركيا لفعل ذلك.

لن يُسمح بسقوط كوباني وتنبغي محاربة داعش – هكذا كان التوجه الرسمي للحكومة التركية. لكن الوضع على الأرض بدا مختلفاً: فقد كانت كوباني محاصرة ولم تصلها أية مؤازرة، في حين كان داعش لا يزال يتحرك بحرية على الأراضي التركية. وفي 4 تشرين أول/ أكتوبر 2014، في نفس اليوم الذي عُقد فيه اجتماع قمة عقيمة بين القيادة الكردية وضباط من الاستخبارات التركية، حطّت في الصباح طائرة تابعة لشركة بيغاسوس التركية الرخيصة في مطار هاتاي. على متن الرحلة رقم PC 4180: تسعة رجال من آسيا الوسطى، أوزبك على الأرجح، ورجل واحد من السعودية، وجميعهم كانوا يرتدون ستراً ثقيلة ذات لون أخضر داكن، وصنادل وسراويل حتى الكاحل، كالتي يرتديها الأصوليون. استغرب الركاب الآخرون، ولكن لم يعترض أحد هذه المجموعة، كما لم يوجه إليهم موظفو أمن المطار أي سؤال. وبكل أريحية غادر الرجال العشرة المطار، واستقلوا سيارة نقل صغيرة كانت تنتظرهم في الخارج، واختفوا بعيداً.

بتاريخ 22 تشرين أول/ أكتوبر نجح مصور كردي في تصوير لقاء بين رجلين من مقاتلي داعش مع عسكريين أتراك، أمام السياج الحدودي مباشرة. وفي مقطع الفيديو، الذي طوله خمس دقائق ولم يخضع لعملية مونتاج، ينتظر رجال داعش، في خندق بالقرب من أحد المحارس، الجنود، الذين كانوا واقفين أمام المحرس. ثم خرج سبعة رجال من عربتهم المصفحة، وقد بدوا متوترين في البداية. بعدها تحدثوا لفترة من الوقت، فسادت أجواء مريحة، وعندما أراد رجلا داعش العودة مجدداً، لوح الجميع بأياديهم مودعين.

وبينما كان جيش داعش الإرهابي يهاجم كوباني بالمزيد من قواته ودباباته ومدفعيته، كان الجيش التركي على مرمى النظر يمنع كل إمدادات مساعدة - سواء كانت طبية أم ماءً أم طعاماً - من الوصول إلى المدافعين الأكراد. وعند المعابر الحدودية على الجانب السوري التي يسيطر عليها داعش، بدا الوضع مختلفاً: في بلدة أقجة قلعة التركية الوديعة كانت البوابة الحدودية تفتح كل صباح في الساعة التاسعة. «كان يُسمح للسوريين بالدخول والخروج»، قال أحد العسكريين في المحرس. أما بالنسبة للآخرين فليس أمامهم سوى المهرب، الذي كان يعرض خدماته بصورة علنية على بُعد أمتار: «كم العدد؟ رجلان؟ ثلاثة؟ ليست هناك مشكلة»، حتى إنه لم يكن يسأل عن جنسية الأشخاص. «الجندرما»، حرس الحدود التركي، «لا ينظر إلى ذلك.»

في البداية لم تكن هناك حركة مرور كبيرة. كانت هناك سيدات يستعدِدْن لعبور الحدود، أزحن الخمار عن وجههن بطريقة تدل على أنهن غير معتادات عليه، وبانت عيونهن فقط. بعد نصف ساعة جاءت عربة شحن، وأفرغت أكواماً من المواد الطبية الإسعافية: ضمادات، قفزات ولوازم طبية تُستخدم في العمليات الجراحية لمرة واحدة فقط، وكراس متحركة قابلة للطي. ووقف رجل ملتحٍ طاعن في السن يرتدي طاقية صلاة، وراح يراقب عملية تنزيل شحنة السيارة. ولما تم ذلك وقبل عبور الحدود ناوله شاب جواز سفر سعودياً، وطلب منه أن يوصله إلى رفاقه على الطرف الآخر، وبدا أن الرجل كان على علم مسبق بالأمر. إيماءة قصيرة، ثم انطلق العجوز وبصحبته جواز السفر وأربعة رجال، الذين نقلوا حمولتهم بعربات يدوية إلى سوريا. إلى «دولة الخلافة». بينما كان الأكراد يلحّون على السلطات التركية لفتح الحدود والسماح بمرور المساعدات الطبية من أجل كوباني، ولكن دون جدوى، أما هنا: فقد كان يتم ذلك دون مشاكل.

كلما تكشف تراخي تركيا في التعامل مع مقاتلي داعش أكثر، ازداد حجم الكارثة الإعلامية بالنسبة للحكومة التركية. بل أكثر من ذلك، فقد أصبح الأمر وبالاً على تركيا نفسها. أحد الموظفين غير الرسميين في جهاز الاستخبارات التركي (MIT)

أبدى اسـتغرابه من أنه «لم يسبق له من قبل أن رأى» مسؤولين من مختلف الوزارات «متوتريـن عـلى هـذا النحو. لقـد كانوا خائفـين من داعـش حقاً، إنهـم يدركون أن خلاياهـم منتـشرة في جميع أنحاء تركيا ويمكنها تنفيذ هجـوم إرهابي.» قنبلة واحدة في فندق سـياحي كافية لضرب تركيا، حسـب تقديرات الباحـث الاجتماعي بهلول أوزكان من جامعة مرمرة في أسـطنبول، «يكفي أن يموت بضعة سياح، حتى تنتهي السياحة، التي تعد واحدة من أهم ركائزنا الاقتصادية.»

وكما ظنّ نظام الأسـد قبل ذلك، أن بإمكانه السـيطرة على داعش واسـتخدامه، يبدو أن حكومة أردوغان ارتكبت الآن الخطأ ذاته وتركت الغول، الذي كان خارج نطاق السـيطرة منذ فترة طويلة، ينمو. «ليسـت لدينا مشـاكل في تركيا»، حسبما قال مقاتلـون مغاربة وسـعوديون لأحـد العراقيين في قرية تحت سـيطرة داعش بالقرب مـن تكريت: «لدينا شـبكتنا في سـائر أرجاء تركيا، لن يقـف في طريقنا أحد.» لو أن تركيا راقبت حدودها منذ البداية كما فعل الأردن، حتى وإن لم يكن بمقدورها أيضاً منع نشوء «الدولة الإسلامية»، لكان بإمكانها منع تدفق الأجانب، الذين لولاهم لما كانت انتصارات داعش ممكنة في سوريا أولاً، وفي غربي العراق بعد ذلك.[4]

تركيـا هي أكثر الأمثلة درامية، غير أن هناك عدة دول أخرى في المنطقة سـاهمت في صعود داعش، ليس لأنها تدعم التنظيم الإرهابي بشكل مباشر، بل بسبب جهلها وأخطائهـا. «السـائرون أثناء النـوم»، الذين أشـار إليهم المؤرخ كريسـتوفر كلارك في العواصـم الأوروبية عشـية انـدلاع الحرب العالميـة الأولى، يبدو أن لهم أشـباحاً في منطقـة الـشرق الأوسـط. فقبل 100 عـام لم يكن أحد يريد انـدلاع حرب عالمية إطلاقاً – ولكن، كان كل واحد مكبلاً بالدسـائس والتحالفات السياسية الداخلية، التـي تطـورت إلى ديناميـة غير مرغـوب فيها. واليـوم، هناك صراعـات عميقة بين الأتراك والأكراد، بين السنة والشيعة، وكذلك بين الأغنياء والفقراء، وبين الأقوياء والضعفاء، الذين استطاع داعش تأليبهم واستغلالهم بطريقة ذكية.

وفي العراق أيضاً يخدع الانطباع الظاهري بأن الحكومة تقاتل داعش، الذي بسط سيطرته على ثلث مساحة البلاد منذ منتصف عام 2014، بحيث لا يظهر الوضع الحقيقي. فتحقيق انتصار حقيقي على داعش ليس ممكناً، إلا إذا عومل السنة في العراق، الذين يستولي الجهاديون على مناطقهم دون مقاومة غالباً، كمواطنين متساوين، بدلاً من تهجيرهم وخطفهم وقتلهم بشكل تعسفي. والحكومات في واشنطن وأوروبا متفقة على ذلك، وهكذا تبدو أيضاً تصريحات رئيس الوزراء الجديد حيدر العبادي، الذي يعتبر محط الآمال.

لكن ما يحدث هو عكس هذه التصريحات الرسمية. فالقوى العراقية، التي تحارب داعش اليوم، هي ذاتها التي جعلت من صعوده ممكناً: تلك المليشيات الشيعية الضخمة، التي كانت مسؤولة أثناء الحرب الأهلية عن حملات القتل والتطهير الطائفي لأحياء بكاملها في بغداد. ومنذ تفكك أربع فرق من الجيش العراقي في صيف عام 2014، لم تقدم المليشيات نفسها كمنقذ للبلاد فحسب، بل تولت قيادة القوات الحكومية في الواقع، ولا سيما قائد فيلق بدر، هادي العامري. فهو الذي يصدر الأوامر للضباط، ويقول إن رئيس الوزراء العبادي «أسند إليه ملف ديالى»، وهي أول محافظة تمت استعادة مناطق منها في شهر كانون ثاني/ يناير 2015، من تنظيم داعش. ولكن، بطريقة لا تختلف كثيراً عن طرق داعش: فحسب منظمة هيومن رايتس ووتش تم تهجير 3000 مدني سني على الأقل، ومُنعوا من العودة، وتم إحراق المنازل، وفي قرية بروانة وحدها تم قتل 50 إلى 70 شخصاً بطريقة منهجية بعد انسحاب داعش. كما تم قطع رأس أسيرين على الأقل من قِبل رجال مليشيا عصائب أهل الحق الشيعية، الذين نشروا الصور على شبكة الإنترنت بكل فخر. «متعاطفون مع داعش»، هي الذريعة لتهجير العائلات والعشائر والقرى السنية من أراضيهم في مناطق مختلطة طائفياً في العراق.

رئيس الوزراء العبادي واقع في مأزق: فهو يعتمد على المليشيات الشيعية في الدفاع ضد داعش. فكلما ازداد تهديد «الدولة الإسلامية»، ازدادت وحشية المليشيات الشيعية، وبالعكس. كلا الطرفين يستفيدان من بعضهما ويدمران ما تبقى

من العراق. ولكن يُنظر إلى الهمجية، التي يستخدمها داعش بشكل صارخ، بشكل منعزل، فتبدو تلك الهمجية مثل الجنون الغريب لتنظيم إرهابي. ولكن في سياق الحرب الطائفية الدموية في العراق تصبح هذه الهمجية عقلانية مفجعة. فداعش يتغذى على حقد أعدائه في العراق. ويتحول السنة إلى ضحايا الحقد الشيعي، إذ ليس أمامهم خيار آخر سوى البحث عن حماية - وأن يصبحوا أسرى لدى داعش.

لم تتغير مشاكل العراق الأساسية في مطلع عام 2015. قد يكون رئيس الوزراء السابق نوري المالكي قد ترك منصبه، ولكن سياسته الطائفية لم تكن عملاً فردياً، وإنما كانت مدعومة من أطراف أخرى وبخاصة القيادة الإيرانية، المتواجدة في مركز صنع القرار في بغداد. هذه المسألة لا تتعلق بما تريده أو لا تريده الحكومة المنتخبة في طهران، لأن مركز قوة سياسة إيران الخارجية، التي تتسم بالعنف والقسوة، وكذلك السرية المسلحة، هو فيلق القدس التابع للحرس الثوري تحت قيادة قاسم سليماني الذي بات مشهوراً عالمياً. إذ يمثل فيلق القدس الذراع العسكرية للحرس الثوري، الذي يتصرف منذ فترة طويلة وكأنه دولة داخل دولة، ويدير تكتل مصانع ومرافئ خاصة به، ولا يخضع إلا لقيادة المرشد الأعلى للثورة الإسلامية علي خامنئي. أما دوره فهو سياسي ودعوي: توسيع نفوذ إيران والمذهب الشيعي، الذي أصبح المذهب السائد الملازم للسلطة منذ الثورة الإيرانية في عام 1979.

لولا المساعدات العسكرية والمالية بقيمة المليارات، التي قدمتها طهران، لكان الحكم العلوي الشيعي للأسد في سوريا انتهى منذ فترة طويلة على الأرجح. كما أن إيران متورطة عسكرياً في لبنان، وحتى في اليمن، كما ظهر قائد فيلق القدس سليماني على الجبهات العراقية أمام الكاميرات شخصياً منذ صيف عام 2014. إذ لم يعد بإمكان دمشق وبغداد القيام بأي شيء دون حليفهما الجبار. غير أن أنشطة فيلق القدس وأقسام أخرى مبهمة من الجهاز الأمني تخطت مهمة الدعوة للمذهب الشيعي، وبدت وكأنها تدفع باتجاه التطرف بين المذهبين الإسلاميين الأساسيين. لأنه كما آوت إيران الكوادر القيادية لتنظيم القاعدة اعتباراً من عام 2002، لا يزال دعم المتطرفين السنة بطريقة سرية مستمراً حتى اليوم: فقد كان ممولو القاعدة

يعملـون من إيـران، وتم تزويد مئـات المقاتلين بوثائـق إيرانية أو تأشـيرات دخول إيرانية، لكي يسـافروا عبر تركيا إلى سوريا، حيث انضموا تحت جناح جبهة النصرة في بـادئ الأمـر[5]، كـما يتضح من الوثائـق، التي عُثر عليها في مطلـع عام 2014 في حوزة القتلى أو الفارين، وكذلك لدى داعش أيضاً.

قـد يبدو النهـج الإيراني غير قابل للتصديق، ولكنه مُثبت جيداً على مرّ السـنين: مـن خلال التحقيقـات الأمريكية، ومن خلال رسـائل أسـامة بـن لادن، التي عُثر عليهـا في مخبئه في أبـوت آباد، حتى إنه كان من بينها أيضاً ذكر لشـكوى موجهة من متحدث داعش أبي محمد العدناني، بشـأن طلب من القاعدة بعدم شـنّ هجمات في إيران، "لكي لا تتعرض مصالح القاعدة وطرق الإمداد في إيران إلى الخطر".[6]

إن العـراق في صميم هذه المصالح الإيرانية، بحيـث كان القرار النهائي لتحديد النهـج العسـكري هنـاك لقائـد فيلق القـدس سـليماني، ليتم حصر جميـع محاولات المصالحة الطائفية ضمن نطاق ضيق. وبما أن رئيس الوزراء العراقي الجديد العبادي يُعتـبر شـخصية نزيهة، على عكس حكومتـه، تم منح منصبين، وهما شـؤون حقوق الإنسـان ووزارة الداخليـة، إلى منظمـة بـدر، وبالتـالي إلى مـرؤوسي القائـد هـادي العامري. مليشـياه المؤلفة من عـشرات آلاف المقاتلين، التي أنشـأها في عام 1982 مـن عراقيين منفيـين إلى إيران وتحتفظ حتى اليوم بعلاقـات متينة بطهران، كانت في سنوات الحرب الأهلية عبارة عن فرقة موت، لديها سجون تعذيب خاصة. وحسب تقاريـر سرية من السـفارة الأمريكية في بغداد تعود لعـام 2009، أمر العامري بحد ذاتـه باختطـاف قرابة 2000 سـني. وكان يفضـل أن يقوم بعمليات القتل بنفسـه، وكانت أداة القتل المفضلة لديه المثقاب الكهربائي، الذي كان بواسطته يحفر رؤوس ضحاياه.[7]

ليس هناك في العراق دولة، يمكن أن تحقق توازناً ككيان يتجاوز حدود الطائفية. لقد اضمحل العراق في "شراب السياسـة الطائفية المسموم وحكم اللصوص الذي يحركه النفط"، كما وصف علي خضيري المستشـار الأسـبق لخمسـة سفراء أمريكيين

في بغداد.[8] معظم شيوخ العشائر السنية، الذين استطاع الضباط الأمريكان اعتباراً من عام 2007 استمالتهم لتشكيل "مجالس الصحوات" وطردوا القاعدة آنذاك، لا يريدون أن يُستغلوا مرة ثانية: "لم تنفذ الحكومة أياً من وعودها"، حسب الشيخ محمد صالح البخاري من الأنبار، إذ لم يتم ضمّ أيٍّ من تلك الوحدات إلى القوات المسلحة، وعوضاً عن ذلك اتُهم أفرادها بأنهم إرهابيون: "لماذا نثق بالحكومة؟"[9] ولا سيما الولايات المتحدة أيضاً التي أخلّت بوعودها آنذاك، وسحبت قواتها العسكرية. تنظيم داعش هو عبارة عن جماعة إرهابية، كما ذكر الشيخ سمير الجميلي وهو من الأنبار أيضاً: "ولكن المليشيات الشيعية مثله تماماً."[10]

يبدو أن اهتمام واشنطن بسحق داعش محدود. يتساءل السنة في العراق، ولكن الآخرين أيضاً، الذين كانوا يتطلعون إلى استمرارية الدولة، يتساءلون عما سيحدث بعد الانتصار على داعش؟ "لدى السنة خوف قاتل"، كما قال كينيث بولاك من مركز بروكنجز الأمريكي بعد عودته من بغداد: "إنهم يعتبرون استعادة أراضيهم من قِبل القوات الشيعية بمثابة غزو شيعي لوطنهم. وهذا لن ينهي الحرب الأهلية، بل سوف يؤججها."[11]

أمّا دور السعودية في صعود داعش، فإنّها ليست دولة مجاورة "لدولة الخلافة" وليست أحد أهم مموليها، حتى وإن تكرر هذا الزعم مراراً. بل على النقيض، فالحكومة تخشى وتنتقد "الدولة الإسلامية" بشدة، وانخرطت في التحالف للقضاء عليها ودفعت أولئك الأثرياء، الذين يتبرعون لداعش بالمال، إلى الذهاب إلى الكويت، حيث القوانين أكثر تراخياً. في الغالب عن طريق الكويت ومن ثم إلى تركيا سافر 2500 مقاتل سعودي أو أكثر للانضمام إلى داعش، والذين يعدون ثاني أكبر مجموعة أجنبية في داعش بعد التونسيين.

في زمن مضى، كانت الصحراء المحيطة بالرياض تعاني من فقر مدقع. في حين كانت الإمارات الساحلية أكثر رغداً وتحرراً. وكان التطرف لا يزال سوقاً مزدهرة. ولم يكن يعلم أحد في ذلك الوقت أنه بعد قرابة 200 عام سيحول النفط تلك

الصحراء المقفرة إلى دولة غنية بشكل لا يُصدق. ولكن بعد أن شرَع عبد العزيز بن آل سعود اعتباراً من عام 1902 في بسْط سيطرته على مسقط رأسه الرياض أولاً، ومن بعدها على جزء كبير من شبه الجزيرة العربية في العقود التالية، أصبح الاتفاق المبرم بين رجال الدين والأسرة الحاكمة أكثر أهمية مع مرور الوقت.

وبشكل متزايد ابتعدت الأسرة المالكة، التي أُغدقت الأموال عليها، عن حياة التزمت الديني، ولم تتقاسم السلطة مع أحد ولم تكن ترغب في الخضوع للمساءلة عن إيرادات بالمليارات كانت تجنيها. وعوضاً عن ذلك، تم الاحتفاظ برجال الدين مع تقديم امتيازات لهم حسب المزاج، وذلك ليستمروا بمنح الشرعية للأسرة الحاكمة: لقد مولت الأسرة الحاكمة مشاريع دعوية ضخمة في جميع أنحاء العالم، وتركت لرجال الدين سلطة التعليم، وتركت البلاد تغرق في التطرف.

وبالتالي لم يكن بمقدور الدولة رغم ذلك منع الإرهاب في الداخل: ففي عام 1975 اغتيل الملك فيصل من قِبل أحد أقربائه، الذي كان شقيقه قد قُتل قبل عام - أثناء مظاهرة مناهضة لإدراج التلفزيون. وفي عام 1979 استولى نحو 500 من "الإخوان"، على الحرم المكي، وهي حركة لأصوليين تتبع تعاليم محمد بن عبد الوهاب أُعيد تشكيلها بعد عقود من جديد. وبعد أسبوعين من الاشتباكات تم التغلب على المجموعة. كان زعيم المجموعة تلميذاً سابقاً للمفتي العام للمملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي وحتى وفاته في عام 1999، ودون أن يأتي على ذكر الحاكم بالاسم، نفى الشرعية عن كل حكومة "لا تحكم بما أنزل الله".[12]

وحتى اليوم، هناك أتباع كثيرون لابن باز في السعودية. وشهرياً يقصد شبان سعوديون داعش، وحسب أرقام منسوبة لدبلوماسيين غربيين تتعاطف نسبة 60 في المائة من المنشورات السعودية على تويتر والفيسبوك مع جهاديي داعش. ولكن الاتفاق المبرم من قِبل الأسرة المالكة مع الأصوليين الدينيين يبقى ساري المفعول. وفي شهور حكمه الأخيرة أصدر العاهل السعودي عبد الله بن سعود، المتوفى في

أوائل عام 2015، قانوناً يبدو ساذجاً: بموجبه يتم تجريم الإرهابيين وجميع أولئك الذين سافروا للقتال في سوريا، وأن يتم حبسهم في المملكة لمدة تصل إلى عشرين عاماً. وهي ذات العقوبة التي تسري على الملحدين. فكل من "يروج لفكر إلحادي بأي شكل من الأشكال أو يشكك في أسس الدين الإسلامي، التي تعد أساس البلاد"، يُعامل كقاطعي الرؤوس في داعش.

بتاريخ 3 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014 هاجم بعض المدججين بالسلاح تجمعاً للشيعة في أول أيام عاشوراء، التي تعد أهم مناسبات الشيعة. وقد قُتل خمسة أشخاص في الهجوم على قرية الدالوة في شرقي السعودية، حيث يعيش معظم شيعة البلاد البالغة نسبتهم 15 في المائة. كان زعيم المهاجمين الملثمين من العائدين من سوريا. استغل وزير الثقافة والإعلام السابق عبد العزيز خوجة هذا الهجوم لحظر قناة وصال التلفزيونية، أعتى قنوات السعودية لبث الكراهية ضد الشيعة: "إن الإرهابيين أعداء لكل الأديان والمذاهب وللإنسانية جمعاء"، كما صرح خوجة. مع أن قناة وصال كانت تحرض سابقاً ضد "الخونة" الشيعة وتنادي بقصف قراهم. لكن يبدو أن قرار الوزير كان أكثر من الحد المسموح به لحرية الفكر: إذ لم يمض على القرار 24 ساعة حتى أعفي من منصبه وعادت قناة وصال تبث برامجها من جديد.

الأفق

ترقب أخطاء الآخرين

أصبحت «دولة الخلافة» عرضة للإصابة، فقد أصبح للإرهاب عنوان. ولكن، هل يمكن التغلب على داعش بهذه السهولة؟ حتى الآن استطاع التنظيم مراوغة الجميع، الذين أرادوا استغلاله: المتمردون السوريون، حكم الأسد العسكري، الفصائل في العراق. وتريد واشنطن القضاء عليه، ولكنّ ثمة خطراً أن يتم استغلالها أيضاً. وربما من الأرجح أن يتعثر داعش بذاته.

يوماً ما سيختفي. ولكن ذلك يستنزف مؤقتاً الأخبار السارة حول مستقبل "الدولة الإسلامية". فالحديث عن نهاية داعش من خلال التقارير الإعلامية وتصريحات السياسيين وتوقعات الخبراء، التي غدت توجهاً عاماً بالنظر إلى تواصل الضربات الجوية في مطلع عام 2015، يأتي سابقاً لأوانه؛ لأنها تحاول التنبؤ بالسلوك المستقبلي لهذا المشروع الجهادي الطموح بناءً على صورة لداعش، ولكنها صورة مغلوطة.

من خلال بلاغاته الرسمية المدعية التدين والمطعّمة بآيات قرآنية، وفيديوهات العنف المفرط ولغوه عن آخر الزمان، يقدم داعش نفسه وكأنه يسير على سكة لا يحيد عنها: بإيمان ثابت بتنبؤاته، وهي أن جنده ينفّذون شرع الله، وأنهم معتمدون على عون الله ومساعدته في مجابهة العالم بأسره. هذه هي رسالة داعش لرعاياه وكذلك لأتباعه المحتملين من شتى مشارب الأرض، الذين يتعين عليهم أن يشقوا طريقهم إلى «دولة الخلافة». بيد أن استراتيجيي «الدولة» ليسوا متدينين لهذه

الدرجة. فلو كانوا كذلك، لما نجحوا على الإطلاق، حتى صيف عام 2014 في الاستيلاء على نحو ثلث سوريا والعراق والسيطرة على تلك المناطق في غضون سنة واحدة. وأما اعتبارهم مجرد متطرفين، فهذا تقليل من شأن حساباتهم الاستراتيجية وتجاهل لتصرفاتهم حتى الآن.

إذا قام المرء بتقسيم مراحل صعود داعش، فستظهر خلف الواجهة الدعائية ذات الصبغة الدينية والوحشية، صورة مغايرة تماماً: بدرجة عالية من المرونة تلاءم داعش مع بنيته وتحالفاته التكتيكية وفقاً للظروف - وتمكن من إخفائها بدهاء، بل إنه نجح في تزويرها. ومن تكتل مافيا سري في الموصل في عام 2010 تحولت عملية استخباراتية متشعبة إلى تسلل إلى الشمال السوري اعتباراً من عام 2012، ليصبح داعش جيشاً قوياً اعتباراً من عام 2014: هذا الجيش، المكون من تشكيلات هجومية تثير الرعب وسلسلات إمدادات لوجيستية منظمة على أكمل وجه، يمكنه أن يضرب بسرعة خاطفة وبقوة هائلة. بالمقابل لا تهدر قواته المتنقلة وقتاً في نشوة النصر، بل تبسط بسرعة كبيرة سيطرتها على المرافق الاستراتيجية في المناطق التي تستولي عليها: حقول النفط، محطات الكهرباء الفرعية، محطات توليد الطاقة، وحتى مخازن الحبوب والبطاطا والمخابز الكبيرة.

اعتباراً من أواخر عام 2012 في سوريا، حاربت قوات داعش، التي كانت واضحة المعالم في البداية، إلى جانب المتمردين ضد جيش الأسد، بين الحين والآخر، ولكنها كرّست نفسها في المقام الأول آنذاك أيضاً لتوسيع سلطتها بصمت وبتصميم على بلوغ الهدف. وفي مستهل عام 2014 عندما اندلعت الحرب مع المتمردين، قاتل جهاديو "الدولة" جنباً إلى جنب مع قوات الأسد، التي تدخلت مقاتلاتها في المعارك لصالح داعش وكانت تقصف دوماً المتمردين فقط. وعندما اختارت "الدولة الإسلامية" أن تصبح "دولة الخلافة" بعد الاستيلاء على الموصل واستولت على مخازن أسلحة هائلة، انتهى زمن العسل بين داعش وقوات الأسد: إذ فجأة اجتاحت قوات داعش آخر معاقل الأسد في الشرق، والتي كان جزء منها يحميه داعش من المتمردين قبل نصف عام.

دائماً عندما تكون هناك فائدة، يبدّل داعش الأطراف. فمن كان لا يزال مفيداً له في الأمس، يمكن أن يصبح في مرمى نيرانه في اليوم التالي. وفي هذا الخصوص اتبعت قوات "الدولة الإسلامية" خطة موضوعة بدقة، تم تنفيذها بحذافيرها وبصبر. تستغل قيادة داعش آليات الدين، وبالتحديد مبدأ الخضوع في الإسلام، العصمة، التي تدعيها لنفسها باعتبارها تقاتل في سبيل الله. وفي الوقت ذاته، يبدو أن الجهاديين لا يثقون بشيء لم يصنعوه هم بأنفسهم. فربهم هو السلطة، وتعاليمه صارمة متعنتة.

الوجه المزدوج لـ "الدولة الإسلامية"، المبني على التناقضات بين رسالته الصلدة وسلوكه غير المتعصب لعقيدة معينة، ينعكس على هيكلية التنظيم القيادية. ففي عام 2010 تمكنت دائرة ضيقة من ضباط مخابرات سابقين في نظام صدام حسين المخلوع من الوصول إلى قمة أنجح تنظيم جهادي منذ عقود. لقد كان هؤلاء الرجال يتعاونون مع أجهزة الأمن السورية لنقل آلاف الجهاديين عبر سوريا إلى العراق إبان الاحتلال الأمريكي للعراق. وهذه الحقيقة ليست جديدة، ولكن يتم دائماً الاستخفاف بتبعات هذا التحالف، الذي يبدو مستحيلاً للوهلة الأولى. لقد ترك حجي بكر، عقيد المخابرات السابق، إرثاً كشف أسراراً كثيرة، بعد مقتله في مطلع عام 2014 في شمال سوريا. ومن خلال عشرات المخططات والقوائم المرسومة بخط اليد، المتعلقة بالهيكل التنظيمي للاستيلاء على السلطة في سوريا، يتضح أن الأمر لا يمت إلى الهداية الدينية بصلة، وإنما هو عبارة عن خطة تحمل عنوان: الخلاص من خلال الجهاد، وقد تم استغلال هذا الهدف الأسطوري لتحقيق الآمال والطوباوية، وكذلك الاحتجاج على الوضع القائم على وجه الخصوص، كوسيلة للوصول إلى السلطة.

وهذا بالضبط ما فعله داعش في السنوات الماضية، من دون أن يكتفي التنظيم بالاستيلاء على مناطق «دولته» القائمة. كما أن سلطته داخلياً هي الأكثر استقراراً مقارنة بجميع التجارب الجهادية السابقة للاستيلاء على مناطق نفوذ. يقوم داعش بالتجسس على رعاياه، وكذلك على مقاتليه الأجانب، ويراقب هواتفهم وصفحاتهم

الفيسبوكية، ويُعدم جواسيس ويسجن أولئك الذين يريدون الهرب من مناطق سلطانه. تلتزم «خلافة» الاستخبارات بمبدأ لينين: الرقابة هي الأسلوب الأفضل.

وباللجوء إلى جميع وسائل الإرهاب، والتسلل، والدعاية، والتحالفات العسكرية المصلحية بلغ داعش في صيف عام 2014 ذروة سلطته - وأصبح في الوقت ذاته عرضة للاستهداف أكثر من أي وقت مضى. وبعد أن كان داعش قد بسط سيطرته حتى مطلع عام 2015 على أكبر مساحة وأعلن قيام «دولة الخلافة»، طالب بحلول شهر تموز/ يوليو بحقه في حكم العالم الإسلامي وأن يقدم جميع مسلمي العالم الطاعة له (في حين يبقى غامضاً، ما الذي سيحدث بالشيعة البالغ عددهم ما بين 100 وحتى 150 مليون شخص، الذين يعتبرهم داعش «رافضة» يستحقون الموت). في ذلك الوقت بدا بيان الخلافة وكأنه ضرب من جنون العظمة. وعندما يسترجع المرء الماضي يبدو أن ذاك الإعلان جاء مدروساً؛ لأن مسيرة زحف داعش توقفت اعتباراً من شهر آب/ أغسطس 2014. وقد تلا الهجوم على الإيزيديين في شمالي العراق أول عمليات قصف أمريكية، ومن ثم كسبوا عداوة العالم بعد إعدام داعش للرهائن الأمريكان والبريطانيين. وحتى شهر شباط/ فبراير 2015 شنّ التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة 2000 ضربة جوية ضد «الدولة الإسلامية»، وقُتل آلاف الجهاديين، وتم تفادي وقوع الجيب الكردي كوباني بأيدي داعش.

وفي مطلع عام 2015 دربت القوات الأمريكية كتائب جديدة تابعة للجيش العراقي من أجل استعادة السيطرة على الموصل. ولكن، هل داعش «على وشك الانهيار»، كما يُزعم؟ وفي حال أثمر الهجوم، فسيمثل ذلك أقوى ضربة يتلقاها داعش منذ صعوده الخاطف؛ لأن محاربة داعش في العراق يجب أن تتم من قِبل ذات القوى التي ساهمت في صعوده: تلك المليشيات الشيعية، المدعومة من الحرس الثوري الإيراني، التي اضطهدت السنة طوال سنوات بإيعاز من رئيس الوزراء السابق ونائب رئيس الجمهورية الحالي نوري المالكي.

وبالفعـل، فإن أولى هجمات تلك المليشـيات - فيلق بدر، مليشـيا عصائب أهل الحـق وغيرهما من القـوى غير النظامية - كانـت لا تبدو تحريـراً للمناطق بقدر أنها كانت غزوات نهب مصحوبة بعمليات التشريد والقتل والخطف التي طالت المئات مـن الناس. لقد اسـتخدمت تلك القوى قتال داعش كذريعة للاسـتمرار بعمليات التطهـير الطائفي في المناطق المختلطة دينياً حتى ذاك الوقت في العراق. وحتى مطلع عام 2015 وصلت المليشيات إلى محيط بغداد وإلى محافظة ديالى المجاورة في الشمال. وإذا ما تمكنت من الدخول إلى قلب المناطق السنية، كالموصل أو محافظة الأنبار، فلن يُرحب بها على أنها قوات تحرير - بغض النظر عن المدى الذي وصل إليه النفور تجاه داعـش مع الوقت. وبذا تكون «الدولة الإسـلامية» تتغذى عـلى كراهية أعدائها في العراق.

وحتـى في حال تمت إزالـة داعش من العراق مجدداً، فسيسـتفيد داعش من تلك الحـدود، التـي أزاح رجاله جدارها أمام الملأ في شـهر تموز/ يوليـو 2014: إنه ذاك الجدار بين العراق وسـوريا. وسيعود الجهاديون أدراجهم إلى نصف «دولة الخلافة» في النصـف السـوري. إذ لا تنقصهـم المرونـة الضرورية، والحاضرة أيضاً في شـعار «الدولة»: باقية وتتمدد. فالانكماش هو جزء من البرنامج، وليس مقدمة للهزيمة.

يتكامل هذا الشـعار مع علامات السـاعة المروعة، التي يستخدمها داعش مراراً وتكـراراً في خطبـه المهيجـة الموجهـة إلى الداخـل وتصريحاتـه الموجهـة إلى الخارج: كالـكلام عن مد وجـزر في المعارك، وعن قصص جيوش الأعـداء، التي تكاد تقهر الإسـلاميين؛ ولن ينجو إلا واحد من كل مائة شـخص، وسـيظهر المسيح الدجال، الذي سيبيد جميع المسلمين تقريباً - إلى أن يظهر المسيح الحقيقي ويجلب معه النصر. أما الانتكاسـات، كالتي مُني بها داعش في هجومه الفاشل الأخير على جيب كوباني الكردي، فهي محسوبة سلفاً - منهجياً ودينياً. وكل نصر هو تأكيد إلهي، وكل هزيمة هي اختبار.

ما دام بشار الأسد سيبقى في السلطة، فلا داعي إلى أن يقلق داعش كثيراً بخصوص نصف «دولة الخلافة». إذ لا يمكن للأسد أن ينتصر على الجهاديين، كما أنه لا يريد لهم أن يختفوا تماماً. الوجود الخطر لـ "الدولة الإسلامية" هو أفضل شرعية للنظام السوري، لكي يتمكن من المضي قُدماً في إبادة جميع المناطق المقاومة في البلاد، دون أن تضايقه التدخلات الأجنبية.

من ناحية أخرى، تعول الحكومة الأمريكية على محاربة داعش، ولا أحد سوى تنظيم داعش. ولأنها لا تحرك ساكناً تجاه قصف نظام الأسد للمدن والقرى السورية، فقد جعلت من المتمردين أعداءً لها، فقد كان المتمردون يأملون في أن تمد أمريكا يد العون لهم. ليس من الواضح، إذا كانت واشنطن تدرك ثمن جميع قراراتها المتعلقة بأهداف محددة بعيدة المدى وكذلك تبعاتها. لكن هجوم الولايات المتحدة الأمريكية على تشكيلات راديكالية متمردة أخرى، أثار حتى سخط المجموعات العلمانية، والتي تدعمها واشنطن. فهم لا يريدون أن يتم استغلالهم كقوات مساعدة في حرب حصرية ضد داعش، وإنما إسقاط نظام الأسد قبل كل شيء. إن الحرب التي تخوضها أمريكا داخل هذه الحرب يدفع الكثير من السوريين إلى المكان الذي لا يريد أحد أن يكونوا فيه: إلى معسكر الإرهابيين.

حتى الآن لا تحتاج «الدولة الإسلامية» سوى أن تنتظر أخطاء أعدائها: أن تنتظر أن يرتمي السنة في البلدين في أحضانها هرباً من قنابل التحالف المضاد لداعش ومن فرق موت الميليشيات الشيعية. حتى الآن لا يزال هناك أعداء لداعش، بخاصة من السنة في سوريا، الذين قتل منهم أعداداً أكثر بكثير مما قتله من المسيحيين والإيزيديين في العراق. ولكن في حال نجح داعش في أن يصبح القوة الحامية للسنة، فسيصبح القضاء عليه أمراً بالغ الصعوبة. يمكن التغلب على تنظيم إسلامي، يُرهب المواطنين، ولكن لا يمكن التغلب على هوية.

طيلة العقود الماضية خبت جذوة الصراع الأزلي بين السنة والشيعة: بسبب الصراع الأبدي المشتعل مع إسرائيل، بسبب مرحلة القومية العربية، بسبب الحرب

العراقيـة الإيرانيـة، التـي قاتـل فيها الجنـود الشـيعة في الجيش العراقـي إخوانهم في العقيدة في الجيش الإيراني. ولكن، وكما هو الحال بالنسـبة للصفائح التكتونية، التي تتحطـم بفعل الحركة بعـد مرحلة طويلة من الهدوء، فقد دفـع تفكك النظام القديم في العـالم العـربي إلى تصادم هاتـين الطائفتين بعنف شـديد. ومنذ أيامـه الأولى فعل تنظيم داعش كل ما بوسـعه لاسـتغلال هذه التصادمات وتقويتها. فوفق حسابات داعـش، عندما يكون الزلزال قوياً بما يكفي، فإنه لن يمزق سـوريا والعراق بشـكل نهائي فحسـب، بل ربما دولاً أخرى أيضاً تعيش فيها ديانات مختلطة: مثل السعودية والكويت والبحرين ولبنان واليمن.

وبالفعل، تقاتل اليوم قوات شـيعية دولية إلى جانب النظام في سـوريا: عراقيون وإيرانيـون ولبنانيـون، وحتى أفغان، تشرف عـلى تدريبهم وتمويلهم وإرسـالهم إلى المعارك قوات الحرس الثوري الإيرانية. وفي دوامة الحقد الطائفي هذه يكمن الخطر في أن يتحـول تنظيـم داعـش من تشـكيل إرهابي منعـزل إلى رأس حربـة في الكفاح السـني. ونتيجة لذلك سـيكون للهجمات المزمعة من الخارج ضد داعش، سواء من قِبل القوات الأمريكية أو المليشـيات الشـيعية، أثر عكسي: إضعاف قدرات «الدولة الإسلامية» العسكرية وفي الوقت ذاته تعزيز جاذبيتها.

كما يكمن الخطر الآخر في أن داعش لم يستخدم حتى شهر شباط/ فبراير 2015 ترسانة الرعب التي يمتلكها بعد – تنفيذ هجمات مدمرة. وكثير من خبراء الإرهاب متفاجئـون مـن أن داعش لم ينفذ حتى الآن هجمات واسـعة النطاق في الخارج. وبما أنه لم يُقْدم على ذلك حتى الآن، فهذا ليس معناه أنه لا يملك القدرة على فعل ذلك، وبخاصة عند الأخذ بعين الاعتبار ما نجح في تحقيقه حتى الآن. لقد كانت الهجمات المدمـرة، التـي تم تنفيذها حتـى الآن وبث الخوف، أفعالاً بسـيطة في نهاية المطاف. ويمكـن تصور حدوث هجـمات أكبر بكثير في الخـارج – أو في محيط مناطق داعش مبـاشرة. ولتخيل مدى حجم اعتـداءات من هذا القبيل، يكفي أن يفكر المرء لوهلة في أن نهـري العـراق المهمين دجلة والفـرات يجريان عبر مناطق نفـوذ داعش، وبذا

يتحكـم التنظيـم الإرهابي بإمـداد المياه، وكذلـك الطاقة جزئيـاً، إلى المناطق الواقعة جنوباً.

واليوم يتعامل داعش مع تركيا من مبدأ "دعاية الفعل" كأنموذج تهديد. بحيث ليسـت هناك ضرورة لتنفيذ اعتداء لتحقيق مكاسـب ما. يمكن للتهديد وحده، إن كان ذا مصداقية، أن يحقق نتيجة أفضل. أي إنه يمكن تحقيق مكاسب، دون المخاطرة بـأن ينفر العملاء أو أن يرد الخصم بضربـات جوية وهجمات بطائرات بدون طيار. ومـن المرجح أن قوة الإرهاب التي لم يسـتخدمها داعش حتـى الآن، كبيرة. كما من المرجح أيضاً أنه سيسـتخدم هذه الوسـيلة في الوقت الذي يرى التنظيم أنها سـتعود بالنفـع عليه. بعدها سـيصرح أمـراء داعش وهم يهزون أكتافهـم، بأنهم فعلوا ذلك لأنـه تـم الاعتداء عليهـم، وهـم أرادوا توطيـد دولتهم فقط. وكان مـن الأفضل لو تُركوا وشأنهم.

حتى الآن لم يدفع الغرب تكلفة كبيرة تجاه معاداته لداعش على الصعيد السياسي؛ لأنه يقصفه من الجو فقط، ويرفض إرسال قوات برية. ولكن، كيف سيبدو الوضع في حـال ظهـرت قـوة داعش التهديديـة في أوروبـا والولايات المتحـدة الأمريكية؟ وكذلك في حال تكرر قتل عشرات الأشـخاص في برلين، نيويورك، لندن، ووقفت الحكومات عاجزة عن فعل شيء إزاء الإرهاب؟ لأن الجناة ليسـوا أناسـاً بسـطاء أو عائديـن من سـوريا، كانوا تحـت الرقابة لفـترة طويلة - بل هم محترفون مسـلحون تسليحاً ممتازاً، يعملون خارج رقابة السلطات الأمنية وهم قادرون على فتح جحيم بعد الآخر؟

حتى الآن استفاد داعش من استهانة الغرب به واعتباره مجرد ثلة من الأصوليين. ولكـن لم يحدث مـن قبل أن نتجـت توليفة ضاربة بهذا الشـكل تمـزج بين عنصرين متناقضـين: مخططـي أجهـزة اسـتخبارات حصيفـين ومؤمنين متعصبـين إلى درجة التضحيـة بالنفس. غير أن السـؤال المهم هو: هل سيسـتمر هـذا التضافر بين هذين المكونين على هذا النحو؟ لقد شـهدت الأشـهر الماضية مقتل العديد من كادر صدام

السابقين، المتواجدين في دائرة القيادة في "الدولة الإسلامية"، وتعويضهم في هذه الحالة محدود، على عكس مقاتلي العقيدة. وتشير الدلائل إلى أن عدد الأصوليين في قيادة داعش يتزايد رويداً رويداً. فمن منظور استراتيجية الاستحواذ على السلطة، بدأ داعش بارتكاب أخطاء: كما حدث عندما أوهم التنظيم الحكومة الأردنية طيلة أسابيع، أن طيارها المخطوف، الذي سقطت طائرته فوق الرقة، لا يزال على قيد الحياة. وأرسل الأردن إشارات بأنه على استعداد لفعل أي شيء من أجل إطلاق سراحه، وحتى إنه مستعد لإطلاق سراح إرهابيين حُكم عليهم بالإعدام. حقيقة أن جلادي داعش كانوا قد أحرقوا الطيار وهو حي قبل فترة، أثار سخطاً عارماً في المملكة الصغيرة ووحّد شعبها، الذي كان قبل ذلك منقسماً حول السؤال، فيما إذا كان ينبغي شنّ حرب على داعش أم لا.

وفي نهاية المطاف، يمكن أن تصبح "الدولة الإسلامية" أكبر أعداء نفسها: على أبعد تقدير عندما تفقد القدرة على تحقيق توازن بين التناقضات الداخلية للدولة أو لا تستطيع السيطرة عليها على الأقل؛ لأن الدعوة للجهاد في الأساس وسيلة رائعة للوصول إلى السلطة، ولكنه وسيلة سيئة للحفاظ عليها. إن القدرة على الحكم باسم الله واعتبار كل معارضة إثماً هي إغراء هائل، بخاصة للمهاجرين من جميع أنحاء العالم. ولكن الديكتاتوريات الجهادية هي ليست كيانات قادرة على البقاء ذاتياً. ليس هناك تصحيح في "دولة الخلافة"، فباسم الله يسمح الحكام لأنفسهم بفعل كل شيء. وتجاه هذا الشكل من التعسف والطغيان المطلقين تتمرد الرعية دوماً بعد فترة من الزمن. لقد كانت على الدوام مجرد مسألة وقت.

وحتى الآن لا يزال مثل هذا التمرد في "الدولة الإسلامية" غير ممكن بسبب السيطرة والرقابة الصارمتين المفروضة على الرعية، ولكن خيبة الأمل بين المقاتلين والشعب تتنامى؛ لأن وعد الخلاص لم يتحقق من خلال إقامة "دولة الخلافة". كل الآمال والطوباويات المتراكمة، التي تتسم بالغموض ومرتبطة بهذه الأساطير منذ عقود ينبغي أن تتحقق الآن بشكل ما. بيد أن جعل هذه الدولة المنقذة أمراً واقعياً يقوض شروط صعودها. وليس بمقدور "الدولة الإسلامية" أن تقدم أكثر مما قدمته الديكتاتوريات

السابقة في مناطق نفوذ "الدولة" الحالية، باستثناء: الاضطهاد والاستغلال. إن داعش يعتاش من الاحتياجات التي لا يمكنه تلبيتها بشكل دائم. ولكن، يمكن أن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً إلى أن يؤدي هذا الخلل في التوازن إلى السقوط.

إنها حالة من تبدد الحلم، التي ستبقى في نهاية المطاف ندبةً طويلة الأمد "لخلافة" أبي بكر البغدادي. ستكون الإطاحة بداعش من الداخل فقط، وليست من خلال الهجمات من الخارج؛ لأن قصف التحالف المناهض لداعش وهجمات المليشيات الشيعية ستعيد كائن الرعب هذا، القادر على التحور، إلى المربع الأول، حيث كان في عام 2010، عندما أعلن الجنرال راي أوديرنو عن مقتل 34 زعيماً من أصل 42: سيعود داعش إلى العمل في السر، كمجموعة إرهابية، تواصل استمراريتها من قوة الحلم غير المستغلة.

إن هذا الكتاب مجرد لقطة لحظية. وقد تم تكريسه لتسليط الضوء على نشأة داعش وصعودها، وفضلاً عن هذا يرسم سيناريوهات التطور المتنامي، ولكنه لا يقدم تنبؤاً محدداً. لهذا السبب تم ترك الجمل الأخيرة لرجل يعيش على أطراف "دولة الخلافة" العراقية، ولا يريد أن يُذكر اسمه خوفاً على حياته، ولكن لديه وجهة نظر بعيدة المدى، محبطة ومشجعة في آن واحد: "نمر الآن بعصر الانحطاط في الإسلام. وهذا أمر جيد. وأي خلاص يأتي من الخارج قد يكون خاطئاً. علينا أن نمر بتجربة إرهاب الإسلاميين. عندها فقط سيعرف الناس أن الدين والسياسة هما مزيج قاتل، لا يؤدي إلى نتيجة سوى سوء استخدام السلطة باسم الله."

ملاحظات

إن المصادر، التي لم ترد في الملاحظات، هي من أحاديث ومقابلات وتسجيلات أجراها الكاتب.

الحسابات الاستخفافية لطالبي السلطة

1. روبرت برنز ومايك مولن، ""Al Qaeda In Iraq "Devastates"، أسوشيتد برس، 7 حزيران/ يونيو 2010.
2. "Terror ist ein gutes Geschäft"، شبيغل، 5 كانون ثاني/ يناير 2015.
3. غريم وود "What ISIS Really Wants"، أتلانتيك، آذار/ مارس 2015.

1 - دولة الخلافة المخابراتية

1. قد يبدو من غير المنطقي، أن يبيع الضباط سلاحاً وذخيرة لأعدائهم، ولكن هذا الأمر حدث في كثير من الحروب مثل المواجهات الروسية الشيشانية المسلحة. بل إنه في الحروب خصوصاً من السهل الادعاء أن الأسلحة المختلسة مدمرة. وفي الشمال السوري وصف أحد كبار تجار السلاح في محافظة إدلب الجيش السوري في عام 2013: "إنهم يبيعون كل شيء! لو كان المتمردون يملكون المال، لاشتريت لهم دباباتهم، وحتى حواماتهم!"
2. ليس هناك دليل على وجود صلة، لكن مصطلح «التكوين» يظهر في علماء الكيمياء في العصور الوسطى الشيعية المبكرة كدلالة على خلق حياة اصطناعية. لقد أشار الفارسي جابر بن حيان في كتاب الأحجار إلى تكوين حيوانات اصطناعية، وكذلك بشر اصطناعيين

أيضاً، بلغة سرية وشيفرات: «هذا الهدف محجوب عن الناس، ما عدا الأشخاص الذين يحبهم الله.» وهذا التوصيف يلائم تماماً فهم «الدولة الإسلامية» لنفسها.

3. «Al-Nusra Commits to al-Qaida, Deny Iraq Branch "Merger"»، النهار، 10 نيسان/ أبريل 2013.
4. المرجع نفسه.
5. «Iraqi al-Qaeda chief rejects Zawahiri orders»، موقع الجزيرة الإلكتروني، 15 حزيران/ يونيو 2013.

2 - بدايات متقلبة

1. هاينتس هالم، *Der schiitische Islam*، ميونيخ 1994، صفحة 28.
2. جيمس بار، *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle That Shaped the Middle East*، لندن 2012، صفحة 12.
3. نبران كاظمي، «Zarqawi's Anti-Shi'a Legacy: Original or Borrowed?»، معهد هدسون، 1 تشرين ثاني/ نوفمبر 2006، صفحة 53 – 72.
4. ويليام ماكانتس، «State of Confusion: ISIS' Strategy and How to Counter It»، مجلة العلاقات الخارجية (*Foreign Affairs*)، 10 أيلول/ سبتمبر 2014.
5. «Captured Iraqi not al-Baghdadi»، موقع الجزيرة الإلكتروني، 10 آذار/ مارس 2007.
6. «U.S. says terrorist in Jill Carroll kidnapping killed»، سي إن إن، 4 أيار/ مايو 2007.
7. «U.S. Military: ›Islamic State of Iraq‹ Fronted by Imaginary Leader»، فوكس نيوز، 19 تموز/ يوليو 2007.
8. كما أنه معروف باسم أبي حمزة المهاجر، اسمه الحقيقي غير معروف.
9. دين ياتيس، «Senior Qaeda figure in Iraq a myth: U.S. Military»، رويترز، 18 تموز/ يوليو 2007.
10. «U.S. Military: ›Islamic State of Iraq‹ Fronted by Imaginary Leader»، فوكس نيوز، 19 تموز/ يوليو 2007.
11. بيل روجيو، «Al Qaeda in Iraq is ›broken‹, cut off from leaders in Pakistan, says top US general»، لونغ وور جورنال، 5 حزيران/ يونيو 2010.

12. تيـم أرانغو، «Top Qaeda Leaders in Iraq Reported Killed in Raid»، نيويورك تايمز، 19 نيسان/ أبريل 2010.
13. مايـكل ويـر، «Papers give peek inside al Qaeda in Iraq»، سي إن إن، 11 حزيران/ يونيو 2008.
14. سـوزانه فيـشر وكريسـتوف رويـتر، «*Cafe Bagdad: Der ungeheure Alltag im neuen Irak*»، ميونيخ 2004، صفحة 103.
15. المهاجـر، «The Prophetic Nation»، مؤسسـة الفرقان الإعلامية، 19 أيلول/ سـبتمبر 2008، اقتباس من: كريسـتوف غونـتر، «*Ein zweiter Staat im Zweistromland? Genese und Ideologie des 'Islamischen Staates Irak'*»، لايبزيـغ 2014، صفحة 209.
16. المرجع نفسه.
17. كريـغ وايتسـايد، «War, Interrupted, Part I: The Roots oft he Jihadist Resurgence in Iraq» و«Part II: From Prisoners to Rules»، وور أون ذا روكس، 5 و6 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
18. بيـل روجيـو، «US Strike in Syria ›decapitated‹ al Qaeda's facilitation network»، لونغ وور جورنال، 27 تشرين أول/ أكتوبر 2008.
19. المرجع نفسه.
20. المحكمة الأمريكية لمقاطعة كولومبيا، فرنسـيس غيتس مقابل الجمهورية العربية السـورية، قضية 1: 06-cv-01500-RMC وثيقة 42محفوظ 08/ 26/ 09.
21. بيل روجيو، «Iraq Attacks and the Syrian Connection»، لونغ وور جورنال، 30 آب/ أغسطس 2009.
22. نيكـولاس بلانفـورد، «The Iraqi ambassador to Syria tells the Monitor that photos of high-ranking Syrian officials were found in Fallujah»، كريشسان ساينس مونيتور، 23 كانون أول/ ديسمبر 2004.
23. التقريـر التقييمـي الـذي أعـده المكتـب الاتحـادي الألمـاني للتحقيقـات الجنائيـة بتاريـخ 2004/ 09/ 06 عـن أحمد فاضل نزال الخلايلة الملقب بأبي مصعب الزرقاوي، ميكنهايم، – فقط للاستخدام الرسمي، صفحة 44.
24. مـيرا ماكدونالـد، «Analysis: Iran's unlikely al Qaeda ties: fluid, murky and deteriorating»، رويترز، 24 نيسان/ أبريل 2013.
25. بيـل روجيـو، «Senior al Qaeda leader leaves Pakistan, directs Iraq operations from Syria»، لونغ وور جورنال، 21 آب/ أغسطس 2009.

26. التقرير التقييمي الذي أعده المكتب الاتحادي الألماني للتحقيقات الجنائية، صفحة 49.
27. ميرا ماكدونالد، «Analysis: Iran's unlikely al Qaeda ties: fluid, murky and deteriorating»، رويترز، 24 نيسان/ أبريل 2013.
28. التقرير التقييمي الذي أعده المكتب الاتحادي الألماني للتحقيقات الجنائية، صفحة 14.
29. يمكن الاطلاع على ملفات المحكمة على الرابط: https://www.gpo.gov/fdsys/pkg/USCOURTS-dcd-1_06-cv-01500/pdf/USCOURTS-dcd-1_06-cv-01500-0.pdf
30. المرجع نفسه.
31. «Jordan Scuttles Terror Attacks to Kill 80,000 People by Poison Gas»، النهار، 28 نيسان/ أبريل 2004.
32. التقرير التقييمي الذي أعده المكتب الاتحادي الألماني للتحقيقات الجنائية، صفحة 50.
33. بيل روجيو، «Threat Matrix: Iraq attacks and the Syrian connection»، لونغ وور جورنال، 30 آب/ أغسطس 2009، ونيكولاس بلانفورد، «Death of a cleric»، ناو ليبانون، 5 تشرين أول/ أكتوبر 2007.
34. «Treasury Designates Individuals with Ties to Al Qaida, Former Regim»، وزارة الخزانة الأمريكية، 7 كانون أول/ ديسمبر 2007.
35. أليكس كينغسبيري، «Syrians 'Clearly Have Harbored' Al Qaeda in Iraq, Says U.S. General»، يو إس نيوز، 27 تشرين أول/ أكتوبر 2008.
36. بيل روجيو، «Slain Syrian official supported al Qaeda in Iraq»، لونغ وور جورنال، 24 تموز/ يوليو 2012.
37. «Improving Iraqi Border Security: A Work in Progress»، السفارة الأمريكية في بغداد، 11 تموز/ يوليو 2008، http://www.wikileaks.org/plusd/cables/08BAGHDAD2163_a.html
38. بيل روجيو، «Slain Syrian official supported al Qaeda in Iraq»، لونغ وور جورنال، 24 تموز/ يوليو 2012.
39. «Gen Petraeus' Meeting with PM Maliki»، السفارة الأمريكية في بغداد، 7 كانون ثاني/ يناير 2009، http://www.wikileaks.org/plusd/cables/09BAGHDAD31_a.html
40. رنا صباغ غرغور، «Syria, Jordan snared in political rift»، ديلي ستار (بيروت)، 1 تشرين أول/ أكتوبر 2004.

41. بيـل روجيـو، «US Strike in Syria 'decapitated' al Qaeda's facilitation network»، لونغ وور جورنال، 27 تشرين أول/ أكتوبر 2008.
42. أمـير كوليـك ويـورام شـفايتسر، «Syria and the Global Jihad: A Dangerous Double Game»، سـتراجيك أسيسـمينت، المجلـد الثـاني، رقـم 3، كانـون ثاني/ ينايـر 2009، صفحة 67.
43. بيـل روجيـو، «US Strike in Syria 'decapitated' al Qaeda's facilitation network»، لونغ وور جورنال، 27 تشرين أول/ أكتوبر 2008.
44. «Syria raid 'killed major target'»، بي بي سي، 28 تشرين أول/ أكتوبر 2008.
45. مارتـين تشـولوف، «Isis: the inside story»، الغارديـان، 11 كانـون أول/ ديسـمبر 2014.
46. بيـل روجيـو، «US, Iraqi forces target Syrian-based network»، لونـغ وور جورنال، 16 أيار/ مايو 2009.
47. بيـل روجيـو، «Senior al Qaeda leader leaves Pakistan, directs Iraq operations from Syria»، لونغ وور جورنال، 21 آب/ أغسطس 2009.
48. مارتـين تشـولوف، «Isis: the inside story»، الغارديـان، 11 كانـون أول/ ديسـمبر 2014.
49. «SARG Reports on Border Security Efforts During Iraq Boder Security Working Group»، السـفارة الأمريكية في دمشق، 16 آب/ أغسطس 2007، http://www.wikileaks.org/plusd/cables/07DAMASCUS836_a.html
50. كارين دي يونغ، «Papers Paint New Portrait of Iraq's Foreign Insurgents»، واشنطن بوست، 21 كانون ثاني/ يناير 2008.
51. رايان ماورو، «Has Damascus Stopped Supporting Terrorists?»، فصلية منتدى الشرق الأوسط، صيف عام 2009، صفحة 61 – 67.
52. «Syrian Intelligence Chief Attends CT Dialogue with S/CT Benjamin» السـفارة الأمريكيـة في دمشـق، 24 شـباط/ فبراير 2010، https://wikileaks.org/cable/2010/02/10DAMASCUS159.html
53. www.syriatruth.org، لم يعد الموقع متاحاً على شبكة الإنترنت.
54. أنتـوني شـديد، «Bomb Kills Dozens in Damascus, Stoking Suspicions»، نيويورك تايمز، 6 كانون ثاني/ يناير 2012.
55. «Zweifacher Tod»، شبيغل، 16 كانون ثاني/ يناير 2012.

56. «Ex-Arab League monitor labels Syria mission 'a farce'»، بي بي سي، 11 كانون ثاني/ يناير 2012.
57. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=UrGibosvhxs
58. المرجع نفسه.
59. رونين بيرغمان، «The Hezbollah Connection»، نيويوركر، 10 شباط/ فبراير 2015.
60. بعد اعتداء لاحق على مركز للمخابرات في حي القزاز الدمشقي في شهر أيار/ مايو 2012 وراح ضحيته رسمياً 55 شخصاً قال السفير السوري في العراق الذي انشق لاحقاً، نواف فارس، في لقاء أجري معه: «لم يصب أحد من العاملين هناك بأذى، فقد تم إخلاء المبنى قبل 15 دقيقة. لقد كان الضحايا من المارة. نفذت القاعدة جميع التفجيرات الكبيرة بالتعاون مع أجهزة الأمن.»؛ اقرأ روث شيرلوك، «Exclusive interview: Why I defected from Bashar al-Assad's regime, by former diplomat Nawaf Fares»، صنداي تلغراف، 14 تموز/ يوليو 2012.
61. من علامات الساعة نزول المسيح من المنارة البيضاء في الجامع الكبير في دمشق (وهو نبي معترف به في الإسلام)، ويحارب الدجال فيعجل من قيام يوم القيامة.
62. إليزابيث أوباغي، *Jihad in Syria*، واشنطن 2012.
63. «Sleiman says reports of possible bombings 'frightening'»، ديلي ستار (بيروت)، 10 آب/ أغسطس 2012.
64. فيفيان الخولي، «Samaha's trial set to begin today»، ناو ليبانون، 19 حزيران/ يونيو 2013.
65. عبد الرحمن الراشد، «Was Bouthaina involved or framed?»، الشرق الأوسط، 10 تشرين أول/ أكتوبر 2012.
66. آنه بارنارد، «Blast in Beirut Is Seen as an Extension of Syria's War»، نيويورك تايمز، 19 تشرين أول/ أكتوبر 2012.
67. «صوت لبنان»، صوت لبنان، 20 تشرين أول/ أكتوبر 2012.
68. فراس سعد، «عن اختبار صيدنايا وتداعياته على الثورة وسوريا»، الجمهورية، 26 كانون أول/ ديسمبر 2013.
69. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=rs86RJR3ZUk
70. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=tYuWLtMLMyk

3 - مهرجان الجهاديين

1. ديفيد تشازان، «French ex-hostage of Isil 'knows' James Foley's killer»، تلغراف، 21 آب/ أغسطس 2014.
2. «Syria rebels say jihadist attack means war»، ديلي ستار (بيروت)، 13 تموز/ يوليو 2013.
3. بيل روجيو، «Free Syrian Army issues ultimatum to al Qaeda over murder of commander»، لونغ وور جورنال، 13 تموز/ يوليو 2013.
4. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=NxTb-T-rTQg
5. «FSA official: Qaeda group ISIL backed by Assad, Iran, Iraq»، العربية نيوز، 4 كانون ثاني/ يناير 2014.

4 - خريف الرعب

1. مريم عبابسة، «La recomposition des allégeances tribales dans le moyen-Euphrate syrien (1958–2007)»، دراسات ريفية، رقم 184، 2009، صفحة 65 – 78، هنا صفحة 69.
2. «Lone protester takes stand»، مكتب دمشق، 17 تشرين أول/ أكتوبر 2013.
3. «Activists in Raqqa face daily threats»، معهد صحافة الحرب والسلام، 12 كانون أول/ ديسمبر 2013.
4. فيديو تقديم زعماء العشائر الولاء لبشار الأسد في آب/ أغسطس 2011: https://www.youtube.com/watch?v=CPgLh0--Atg
   فيديو تقديم زعماء العشائر الولاء لداعش في تشرين أول/ أكتوبر 2013:
   https://www.youtube.com/watch?v=-q4rfodQz-c
5. تاي ماكورميك، «The Scorpion and the Frog: For years, Syria supported a witches' brew of terrorist groups across the Middle East. Now, it's payback time»، مجلة فورين بوليسي، 7 آب/ أغسطس 2012.
6. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=lgY5dnOLMro

7. وفقاً لعدة مصادر فإن الأمر يتعلق هنا بشقيق أبي محمد العبسي، زعيم الجماعة الجهادية التي اختطفت في شهر تموز/ يوليو 2012 الصحافي البريطاني جون كانتلي وزميله الهولندي جيرون أورليمان بالقرب من الحدود السورية التركية؛ وبعد أيام تمكن الجيش السوري الحر من تحرير الاثنين، وفي شهر أيلول/ سبتمبر 2012 قُتل أبو محمد العبسي من قِبل الجيش السوري الحر.
8. فولكمار كابيش وغيورغ ماسكولو، «Im Vorgarten des Terrors»، صحيفة زود دويتشه تسايتونغ، 14 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
9. «Al-Qaeda Tries to Control Areas Liberated by Free Syrian Army»، المونيتور، 10 تموز/ يوليو 2013.
10. روث شيرلوك وريتشارد سبنسر، «Syria's Assad accused of boosting al-Qaeda with secret oil deals»، تلغراف، 20 كانون ثاني/ يناير 2014.

5 - هجوم مضاد مشترك

1. براينجار ليا، «Architect of Global Jihad: *The Life of Al-Qaeda Strategist Abu Mus'ab Al-Suri*»، لندن 2009، صفحة 161.
2. لورنس رايت، «The Masterplan»، نيويوركر، 11 أيلول/ سبتمبر 2006.
3. اشتُهرت مدينة كفرنبل في سائر سوريا بلافتاتها الساخرة الزاخرة بالرسومات، وشكّلت شوكة في عين الجهاديين بشكل خاص، لأنهم لا يحتملون النقد الساخر. «لا نريد استبدال طاغية بآخر»، كُتبت هذه الجملة على إحدى لافتات مظاهرات يوم الجمعة هناك، على رسم لصورة مخلوق فضائي وحش وعليه علم الأسد، ويخرج منه وحش صغير - داعش.
4. «An Advice And Clarification From The Wilayah Of Aleppo to The Soldiers Of Ahrar Al Sham Movement»، يمكن الاطلاع على الرابط: https://archive.orgstreamAnAdviceAndClarification
5. «The jihadists may have gone too far»، إيكونوميست، 11 كانون ثاني/ يناير 2014.
6. «Defiant ISIL vows to fight in Syria and Iraq»، وكالة فرانس برس، 8 كانون ثاني/ يناير 2014.
7. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=ouqqOHIStx4

8. مارتين ديك، «Ex-ISIS detainees tell horror stories of captivity»، ديلي ستار، 9 كانون ثاني/ يناير 2014.
9. «Treasury targets networks linked to Iran»، وزارة الخزانة الأمريكية، 6 شباط/ فبراير 2014، يمكن الاطلاع على الرابط: http://www.treasury.gov/press-center/press-releases/Pages/jl2287.aspx
10. توماس جوسلين، «Report: Senior al Qaeda facilitator ›back on the street‹ in Iran»، كاونتر جهاد ريبروت، 31 كانون ثاني/ يناير 2014.
11. المرجع نفسه.
12. آنه بارنارد وريك غلادستون، «Rebel Infighting Spreads to an Eastern Syrian City»، نيويورك تايمز، 6 كانون ثاني/ يناير 2014.
13. «500Reported Killed in Rebel Infighting in Syria»، أسوشيتد برس، 11 كانون ثاني/ يناير 2014.
14. مارتين ديك، «Zawahri urges end to deadly clashes between rebels and jihadists»، ديلي ستار، 24 كانون ثاني/ يناير 2014.
15. «Al-Qaeda disavows ISIS militants in Syria»، بي بي سي، 3 شباط/ فبراير 2014.
16. «Syria conflict: 700 killed in eight days in early January, Syrian Observatory for Human Rights says»، أي بي سي نيوز، 12 كانون ثاني/ يناير 2014.
17. تمكن مشاهدة مقطعي الفيديو على الرابطين: https://www.youtube.com/watch?v=oItkHLkNalclist=UUNVEcamiwqF3mKoucsMJe8A و https://www.youtube.com/watch?v=LtYsjWz7Eq8&list=UUNVEcamiwqF3mKoucsMJe8A
18. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=SEM2QrT0H-w&list=UUX4q__9SwRbVLiJaoWTq1Ww
19. خالد يعقوب عويس، «Al Qaeda Syria unit executes dozens of rivals in Raqqa: activists»، رويترز، 12 كانون ثاني/ يناير 2014.
20. http://www.alyaum.com/article/3116420
21. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=lFVlHg9Bbik&list=UUX4q__9SwRbVLiJaoWTq1Ww
22. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=ULtn7bQTg3Q

23. في مطلع شهر أيلول/ سبتمبر 2014، عندما زحفت «الدولة الإسلامية» نحو مدينة مارع شمالي حلب، تعرض المتمردون هناك إلى قصف استمر أسابيع، بينما استثنى القصف الجهاديين. وفي نهاية شهر شباط/ فبراير حاولت مجموعة المتمردين «جيش الإسلام» المتمركزة في شرقي دمشق التحرك فتم قصفها من قِبل سلاح الجو السوري ووحدات داعش الزاحفة على عجل.

24. «ISIS defector tells of group's deception»، سي إن إن، 18 شباط/ فبراير 2014.

25. تمكن مشاهدة التقريرين على الرابطين: http://www.youtube.com/watch?v=FRp4zfo7PBQ و http://www.youtube.com/watch?v=Pq8g8W9n_u0&feature=youtu.be&spfreload=10

26. pic.twitter.com/rO7rVceMMG

27. بسبب الكذبة ذاتها المتعلقة بمبلغ 500000 دولار بالضبط، فشلت عملية مشابهة بعد أشهر لاحقة: فوفق اتباع الأسلوب الأمني المعتاد اشترى داعش ذمة سائق أبي عيسى، أحد أهم قادة الجيش السوري الحر الذين لا يزالون على قيد الحياة، وهو قائد لواء «ثوار الرقة». وبمساعدة السائق ومجرمين أتراك تم اختطافه على الجانب التركي. ولكن عندما لم تكن وحدة داعش تريد دفع مبلغ نصف مليون للمجرمين، اندلعت اشتباكات لفتت انتباه الجيش التركي في نهاية المطاف. ما دفع الخاطفين الأصليين، الذين أرادوا خطف رهائنهم، إلى الفرار. وأصيب أبو عيسى بجروح بالغة. للمزيد من المعلومات انظر أيضاً: ليز سلاي، «Attempted kidnapping in Turkey shows reach of the Islamic State»، واشنطن بوست، 21 تشرين أول/ أكتوبر 2014.

6 - حرب الجهاديين الخاطفة

1. إيزابيل كول، نيد باركر ورحيم سلمان، «How Mosul fell – An Iraqi general disputes Baghdad's story»، رويترز، 14 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
2. المرجع نفسه.
3. المرجع نفسه.
4. المرجع نفسه.
5. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=BZj0FZ_lkro
6. ديكستر فيلكينز، «What We Left Behind: An increasingly authoritarian leader, a return of sectarian violence, and a nation worried for its future»، نيويوركر، 28 نيسان/ أبريل 2014.
7. «Iraqi MP accuses Prime Minister Maliki's office with involvement in escape of terrorist prisoners in Basra»، أصوات العراق، 15 أيار/ مايو 2011.
8. أندريو سلاتر، «The Monster of Mosul: How a Sadistic General Helped ISIS Win»، ديلي بيست، 19 تموز/ يوليو 2014.
9. «Iraq: Two journalists shot dead, suicide bombing kills twelve»، الأخبار، 5 تشرين أول/ أكتوبر 2013.
10. نوزت شمدين، «الصحفيون أبرز ضحايا الانهيار الأمني في الموصل»، نقاش، 10 تشرين أول/ أكتوبر 2013.
11. «Interview with Nawzat Shamdin»، غرانتا، 19 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
12. نوزت شمدين، «الصحفيون أبرز ضحايا الانهيار الأمني في الموصل»، نقاش، 10 تشرين أول/ أكتوبر 2013.
13. «داعش يرعب أهالي الموصل»، نقاش، 7 تشرين ثاني/ نوفمبر 2013.
14. مساعد وزير الخارجية الأمريكي بريت ماكغورك، «House Foreign Affairs Committee Hearing: Terrorist March in Iraq: the U.S. Response»، واشنطن، 23 تموز/ يوليو 2014:
http://docs.house.gov/meetings/FA/FA00/20140723/102485/HHRG-113-FA00-Wstate-McGurkB-20140723.pdf
15. «داعش يرعب أهالي الموصل»، نقاش، 7 تشرين ثاني/ نوفمبر 2013.
16. المرجع نفسه.

17. داود العلي، «القوة تكمن في درع الإسلام»، نقاش، 10 تموز/ يوليو 2014.
18. «شهر عسل مؤقت بين داعش ومواطني نينوى!»، نقاش، 12 حزيران/ يونيو 2014.
19. داود العلي، «القوة تكمن في درع الإسلام»، نقاش، 10 تموز/ يوليو 2014.
20. مارتين تشولوف، فاضل حورمي وسبنسر أكرمان «Iraq army capitulates to Isis militants in four cities»، الغارديان، 12 حزيران/ يونيو 2014.
21. المرجع نفسه.
22. المرجع نفسه.
23. إيزابيل كول، نيد باركر ورحيم سلمان، «How Mosul fell – An Iraqi general disputes Baghdad's story»، رويترز، 14 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
24. كريس شيفرز، «After Retreat, Iraqi Soldiers Fault Officers»، نيويورك تايمز، 1 تموز/ يوليو 2014.
25. وسيم باسم، «Corruption, 'ghost contractors' sink Baghdad after rains»، المونيتور، 12 كانون أول/ ديسمبر 2014.
26. «Iraqi soldiers who fled ISIS advance accuse officers of treason»، الشرق الأوسط، 14 حزيران/ يونيو 2014.
27. مصطفى حبيب، «من يقف وراء انسحاب الجيش من الموصل وتسليمها إلى داعش؟»، نقاش، 15 حزيران/ يونيو 2014.
28. هيرميون غي، «Fleeing residents of Mosul take refuge in Kurdistan»، دويتشه فيله، 12 حزيران/ يونيو 2014.
29. زانكو أحمد، «مسؤول فرع الحزب الديمقراطي في الموصل: المالكي أراد سقوط المدينة»، نقاش، 11 حزيران/ يونيو 2014.
30. إنغا روغ، «Letzte Ausfahrt vor dem Isis-Staat»، تاغيستسايتونغ، 23 حزيران/ يونيو 2014.
31. بيرغيت سفينسون، «ISIS sei Dank? Sonnenaufgang für Kurdistan: Noch nie war ein eigener Staat so nah wie heute»، الجمعية الدولية للشؤون السياسية، 24 حزيران/ يونيو 2014.
32. مارتين تشولوف، «Iran sends troops into Iraq to aid fight against Isis militants»، الغارديان، 14 تموز/ يوليو 2014.
33. «شهر عسل مؤقت بين داعش ومواطني نينوى!»، نقاش، 12 حزيران/ يونيو 2014.
34. «داعش يعيد حزب البعث إلى الواجهة»، نقاش، 13 حزيران/ يونيو 2014.
35. «Interview with Nawzat Shamdin»، غرانتا، 19 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.

36. سـامر ن. يعقوب، «ISIS destroys another historic Mosul mosque»، ديلي ستار، 28 تموز/ يوليو2014.
37. غالبـاً ما يقال إن تهريب الآثار هو أحد أهم المصادر المالية بالنسـبة لـ «الدولة الإسـلامية»، وثمة اعتقاد أيضاً أن داعش يبيع قطعاً أثرية من الحفريات أو من المتاحف بطرق غير شرعية إلى الخارج. ومع ذلك لم يتمكن معدو تقرير لمجلس الأمن الدولي حتى شـهر تشرين ثاني/ نوفمبر 2014 من إثبات أية عملية بيع وحيدة، ومن المحتمل أن يكون سبب ذلك هو قيام سـماسرة بتخزين القطع الأثرية والانتظار حتى يهدأ الاهتـمام الدولي، انظر أيضاً: «Letter dated 13 November 2014 from the Chair of the Security Council Committee pursuant to resolutions 1267 (1999) and 1989 (2011) concerning Al-Qaida and associated individuals and entities addressed to the President of the Security Council, S/2014/815»، 14 تشريـن ثـاني/ نوفمبر 2014، صفحة 24.
38. «ISIS Orders All Christian, Shiite Business Assets to Be Delivered to the Islamic State»، AINA News، 16 أيلول/ سبتمبر 2014.
39. «Convert, pay tax, or die, Islamic State warns Christians»، الغارديـان، 18 تموز/ يوليو2014.
40. ليـلى فاضـل، «Saddam's Ex-Officer: We've Played Key Role In Helping Militants»، NPR، 19حزيران/ يونيو2014.
41. ماغـي فيـك وأحـمـد رشـيد، «ISIS rounds up ex-Baathists to eliminate likely rivals»، ديلي ستار، 9 تموز/ يوليو2014.
42. يوديـت نورينـك، «Mosul Residents Fed Up With IS»، رووداو، 25 آب/ أغسطس2014.
43. «Caliphornia dreamin»، إيكونوميست، 12 تموز/ يوليو 2014.
44. «The slow backlash: Sunni religious authorities turn against Islamic State»، إيكونوميست، 6 أيلول/ سبتمبر 2014.
45. مايـكل موتـوت ومايـكلماينفيـل، «ISIS, Al-Qaeda rivalry could spark dangerous contest»، ديلي ستار، 2 تموز/ يوليو 2014.
46. بن هوبارد، «ISIS reatens Al Qaeda as Flagship Movement of Extremists»، نيويورك تايمز، 30 حزيران/ يونيو 2014.

7 - القاعدة كانت بالأمس

1. فاطمة مرنيسي، *Women's Rebellion and Islamic Memory*، لندن 1996، صفحة 68.
2. أدرج أيمن الظواهري هذا المفهوم في كتابه فرسان تحت راية النبي، 1996.
3. لورانس رايت، *Der tod wird euch finden. Al-Qaida und der Weg zum 11. September*. ميونيخ 2008، صفحة 413.
4. المرجع نفسه، صفحة 490.
5. هانس يانزن، *Mohammed. Eine Biographie*، ميونيخ 2008، صفحة 196.
6. لورانس رايت، *Der Tod wird euch finden. al-Qaida und der Weg zum 11. September*، ميونيخ 2008، صفحة 499.
7. أبو محمد العدناني: «عذراً أمير القاعدة»، مؤسسة الفرقان الإعلامية، يمكن الاستماع إلى التسجيل عبر الرابط: https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/12/new-audio-message-by-isis-shaykh-abu-muhammad-al-adnani-as-shami-apologies-amir-al-qaida/

8 - على جبل الإيزيديين

1. «Iraq IDP Crisis: Sinjar Displacement»، ريتش، آب/ أغسطس 2014.
2. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: http://youtu.be/fuCJG3k3mTs
3. رالف هوبه، «Neun Tage Kalifat»، شبيغل، 13 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
4. «Escape from hell. Torture, sexual slavery in Islamic State captivity in Iraq»، منظمة العفو الدولية، كانون أول/ ديسمبر 2014.
5. المرجع نفسه.
6. كريستسن فان دين تورن «Her Five Sisters Taken by ISIS to be Sold or Worse»، ديلي بيست، 1 آب/ أغسطس 2014.
7. ويليام أ. ياكوبسون، «No, this is not a photo of women being sold in Mosul»، *Legal Insurrection*، 19 آب/ أغسطس 2014.

8. سانسكريتي سينها، «Shia Muslims Practice Self-Flagellation and Walk on Fire Prior to Ashura»، *International Business Times*، 5 كانون أول/ ديسمبر 2011.
9. هيذر ساول، «ISIS' ›price-list‹ for captured Yazidi girls being sold as slaves dismissed as fake propaganda»، أندبندنت، 7 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
10. أشوكا جيغرو، «Fake ISIS Rumors & Why They Hurt The Fight Against ISIS»، *Wild Flowers*، 10 آب/ أغسطس 2014.
11. «Isis orders all women and girls in Mosul to undergo FGM, says UN»، الغارديان، 24 تموز/ يوليو 2014.

9 - من يقطع الرؤوس يحظى بالمصداقية

1. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=RN3ktXbLzlY
2. بولي موزندز، «ISIS Captive John Cantlie Appears in New Propaganda Video»، نيوز ويك، 5 كانون ثاني/ يناير 2015.
3. بيل غاردنر، «Foley murder video ›may have been staged‹»، تلغراف، 25 آب/ أغسطس 2014.
4. «Media Forensics Experts Analyzing ISIS Video In Denver»، سي بي سي دنفر، 3 أيلول/ سبتمبر 2014.
5. تمكن مشاهدة الفيديو عبر الرابط: http://youtu.be/fuCJG3k3mTs
6. روبرت ماكاي، «The Case for ISIS, Made in a British Accent»، نيويورك تايمز، 20 حزيران/ يونيو 2014.
7. بن هوبارد وسكوت شين، «ISIS Displaying a Deft Command of Varied Media»، نيويورك تايمز، 30 آب/ أغسطس 2014.
8. برافين سوامي، «Al-Qaeda declares new front to wage war on India, calls for jihad in the subcontinent»، إنديان إكسبريس، 4 أيلول/ سبتمبر 2014.
9. كريستوف غونتر، *Ein zweiter Staat im Zweistromland? Genese und Ideologie des 'Islamischen Staates Irak'*، لايبزيغ 2014، صفحة 173.

10. ماري أستريد لانغر، «Enthaupthung vor einem Millionenpublikum»، نويه تزوريشر تسايتونغ، 22 آب/ أغسطس 2014.
11. إيان كوبين وشيف مالك، «Isis hostage delivers propaganda message: Capture photojournalist in scripted adress to west: Video focuses on media and payment of ransoms»، الغارديان، 19 أيلول/ سبتمبر 2014.
12. كاهال ميلمو، «Isis jihadists using World Cup and Premier League hashtags to promote extremist propaganda on Twitter»، أندبندنت، 22 حزيران/ يونيو 2014.
13. «ISIS Jumping from Account to Account, Twitter Trying to Keep Up»، *Recorded Future*، 3 أيلول/ سبتمبر 2014.
14. أنور العولقي، زعيم القاعدة في اليمن المولود في اليمن، سبق له أن بدأ أيضاً باستقطاب الجمهور الأجنبي من خلال صفحة فيسبوك ومجلة *Inspire* الصادرة بالإنجليزية، ولكنه لم يحقق نجاحاً كالذي حققه داعش، عندما قتلته طائرة أمريكية بدون طيار في عام 2011.
15. شيف مالك، ساندرا لافيل، إيلينا كريسكي وعائشة غاني، «Islamic State: Isis hijacks Twitter hashtags to spread extremist message»، الغارديان، 25 أيلول/ سبتمبر 2014.
16. جي. إم. بيرغر، «How ISIS Games Twitter»، أتلانتيك، 16 حزيران/ يونيو 2014.
17. المرجع نفسه.
18. «Human Rights Watch wirft ISIS Kriegsverbrechen vor»، موقع شبيغل الإلكتروني، 27 حزيران/ يونيو 2014.
19. آرون ي. زيلين، «The Massacre Strategy: Why ISIS brags about its brutal sectarian murders»، بوليتيكو، 17 حزيران/ يونيو 2014.
20. «Der Gottesstaat vor Europas Haustür – ISIS errichtet Staat in Syrien und im Irak»، *RTL*، 5 كانون ثاني/ يناير 2014.
21. «Majority of IS civilian victims in Syria are reportedly Sunnis»، Middle East Eye، 17 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
22. https://www.facebook.com/wissam.ali.33/posts/978270168857028
23. سباستيان ماير وأليسيا ب. ك. فيتهاير، «How to Take a Picture of a Severed Head»، مجلة فورين بوليسي، 9 آب/ أغسطس 2014.
24. المرجع نفسه.
25. المرجع نفسه.

26. «The Islamic State، Vice، 26» كانون أول/ ديسمبر 2014، تمكن مشاهدة الفيديو على الرابط:
https://news.vice.com/video/best-of-vice-news-2014-the-islamic-state-full-length
27. فريدريك بلايتغن، «Author's journey inside ISIS: They're ›more dangerous‹ than people realize»، سي إن إن، 4 كانون ثاني/ يناير 2015.
28. يورغن تودينهوفر، «IS ist in rauschartiger Stimmung»، فيلت *(Welt)*، 18 كانون أول/ ديسمبر 2014.

10 - النسخة العربية لكوريا الشمالية

1. من الصعب تحديد المساحة التي يسيطر عليها داعش فعلياً، ولهذا السبب أصبح هذا الأمر محل جدل سياسي. ثمة أمر واقع: تتكون أجزاء واسعة من «دولة الخلافة» من صحراء، خالية من القرى والمدن والطرقات ومساحات لا قيمة لها. ولكن، لأن داعش يسيطر على الطرقات المؤدية إلى هذه المساحات، فمن التشويه للحقائق ألا تُحسب تلك المساحات. وحسب صحيفة واشنطن بوست فإن مساحة تلك الصحارى بما فيها من حجم «الدولة الإسلامية» في خريف عام 2014 بلغ 244000 كيلومتر مربع (81000 ميل مربع)، وهذه المساحة تعادل مساحة بريطانيا: ريك نواه، «Here's how the Islamic State compares with real states»، واشنطن بوست، 12 أيلول/ سبتمبر 2014.
2. «Al Qaeda In Yemen»، فرونت لاين، KPBS، 24 أيار/ مايو 2012.
3. غيث عبد الأحد، «Syria's oilfields create surreal battle lines amid chaos and tribal loyalties»، الغارديان، 25 حزيران/ يونيو 2013.
4. ليز سلاي، «Syria tribal revolt against Islamic State ignored, fueling resentment»، واشنطن بوست، 20 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
5. «Islamic State turns radical Islam on Syria Muslims»، رويترز، 26 آب/ أغسطس 2014.
6. ليز سلاي، «Syria tribal revolt against Islamic State ignored, fueling resentment»، واشنطن بوست، 20 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
7. دافيد غارتن - روس، «The Islamic State's stalled offensive in Anbar Province»، وور أون ذا روكس، 25 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.

8. «Islamic State turns radical Islam on Syria Muslims»، رويترز، 26 آب/ أغسطس 2014.
9. جوانا باراتشوك، «What are the ›Chechen Jamaats‹ in the Islamic State?»، From Chechnya To Syria، 11 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
10. أبو إبراهيم الرقاوي، «ISIS youth recruitment camps flourish in Al-Raqqa»، الرقة تُذبح بصمت، 9 كانون ثاني/ يناير 2015.
11. أبو محمد، «Raqqa a year under control of ISIS»، الرقة تُذبح بصمت، 12 كانون ثاني/ يناير 2015.
12. المرجع نفسه.
13. دبليو. جي. دنلوب، «ISIS uses kids in propaganda targeting next generation»، ديلي ستار، 17 كانون ثاني/ يناير 2015.
14. أبو إبراهيم الرقاوي، «Prisoners in their own City: ISIS bans women under 45 from leaving Raqqa»، الرقة تُذبح بصمت، 20 كانون ثاني/ يناير 2015.
15. بيل غاردنر، «Lol – my husband's dead«: British female jihadi»، تلغراف، 2 كانون أول/ ديسمبر 2014.
16. أنابيل وهبة ويانا سيمون، «Und packt die Babyflaschen ein!»، تسايت، 19 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
17. المرجع نفسه.
18. «Caliphate calling»، إيكونوميست، 28 شباط/ فبراير 2015.
19. «Female jihadis publish guide to life under Islamic State»، الغارديان، 5 شباط/ فبراير 2015.
20. «Aleppo women complain ISIS burns their coats»، كلنا شركاء، 3 كانون أول/ ديسمبر 2014.
21. أحمد هادي، «حرب الرايات سلاح داعش للإيقاع بالحلف الدولي»، نقاش، 9 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
22. آرون ي. زيلين، «Guest Post: Manbij and The Islamic State's Public Administration»، *Jihadology*، 27 آب/ أغسطس 2014.
23. كريم فهيم، «Government allies are said to have slaughtered dozens of sunnis in Iraq»، نيويورك تايمز، 29 كانون ثاني/ يناير 2015.
24. رفائيل ساتر، «Botched cyberattack on Syria group blamed on IS»، أسوشيتد برس، 18 كانون أول/ ديسمبر 2014.

11 - مستعمرات الخلافة

1. جي. إم. بيرغر، «The Islamic State's Irregulars»، مجلة فورين بوليسي، 23 كانون أول/ ديسمبر 2014.
2. ماغنوس رانستورب، لينوس غوستافسون وبيدر هيلينغرين، «From the Welfare State to the Caliphate: How a Swedish suburb became a breeding ground for foreign fighters streaming into Syria and Iraq»، مجلة فورين بوليسي، 23 شباط/ فبراير 2015.
3. رانيا سلوم، «Attentat auf 'Charlie Hebdo': Frankreichs brüchige Einheit»، موقع شبيغل الإلكتروني، 8 كانون ثاني/ يناير 2015.
4. سيرغي لافروف، «Charlie Hebdo attackers trained in Syria»، سانا، 14 كانون ثاني/ يناير 2015.
5. في شهر كانون ثاني/ يناير، وبعد حدوث اعتداءات باريس مباشرة، تمكنت السلطات البلجيكية من منع حدوث اعتداءات مشابهة في اللحظة الأخيرة، والسبب يعود إلى أن الرجال الذين كانوا سينفذون الهجمات كانوا مراقبين؛ لأنهم كانوا عائدين من سوريا. وكانت منازلهم وسياراتهم تخضع للتجسس، بحيث كانت السلطات على علم مسبق بمخططاتهم.
6. «'Gang warfare' is disillusioning UK fighters in Syria»، *Middle East Eye*، 17 أيلول/ سبتمبر 2014.
7. يورغ ديل ويوناس – إيريك شميدت، «Deutscher Dschihadist Denis Cuspert: Fünf Stationen auf dem Weg zum IS-Terroristen»، موقع شبيغل الإلكتروني، 10 شباط/ فبراير 2015.
8. ديفيد د. كيركباتريك، «Militant Group in Egypt Vows Loyalty to ISIS»، نيويورك تايمز، 10 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.

12 - السائرون أثناء النوم

1. «Sixteen ISIL militants in Turkish prisons»، Hürriyet، 20 تشرين ثاني/ نوفمبر 2014.
2. يوسف الشريف، «Syria-Turkey extremist trafficking exposed»، ناو ليبانون (مأخوذ عن الحياة)، 20كانون ثاني/ يناير 2015.
3. «ISIL using ammunition produced by Turkey»، *Today's Zaman*، 9 أيلول/ سبتمبر 2014.
4. من حيث المبدأ، من السهل أيضاً عبور الحدود السورية إلى لبنان وإلى العراق بمساعدة مهربين. ولكن للوصول إلى الحدود يتعين على كل مسافر في لبنان كما في العراق المرور بمطار يقع في مناطق كردية أو شيعية، وهذا الأمر غير محبذ بالنسبة للجهاديين السنة.
5. وزارة الخزانة الأمريكية، «Treasury targets networks linked to Iran»، 6 شباط/ فبراير 2014، انظر: https://www.treasury.gov/press-center/press-releases/Pages/jl2287.aspx
6. بيل روجيو، «Iran owes al Qaeda invaluably، ISIS spokesman says»، لونغ وور جورنال، 12 أيار/ مايو 2014.
7. gjohnsit، «What is the difference between ISIS and our Iraqi allies? Not much»، ديلي كوس، 23 تشرين أول/ أكتوبر 2014.
8. علي خضيري، «Iraq's Last Chance»، نيويورك تايمز، 15 آب/ أغسطس 2014.
9. مارتين تشولوف، «Lack of political process in Iraq 'risks further gains for Isis'»، الغارديان، 18 كانون ثاني/ يناير 2015.
10. باربرا سلافين، «Shiite militias mixed blessing in Iraq, Syria»، المونيتور، 9 شباط/ فبراير 2015.
11. ليز سلاي، «Iraq's pro-Iranian Shiite militias lead the war against the Islamic State»، واشنطن بوست، 15 شباط/ فبراير 2015.
12. فؤاد الإبراهيم، «Why ISIS is a threat to Saudi Arabia: Wahhabism's deferred promise»، الأخبار، 22 آب/ أغسطس 2014.

منتدى العلاقات العربية والدولية